

# المجتمع والحياة

دراسة على ضوء الكلم الطيب

الجزء الأول

تأليف

الدكتور/ علي عبد المنعم عبد الحميد

الأستاذ بجامعة الكويت

---

الناشر

دار طيبة للنشر والتوزيع

والتجهيزات العلمية

الترقيم الدولي 977-6102-38-7  
رقم الإيداع 2007/21099

## المجتمع والحياة ج 1

تأليف: د. على عبد المنعم عبد الحميد

© حقوق النشر والتوزيع محفوظة لدار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية – 2007  
23 شارع الفريق محمد ابراهيم - متفرع من مكرم عبيد – مدينة نصر القاهرة ج.م.ع  
تليفون : 2725312-2725376-6706912 (02)  
فاكس : 6706912(02)

لا يجوز نشر أى جزء من الكتاب أو إعادة طبعه أو اختصاره بقصد  
الطباعة أو اختزان مادته العلمية أو نقله بأى طريقة سواء كانت  
الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة كتابية من  
الناشر مقدماً .

قال الله تعالى :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ  
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي  
ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(سورة الجمعة آية : ٢) .

obeikandi.com

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كراه الكافرون ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق المبعوث رحمة للعالمين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن سلك طريقهم ، ونسج على منوالهم ، وسار على نهجهم مخلصاً إلى يوم الدين .

أما بعد - فقد شغفت حبا بمطالعة كتب الحديث الشريف المشتملة على صحيح ما روى عن سيدنا رسول الله ﷺ قولاً وتقريراً وعملاً ، ولدى دراستى العالية بالأزهر الشريف هالتي بل أثلج صدرى ما لمست من شدة عناية العلماء المخلصين لله تعالى ورسوله الكريم ، الذين وقفوا حياتهم العلمية على جميع الأحاديث ، بإخراجها نقية صافية بعيدة عن كل شبهة تدليس أو تليس ، أو كذب أو افتراء ، مع مراعاة فائقة الوصف لتحرير المتن ، ودقة متناهية فى غربلة السند ، ولاسيما ما سطر فى الصحاح ، وفى قمتها ما أورده الشيخان الجليلان البخارى ومسلم ، أجزل الله ثوبتهما فى الجنة جزاء وفاقا لقاء ما جهدا فى سبيل إعزاز سنة رسوله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، والتأى بها عما يشينها من وضع أو تحريف أو تصحيف ، وتقديمها للدارسين نقية بيضاء ، سهلة المأخذ ، دانية القطوف ، طيبة الجنى ، ميسورة التناول ، لكل راغب من طلاب العلم ، ورواد الحقيقة المفلحين .. وهذا لا يغمط الآخريين من جامعى الكلم حقوقهم ، ولا يغض من جهودهم ، وإنما التفاوت فى النقل والضبط والإتقان فى هذا الميدان الكريم معروف غير مجهول ، ومدرك غير بعيد ، ولكل درجات مما عملوا .

وقد سلك علماء الملة السابقون - والفضل للسابق على أى حال - طرقا خاصة

فى شرح السنة الشريفة ، وكانت شروحهم مناسبة لأعصرهم ، ونافعة لها كل النفع ، وهى ليست ببعيدة عن متناول زماننا ، غير أن جدة الأحداث ، وتطور المجتمعات ، جعله أسلوبا متسما بشيء من الغرابة بالنسبة لناشئة عصرنا ، وخاصة الذين لم تسبق لهم دراسة علوم الشريعة . ولم يشبوا فى كنفها ، ولم يمرنوا على مزاولة أساليب كتبها ، وزاد الأمر مساسا إلى شرح مناسب ، عدوان الأفكار الوافدة من خارج ديار المسلمين ، بالقول البعيد عن الصواب فى حق السنة الطاهرة ، وأنها لا تمثل الواقع الآتى ولا تجرى مع الزمان فى سيره الدائب ، فأردت - واللله وحده المستعان - أن اكتب شرحا متواضعا ، على قدر جهدى الضعيف ، يتناول أحدث مجتمعاتنا المعاصرة ، مظهرًا بما لا يقبل الجدل ، ويعلو على الممارسة أن طب هذه المجتمعات وغيرها مهما تقلبت بها العصور ، وما وصلت إليه من حضارات ، وما تعاون عليها من ثقافات ، ودب خلال أوديتها من رقى وتقدم مادي ، وما طلع على أهلها من شمس المعارف ، قد حققته سنة رسول الله ﷺ ، وقد اخترت للدراسة ما هدانى الله تعالى إليه من الأحاديث الشريفة ، التى تبنى المجتمعات الفاضلة ، فى كل عصر ومصر ، إذ الحق الذى لا يمارى فيه عاقل يقدر نفسه قدرها ، ويعرف لها حقها ، هو أن الإسلام فى كتابه المعجز ، وسنة رسوله العظيم ، قد رسم الخطة المثلى للمجتمع الزاهر بالخير والعدالة ، الحافل بالحب والتكافل ، المتماسك بالتعاون على البر والتقوى ، معرجا على أسباب الانحرافات الشائنة ، المنهكة لقوى الأفراد والجماعات ، مقفيا بوسائل علاجها ، موضعا أسس نمو الحياة الحرة الكريمة وازدهارها ، فأعطى الإنسانية فى هذا المجال من السعادة والفلاح ، والسؤدد والنجاح ، ما لا يمكن أن ترقى إليه مدارك المفكرين ، فهم رغم جهودهم المشكورة ، لم يقاربوا ما جاء فى توجيهات رسول الله ﷺ ، ولم يدانوه ، مهما طال بهم المقام واتسع المقال ، وكيف !؟ وهو عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ...

ولعلى لا أعدو الحقيقة ، ولا أبعد عن الواقع ، ولا أتجاوز الحد المرسوم حين أدعو القارئ الكريم إلى إمعان النظر وتدقيقه فى بعض ما ورد من قول فى الدراسات الآتية :

- (١) صمام أمن الحياة .
- (٢) تنفيس الكرب .
- (٣) منهج الحياة المثالي .
- (٤) تحريم الظلم .
- (٥) روابط الأسرة .

وكثير غيرها مما تحكيه السنة الشريفة في مختلفة المجالات الحياتية للمجتمع الإنساني ، ليدرك أن الإسلام في أصوله النقية دين شامل لكل خير ، داع إلى البر ، ساهر على إسعاد البشر ، حامل مشعل الحياة الفاضلة لتسير على هداه القافلة مترابطة متماسكة في كل أدوار حياتها ، مهما تعاقبت العصور واختلفت الدور ، ففي القرآن والسنة علاج لكل مشكلة ، وتفريج لكل كرب ، والبلسم الشافي لكل داء ، والسيف الباتر لأنواع الفساد ، والضياء المبدد للحوالك ، والتوجيه المشتمل على سبل السعادة والسلام ، وليس هذا إلقاء للقول على عواهنه ، وإنما هو الحق الذى لا ريب فيه ، والدعوة الخالصة الصادقة ، المتمحضة لوجه الله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية ١٠٨ من سورة يوسف .

وها أنذا أقدم للقارئ الكريم ، الجزء الأول ، من الكلم الطيب مشروحاً بما من الله سبحانه وتعالى به من فهم وإدراك أرجو أن يكون صواباً ، مبتهلاً إلى رب القوى والقدر أن يعيننى بمدد من فضله على المضى قدما فى دراسة درر سيدنا وحبينا رسول الله محمد ﷺ كما أضرع إليه تعالى أن يتفجع به كل من اطلع عليه ، وأن يوجه سبحانه بقدرته وحكمته ولطفه القلوب إلى الإسلام الصحيح الصافى النقى ، حتى يعم السلام ، ويدوم التراحم ، ويقضى على ويلات البشر ، ويعيش الجميع فى ظلال رحمة من الله ورضوان .

**دكتور**

**على عبد المنعم عبد الحميد**

**من علماء الأزهر الشريف**

## وحاصل على الدرجات العلمية :

- ١- دكتوراه فى الفلسفة (اتنولوجيا) من جامعة باريس بتقدير جيد جداً .
- ٢- دكتوراه دولة فى الآداب والعلوم الإنسانية من (السيربون) بفرنسا مع مرتبة الشرف الأولى .
- ٣- أستاذ التفسير والحديث والعقيدة بجامعة الكويت .

## السنة والبدعة

قال رسول الله ﷺ (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)

متفق عليه

- (١) تعريف السنة والبدعة والفرق بينهما .
- (٢) تدوين السنة وعلومها .
- (٣) أدب السنة والحديث .

### الفصل الأول

#### (١) التعريف :

ورد لفظ (السنة) في اللغة العربية بمعنى الطريقة مطلقاً مرضية كانت أو غير مرضية . وعند علماء الأصول هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته<sup>(١)</sup> .

وعند علماء القفة هي المطلوب طلباً غير جازم ، أى ما يشاب على فعله ولا يعاقب على تركه .

وعند علماء الحديث هي كل ما أثر عن النبي ﷺ .

وتعرف في الشرع تعريفاً عاماً بمعنى ما يقابل (البدعة) فيقال ، هي الطريق المسلوكة في الدين ، بأن سلكها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون والسلف الصالح من بعدهم ، وبهذا المعنى تشمل الواجب والمندوب والمباح سواء كانت من قبيل الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات .

أما البدعة فهي (في الإطلاق اللغوي العام) كما قال الشاطبي في الاعتصام أصل مادة (بدع) للاختراع على غير مثال سابق ، ومنه قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى مخترعهما على غير مثال سابق ، وقوله سبحانه : ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ

(١) معنى تقرير الرسول ﷺ لصاحبه ، وهو أن يرى أو يعلم بعض أفعالهم فيقرهم عليها ولا ينههم عنها .

الرُّسُلِ) أى ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد بل تقدمنى كثير من الرسل ، ويقال ابتدع فلان بدعة يعنى ابتداء طريقة لم يسبقه إليها سابق ، فاستخراج البدعة للسلوك عليها هو الابتداع ، وهيئتها هي (البدعة) .

والبدعة والابتداع من الأمور التى ينشأ عنها تطور الوجود فى كل شىء فالبقاء على حال مستقرة محال ، وهى فى المحال العام لازمة للحياة الأفضل دائماً كتطور الصناعات ، وتعدد المخترعات فى كل وسائل الحياة الإنسانية ، وما الحضارة التى نرى إلا نتيجة للابتداع والاختراع المتكرر ، وهذا عمل يحث عليه الإسلام لأنه يحمل على الأخذ بالأفضل دائماً فى كل الأمور .

وأما البدعة التى حذر منها رسول الله ﷺ وقال فيها يوماً : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار) فالمقصود منها اختراع شىء فى أصول الدين لم يكن على عهد رسول الله ﷺ ، وذلك لأن الأصول الدينية قد تكاملت وتركها رسول الله على المحجة البيضاء غير قابلة للنقص ولا الزيادة ، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾<sup>(١)</sup> .

ولهذا عرفوا البدعة شرعاً : بأنها طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشريعة يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية ..

وينسب إلى الإمام مالك وأصحابه ، وجرى عليه الشاطبي فى الاعتصام تعريف البدعة بأنها : ما أحدث بعد النبى ﷺ على أنه دين وشرع ، بأن يجعل من الدين ما ليس منه ، بناء على تأويل أو شبهة غير معتمد بها .

فالمبتدع متبع هواه ، ولا تكون البدعة على هذا التفسير إلا مذمومة .

فالخلاصة : أن الكلام فى الدين وأصوله تقبل فيه سنة رسول الله ﷺ ، وترفض البدعة ، فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

(١) الآية الثالثة من سورة المائدة .

## (٧) تدوين السنة وعلومها :

- ( أ ) فى عهد الرسول ﷺ .  
( ب ) فى عهد الصحابة .  
( ج ) فى عهد التابعين .  
( د ) فى العصور التى تلت .

### ( أ ) فى عهد الرسول ﷺ :

يجمع الباحثون فى هذا الموضوع على أن رسول الله ﷺ نهى صحابته عن كتابة الأحاديث ، ثم عاد فأجازها ، وتفصيل ذلك : أنه لما كان القرآن الكريم هو المصدر الأول فى الإسلام للعقيدة والتشريع أولاه الرسول عليه الصلاة والسلام كل عنايته ، ووجه إليه اهتمام صحابته ، فحفظوه فى صدورهم وقيدهه كتابة فى الرقاع المتخذة من الجلود ، والسعف ، وعلى الحجارة والعظام ، ولم يدعوا فرصة تمر دون أن يسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام عما خفى عليهم من أحكامه وتشريعاته ، فعرفوه وفقهوه وحفظوه جملة وتفصيلاً ، ونظراً للأهمية البالغة التى توجب الحفاظ على آى القرآن نقية بعيدة عن شبهة الاختلاط بكلام آخر ولو كان كلام الرسول نفسه ، نهى رسول الله ﷺ صحابته عن تدوين الأحاديث كتابة ، وأمرهم بالاعتصار على كتابة القرآن وحده ، وفى هذا يقول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى : ( لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب شيئاً فليمحاه ) .. ولم يكن هذا النهى مانعاً لبعض الصحابة الذين يجيدون الكتابة أن يتخذوا لأنفسهم صحفا خاصة يسجلون فيها ما يسمعون من الرسول عليه السلام ، وقد حدث هذا فعلاً فاتخذ عبد الله بن عمرو بن العاصى صحيفة كانت تسمى (الصادقة) لدقة ما ورد فيها ، وقد أخرج الإمام أحمد ، والبيهقى فى المدخل عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : ( ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاصى فقد كان يكتب ولا يكتب ) .. وكتابة عمرو استرعت أنظار بعض الصحابة الذى قالوا له : ( إنك تكتب عن رسول الله ﷺ كل ما يقول ، ورسول الله قد يغضب ، فيقول ما لا يتخذ شرعاً عاماً ) . فرجع ابن عمرو إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ : ( اكتب عنى فوالذى نفسى بيده ما خرج من فمى إلا حق<sup>(١)</sup> . ومعنى إذنه

(١) ابن عبد البر جامع بيان العلم ٧٦/١ .

عليه الصلاة والسلام لابن عمرو بالكتابة أنه نسخ نهيه الأول لزوال المانع ، وقال العلماء في هذا : (أن النهي خاص بمن لا يؤمن عليه الغلط والخلط بين القرآن والسنة ، أما الإذن فهي خاص بمن آمن عليه ذلك)<sup>(١)</sup> ، ووجدت صحائف أخرى لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم مثل سعد بن عبادة الأنصاري وعبد الله بن أبي أوفى وسمرة بن جندب ، وجابر بن عبد الله ، وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ... إلخ .

### (ب) عهد الخلفاء الراشدين :

ولما ولي أبو بكر رضي الله أمر المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ تشدد كثيرا في الرواية وتورع عن الكتابة ، ويذكر مؤلف (تذكرة الحفاظ) أنه أي أبا بكر جمع الأحاديث المكتوبة وأحرقها ، ولما جاء بعده عمر رضي الله عنه مال إلى أن يكتب الحديث ، ولكن غلب عليه الخوف من اختلاطه بالقرآن ، أو انصراف المسلمين عن القرآن إلى حفظ الأحاديث المكتوبة فعدل عن الأمر بالكتابة وقال : (إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله فانكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا وقال الخطيب البغدادي : (أن سبب كراهة من كره الكتابة من الصدر الأول إنما هو الخشية من أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره أو يشتغل عنه بسواه .

### (ج) عهد التابعين :

ولما كان رسول الله ﷺ يكرر في خطبه دائما وخاصة في حجة الوداع قوله : (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب) تفانى الصحابة في نشر وصاياه وأوامره وتشريعاته بين الناس ، وظل كبار التابعين ممتنعين عن الكتابة والتقييد ، ولكن في أوائل المائة الثانية من الهجرة الشريفة بدأ البعض يميل إلى التدوين خوفا من ضياع السنة بموت حملتها ، ففي سنة ١٠١ هـ أصدر عمر بن عبد العزيز أمرا بتدوين الحديث مستندا إلى آراء كبار علماء الشريعة في عهده الذين أيدوا هذا الأمر ونفذوه عمليا ، وفي طبقات ابن سعد (أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن

(١) الدكتور السباعه ، السنة ومكاتها في التشريع الإسلامي ٩ .

محمد بن حزم ما نصه : ( انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية فاكتبه فإنني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله ) وكان عمر قد كتب إلى الأمصار بمثل ما كتب به إلى ابن حزم ، وكان أول من استجاب له في حياته وحقق غايته عالم الحجاز والشام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المدني المتوفى سنة ١٢٤ هـ الذي كان له كتاب فغدا عمر يبعث إلى كل ارض دفترا من دفتاره ، وكان الزهري يفخر قائلاً : ( لم يدون هذا العلم أحد قبلي ) ويبدو أن الداعي الأقوى إلى التدوين في هذا العصر هو انتشار وضاعى الحديث ، والقصاص الذين كانوا يعظون الناس ويخوفونهم بأحاديث غير صحيحة النسبة إلى رسول الله ﷺ فقد خشى العلماء على أحاديث الرسول أن تختلط بغيرها من المقتربات وصار من الضروري لديهم أن يكتب الحديث الصحيح وبدأ التدوين في تلك الحقبة مخلوطا بفتاوى الصحابة والتابعين كما ورد في موطأ الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ .

#### ( د ) العصور التي تلت :

وعلى رأس المائتين بدأ تدوين المسانيد خالية من الفتاوى ( وأول من كتب مسنداً خالياً من الفتاوى هو أبو داود الطيالسي ٢١٤ هـ ، ومن أرقى المسانيد مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٤١ هـ ، ولم تدون السنة الصحيحة وحدها مرتبة على أبواب إلا في عصر أتباع التابعين ممن عاصروا البخاري ، وأما من جاء بعدهم من المتأخرين عن هذا العصر فغالبا ما قاموا به هو التهذيب والشرح واختصار الكتب الصحيحة المشهورة ) .

#### علوم السنة :

( ١ ) انتشار الأحاديث الدخيلة (الموضوعة) وأسبابه .

( ٢ ) عناية المسلمين بأمر السنة .

( ٣ ) ظهور علم الحديث رواية ، ودراية (مصطلح الحديث) .

( ١ ) انتشار الأحاديث الدخيلة (الموضوعة) وأسبابه .

منذ مقتل عثمان ؓ لم يجمع المسلمون على خليفة له ، ونشب نزاع شديد بين

علي ومعاوية تطور إلى قتال سالت فيه دماء المسلمين الذكية بغزارة ، وصار لكل منهما مناصرون ، وتفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً ، وبذل كل فريق ما استطاع لنصرة ما يواليه ، وبدأوا يخترعون أقوالاً ينسبونها إلى رسول ﷺ تؤيد في نظرهم ما يرمون ، وكان هذا إيذاناً بالتزيد على رسول الله ، ونسبة ما لم يقله وما لم يفعله إليه ﷺ .

وبلاحظ أن الحقبة التي عاش فيها كبار الصحابة كابن عمر وابن عباس لم يتغشاها الفساد بالصورة التي انتشر بها بعدهم لأن هؤلاء الأصحاب كانوا يقفون بالمرصاد لكل من يتزيد في فعل أو قول ، فهذا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول في الحجاج بن يوسف ( ... عدو الله ، استحل حرم الله ، وخرّب بيت الله ، وقتل أولياءه ) ويجابه حين وقف يخطب ضد عبد الله بن الزبير ويصفه بأنه بدل كلام الله ، فيقول له : ( كذبت لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يسدل كلام الله ولا أنت ، فأجاب الحجاج : أنت شيخ خرف ، فرد ابن عمر : أما إنك لو عدت لعدت ) .

كما كان صحابة رسول الله ﷺ من قبل يتورعون عن القول دون علم أو سماع من رسول الله فقد أخرج البيهقي عن البراء قوله : ( ليس كلنا كان يسمع حديث النبي ﷺ ، كانت لنا ضياع وأشغال ولكن الناس لم يكونوا يكذبون فيحذق الشاهد الغائب ، كما كانوا يحاورون الناقل حتى يثقوا بصحة نقله ، فقد قال قتادة : ( أن إنساناً حدث بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له رجل : أسمع هذا من رسول ﷺ ، قال نعم أو حدثني من لم يكذب والله ما كنا ندرى ما الكذب ) .

وقبل أن تشتد الفتن في بلاد المسلمين وتشتري ، كان الناس يتقبلون الحديث دون مناقشة ، وخاصة إذا تكلم به صحابي عن رسول الله ﷺ ، فلما استعر أوارها بدأ سامعوا الحديث الشريف يشكون في كل ما يسمعون إلا إذا استوثقوا من القائل ، وكان من الموثوق بهم في قوة دينه وعدالته ، وذكره الحسن بين الناس ، وما يصور تلك الحالة ، ويعطى فكرة واضحة دقيقة عن هذا التحول العجيب والسريع في الوقت نفسه ، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه حيث يقول : ( حدثنا رباح عن قيس بن سعد عن مجاهد قال : ( جاء بشير « بالصغير » العدوي إلى ابن عباس رضى الله عنهما فجعل يحدثه ويقول قال رسول الله ﷺ ، قال رسول ﷺ ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا

ينظر إليه ، فقال : يا ابن عباس ، مالي لا أراك تسمع لحديثي ، أحدثك عن رسول الله ولا تسمع ، فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول قال رسول الله ﷺ ، ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا غليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف) .

وأهم الأسباب التي دعت إلى اختلاف الأحاديث ونسبتها كذبا إلى رسول الله : النزاعات السياسية والزندقة والعصبية والجهل بالدين مع الرغبة في الخير والتقرب إلى الملوك والأمراء والقصص والوعظ .

### (٢) عناية المسلمين بأمر السنة :

ولما مضى هذا العصر ، ونمت الفتنة واستعرت نارها ، كثرت الأحاديث الموضوععة التي يناصر بها كل فريق فريقه وأول بلد نشأ فيه تغيير الأحاديث هو العراق ، يقول الزهري وهو إمام أئمة الحديث وأول من جمعه ودونه ، (يخرج الحديث من عندنا شبرا فيرجع إلينا من العراق ذراعا) وكان الإمام مالك يسمى العراق (دار الضرب) ، أي تضرب فيها الأحاديث وتخرج للناس .

وكل ما مر حمل الغيورين على دينهم الذين وقفوا حياتهم على خدمته خالصا لوجه الله ، وفتح الله عليهم أبواب المعرفة ، وأتاهم القوة الروحية الخارقة فصبروا على تحمل المشاق ، وهاجروا طويلا في سبيل جمع الأحاديث الصحيحة من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وعملوا على تنقيتها من شوائب الوضع والوضاعين ، ورسوموا خطة مدروسة متميزة نشأت علوم الحديث عنها التي أوصلها بعضهم إلى اثنتين وخمسين علماً والبعض إلى خمسة وستين علماً ، ومن أهمها علمان رئيسيان هما ، علم السنة رواية وعلم الحديث دراية فالإلى الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

## الفصل الثانى

فى فصل سبق جرى البيان موضعاً البدعة التى نهى عنها رسول الله وأنها ما مست أصلاً من أصول الدين فأضافت إليه ما ليس منه أو أنقصت من مقدراته شيئاً ، وأما ما جد فى الدنيا من مخترعات واكتشافات فى كل ميادين ، فلا يدخل تحت طائلة الذم ما دام مفيداً للإنسانية ، وذلك : أن الدين قد كملت أحكامه ورسى قواعده واستبان كل شىء فيه فلم يلحق رسول الله ﷺ بالرقيق الأعلى إلا وقد تركها على المحجة البيضاء لا عوج فيها ولا أمت ، كما مر آنفاً .

ولما كانت السنة الشريفة شارحة لما أجمل فى القرآن الكريم ، ومؤسسة أحياناً فى بناء الإسلام ، وكانت الحكمة التى أوتيتها رسول الله عليه أفضل الصلاة وأذكى السلام - أقول - لهذا عنى بها علماء الإسلام قديماً وحديثاً وحظيت منهم بدراسات وتحقيقات لم يحظ بها علم آخر ، ووضعت لتفهمها وتنقيتها مما يكون قد علق بها من شوائب ، قواعد وأسس لم يصل إليها علماء ملة أخرى ولا حملة دين أيا كان فصارت للسنة علوم خاصة خالصة تحفظها نقية طاهرة صافية لتمضى مع الزمان إلى جانب كتاب الله العزيز تحمل النور والهداية للناس أجمعين ، ويعرج المقال فى هذا الفصل على ذكر بعض علومها وآدابها .

### (١) علم الحديث رواية :

ويقم على النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول أو تقرير أو عمل ، وما أضيف إلى الصحابة أو التابعين .

وفائدته : البعد عن الخطأ فى نقل أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقاريراته وصفاته .<sup>(١)</sup>

وأول من ألف فيه محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري عالم الحجاز والشام المتوفى سنة ١٢٤ هـ .

(١) المنهل الحديث ص ٣٥ ، للشيخ الرزقاني ط ، القاهرة ١٩٤٧ .

## (٢) علم الحديث دراية :

ويقوم على مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوى والمروى من حيث القبول والرد (كما عرفه ابن حجر) ويطلق عليه (علم أصول الحديث) ويسمى أيضاً علم (مصطلح الحديث) ويعنى بتقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف وتقسيم كل من هذه الثلاثة إلى أنواع ، ثم بيان الشروط المطلوبة فى الراوى والمروى ، وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ ...<sup>(١)</sup>

والراوى : هو الذى ينقل الحديث بإسناده رجلاً كان أو امرأة .

والمروى : هو ما أضيف إلى النبى ﷺ .

وفائدته : معرفة ما يقبل وما لا يقبل من الأحاديث ، وأول من ألف فيه هو القاضى أبو محمد الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

## أدب السنة<sup>(٢)</sup> والحديث :

محمد رسول الله هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، أوحى إليه بالعقيدة والشريعة الكاملتين الصالحتين لكل عصر ومصر ولهذا تلمس بوضوح بعد دراسة ما أثر عنه صل من أقوال وأفعال ، أنه ما ترك شيئاً يوثق روابط الحياة الحرة الكريمة بين الناس ويدفعهم للمضى قدما فى كل ميادين العمل النافع المجدى ، ويمحو من بينهم ما يعكر صفوهم وينتزع جذور التفار والشفاف من أرضهم إلا وحث عليه ، ووضع أسسه العلمية فى عصره ، حيث سادت الألفة وعم التعاون على الخير ، ومضى المسلمون جميعاً إلى هدفهم الأسمى ، وهو حمل مشاعل الهداية الربانية إلى العالمين ، غايتهم رضوان الله فى الدنيا والآخرة .

والحق الذى يجب أن تخضع له العقول المنصفة وتنطوى تحت لوائه القلوب

(١) السنة ومكاتها فى التشريع الإسلامى للدكتور السباعى ، ص ١٢٦ ، نشر دار العروبة بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

(٢) السنة : كل ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير - كما مر بك آنفاً - والحديث : هو كلام رسول الله ﷺ ولا زيادة .



وبعد الأسرة الجار ، وحق الجار في الإسلام غير منكور ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : ( ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ) يريد ضمه إلى أسرة جاره كولد وذى رحم وعد من الأعمال التي تنتقى مع الإيمان ، إيذاء الجار ، فقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال : ( ... والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، وكررها طويلاً ، فقال الصحابة : من يا رسول الله ؟ قال : ( من لا يأمن جاره بوائقه ) وما الناس إلى جار ومجاوره فمتى سادت الثقة والمحبة بين الجيران ، واهتم كل بمصالح صاحبه فتلك نهاية السعادة للوطن الذى يضمهم جميعاً .

والأصدقاء ، ولا بد في الدنيا من صديق تبته شكواك ، وتستعينه فى نوازلك ، وتعتمد عليه فى كربك ، وتسدى إليه الخير فى يسارك ، وما أكثر ما طلب الرسول إلى المسلمين أن ينتقوا أصدقاءهم فكل قرين بالمقارن يقتدى ، وفى أدبه الشريف تشبيهه للصاحب الفاضل ببائع المسك ، والجلسيس السيئ بنافخ الكير .

فالأول إما أن يعطيك من مسكه أو تشتري منه أو تجد منه ريحاً طيباً فهو مصدر خير على أى حال .

وأما الثانى ، فلو اقتربت منه لأصابك شرر ناره فأحرق ثوبك أو بدنك ، وإن حاذيته شممت ريحاً خبيثاً ، فلا يصلك منه إلا الشر فى جميع أحواله ، فالأولى للعاقل أن يتخير جلساءه من كرام الناس خلقا فالمرء مع من أحب .

وحدث رسول الله على الإخلاص والتصافى بين الناس جميعاً ، وكشف عن قبح الأخلاق الملتوية التى تشوبها المنفعة الخالصة ، ويعكرها لؤم الطباع وخسة التصرفات ، وسرد من علامات النفاق أحوالاً تبين عنه ، ودلائل تشير إليه حتى يتحاشاه ذو البصيرة النيرة ، قال عليه الصلاة والسلام : ( أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وطريق ترفع منه تلك الأشواك لا شك يجمل السير فيه .

وفى الأدب النبوى دعوة قوية إلى إدامة التناصح بين مختلف الفئات التى تكون بناء المجتمع العام فقد روى تميم الدارى أن رسول الله ﷺ قال : ( الدين النصيحة ،

قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال لله ولرسوله ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم) ، وهذا لتدوم اليقظة التامة بين الناس ولا توجد فرصة لصاحب غي كى يسدر فى غيه فنتستقيم الأحوال دائماً وتنعم الأمة بالعيش الهنىء .

وفيه تحريض على العمل ، وتنفير من البطالة والتكاسل والمساهمة فى كل أحوال الوطن الذى يجمع بين جوانبه أبناء متجانسين ، قال عليه الصلاة والسلام : (على كل مسلم صدقة ، فقالوا يا نبى الله فإن لم يجد ، قال : يعمل بيده ، فينفع الناس ويتصدق ، قالوا : فإن لم يجد ، قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ، قالوا : فإن لم يجد ، قال : فليعمل بالمعروف وليمسك الشر فإنها له صدقة) . وهذا ترغيب فى إسداء الجميل إلى الناس ، ودفع إلى ترك التواكل والركون إلى الراحة ونهى عن إيذاء الغير .

والبشر فى الإسلام سواء لا فضل لأحدهم على الآخر بغنى أو جاه أو جمال مظهر أو لون ، فما أفاء الله عليه الخير ، واتخذ من يخدمه وبساعده ، فليجعله فى منزلة نفسه سواء بسواء فالتعالى خلق جاهلي ، والتفاخر نعمة غير إسلامية ، عن معروف بن سويد قال : رأيت أبا ذر الغفارى رضى الله عنه ، وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك ، فقال إنى سابت رجلاً فشكاني إلى رسول الله ﷺ : فقال : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، ثم قال : إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم) .

وحذر من اتباع الهوى ، ونهى عن الفوضى ، وأوجب طاعة الإمام ما دام عاملاً بما أمر الله به ورسوله ، فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : السمع والطاعة على المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .

وهذا ولو ذهبنا نستعرض الأدب النبوى فى مسالك الحياة ومدارجها لضاق المقام ، وما انقضى القول ، وقد ذكرنا طرفاً مما لا بد من ذكره ، والذى لم يتمالك كثير من علماء الغرب المعاصرين إلا أن يشهدوا بسموه وعظمته وأحقيته فى الخلود ، وذلك حيث اطلعوا عليه فى مصادره ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، وحبذا لو أن

المسلمين كانوا دعاة خير بسلوكهم ، وعناوين صادقة لإسلامهم في أعمالهم ، وأدوات صلاح فيما يأتون وما يذرون فعندها لا تحتاج الإنسانية إلى جديد من التوجيه ولا تفتقر إلى فلسفات توضح الطريق إلى السعادة والسلام والمحبة والوئام ، فكل ذلك كامن في وصايا الرسول الكريم كمون النار في الحجر يوربها الزند ، وما زندها إلا التطبيق العملى ، وما أحفل الأدب النبوى بالخير ، فياليت قومی يعلمون .

## بدء الوحي

عن عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها أنها قالت :

« أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو (التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ <sup>(١)</sup> خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ <sup>(٢)</sup> اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ <sup>(٣)</sup> ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت له خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبير ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ﷺ : أو منخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفتر الوحي »

(رواه الإمام البخاري)

## الفصل الأول

الحديث عن رسول الله ﷺ لا يمل ، فالذين اصطفاهم الله جلت قدره لحمل رسالاته إلى البشر هم القمة العليا في الإنسانية ، لا يدرك مداهم ، ولا يبلغ شأوهم ، ولا تنال بالاكساب درجاتهم ، فهم أساة القلوب وهداة النفوس ، وقادة الخير ، ودعاة الفضل ، ودعامة كل كمال ، لهم القدح المعلى في زيادة السعادة منسودة الأدميين وضالتهم ، تلك السعادة التي يريد بها الله تبارك وتعالى لخلقهم وهو أعلم بمكانهم ومدارجها وسيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى والسلام في القمة من صفوة الرسل ، هو خاتمهم ، وشريعته سيدة شرائعهم ، جمعت أفضل ما جاوت به من عند ربهم ، وقفت على آثارهم بما أراد الله أن يكون كفيلاً بحاجة الناس في معاشهم ومعادهم ، وكلما ارتفع قدر الشيء كلما غلا ثمنه وعز مطلبه ، وبعد مناله ، والسائرون في السفح تلتوى رقابهم ليروا القمة وتعي بهم أقدامهم فلا يصعدون إليها ، فيحاولون النيل منها بذمها ، وينسجون القصص ويشيعون الخيال في الحديث المسئ إلى ما اشتملت عليه ، وما أكتته مما لم يدركوه ، ومقام النبوة مقام له سموه وأسراره وقداسته ، حاول كثيرون ممن لم يحترموا عقولهم ، ولم يضعوا أنفسهم في مكانها اللائق أن ينالوا من ذلك العلم الأشم فوهنوا ووقعوا صرعى حيث هم ، وكأن مما أوردوا شبهات واهية حول الوحي والرسالة ، ولا أطيل الوقوف مع هؤلاء المغرضين هنا ، وإنما أسوق حديث يصف واقعاً من وقائع ما كان مع رسول الله ﷺ وما حدث له ، يرى القارئ صورة لذلك المختار لحمل أضخم رسالة وأقوى دعوة متحملاً أعنت المعارضات ومقابلة فحة الحاقدين بتوريبه ، وضياء لا يقهر ، وقد تمثل في سلوكه قبل الرسالة الجلال كله ، والفضل جميعه فنعت الصادق الأمين من الأقربين والأبعدين ، من الأعداء والأصدقاء ، ولما ضاق بالبيئة العمياء عن الهدى ذرعاً تحنث في الغار وتعبد ، وهجر رواد الأصنام ، واعتزل مجالسهم وخلا بروحه ، وسما بنفسه وبعد عن مدارج القوم ، وعاف مسالكهم ، وكان هذا إرهاباً بما سيكون له من شأن ، وما سيحمله من هدى ورحمة للعالمين ، وصقلاً ربانياً لتلك النفس الأبية الظاهرة لتكون على مستوى خاص يريده رب العالمين ، ويأري الكون ، فربطه بجلاله

فى يقظته ومنامه ، فيقظته عليه أفضل الصلاة والسلام ، تأمل وتدبر لهذا الكون وبحث عن أسراره ، وفى منامه يمد له خيط النور الذى يقوى ويبدد الظلام ، ويأتى على ديجور هذه المخلوقات الهائمة على غير رشد وليأخذ بيدها إلى حيث ربها وبارئها إلى دار تزخر مجتمعاتها بالتراحم والسلام ، وتنفى زيف أم دفر وضلالها ، وفى هذا المقام لن أعبى القارئ بإيراد شبه وتفنيدها ولكن سأمر بها فى رحاب هذا الحدث الضخم المتصل بسيد الرسل والمشمتم على ما اعيا جهد أرباب الفكر ، وما لو سلوكه طريقا هادياً ، ولو اتخذوه إماما ومرشداً ، وعضوا عليه بالنواجذ لكانوا كما أوضح محكم التنزيل خير مصادر الخير التى أخرجت للعالمين .

فى هذا الكلم الطيب الذى قصته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن قريناتها شرح وإيضاح للطريق الذى سلكته دعوة الله إلى رسول الله أن يحمل ما حمل ، وأن يبلغ ما كلف بتبليغه وكيف بدعه الوحي ، وأن رؤيا الأنبياء وحى ، والوحي إعلام من اصطفاهم الله من عباده بكل ما أراد إطلاعهم عليه بطريقة خاصة اتخذت أشكالاً متعددة كلها بعيدة عن إدراك الإنسان لو ترك ونفسه ، وقد كان الوحي إلى رسول الله ﷺ مبتدأ فى المنام كما تحدث هنا أم المؤمنين ، ثم تنوع كما صورته رسول الله ﷺ بنفسه حين أجاب سائله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال ( أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول ) وفى النص الذى نحن نصدده هنا أن رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فوجئ على غير انتظار بمن يدعو إلى شىء لا يحسنه ولا يلم به وهو القراءة ويناديه من حيث لا يتوقع نداء مؤكداً عليه أن يقرأ ويقرأ فيرسم بذلك خطة المستقبل وأنه لا حياة بلا علم ولا علم بدون قراءة وتعلم ، وأن أول معلمى هذه الأمة الأمية هو أعظم خلق الله قدرة على تلك الأستاذية الفذة فى بابها ، العجيبة فى توجيهها ، الغريبة على الناس فى بدايتها ومنتهاها . وحين يذكر سيدنا رسول الله حقيقة واقعة لمناديه السماوى وأنه لا يدري ما القراءة يجيبه : اقرأ باسم ربك ، فأنت لا تقرأ بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك ومعونته ، فهو يعلمك كما خلقك ، وسيعلم أمتك فتخط بالقلم بعد أنا كانت أمة أمية وبعيد الرسول جوابه بنفى القراءة ، وأنه لا

يعرفها ويتكرر عليه الأمر بها ، وهناك يضمه مناديه بصورة لا يعلمها إلا الله ولا يدري  
كنهها إلا موجدتها ويغظ الرسول صاحبه ، (والغظ هو العصر الشديد والكبس) ،  
ويبلغ هذا الفعل من رسول الله الجهد ، ورجع إلى سكنه وعيية سره ، والسيدة الأولى  
فى الإسلام خديجة بنت خويلد يرجف فؤاده ويضطراب اضطراباً شديداً من هول ما  
رأى وما حدث له طالبا من أفضل النساء وأعزهم وأقربهم إلى قلبه وأحناهم على ولد  
رضى الله عنها وعن بناتها وبناتها أن أن تزمله وتدرسه وقد أصابته الحمى فارتعش  
البدن ، واضطرب الفؤاد ، وذهبت نفسه الشريفة شعاعاً ، وجالت به التأملات كل  
مجال وهو لم يدر بعد أن هذه مقدمة رسالة ومبدأ وحى السماء ، وأول خطوة فى رحلة  
شاقة مضية مع البشر العتاة الذين لا يرون الحق حقاً ولا يدركون من حقائق وجودهم  
شيئاً ، وهنا فى هذا الموقف العصيب ، وبعد دوى الحادث الرهيب وبين ذراعى السيدة  
المصطفاة زوجه له ، تلكم العاقلة الأريية ، والفهمة اللبية ، التى أدركت - سابقاً -  
بثاقب فكرها وذكائها وقوة بصيرتها أن هذا الفتى محمد ليس كالفتيان ، ولا هو من  
نماذج درجت أمام عينيها دهرًا طويلاً ، وإنما هو من هو ، له شأن آخر لكنها لا تدرك  
تماماً ما هو ذلك الشأن فاختارته زوجاً . على بعد ما بينهما فى الثروة والعمال ومفارقة  
فى السن والحياة ، واقرنت به رغم مجافاة ما فعلت لما عليه بنات جنسها فى كل زمان ،  
وقبل هو واستجاب لداعيها وعدما نعمة أنعمها الله عليه وقد كانت ، هذه هى خديجة  
بنت خويلد تضرب المثل الأعلى للزوجة ذى القلب الكبير ، والإدراك النادر الشبيه ،  
المنقطع النظير ، الزوجة التى تعرف زوجها من خلال دراستها الفاحصة لسلوكه والتى  
تقيم حركاته وسكاته وتزنها بسمو أدركته منه هى وحدها ، عالمة أنها لا تساكن قرشياً  
اعتادته دروب مكة وشعابها ، ولا فتى يمر عابراً بحياة البداوة مجتازاً قفارها يم يمضى  
إلى حيث ينسى ، وإنما لمحت بمدركة نافذة تتخطى الظواهر إلى اللباب ، وتفوص  
فى الأعماق على الدر النادر ، واللالي الغالية ، تلمع هذا ييسر دون عناء فى إجابتها  
لسيدها حتى أبدى لها القلق الذى يساوره ، والألم الذى يعتصر قلبه ، والخوف من  
نهاية غير مرتضاة والوصول إلى نتيجة ليست هى مبتغاه من تحننه اللبالي ذوات العدد  
وحيداً إلا من الأنس بربه ، وفريداً إلا من عناية عالم السر وأخفى ، مقدمات أوردتها

تلك السيدة الحبيبة إلى قلوب رواد خير الدنيا وطلاب سعادة الآخرة ، وبنيت عليها نتائج ما كذبت لأنها لم تحمل خسة القضايا الكاذبة ، وإنما كانت موجبة دائماً وكلية دائماً ، وتأمل أخى القارئ العزيز قولها وحسن إيرادها لما أوردت فهي تقول متعجبة من سيدها حين يخاف على نفسه ويخشى عليها السوء من احتمالات أوردتها الناظرون فى هذا الحديث وأوصلوها إلى اثني عشر صنفاً من بينها خشية الجنون والمرض ، أو خشية الإخفاق فيما كان يرومه ولا يستطيع أن يعبر عنه أن يقربها فهما إلى نفسه فضلاً عن غيره ، تعجب السيدة خديجة رضى الله عنها الجديرة بحب سيد المرسلين وحفظه لذكراها حتى بعد التحاقها بالرفيق الأعلى وتسوق عليها رضوان الله تلك الكلمات الحلوة الجميلة الغنية حتى فى ألفاظها بكل ما تدل عليه وما اتخذت منه عملها : كلا يا سيدى ، ولا ألف لا يا سيدى ، أعيدك من تلك الفكرة ، فأنت الذى لا يخزيك الله أبداً فلك فعال ليس فى نتائجها ما تتصوره أو ما تتوقعه فأنت الذى يحمل الكل (بفتح الكاف) ويصل الرحم ، ويكسب المعدوم ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، وتلك لعمر الحق خلال ما اتصف بها إنسان وأضاعه الله أو تخلت عنه عناية ربه وإنما هى دواعى الحفظ والرعاية من رب العالمية ، وسمو القدر والمكانة بين الناس أجمعين .

وهناك نمسك القلم قليلاً فنور سيدنا رسول الله يغشى الأفتدة فيضيئها ويفنى الضلالة ويبددها ، وحديث السيدة الحبيبة إلى رسول الله وإلى قلوب المؤمنين يحتاج إلى كثير من الوقوف فى رحابه ، ومزيد من الطرق لبابه ، زيادة على عظمة ما كان منها بعد ذلك مع سيد المرسلين ، ولهفتها على تطمينه وإعادة السكينة إلى قلبه وإنى لأراها أشد حرصاً على معرفة نتيجة ما حدث من أى إنسان عاصرها أو جاء بعدها فذهبت رضى الله عنها مثلاً عزيز المنال فى كمال العشرة وجمال السكن وعظمة العقل الإنسانى حتى ينفتح وحين يؤمن بحقه فى الكرامة ، ومكانته فى الحياة الحرة الكريمة فإلى لقاء قريب مع سيدة المؤمنين وسيدها رسول الله إلى الناس أجمعين .

## الفصل الثانى

عهدا أكدته لك أيها القارئ الارب فى الفصل الأول أن نتجاذب أطراف الحديث عن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها أول سيدة عطر التاريخ باسمها صفحاته مستجيبة لله ولرسوله منيية إلى الله تعالى ، متقية له فى صورة لم تعهدا الدنيا ، ولن تجود بتكرارها لأنه لا رسالة ولا رسول بعد سيدنا زوجها المصطفى ﷺ ، لقد كان لموقفها الحاسم - وهى أول إنسان يلتقى به الرسول بعد أول وحى ، أمر كريم دافع إلى البناء والعزم ، والمضى قدماً دون رهبة ولا تردد ، والإقبال بقوة على الدعوة المنقذة للبشر من هوة الانحرافات القاتلة لكل كريمة ، والرافعة علم الهدى على طريق الرشاد ... فمن هى خديجة المعنية بالحديث ؟ وما أحوالها التى تقلبت قبل لقائها بسيدنا رسول الله ، وما هو الدافع لها إلى الارتباط به ﷺ زوجا يوم كان فقيراً أعزل ، بعيداً عن ما يتمتع به كثير من شباب مكة من مال وتجارة ، وغير قليل - فى ظاهر الأمر - مما يغرى النساء بالرجال ؟ والجواب .. أما من هى ؟ فهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى وأمها فاطمة بنت زائد بن الأدم بن رواحة بن حجر ، ويلتقى نسب أبيها وأمها فى غالب بن فهر ، وقد تزوجت قبل رسول الله بزوجين أولهما<sup>(١)</sup> عتيق بن عائد بن عبد الله بن عمرو ولما توفى عتيق تزوجت ابو هالة ابن زرارة التميمى ، ومات أيضاً فى الجاهلية ، وقد ولدت له ذكر أسمه هند ، وقد شهد بدرا وقيل أحداً وكان يحدث عنه الحسن بن على ويقول حدثنى خالى لأنه أخو فاطمة الزهراء لأمها ، وقتل هند يوم وقعة الجمل<sup>(٢)</sup> وعاشت خديجة بعد ذلك دون زواج رافضة يد كل من يتقدم إليها ، قال ابن هشام : وكانت خديجة حازمة شريفة لبيبة مع ما أراه الله لها من كرامته ، كما كانت أوسط نساء قريشا نسبا وأعظمن شرفاً وأكثرهن مالاً ، كل قومها حريصين على الزواج منها لو يقدرون عليها ، وأما انجذابها إلى محمد ، فنشأ منذ تسامعت بما تلوكه الألسن من الحديث العطر عنه ،

(١) ص ١٢٥ من الروض الأنف ، للسهيلى ، ج ١ ، وقيل : أن أبا هالة هو زوجها الأول وعتيق هو زوجها الثانى .

(٢) ورد هذا فى شروح المواهب والاستيعاب .

وما ذكره له خادمها ميسرة حين صحبه في رحلة تجارية إلى الشام فعلمت عنه ما لم تعلمه عن أحد من أتراه ، وقلبت أمره على وجهه فما رأت له شبيها ولا مماثلاً في السلوك والأخلاق والاستقامة ، ولا عرفت فتى يقاربه ، قد قدره عقلاء قومه حق قدره وأضافوا عليه كل صفات الكمال ونعوت الفضائل ، فعملت على الارتباط زوجاً رغم فاصل السنين بينهما فهو في شرح الشباب وقد بدأت هي طور الكهولة ، وليهن كل شيء في سبيل الهدف الأسمى ، وكانت محاولات انتهت بزواجهما كما حكى ذلك مفصلاً كتب السيرة ، وكأني بتلك السيدة الألمعية تنظر ما وراء حجب الغيب فتستشف المستقبل الذى ينتظر الشاب محمداً ، وأراد الله لها أن تخلد ما خلد الزمان ، وأن تكون أولى أمهات المؤمنين وخيرهن دافعت عن الدعوة بمالها وجاهاها وعقلها وذكاؤها ، وكل ما تملك ، وأعطت من البنين والبنات ما كان أحدهن<sup>(١)</sup> سبياً في امتداد نسل سيد البشر حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ، ومن أخبار ورقة هذا أنه كره عبادة الأوثان التى بان له من حقيقتها أنها حجارة صم لا تضر ولا تنفع ، فخرج مرافقاً زيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام يسألون عن الدين فأما ورقة فقد أعجبه دين النصرانية فتنصر ، ويقول ابن حجر العسقلانى ناقلاً عن كتب السيرة : ( وكان قد لقي من بقى من الرهبان على دين عيسى ولم يتبدل ، ولهذا اخبر بشأن النبي ﷺ والبخارة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل ) ، واتجاه خديجة إلى ورقة يعطى مزيداً من الدلالة على فطنتها وذكاؤها ، وإن الله قد أعدها لتكون إلى جانب رسوله في هذا الطرف العصيب ، وكان يجمعها مع ورقة ورسول الله نسب واحد ، ولهذا قال لورقة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، وكان ورقة مجيداً للعبرانية يكتب بها ، وينقل منها وإليها ، وهذا دليل على أنه كان عالماً بأسرار الديانة المسيحية ، ومطلعاً على كل ما ورد من الإنجيل والتوراة من البشارة بنبي هذه الأمة ، ولما قص عليه سيدنا رسول الله ما حدث له أجابه : ( هذا الناموس<sup>(٢)</sup> الذى نزل على موسى ) واختص موسى لأن نزول جبريل عليه السلام متفق على حصوله بين أهل الكتاب بخلاف عيسى ، فإن كثيراً من اليهود ينكرون نبوته ،

(١) فاطمة الزهراء أم الحسن والحسين وزوج علي بن ابن طالب رضى الله عنهم أجمعين .

(٢) فى اللغة : الناموس صاحب سر الخير ، والجاسوس صاحب سر الشر .

ويتشوق ورقة إلى مصاحبة رسول الله في جهاده ، ويتمنى لو عاد شابا يحمل السلاح نصيرا لدعوة الحق ، وجندياً من بناتها (يا ليتنى فيها جذعاً) والجذع - بفتح الجيم والذال المعجمتين - هو الصغير من البهائم ، وتمنى ورقة الشباب ليكون أمكن في نصرة الرسول ﷺ ، وقد عجب رسول الله كثيراً حين أخبره ورقة بأن قومه سوف يكذبونه ويقا تلونه ويخرجونه من دياره فقال : (أو مخرجى هم ؟) ، قال ورقة : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى ، وأن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ ، ويشاء العلى الكبير أن يلقى ورقة ربه مبكراً ، تقول عائشة رضى الله عنها : (ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتى الوحى) ثم تتابع ، وتوفيت خديجة عليها رضوان الله قبل أن تفرض الصلاة ، وروى أن عائشة قالت : ما غرت على أحد ما غرت على خديجة ولقد توفيت قبل أن يتزوجنى رسول اله ﷺ بثلاث سنين ، ولقد أمر رسول الله أن يشرها بيت في الجنة .

هذا : وما أحوجنا فى ظروفنا الراهنة أن نذكر ما عاناه سيدنا رسول الله ﷺ ، وما قاساه فى سبيل نشر الدعوة ، وما كان من هجرته من البلد الذى هو أحب بلاد الله إليه ، وما جابهه به المشركون من عدااء سافر له ولأتباعه ، ثم ما شنوا عليه من حروب ما تكافأت فيها العدة ولا العدد أبداً ، ولكن النصر كان حليفه أفضل الصلاة لثقتة بالله ، واعتماده على قوة رب العالمين تحارب معه الملائكة فى بدر ، وعوامل الطبيعة فى يوم الأحزاب ، وما وهن عليه الصلاة والسلام ولا ضعف أمام عدو أبداً .

وصاحب الحق المؤمن به الواثق بعون ربه ، تهون أمامه كل الصعاب ، وتتلاشى العقبات ، ويلين لعزيمته الآفاق ، وما ضاع حق وراءه مطالب ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنت الأعلون ، ولعل فى ذكر بدء الوحى بدء الجهاد النبوى الكريم ما يدفع الدماء الحارة إلى قلوب المسلمين فى آفاق الأرض ، فيفيقوا ، ويتنبهوا للسيوف التى يعملها أعداؤهم فى رقابهم فى كل مكان ، وليتناسوا ما بينهم من منازعات ، وليعتصموا بحبل الله ليلتقوا بعدوهم فى ساحة الجهاد على قلب رجل واحد ، ومن عاذ بالله أعاده الله ، ومن لاذ بحماه نصره ، ومن توكل عليه كفاه ﴿ وَمَا التَّصَرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْقَزِيرِ الْحَكِيمِ ﴾ (١٢٦) لِقَطْعِ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَتَقَلَّبُوا يَخَابِينَ (١٢٧) .

## محمد رسول الله وخاتم النبيين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

(رواه البخارى ومسلم)

### الفصل الأول

(١) الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ ، هو صفوة الله من خلقه ، ومصطفاه من عباده ، اختاره ربه ليحمل رسالته إلى الناس كافة أبيضهم وأسودهم ، عربهم وعجمهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> بل تعدت رسالته الإنس إلى الجن فكلفوا أن يتبعوه ويطيعون ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُرُوهُ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup> قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ<sup>(٣)</sup> يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَّكُمْ مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ<sup>(٤)</sup> وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ<sup>(٥)</sup>﴾<sup>(٦)</sup> وافرد الله تبارك وتعالى لهم سورة كاملة سميت (سورة الجن) بدئت بقول الله تعالى ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا<sup>(٧)</sup> يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا<sup>(٨)</sup>﴾<sup>(٩)</sup> .

(٢) ويشر برسول الله ﷺ كل من سبقه من الأنبياء والمرسلين ، وورد اسمه صريحاً أحياناً وتلميحاً أخرى فى الكتب التى أنزلت عليهم ، قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام فى

(١) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

(٢) الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ من سورة الأحقاف .

(٣) الآيات ١ ، ٢ من سورة الجن .

سورة الصف بالآية السابعة منها : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ (الآية) وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ التَّيِّبِينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الآية ٨١ من آل عمران).

وورد بالإنجيل ما شهد به عيسى عليه السلام إذ قال للحوارين (أنا أذهب وسيأتي البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له وهو يشهد على وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به)<sup>(١)</sup>. وترجمة البارقليط : (أحمد). وورد في آخر التوراة : (جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فاران وجاء عن يمينه ريوات القديسين)<sup>(٢)</sup> ، وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى عليه السلام في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى في جبال ساعير وهي بالشام<sup>(٣)</sup> ، وأنزل القرآن على محمد عليه السلام في جبال فاران وهي بلاد مكة<sup>(٤)</sup> ، ومن ذلك أيضاً قول الله عز وجل لموسى عليه السلام (سأقيم لهم من اخوتهم مثلك أجعل كلامي على فمه ولا يتكلم إلا بما أمره به)<sup>(٥)</sup> ، فمن إخوة بنى إسرائيل إلا إسماعيل ؟ ، ولو كان الله عز وجل يعنى أحداً منهم لقال : أقيم لكم نبياً منكم .. ومن ذلك أيضاً قول حبقوق المتنبئ في زمن دانيال : (جاء الله من السماء والقديسين من جبال فاران وامتلات السماء من تحميد أحمد وتقديسه ومسح الأرض بيمينه وملك رقاب الأمم)<sup>(٦)</sup> ، وقال أيضاً : (تضئى لنوره الأرض وتحمل خيله في البحر) فالإلى من ينحو هذا الكلام ، وإلى أين يذهب

(١) إنجيل يوحنا ، فصل ١٤ ، آية ٢٦ .

(٢) سفر التنبئة ، فصل ٣٣ ، آية ٢-١ ، ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس .

(٣) يلاحظ أن لفظ الشام كان يطلق على كل المنطقة (لبنان وسوريا وفلسطين) .

(٤) يرجع في هذا إلى كتاب (تحفة الأريب) تأليف الحبر/عبد الله المعروف بابن الترجمان (مطبعة التمدن بعابدين بالقاهرة سنة ١٩٠٤) .

(٥) سفر تثنية الاشرع فصل ١٨ ، آية ٥ ، ج ١ ، ص ٣١٨ من الكتاب المقدس .

(٦) نبوة حبقوق ، فصل ٣ ، آية ٥ ، ج ٢ ، ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس .

بهذا المعنى ؟ لئن ذهب به إلى غير الذى تحمل خيله فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمره ، وغلب الأرض ومسحها ، وملك رقاب الأمم كلها لقد ترك الحق حينئذ واستهين به عن علم ويقين<sup>(١)</sup> .

(٣) بهذا الأسلوب الواضح البين ، والكلم الذى لا يقبل الجدل لبدوه وظهوره تتحدث كتب السماء عن رسول الله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، ويؤيد ذلك ويقويه ، ويمكن له فى القلوب ويثبتته قول الله فى محكم الفرقان العظيم : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> . قال القرطبي يروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمد كما تعرف ولدك هذا ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعمته فعرفته ، ولكن غلبة حب الدنيا وإيثار العاجلة حمل القوم على التغيير والتبديل والانحراف عن الصراط المستقيم ، فحملوا تعاليم الله ولم يحملوها فاستحقوا ما وصفهم به القرآن الكريم : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ كَفَرُوا سَوَاءٌ أَلَمُوا أَمْ كَانُوا لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ، وارتضت القلوب الفاسدة والأفئدة الخاوية من نور الله التضييل والإضلال ، وخطت أيدي السوء ما لم ينزل به الله سلطانا ، ثم قالوا هذا من عند الله كذبا وزورا : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(٤)</sup> .

(٤) دع نقاش هؤلاء فحججهم واهية تحمل فى طياتها دلائل بطلانها ، وينم ظاهرها المضطرب عن خافيتها المختلق ، وتعال تتأمل النور المحمدى كيف بدا ، وترصد الإرهاصات التى مهدت له فتمر سراعا ببعض الأحداث الهامة التى لامست أجواء مكة قبيل صدور أمر رب العالمين إلى رسوله بالتبليغ ، مبشراً ونذيراً .

(١) ص ٢٢٨ ، مصر العامون ، ج ٢ ، للدكتور أحمد فريد رفاعى .

(٢) الآية ١٤٦ ، من البقرة .

(٣) الآية ٥ من سورة الجمعة .

(٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

## (أ) حادث الفيء :

هو من أبرز الحوادث التي مرت بمكة المكرمة قبيل ميلاد رسول الله ﷺ وبلغ من عظم شأنه أن خصه القرآن الكريم بسورة كاملة حكمت خلاصة ما كان من أمره ، ومجمله : أن أبرهة أراد هدم الكعبة لحاجة في نفسه فسير جيشاً تتقدمه الأفيال ، وتسامع أهل مكة بما كان فلاذوا بشعاف الجبال ، وأطلق زعيمهم عبد المطلب كلمة سارت مثلاً « للبيت رب يحميه » وأنشد وهو آخذ بحلقة باب الكعبة المشرفة :

لا هم أن العبد يمم ———— ننع رحلة فامنع حلالك<sup>(١)</sup>

لا يغلبن صليهم ———— ومحالهم غدوا<sup>(٢)</sup> محالك<sup>(٣)</sup>

إن كنت تاركهم وقب ———— لتنا فأمر ما بدالك

وزاد صاحب الروض الأنف بيتاً آخر :

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

ولما اقترب كبير الفيلة من الكعبة ، حزن ولما يجاوز مكانه ، ثم أرسل الله طيراً أبابيل على جيش أبرهة فأهلكتهم ، ونجى الله بيته وأهل مكة جميعاً مما أريد بهم ، ولم يكن هذا الأمر دون أن يسجله الشعر ولنجتزئ بقول أحدهم هو عبد الله بن الزبيرى :

تتكبوا عن بطن مكة إنها كانت قديما لا يرام حريمها

لم تخلق الشعري ليالى حرفت إذ لا عزيز من الأنام يرومها

سائل أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف ينسى الجاهلين عليمها

ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم ولم يعش بعد الأياب سقيمها<sup>(٤)</sup>

دانت بها عاد وجوهم قبلهم والله من فوق العباد يقيمها

(١) الحلال بكسر الحاء المهملة جمع حلة وهي جماعة البيوت ويريد هنا القوم المطول .

(٢) غدوا : غدا وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك فحذفت لامه ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر .

(٣) المحال : بكسر الميم - القوة والشدة : قال تعالى : ( وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ) .

(٤) يقصد أبرهة فقد حمل عليلاً ومات بصنعاء اليمن .

قال عائشة رضی الله عنها : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس .

### (ب) الحادث الثاني : حلف الفضول :

وفيه يقول رسول الله ﷺ : (لقد شهدت بدار عبد الله ابن جدعان حلفا ما احب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت) ، وقالت عائشة رضی الله عنها لرسول الله ﷺ : (إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ، ويقرى الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ ، فقال : لا إنه لم يقل يوماً رب أغفر لي خطيئتي يوم الدين)<sup>(١)</sup> وقد كان ابن جدعان ، ويكنى أبا زهير ابن عم لها .

وسبب هذا الحلف .. كما يرويه (السهيلي) صاحب الروض الأنف (أن رجلاً من زييد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر بمكة وشرف فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحناف عبد الدار ومحزوما وجمع وسهماً وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، وزيروه<sup>(٢)</sup> وانتهروه ، فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريس ففى أنديةهم حول الكعبة ، وصاح مستغيثاً بهم ، فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وكان ذا سن وشرف فيهم ، فتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفه وما رسى حراء وثبير مكانهما<sup>(٣)</sup>) وقد حضره رسول الله ﷺ .

(١) أخرجه مسلم .

(٢) الزبير : بسكون الباء بعد الزاء المفتوحة المشددة - الزجر والانتهاز .

(٣) ص ٩١ ، «الروض والأنف ، ج ١ ، وقال ابن قتيبة (كان قد سبق قريشا إلى مثل هذا الحلف جرهم فى الزمن الأول فتحالف ثلاثة منها هم الفضل بن فضالة والثانى الفضل بن وداعة ، والثالث فضيل بن الحارث فلما أشبهه حلف قريش سمي حلف الفضول ، فالفضول جمع فضل وهى أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم .»

### (ج) الحادث الثالث : زواجه ﷺ من خديجة رضى الله عنها :

(١) النساء شقائق الرجال ، واثرة المرأة فى حياة الرجل أى رجل واضح جلى ، فقد تكون سبباً فى شقائه الأبدى ، كما ترسم خطة نجاحه الدائم فكفاح الرجل وصدامه مع الحياة خارج البيت ، يحتاج إلى قلب رحيم ينفذ إليه جملة حاله إذا ألم بداره ، والمرأة سكن وراحة وأمن ورحمة ، وعامل دعة والسكون واتزان لسير الحياة إن أحسنت ووقفت ، ومثار هدم وخراب ونكال وعذاب واضطراب إن أساءت .

(٢) ويشاء العزيز العليم أن يبرز أثر السيدة خديجة رضى الله عنها فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام واضحاً لامعاً نقياً فياضاً بالبركات والخيرات للدينا كلها ، فقد كانت تلکم السيدة الکریمة ثاقبة الرأى ، بعيدة النظر ، فاقهة تماماً لكل ما يدور حولها ، وما يحيط بها ، ملمة بالواقع الذى يحتويه محيطها متطلعة إلى غد مشرق أسمى وأعز ، فلم يبترها الثراء الواسع ، ولم يغش عيونها الجاه العريض ، ولم يركبها مراكب الصلف والكبرياء منبت كريم ومحتد عظيم ، التقت برجلين<sup>(١)</sup> قبل (سيدنا محمد) وشاء الله أن يرحلا من الحياة قبلها ، وأن يدعاها لمهمة سامية ، لترسم بسلوکها مع رسول الله الصورة المثلى للمرأة الرشيدة الحكيمة العاقلة الحصيفة الواعية ، المقدرة لوجودها كإنسانة لها رسالة فى الحياة ، والتقت (بمحمد) تاجر فى مالها ، ويعود مرة خادمها ميسرة يصف لها ما رأى وما سمع من شمائله وأخلاقه ونبل عاداته وعناية ربه به مضاعفاً إلى ما اشتهر به فى قومه من عفة وأمانة ومروءة وبذل وعطاء ، يقر به مجتمعه ولا ينکر عليه أحد شيئاً أبداً .

(٣) عاد رسول الله ﷺ من رحلته التجارية ، وعاد معه ميسرة خادم خديجة .. وأفاض لها فى الحديث الذى سمعه من راهب رأى محمداً بالشام ، كما قص عليها ما شاهد من سيرته أثناء رحلته معه ، وكانت خديجة رضى الله عنها - كما أسلفت - امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله لها من الكرامة فأرسلت إلى (محمد) ..

(١) تزوجت ابا هالة بن زرارة التميمي ومات فى الجاهلية ، وبعد موته تزوجت عتيق ابن عابد المخزومى ومات عنها أيضاً (الاستيعاب) .

وندع الحديث هنا لابن إسحاق المؤرخ يخبرنا بما كان من أمر هذا اللقاء ، قال :  
 « بعث خديجة إلى محمد فقالت له : يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك<sup>(١)</sup>  
 في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه الزواج منها ،  
 وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، كل  
 قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه<sup>(٢)</sup> فأخبر رسول الله أعمامه بذلك  
 فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب ، فخطبها إليه فتزوجها ، ولم يتزوج عليها  
 رسول الله حتى ماتت رضى الله عنها .

### (د) الحادث الرابع : بناء الكعبة :

قبل مبعث رسول الله ﷺ أرادت قريش أن تجدد بناء الكعبة فكان لها ما أرادت .  
 وقد روى ابن هشام أن عائذ بن عمران بن مخزوم قال يا معشر قريش لا تدخلوا نبي  
 بنائها من كسبكم إلا طيباً : ألا .. لا يدخل فيها مهر بنى ، ولا ربا ، ولا مظلمة أحد  
 من الناس ... ولما وصل البناء إلى المكان الذى يوضع فيه الحجر الأسود تنازعوا  
 أمرهم بينهم حتى كادت أن تدور رحي حرب ضروس تأتي على أخضرهم ويابسهم ،  
 فقال أبو أمية بن المغيرة وكان عامئذ أسن قريش كلها : يا معشر قريش اجعلوا بينكم  
 فيما تختلفون فى أول من يدخل من هذا الباب يقضى بينكم ففعلوا ، فكان أول داخل  
 هو محمد بن عبد الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما  
 انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال : هلم إلى ثوبا فأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه بيده فيه  
 ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا حتى إذا بلغوا به  
 موضعه ، وضعه بيده الشريفة ثم بنى عليه ، وبهذا حسم النزاع واطمأنت القلوب .

هذه هى الأحداث البارزة التى لامست جو مكة قبيل ميلاده ﷺ ويعدده إلى وقت  
 مبعثه ، ويبدو منها المكانة الكريمة ، والتصرف الحكيم ، والحكم الفصل فى تحركاته  
 وأقواله وسلوكه العام والخاص ، مما يبشر بما سيكون له من شأن عظيم ، وما سيقوم به

(١) وسطتك : شركك ، مأخوذة من الوسط مصدر كالعدة والرتبة والوسط من أوصاف المدح والتفضيل .

(٢) السيرة النبوية جـ ١ ، ص ٢٠٠ ، ط مصطفى الحلبي ، القاهرة .

من قيادة للدينيا ، وحمل أضخم رسالة عرفها الوجود ، وقد عرضت لها المناسبة حلول  
موعد ميلاده عليه الصلاة والسلام فى مثل هذا الشهر المبارك ، أما ما لاقى من نجاح  
وما بذل من جهد جهيد صيره سيد أولى العزم من الرسل ، وما قدمت رسالته للدينيا  
والآخرة من خير وإرشاد وما أهاجت من حقد وعداوة عبر التاريخ والأجيال التى  
مرت بها من المارقين والمعاندين ، فلذلك فصول قادمة إن وفق الله وأعان وما توفيقى  
إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

## الفصل الثاني

(١) ... وكلما أهل شهر ربيع الأول ، هزت إلى أفق الوجود ذكريات وأى ذكريات ، تنشر اريحاً عبثاً تشيره ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ ، آخر الأنبياء ، الذى عطر الكون ، وشرف الإنسانية وحقق آمالها ، وخط لها الطريق اللاحب إلى الكمال المطلق فى كل شىء ، فى مثل هذا الشهر المبارك كان انبشاق النور الذى أضاء جنبات الدنيا ، فقضى على حنادسها ، وصير ليلها نهاراً ، وأحال بؤسها نعيمًا ، وكان اللبنة التى جملت البيان وأتمته ، وأحسنت تكوينه ، وسدت نقصه ، وأضفت عليه كمالاً ما بعده كمال .

قارنت صباحه وشرخ شبابه ﷺ حوادث خارقة بما دأب عليه الخلق ، بل لازمته منذ طفولته مفصحة بلسان واقعها عن مستقبله المستكن فى ضمير الغيب الإلهي حينذاك ، والذى بدا حين بدا حافلاً بالعظام ، فكان مهيباً القلب لاستقبال أضخم رسالة حملها بشر ، رسالة تهدف إلى استقرار هنىء فى دار مؤقتة محددة ، من جعلها هجيراً وزم على تعاليمها جلجلان قلبه ، وصل إلى سعادة الأبد فى دار خالدة باقية : ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

(٢) شب رسول الله ﷺ ، والله يكلؤه ويحفظه ويرعاه ، وبباعد بينه وبين أقدار الجاهلية ، فقد عاف الأصنام وعزف عنها ، ولم يرد موارد ريبة قط ، ولم يقف موقفاً يشان فيه أبداً ، وذلك بأن الله مولاه ومؤدبه (أدبنى ربي فأحسن تأديبي) . هياها لما أراد له من قيادة الخلق وهذا يتهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فكان ﷺ أفضل قومه مروءة ، وأكملهم خلقاً ، وأكرمهم حساباً ، وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلمًا ، وأصدقهم حديثاً ، والمثل الأعلى فى الأمانة ، والبعد عن الفحش وهجر القول وسوء الفعال .

روى ابن جرير عن سيدنا علي كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(١) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

« ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، وفي كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته ، فلانى قلت ليلة لغلام من قريش كان معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت أريد ذلك حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، قلت : ما هذا ؟ .. قالوا فلان ابن فلان تزوج فلانة بنت فلان فجلست انظر إليهم فضرب الله على أذنى فممت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال : فجئت صاحبى ، فقال ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، قال ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال افعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلتها تلك الليلة ، فجلست أنظر فضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بعدها لسوء حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته<sup>(١)</sup> .

ويروى ابن إسحاق عن عصمة الله لرسوله ﷺ فى صباه ، أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لقد رأيتى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ أزراره فجعله على رقبتى ، يحمل عليه الحجارة فلانى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك أزارك ، قال : فأخذته وشدته على بى جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وأزارى على من بين أصحابى<sup>(٢)</sup> .

وتعليقا على هذه الرواية يقول السهيلي : (وهذه القصة إنما وردت فى الحديث الصحيح فى حين بناء الكعبة ، وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها ، وكانوا يحملون أزهرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة ، وكان رسول الله يحمل على عاتقه وإزاره مشدود عليه ، فقال له العباس رضى الله عنه : (يا ابن أخى لو جعلت إزارك على عاتقك ففعل فسقط مغشياً عليه ثم قال : إزارى ، إزارى فشد عليه إزاره ، وقام بحمل الحجارة)<sup>(٣)</sup> .

(١) تاريخ الأمم والملوك ، ص ٦٤ ، ج ٢ .

(٢) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، طبع الحلبي بالقاهرة .

(٣) الروض الأنفى ، ص ١٢٠ ، ج ١ ، طبع الجمالية بالقاهرة .

(٣) وقبل هذا وذاك ويعدّه يحدث التاريخ أن محمداً ﷺ حملته أصلاب كريمة وتنقل في أرحام نقيه ، فهو خيار من خيار ، ونشأت فسى أسرة لها الصدارة والقيادة والسيادة والرفادة والسقاية فى مكة المكرمة ، ولما درج على البسيطة ، ما صاحب إلا فاضلاً ، وما سائر إلا كاملاً ، وما جالس إلا ذا وقار ومروءة . ومن أبرز الذين لازمهم ولازموه شاب يلتقى معه نسباً فى مرة بن كعب ويكبره (محمد) بعامين وشهور ، وكان قريباً له فى الجاهلية وصحبه فى رحلته إلى الشام مع عمه أبى طالب ، وسمع حديث بحيرا الراهب عنه ، وكان مقامه بمكة قريباً من مقام (خديجة بنت خويلد رضى الله عنها) التى تزوجها محمد ﷺ ، وأقام فى بيتها ، ولكل ذلك توطدت الألفة بينهما ، وزادها قوة ، تقاربهما فى الميول والطباع ، ووحدت الاتجاه ، والبعد عن مواطن الزلل والسخرية ، مع الاعتصام بالمثل العليا ، فى الخلق والسلوك ، فقد روى أن الصديق رضى الله عنه لم يتعاط خمرأ فى الجاهلية قط ، - مع انتشارها بين المكيين - لأنه رأى يوماً رجلاً ثملاً يأتى قبيحاً من الفعال ، فصدف عنها مخافة أن يوقفه قربانها موقفاً لا يحب أن يرى نفسه فيه ، كما ابتعد عن الأصنام بعد أن أخذه أبوه إلى مكانها وامتدحها له ، وطلب إليه أن يقرب لها القرابين ، ويخصها بالعبادة ، ثم خلاه وشأنه معها ، فلما خلا له المكان من أبيه ، نادى الأصنام ، سائلاً إياها أن تعطيه طعاماً وشراباً ، أو تدله على صواب الحياة من خطئها ، وهيئات أن تجيب ، فما كان من أبى بكر إلا أن ألقى على كبيرها حجراً ، جعله يختر لوجهه ويتناثر أشلاء ، وغادر المكان لا يلوى على شيء ... وكان هذا آخر عهده بها .

كان محمد ﷺ ، يختلف إلى أبى بكر كثيراً ، ولعل الحديث - والحديث ذو شجون - ساقهما يوماً إلى ما كان عليه الجاهليون من عكوفهم على أصنام لا تسمن ولا تغنى فى مجال العقيدة السامية شيئاً أصنام يخضعون لها خضوعاً أعمى ، دون تدبر أو تفكير ، مع أن قليلاً من التبصر ، يرى أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى من الحق شيئاً ، ثم كيف تسأل هذه الصم الصلاد ، جلب خير أو دفع ضرر ، بينما هى لا تستقيم إلا إذا أقيمت ولا تستقر إلا بفعل أضعفهم أو أقواهم ، لعل هذا الحديث جرهما إلى نقد سائر عادات الجاهلية التى لا تتفق مع العقل السليم ، والمنطق المستقيم ، الطليق من قيود الوراثة وسدود المجتمع الذى تعيش فيه ، بل توحى بها

عقول منحرفة وشهوات جامحة ، وليس بعيد أنهما كانا يأملان أن يريا الفضيلة تسيطر على مجتمعهما ، والرذيلة تنجاب عنه بوسيلة ما ، لم يحدداها ، بل هو نوع من الصفاء الروحي يجعل الإنسان يتوقع تغييرا لبعض أحوال لا يراها منسجمة مع الجبلية النقية وواقع لا توافق بينه وبين ما ينبغي أن يكون .

ومما يزيدنى يقينا بأن أمثال هذه الأحاديث كانت تثار كلما اجتمع محمد وأبو بكر ، حب (محمد) ﷺ ، للعزلة والخلاء ، بعد أن قطع شوطاً بعيداً من عمره الشريف ، كأنه لم يطق أن يرى ما عليه معاصروه من أنواع الرذائل وصنوف الضلال . فآثر الانزواء بعيداً عن الموبقات ومواطنها حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده ، فتطهر القرية وتوسع ، وكذلك ما روى عن أبي بكر رضى الله عنه ، وحديثه مع أمية بن أبى الصلت ، الذى كان معروفاً بتعبده على شريعة أبى الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن وأنه سمعه يوماً يقول شعراً :

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والحنيفة بور

وما كان من حديث له مع ورقة بن نوفل بن أسد القرشى الذى هجر الأصنام قبل الإسلام ، وكان على معرفة بدين عيسى ﷺ ، بل كان له علم وإطلاع على كثير من كتب الأولين . وقد قال لأبى بكر يوماً ، أنه قد أظلنا زمان نبي يظهر من أوسط العرب نسباً ، يقول ما يقال له ، وفى هذا المقام ، يورد ابن عساكر ، وغيره قصتين وقعتا لأبى بكر ، قوتا عنده الأمل فى تغيير شامل لأحوال الجاهلية على يد رجل يوحى إليه من السماء ، وأنه سيكون من أشياعه الأقربين الذين يقيمون معه البناء على أقوم أسس وأوطد أركان ، ونحن نوردهما تأكيداً لما ذهبنا إليه ، من تشوق أبى بكر وصاحبه محمد إلى تحول بيئتهما إلى أحسن حال

### وأولادهما :

ما يقوله أبو بكر من أنه خرج يقصد اليمن ، قبيل مبعث رسول الله ﷺ ، فنزل على شيخ من الأزدي ، له إمام بعلوم الأولين ، يقول أبو بكر فلما جلست إليه ، سألتى أأست من الحرم ؟ ، قلت نعم .. قال : وتيمى أنت .. قلت : نعم ، أنا من تيم بن مرة .. قال : ستكون صاحباً لنبي يبعث فى الحرم .

## وثانيهما :

ما روى من أنه كان في بعض رحلاته التجارية إلى الشام ، فرأى في منامه رؤيا قصها على بحيرا الراهب فقال له : إن صدقت رؤياك فإنك ستكون صاحباً لنبي يبعث في قومك ، فاحتفظ أبو بكر بذلك لنفسه ولم يلقه إلى أحد حتى ظهر أمر رسول الله ﷺ فأمن به وصدقه .

(٤) ... وكان رسول الله ﷺ يجاور<sup>(١)</sup> في غار حراء شهراً من كل سنة يتحنث ويتحنف ، وبينما هو يمشى يوماً على قمة الجبل في سيره إلى الغار ، إذ طرق سمعه صوت غريب لا عهد له به ينطلق من جهة السماء ، يقول عليه الصلاة والسلام واصفاً هذا الموقف الرهيب بالنسبة لحياته الهادئة الوادعة : فرفعت بصري إلى السماء فإذا الملك يقول لي : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ .. فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ .. فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال لي في الثالثة : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ<sup>(١)</sup> الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ<sup>(٢)</sup> اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ<sup>(٣)</sup> الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ<sup>(٤)</sup> عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ<sup>(٥)</sup>﴾<sup>(٦)</sup> .

فرجع رسول الله ﷺ يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : زملوني ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وأخبرها الخبر ، وهنا تبرز صفات سمو والعقل والكمال وحسن الفهم وعمق الإدراك النفسى من خديجة رضى الله عنها لقرينها سيد الخلق ، فتجيبه إجابة من درست عشرينها دراسة فاحصة دقيقة تامة ، وعرفت منه نقاء الجوهر ، وجمال المبنى وأمل الغد المشرق الوضى ، فتكون إجابتها منطقية معقولة (والله لا يخزيك الله أبداً) رتبها على المقدمات المؤكدة الإنتاج : (إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق) ، ثم تنطلق معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تبش به حاله ، فيقول : (هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، يا ليتنى فيه<sup>(٣)</sup>) إذ يخرجك

(١) يجاور : يعتكف

(٢) الآيات من ١ إلى ٥ من سورة العلق .

(٣) جذها - يقصد ثيالىتى كنت شاباً حين تؤمر بالتبليغ تى أناصرك فى الدعوة إلى الله تعالى .

قومك ، قال : أومخرجى هم ؟ .. قال : نعم ، لم يأت رجل قومه بمثل ما جئت به ، إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ) .

وبهذا تبدأ صفحة جديدة فى حياة الأمين الوداع لا عهد له بها ، ولا دراية لقومه بما وراءها ، فآمن قوم وتجهم آخرون ، وما درى المتفاعسون عن قبول الدعوة الإلهية وعن معاضدتها ، أن محمد ﷺ يحمل إلى بطاح مكة سعادة الدنيا وعزها وسيادتها ومجدها وسبقها وتقدمها ، وأن رسالته الشريفة ستحيلها إلى معقل الخير ومبعث نور ومشرق هدى للقاصى والدانى ، وأن مكة المكرمة الخالدة ما خلد الزمان ستبقى بعده ما بقيت الحياة درة يتيمة فى عقد الوجود وغرة مشرقة فى جبينه ، ولن تتمخض أى بقعة فى الأرض عن مثل ما تمخضت عنه أم القرى ، وأنى لهم أن يدركوا ذلك وهم عبدة هبل والعزى وأحلاس اللات ومناة ، وتمضى الأيام برسول الله ﷺ ويدعوته الكريمة ويلاقى المؤمنون الأمرين من طغاة الشرك وقادة الكفر . ويشاء العلى الكبير أن تكون أو شهيدة فى الإسلام (سمية) أم عمار رضى الله عنها حين مر بها وهى تعذب مع زوجها على يدي عتل عات أئيم يطعننها بحربة طعنة قتلها وصعدت روحها المؤمنة إلى بارئها راضية مرضية مسرعة إلى الجنة تسر فيها كيف تشاء ويبوء قاتلها بخزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ويبدأ اضطهاد المشركين للمؤمنين وما يصددهم عن رسول الله ﷺ إلا قدرة رب العالمين وحياطته لرسوله وحفظه له .

أخرج مسلم عن عبد الرحمن بن صخر أنه قال : قال أبو جهل : أيعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ .. فقيل نعم ، فقال : واللات لأطأن على رقبته فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى يرد به السوء فما فجأ القوم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ويقول : بينى وبينه خندق من نار وهول وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : ( لو دنا لاختطفته الملائكة عضوا عضواً) .

(٥) ويستمر الرسول فى التبليغ ممتثلاً أمر ربه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَّا يَبْلُغْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(١)</sup> وتزداد عداوة

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

المشركين ضراوة وشراسة ، وكلما تكالبوا على كفرهم وعنادهم لما أصر المؤمنون على عقيدتهم وتكون الهجرة إلى الحبشة ويلاحقهم المشركون إلى هناك ، فيمضى عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي وهما يومئذ كافرين وتدور معركة امية الوطيس في نقاش طويل بينهما وبين جعفر بن ابي طالب زعيم المهاجرين في حضرة النجاشي وينتصر الرجل للحق بعد أن يراه واضحاً أُبلج في كل كلمة فإخ بها جعفر رضى الله عنه ، ويشاهد الظلم والاستفزاز والتهجم للخير في أسلوب عمرو وصاحبه ، ويؤمن المهاجرين ، بل ويؤمن هو بما آمنوا به ، ويعود مبعوثاً أهل مكة خاوي الوفاض حتى من خفى حنين ، ولما مات النجاشي صلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب فقال المنافقون : يصلى على علي مات بأرض الحبشة فنزل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْعُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَتًّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١) .

(٦) وهكذا لم يترك أصحاب رسول الله ﷺ طريقاً يسلك للفرار بدينهم إلا سلكوه حتى أتم الله نوره ورغم انف الكافرين ، وقد نصرهم الله وأعزهم فهو سبحانه لا يتر عاملاً عمله ولا يضيع أجر من توكل وآمن به واحتسب كل جهده عنده .

وطريق النجاح دائماً محفوف بالمخاطر والأحوال ولا عدة لسلوكه وبلوغ الغاية فيه إلا الصبر الدائم ، والجهد المتواصل والعمل الدائب وامتلاك النفس وقهرها ، وقصرها على الإنتاج المفيد النافع الصالح الموصول إلى الهدف الأسمى ، وكل ذلك بعد الإيمان بالله قيوم السموات والأرض صاحب القدررة المطلقة والإرادة النافذة ، والثقة التامة بما عنده ، وما أعده للعاملين المخلصين من أجر ومثوبة ، والتوكل عليه وحده حق التوكل واللجوء إلى حماه كلما حزب أمر أو اشتد هول وثارَت مشكلات وبرزت معضلات ثم سلوك الطريق التي رسمها لرسوله وسار في دروبها صحابته مع الدراسة الواعية والإحاطة الشاملة والنتيقت لكل بادرة تنجم في الوجود المعاصر من أحوال وأفكار وثقافات واتجاهات ، ليعد المسلم لكل شيء عدته ، مع تناسي (الأننا)

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

بل والقضاء عليه قضاء مبرماً بترويض النفوس وتهذيبها ودمجها مع غيرها فى تحمل  
المسئوليات عامة أو خاصة ، فالأناية داء وييل قاتل مفرق للجماعات ومزيل  
للحضارات ، والذين تطهرت قلوبهم منها لا يجد الحقد ولا الحسد إليهم سبيلاً ،  
وهم دائماً قادة ناجحون وأساءة فالحون ، يفنون فى المجموع ويعملون لصالح الجماعة ،  
أولئك الذين هداهم الله فيهداهم اقتده والله الموفق المستعان .

## الفصل الثالث

(١) مصدر ما دعا إليه الرسل جميعاً واحد ، وهدفهم فى كل ما بلغوه لا يختلف ، وغايتهم لا تتعدد ، فالدين على ألسنتهم كافة هو الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام) فجميع الشرائع التى أوحيت إلى الأنبياء روحها وجوهرها الانقياد والخضوع لبارئ الكون ، وتوحيده والانطواء تحت سلطانه ، وبذ الاعتراف بأية قوة غير قوته ، فهو الذى يحيى ويميت ويبدئ ويبعد ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ<sup>(٢)</sup> ﴿١﴾ فمتبع واحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام هو متبعهم عامة ، حيث خالص من شوائب الشرك ، وتجرد من علائق الخلق ، وأسلم وجهه لله رب العالمين ، فراض نفسه على بذل جوده لبني جنسه ، وحرص على نفعهم بما يستطيع إيصاله إليهم ، فإن كان ذا ميسرة أعطى المعسر ، وإن كان عالماً فقه الجاهل ، وإن كان قوياً أعان الضعيف ، وإن كان عنده فضل ظهر حمل من لا ظهر له ، وإن شئت أجملت المراد فى معنى ما قاله خاتم الأنبياء والمرسلين : ( لا يؤمن أحدكم تى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وبكره له ما يكره لها ) ، وما دام هذا منهجهم جميعاً فمن خالف واحداً منهم فقد خالفهم مجتمعين .

(٢) حين يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله سيدنا محمد ﷺ يحمله ما حمل المبعوثين من قبله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾<sup>(١٦٣)</sup> وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا<sup>(١٦٤)</sup> ﴿٢﴾ . ويجعل غاية إرسالهم التبليغ لأوامر الله ونواهيه وقطع حجة البشر على الله يوم الحساب ﴿رُسُلًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾<sup>(٢)</sup> . ويقول لخاتمهم سيدنا محمد ﷺ

(١) الآيات : ١ ، ٢ من سورة الملك .

(٢) الآيات ١٦٣ ، ١٦٤ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيَكُمُ إِنِ اتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(١)</sup>.

قل لهم يا محمد .. لماذا تعجبون من دعوتي لكم إلى الله فأنا لست أول من بلغ عن ربه ، بل قد جاء العديد من قبلي يحملون رسالات ربهم إلى أقوامهم ولست الذى لا نظير له فى رسالته حتى تستنكروا قولى ، وما اتبع إلا الوحي الذى اتبعوا ، وطريقى طريقهم وهى تعالى بالإنسانية عن الإخلاق إلى الأرض ، وإبعادها عن اتباع الهوى المضل عن سبيل الله ، وقيادتها إلى المستوى الملائم لتكريمها وتفضيلها على كثير من خلق الله ، وهذا يتهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى القمة قمة المخلوقات للاستيلاء عليها تحقيقها لتسخير الله إياها للإنسان ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، وليرقى بهذا إلى الوظيفة الحقيقية له فيقيم العدل ويقرر الاعتدال فى كل شئ مع نفسه ومع غيره لتخلص النفوس من الاشتغال بالنفوس إلى عبادة بارئها فى هدوء لا يلاحقه إزعاج ، وإخاء دون نفاق ، ومجبة لا تشوبها أنانية ، فتتقاضى حقبة الإقامة المؤقتة فى سلام شامل للألوان منتظم للإجناس متكافئ مع الثواب الموعود به فى دار خلود دائم ونعيم مقيم ، وكل هذا مع التسليم لله والعجز أمام جلاله وقيوميته : ثم أن ما شرعه الله لكم هو ما وصى به نوحاً وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أرباب الشرائع السماوية ، فالكل مأمور بإقامة الإسلام وهو التوحيد ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾<sup>(٣)</sup>.

(٣) والرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لم يقل أبداً أنه يمثل جنساً متميزاً من البشر ، ولا تجرى فى عروقه دماء تخالف دماءهم ، وهذا نص المحكم من الكتاب المبين يؤيد بشريته ويحقق مثيلته لمن أرسل إليهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وطريقة وصولكم إلى مرضاته هو التوحيد والعمل

(١) الآية ٩ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ١٣ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

الصالح لكم وللبشرية كافة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>(١)</sup> . ويصرح ﷺ بذلك لمن هابه واضطربت فرائضه أمامه قائلاً (هون عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة) . وحين نفقه كنه الإسلام ونعى حقائقه وندرس أحوال رسوله وهو المثل الأعلى في الخلق الكريم ندرك بما لا يرقى إليه شك أن الحسد القاتل والحقد الدفين وما يمت لفصيلهما بصلة من ذميم الخصال ، هى التى ولدت العدو والبغضاء فى قلوب المعاندين الجاحدين من البداية فقال كفار ريش وهم يعضون على النواجذ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> وتمنى أهل الكتاب لو عاد من آمن إلى الكفر مرة أخرى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾<sup>(٣)</sup> .

(٤) بظهور رسول الله عليه الصلاة والسلام برزت لأول مرة فى تاريخ الإنسانية رسالة سماوية متكاملة من جميع الوجوه تعنى بمصالح الناس وتعالج ما يعينهم فى حياتهم الدنيا وتضع الحلول التى لا تدع مشكلة إلا أزلتها ، ولا عقدة إلا حلتها ولا خطأ إلى أصلحته ولا معوجاً إلا قومه ، فالعليم بما تنطوى عليه القلوب وما تكنه الضمائر وما يدور بالخلد خبير بالأدوية الشافية والعلاجات الحاسمة .

مما اقتضته حكمة السميع البصير حجب الغيب عن الإنسان ، فقد أسدل على مكنون الغد ستاراً كثيفاً لا يمكن أن يخترق ، وأقام دونه حواجز لا يمكن تخطيها ، فمهما أوتى المخلوق من إدراك ودراية وخبرة وعلم فهو عاجز كل العجز وقاصر تمام القصور عن فتح ثقب صغير يطل منه على ما تحمله اللحظة التالية فى وجوده المحدود ، فهو يقدر ويفكر ويدبر ويحصى ويقيس الغائب على الشاهد ، وأخيراً يجد نفسه دائراً فى حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها . وما وصل إليه فى عصرنا من محاولات شارك بها بعض المخلوقات الأخرى الملهمة فصعد إلى الكواكب مراغماً نفسه للوصول إليها ، وما ظن أنه سيطر عليه من ذرات الكون ، أليس هذا حركة فى موجود وإظهار لمكنون

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٩ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

مخلوق ، وإدراكاً لبعض أسرار احتفظ بها الكون دهنراً طويلاً في خبيثات مقوماته تنقلت معه في أطواره المتعاقبة وهو لا يشعر بها حتى إذا حان ميعادها الموقوت ، ودقت ساعتها المعينة هداه بارئها إلى إيقاظها من سباتها ووقفه لتلفيها ، وأمكنه من السيطرة على جماحها فحبسها في دائرة معينة لتلعب دورها في الوجود ، ومن يدرينا فقد يقلت زمامها منه وتنفر من سلطانه الموهب له فتدمره وتأتي على ما قدم وما آخر في هذا الميدان ، وهل يأمن الإنسان أن يصيبه ما أصاب جنساً آخر وصل إلى استراق السمع فأتبعه شهاب ثاقب على أن ما يعطيه هذا الموقف للنظر المتأمل ، وما يصوره له واقعاً هو تأخر الإنسان في إدراك بعض حقائق الكون عن غيره دهوراً ودهوراً ، ومن أزال القفل عن قلبه وتدبر القرآن توصل إلى أن غوص الإنسان وراء حقائق الكون ، ومحاولته استكناه خفاياه عمل واجب عليه ، بل هو مكلف به ومطلوب منه أداءه ، ولو قصر أو ترك ما كان متجاوزاً مع رسالات السماء وإذا ذكرت توجيهات رب السموات والأرض في هذا الصدد فلا معدى لأى إنسان مهما بلغ علمه واتسعت دائرة إطلاعه عن إسناد الدعوة الملحة للبحث والاستقصاء - إلى رسول الله سيدنا محمد ﷺ ، فقد أمر الله فيما أوحاه إليه وأطال في الأمر ، ووجه وأكثر من التوجيه وخاطب وأوفى على القصد في الخطاب ونادى عباده في محكم كتابه : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(١)</sup> فصدر الآية أمر بالنظر ، وفي تقديم السموات على الأرض في الذكر أسرار وأسرار ، ونجد هذا التقديم مكرراً في كل آية جمعت السماء مع الأرض<sup>(٢)</sup> في توجيهه إلى البحث ، وختام الآية يصم بالبغاء والجهالة والتهاون والاستهتار وعدم تقدير النفس لوجودها عند قوم لم يعوا مرماها ولم يفقهوا معناها ولم يتصلوا بمنزلها ولم يخضعوا ليعرفوا ولم يتدركوا ليصلوا ولم يعلموا ليتعلموا ولم يسلكوا ليهتدوا<sup>(٣)</sup> .

ونستطرد بالبحث إلى أية كريمة تحسم موضوعاً اختلف فيه علماء الكون في

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس .

(٢) إلا ما ندر .

(٣) في هذا بحث طويل حيث ينطوي القرآن على أسرار بعضها لم يدرك بعد .

عصرنا الذرى يتصل بالكواكب الأخرى وهل توجد فيها حياة أو حيوان ، وتزول هذه الحيرة حين نتأمل ببصائرنا قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> .

قال المفسرون : (من دلائل قدرة الله وعظمته وسلطانه القاهر السموات والأرض وما نشر فيها من دابة تدب وتتحرك ، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوان على اختلاف أشكالهم وألوانهم)<sup>(٢)</sup> .. وقصارى القول فى ذلك أنه سبحانه قدير على جمع ما بث فيهما من دابة إذا جاء وقت جمعه كما لم يتعذر عليه خلقه ويدايتته)<sup>(٣)</sup> .

.. ومع كل هذه العلوم والمعارف فباب الغد موصد ومفتاه لم يصل ولن يصل إلى البشر وما أمكن وأعتقد أنه لن يمكن مستقبلاً تسور موانعه ولا مقاومة حرسه ، فلو كان بحثه داخلاً تحت سيطرة البث : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾<sup>(٤)</sup> ، ويؤيد ذلك ما حكى القرآن عن أحب الخلق وأقربهم إلى رب الخلق ﴿وَلَوْ كُنْتَ تُعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾<sup>(٥)</sup> وقد أراح العبد الصالح نفسه بترك الأمور لمجرىها فهو وحده البصير بخوافيها ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(٦)</sup> .

خلاصة هذه الفقرة من البحث : أن إحصاء الله سبحانه وتعالى باب الغد واحتفاظه بما فيه من خير وشر بعيد عن إدراك البشر حمل الإنسان حملاً قوياً على الإغراق فى واقعه إغراقاً عجبياً ، فقل من يؤمن بما غاب عن حسه أو يصدقه ، وأوقف هذا الجهل بالغد وما يخفيه - الإنسان أمام دعوة الحق والخير موقف المتردد الشاك أحياناً والمتهيب الوجل تارة أخرى ، وقله من أنعم الله عليهم سلموا وآمنوا ودخلوا فى مداخل الحقيقة ، شربوا من رحيقها وذاقوا أرواحهم حلاوتها ففنوا فيها ووهبوا

(١) آية ٢٩ من سورة الشورى .

(٢) ولا وجه لتحيد الأسماء والأمكنة فالبت عام والأمكنة كذلك .

(٣) المراغى جـ ٢٥ ، ص ٤٦ .

(٤) الآية ٢٤ من سورة لقمان .

(٥) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٨٨ من سورة غافر .

أنفسهم لها وللدفاع عنها وكان أعجازهم الذى أعبا التاريخ أن يلاحقه وأوقفه مشدوهاً أمامه فى كل ميدان رقوه وكل باب ولجوه . والحيارى المتردون فى المحسات الذين غرتهم الحياة الدنيا وشدتهم إلى مغرباتها فقتنوا بعيش السوائم ﴿يَتَمَتُّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾<sup>(١)</sup> أولئك هم الذين عارضوا وعاندوا وجحدوا وركزوا جهودهم ورسدوها لحرب خاسرة بالنسبة لهم محاولين طمس الشمس وإخفاء القمر وتبديل خلق الله ومعارضة إرادته ، وهؤلاء اتخذوا صوراً وأشكالاً مختلفة فى التاريخ مع كل دعوة فاضلة من البشر ورسالة خالدة من السماء ، والطائفة التى نعيها منهم فى بحثنا هى التى لازمت ظهور الإسلام وصاحبته فى الحقب التى مرت به حتى الآن .

(٥) ونعود فتساءل : مادامت أصول الإسلام ثابتة فى دعوات الأنبياء والرسل السابقين ، وسيدنا محمد ﷺ ليس بدعا من الرسل ، وكل تعاليمه وإرشاداته لصالح البشر ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لَّهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> .. ومادام الإنسان لا يستطيع بحال أو حيلة أن يستشف ما وراء الغيب فلماذا لا يلقي رحاله فى رحاب مولاه الذى لا يأمر إلا بما ينفعه ولا يصدده إلا عما يضره ، وصدق الله العظيم ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> .

والمتتبع لذلك الشنآن وتلك العداوة يجدهما قد صاحبة الرسالة منذ أن بدأت تتمركز فى بلاد العرب وتقتعد مكانها فى الوجود وتقرر لها شخصيتها المميزة ، والذى يثير الدهشة والعجب هو أن الذين حملوا وزر محاربتها هم أولى الناس بمسانتها وتدعيمها وقاتل أعدائها لأنهم يدورون فى نفس الفلك الذى تمضى فيه ويستمدون مقومات كيانه من مصدرها ويرمون عن قوسها ووجودهم متبلور فى أهدافها إن أرادوا الحق لأنه الحق وآثروا ذا أثر . وهم أهل الكتاب إلا فترة قصيرة

(١) الآية ١٢ من سورة محمد .

(٢) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

في مكة عاذاها جهلة متعصبون لا كتاب لهم ولا حجة لديهم إلا التعلل بما وجدوا عليه آباءهم وهي حجة أوهى من بيوت العناكب وإن كانت دائرة مع الزمان والمكان حيثما دارا ، فالناس أسراء ما ألفوا وعبيد وما اعتادوا ، فلما انتقلت الدعوة إلى المدينة ذر قرن الشر الذين كانوا يبشرون بصاحبها قبل ظهوره ويستنصرون به على أعدائهم وهو لا يزال غيباً من الغيب ، فلما سطعت شمس حاربوه حيث خيل إليهم أنه مقصيهم عن رباساتهم الزائلة فاشتروا الدنيا بالآخرة واستحبوا العمى على الهدى ، وهؤلاء لهم القدح المعلى في قتال رسل الله وقتلهم منذ زمن ضارب في أغوار التاريخ ، وما أحكم القرآن حين يصور مواقفهم من الرسل عامة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، ولا يستحيون أن يصموا أنفسهم بأقبح الأوصاف وأشنعها فما أهونهم على الله وما أجزأهم على الكذب ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وحين أوحى إلى الصادق المصدق لما معهم لووا رؤوسهم كبراً وعناداً وأنكروا وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> .

(٦) وظهر منهم في المدينة عميد المنافقين عبد الله بن أبي فيفضحه القرآن ويعلن للناس أمره مفصلاً عن مكنون قلبه الحاقد الجاحد لوحي السماء الخائن لما أوثمن عليه من التوراة ، ويمضى مع شروره ، وتدور الأيام وتطلع الشمس ذات يوم على شر منه عبد الله بن سبأ ، فيسعى جاهداً في تشتيت شمل المسلمين وتفريق كلمتهم وفصم عرى وحدتهم وتقع على يديه الآثمتين الواقعة ويراقد الدم العزيز على الله وعلى رسوله ولا يجتمع المسلمون بعده أبداً ، ويمضى الفلك في حركته الدائبة لا

(١) الآية ٨٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٨٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨٩ من سورة البقرة .

يتوقف ، ومع الأصباح والإمساء يتوالى ظهور أعداء الإسلام وتتطور أسلحتهم بتطور الزمان وإن كانت تتحد على هدف واحد هو هدم الإسلام والقضاء على المسلمين .

وإيجاز للقول ندع ما مضى ونقرؤه تاريخاً للعظة والعبرة وإن كان الحاضر مرتبطاً به ارتباط الوليد بوالده والنار بموقدها والصدى بمصدر الصوت ، ونجعل اهتمامنا منصباً على الواقع الذى يعايشنا وقد أخذ صوراً وأشكالاً جديدة من الحرب مستعملاً الأسلحة التى تناسب تفكير عصر الذرة وتكافئ الأهداف ، أولئك هم الذين ابتكروا أساليب متعددة يخفونها طوراً فى تكتلات سرية تنطوى على سم ناعم ، ويجهرن بها تارة أخرى بوجوه باسمه من ورائها أنياب تنهش ، ومخالب تفتك ، وأحياناً يسمون أنفسهم أساة وهم مصدر الجراح ، ويقولون نحمل إليكم نور المعرفة . لكن على طريقتهم الخاصة .. النجاة لهم والدمار للإسلام ، عاشوا فى ديار المسلمين باحثين منقبين عن الدر الدفين فى تراثنا يمحون به جهالتهم ويطمسون معالم السلوك الكريم فى مدارجنا ، وحماة الدار نائمون قد قبعوا فى عقر دارهم متفرجين على المسرح من خصاص الأبواب وليتهم يدركون حقيقة واقعهم فلا يدبرون الفتن ولا يزكون العدوات بين أقوامهم ، حتى لا تتفرق القوى الخيرة أيدى سبأ ولا تتمزق شذر مذر - والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

## الفصل الرابع

(١) لئن كان لكل أمة ما تفخر به وتعزز ، وما تحرص عليه وتفتديه بكل غال ونفيس ، فلأمة العرب ما ليس لغيرها من أمم الأرض جميعاً ، من مقومات الحضارة الإنسانية : تملك هدية الله وهدايته ، اختارها لحمل خير الرسالات ، لا ينازعها في ذلك منازع ، اصطفى منها رسوله ، وبعثه إليها وإلى البشر كافة بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة ، وندبها لتلقى الأمانة التي أشفقت منها السموات والأرض .

وما كان للهادي والقائد المؤسس بعد أن أكمل الله دينه وأتم نعمته إلا أن يلتحق بالرفيق الأعلى فلكل أجل كتاب ، وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة تبديلاً ، والأسس والمبادئ والقواعد وأصول الشريعة هي الباقية ما بقى الزمان .. ولكنها لا تنهض بنفسها ، وإنما يحملها رجال أمناء يؤدونها لرجال مخلصين . وعلى قدر عظمة الدعوة وقوتها تكون قوة ومكانة القائمين عليها ، كما يتصدى الأعداء والمعانوان والحاقدون - وما أكثرهم في كل زمان ومكان - للنيل منها ، ومحاوله هدمها ، يظهرون حين تختفى آسائها ويختفون حين تفضحهم شموها .

(٢) وكما قلت في فصل سبق (لندع ما مضى ونقرؤه تاريخاً للعظة والعبرة) .. ولا نغبط السلف حقهم فقد قارعوا الحجة بالحجة ، وحفلت بمناقشتها موسوعات خلفوها ، وآثار كريمة لازالت هي المرجع الأولى لدى المشتغلين بالعقليات في العالم .

واليوم دخل النزاع طوراً جديداً ، وتطورت أسلحة المعركة من جانب الأعداء ، فهاجموا الإسلام باسم الثقافة والتثقيف ، وأحياناً في تكتلات سموها جمعيات روحية إلى آخر ما هنالك .

ولى وقفة قصيرة مع بعض المستفيدين من تراثنا ، الجاحدين لفضله عليهم ، والعادين على رسول الإنسانية بغير حق ، تقرأ كتبهم : فلا تصدق مطلقاً أنها لعلماء باحثين لأنها لا تصدر إلا عن جهل فاضح أو حقد دفين ، فمنهم من يقول : (إن القرآن كتاب مسيحي يهودى نسخه محمد ، وأن الإسلام دين مادي لا روحية فيه ، يدعوا إلى

الدنيا وليس إلى صفاء النفس والمحبّة)<sup>(١)</sup> .

فهل يصدر هذا الكلام عن فاقه فاهم للقرآن دارس له ، مقارن بينه وبين الإنجيل والتوراة محيط بما في الكتب السابقة على القرآن الكريم كما أنزلت ، أو أن هذا خبط عشواء ، وقىء حاقد أثيم .

وهل حقاً أن الإسلام لا روحية فيه ، وأنه يدعوا إلى المادية ، ويورث العدوات بين البشر ، وبزكى حمية اللون والجنس . وهل يصدق أن كاتب هذا القول المجافى للحق والبعيد عن الواقع قد اطلع على ما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ . ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ . وهل عرف شيئاً من سنة رسول الله ﷺ . وهل درى ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الحث على المحبة والتعاطف وادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وهل عرف شيئاً من سنة رسول الله ﷺ ، وهل درى ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الحث على المحبة والتعاطف والتراحم والتواد والتكافل والصفح والغفران ، ألا يكفيه أن يقول رسول الله ﷺ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ، وأن يقول : (ترى المسلمين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر) ، ألم يظالموا بالذكر الحكيم قول الله تعالى حاثاً على موادة غير المسلمين والإحسان إليهم : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾<sup>(٢)</sup> .

هذه نماذج يسير من المبادئ الإنسانية الرحيمة التى دعا إليها رسول البشرية وطبقها عملاً وحكماً وقامت على أسسها أمة مثالية ذات حضارة وارقة الظلال ، نعم بها المسلمون وغيرهم ممن أظلمهم حكم الإسلام ، فهل ثبت بعد هذا فرية مفتر أو وجود مكابر .

(١) المبشرون والمستشرقون للدكتور محمد البهى ص ١ . وأقرأ فى هذا كتاباً عنوانه بالعربية (مقالة فى

الإسلام) لجرجس سال الإنجليزي ، طبع المطبعة الإنجليزية الأمريكية ببولاق مصر سنة ١٩١٣ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ .

(٣) إن حياة رسول الله الشخصية والاجتماعية واضحة كل الوضوح ، وهو فى هذا متميز على كل البشر من لدن آدم إلى يوم الدين ، فلم يوجد على ظهر الأرض رسول أو مصلح ، أو حاكم عرف تاريخ حياته كله ، ودونت سيرته ، وأحصيت حركاته وسكناته ، وتوفر له من أصحابه من تعلقت عيونهم وأبصارهم بشخصه ، كما توفر ذلك لسيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين .

إن حياة رسول الله وسيرته لا يغض منها عبث عابث أو جهل جاهل أو حقد حاقد ، ومع هذا فلا توجد شخصية ثار حولها الجدل بالحق وبالباطل كما ثار ذلك حول رسول الله خاتم النبيين ، ولكن الحق دائماً يعلو شامخاً ، لا يواريه دجل أو شعوذة ، وقد أحنى الأعداء العقلاء هاماتهم إجلالاً لعظمة رسول الله الذى حقق من الأعمال الخارقة فى مدى قصير ما لم تشهد له الدنيا مثيلاً .

(لقد أنجز محمد ﷺ فى مدى عشرين سنة ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين اليهود والنصارى برغم السلطة الزمنية التى كانت لهم ، لقد استاصل من بلد كامل تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والقمار ومعاقرة الخمر واضطهاد الضعيف والحرب الضروس ومثل ذلك من الشرور الأخرى ، وليس فى استطاعة التاريخ أن يدلنا على أى مصطلح آخر وفق إلى إحداث تحول فى مثل هذه الروعة والتمام ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع خلال فترة فى مثل هذا القصر ، فلم يكن الإصلاح فى أيما يوم ميؤوساً منه أكثر مما كان عند ظهور الرسول ﷺ) (١) .

(... ولو كان الإسلام الحقيقى معروفاً فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال - أكثر من أى دين - من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نمت عن الحرب الكبرى ، فإنه والحق يقال يلائم جميع ميول معتقيه على اختلاف مشاربهم ، فهو ببساطته المتناهية كما يذهب المعتزلة ، وباشتماله على روح التصوف كما يذهب إليه الصوفية - يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم) (٢) .

(١) حياة محمد ورسالته لمولانا محمد على ص ٢ .

(٢) محمد رسول الله ص ١٦ ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

(٤) وفي ختام هذا البحث الذي أستغرق أربعة فصول لا نرى بأساً من إيراد صورة مما كان عليه أعداء الإسلام في أول أمره ، ثم نعقبها ببيان موجز لعمل الأعداء المعاصرين ..

### (أ) في مكة :

اجتمع إلى الوليد ابن المغيرة المخزومي نفر من قريش وتباحثوا في أى طريق يسلكونها لصد الناس عن الإسلام وعن نبي الإسلام « فقالوا : تقول : كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان ، فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا ، فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا فما تقول ؟ » قال : إن أقرب القول فيه هو أن تقولوا : عنه ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

وبلغ أشراف قريش من الحرص على عدم ترك إنسان يصبأ ما صاروا يراقبون به محمداً مراقبة دقيقة ، وأثرت في الأحنس بن شريق وفي أبى سفيان وأبى جهل تلاوة القرآن ليلاً ، فذهب الأحنس إلى أبى سفيان ثم إلى أبى جهل ليعرب عن مشاعره ، فقال لأبى جهل : (يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفريسي رهان قالوا : منا نبي ياتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ ) .

(ب) اما أسلحة أعداء الإسلام ورسول الإسلام المعاصرين فتتمثل في إصدار الصحف والكتب والنشرات المسمومة ، وإنشاء المدارس والجمعيات والمؤسسات لمحاربة الإسلام في بلاد المسلمين دون رقيب أو حسيب ، اللهم إلا في بعض بلاد وعت حديثاً ، فأخضعت كل مؤسسة ثقافية أجنبية لسلطان الحكومة ، وذلك مظهر كريم من مظاهر سيادة الدولة فحذا لو سرى هذا في جميع بلاد المسلمين .

لقد صدق الله العظيم حين يقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقد أخذت مظاهر الفورة الإسلامية في هذا العصر أشكالاً كريمة وأساليب طيبة ففى دولة الكويت الفتية قامت وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بمجهودات مشكورة لخدمة القضايا الإسلامية فى مختلف أنحاء المعمورة ومدّها بالمال والمساعدات الفتية .

وكذلك الشأن فى كل بلد إسلامى ناهض .. تكتب الأقلام وتنطق الألسنة وتتعدد الأعمال والإنجازات للتمسك بهذا الدين وإعلاء كلمته ونشر محاسنه ودعوة الناس إليه ، فالجامعات الإسلامية فى أفريقية وآسيا منارات هادية .

والحفاظ على القرآن الكريم تحفيظاً وتلقيناً وأداء اتخذ فى هذا العصر صورة مشرقة وحسبك أنك تستطيع أن تدير جهاز الإذاعة فى أى لحظة من ليل أو نهار لتسمع آيات الله تعمل عملها فى القلوب وتترك آثارها فى النفوس .

وليس هذا فحسب ففى وسط القلاع المعادية للإسلام تقوم الجمعيات وتؤسس الاتحادات من المسلمين للدعوة لدين الله الخالد ، ونحيل القارئ على ما تشره الصحف فى هذا الصدد من جهود اتحاد الطلبة فى أمريكا ، وكندا ، وأوروبا .

وقد انتشر الإسلام منذ أول عهده بالكلمة الطيبة ، والدعوة الكريمة الحسنة ، والقدوة المثالية الصالحة فوصل إلى أبعد آفاق الأرض عن منبته الأصلية (مكة المكرمة) ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً من أقاصى آسيا وأدغال أفريقيا ، واستراليا ، وبلاد الأمريكتين بعد اكتشافهما حملة إلى هناك تجار مسلمون ورواد آمنوا بربهم وزادهم هدى ، كما لا يزال يحمله فى بقاع الجيوب السائحون المؤمنون وطلاب العلم والتجار أيضاً .

كل العوامل ، والأحوال العالمية التى تظل البسيطة الآن ، وما يعترى مجتمعاتها من اضطرابات نفسية ، وفقدان للسعادة القلبية ، ويعد عن الراحة والرحمة المستمدة مما نزل به الروح الأمين على قلب خير المرسلين - كل ذلك - سيدعو الناس حتماً إلى اللجوء إلى الله تعالى بحثاً عن المسكنات لجنون الذرة وإيقاف التسابق فى التسليح ، والقضاء على التفريق العنصرى وسوف لا يجدون البرد والراحة والاطمئنان

وهدوء البال مشفوعاً كل هذا بسلام دائم إلا فى الإسلام وقواعده فهو وحده البلسم الشافى الذى يعالج أزمة الضمير العالمى يستل السخائم من النفوس ويوارى الأحقاد ، ويقضى على كل ما يعكر صفو الإنسانية لأن مصدره العليم الحكيم القائل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> صدق الله العظيم .

### والخلاصة :

إن سيدنا محمداً هو رسول الله ولا شك وهو خاتم النبيين دون ريب ، وإن القرآن والدين كله محفوظ إلى أن تقوم الساعة ، ونسأل الله أن يقيض للمسلمين الخير ويجمعهم على كلمة الحق ويقرب ما بينهم ويحقق فيهم قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾<sup>(٢)</sup> .

وأسأل الله جلّت قدرته أن يبصرهم بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ إنه هو السميع العليم نعم المولى ونعم النصير والصلاة والسلام على رسوله وآله أولاً وأخيراً والحمد لله رب العالمين .

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

## الرحلتان القدسيّتان

أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث انس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أنا فى الحجر - وفى رواية الحطيم - بين النائم واليقظان إذا أتانى آت فشق ما بين هذه إلى هذه فاستخرج قلبى فغسله ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يقال له البراق فحملت عليه ، الحديث »<sup>(١)</sup> .

### تمهيد :

(أ) الإسراء<sup>(٢)</sup> هو السير بالليل خاصة المراد به هنا ، سير رسول الله ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى السنة الأولى قبل الهجرة ليلة السابع والعشرين من رجب الفرد على أصح الأقوال .

والمعراج<sup>(٣)</sup> هو السلم ، والمقصود به فى بحثنا هذا ، عروج رسول الله ﷺ من المسجد الأقصى إلى السموات إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام حيث ناجاه ربه السميع العليم .

(ب) والإسراء والمعراج من الأمور الإيمانية السمعية التى عرفت بالتواتر ووردت بالقرآن الكريم والسنة المشرفة ، بما لا يدع مجالاً للشك فيها أو الارتياب فى وقوعها لدى من آمن بالذى جاء به سيدنا محمد ﷺ ، وإن كان بعض العلماء يرى أن القرآن

---

(١) الحديث طويل جداً ونكتفى بإثبات هذا القدر منه هنا ومن أراد استقصاءه فليرجع إليه فى صحيح البخارى فى باب (الصلاة) .

(٢) فى اللغة : سرى يسرى (بضم السين المهملة) ومسرى . وأسرى : أى سار ليلاً وبالآلف لغة أهل الحجاز وأسراء وأسرى به ، مثل : أخذ الخطام وأخذ بالخطام . قال تعالى : «مَبْحَأُنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَثْرِهِ لَيْلًا» الآية الأولى من سورة الإسراء .

(٣) فى اللغة : عرج فى السلم ارتقى ، والمعراج السلم ومنه ليلة المعراج والجمع معارج ومعارج . قال الأفش : إن شئت جعلت الواحد معرج ومعرج «بفتح الميم وكسرها» وكما تقول : مرقاه مرقاه والمعارج المضاعف وورد ذكر المعراج فى «سورة النجم» .

الكريم نص صراحة على الإسراء فى السورة الكريمة المعروفة بها بهذا الاسم (الإسراء) وأشار إشارة إلى المعراج فى سورة (النجم) وأيدت السنة الشريفة الصحيحة وقوعهما فى ليلة واحدة فعلاً لصاحب الرسالة سيدنا محمد ﷺ .

وعلى هذا :

بالبحث يتناول :

اولاً : إسراء رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

ثانياً : عروجه عليه السلام من المسجد الأقصى إلى ستوى سمع فيه صريف الأقدام .

فالأول : وهو الإسراء جاء صريحاً فى قول الله تبارك وتعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى<sup>(١)</sup> الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، كما أخرج الشيخان وغيرهما - فى هذا - الحديث الصحيح الذى أشرنا إليه فى أول البحث .

ولنسر فى بحثنا مع ما رواه الشيخان فهو يحكى الواقعة ما حدث فيها خطوة خطوة .

(١) حادثة شق صدره الشريف وحشوه إيماناً وحكمة ورأفة ورحمة ، قال كثير من المحققين يجب التصديق بما أخبر به رسول الله ﷺ وإن كان خارقاً للعادة ولا يجوز تأويله عن ظاهرة لأنه داخل فى محيط قدرة الله عز وجل .

(٢) أسرى به عليه السلام وهو راكب البراق الذى ورد فى وصفه أنه دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، وكان إذا أتى على واد طالت يداه وقصرت رجلاه ، وإذا أتى على عقبة ، طالت رجلاه وقصرت يداه ، كما كان جبريل مرافقاً لرسول الله فى هذه الرحلة المباركة ، وكان هذا للإيناس كالمعتاد فى سفر البشر عامة فالقلب إليه أميل والنفس به آنس فالرحلتان جرتا على سنن ما ألفه البشر وإن كان الله سبحانه

(١) هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال وهو ثانى مسجد وضع فى الأرض لخبر أبى ذر ، قلت يا رسول الله أى مسجد وضع على الأرض أولاً قال : المسجد الحرام ، قلت ثم أى ، قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه . وقد أسسه يعقوب بعد بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة جدده سليمان أو أتم تجديد أبيه عليه السلام بعد ذلك بكثير . ويرجع فى هذا إلى كتاب « تاريخ الأمم والملوك » لابن جرير الطبرى ج ١ .

قادرًا على نقل رسوله إلى أى مكان يشاء فى طرفة عين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(١)</sup> .

(٣) فى آية الإسراء ورد قوله تعالى ﴿لَثَرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ .. وفى سورة النجم ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ، وقد مثلت لرسول الله فى رحلته من المسجد الأقصى صور كثيرة مما يعرض للناس فى هذه الحياة وما سياتر على ذلك يوم القيامة ولنورد طرفًا من تلك المشاهد التى رآها ﷺ كما وردت فى صحيحى الشيخين وغيرهما . وكانت هذه المرائى فى السموات العلاء أثناء عروجه ﷺ :

(أ) أتى على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبريل ما هذا ؟ فقال هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

(ب) ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شىء (أى لا ينقطع) ، فقال يا جبريل ما هذا ؟ فقال هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة ، وهذا تمثيل وتشخيص لما ستكون عليه أمتة من ترك الصلاة كسلاً أو تأخيرها عن وقتها ، وبيان ما يترتب على ذلك من العذاب الشديد المستمر إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

(ج) ثم أتى على قوم إقبالهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ويأكلون الضريع<sup>(٢)</sup> والزقوم<sup>(٣)</sup> ورضف جهنم<sup>(٤)</sup> ، فقال من هؤلاء الرجال يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وهو تشخيص لمانعى الزكاة من أمتة عليه السلام وتمثيل لحالتهم التى سيكونون عليها يوم القيامة .

(د) ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدورهم ولحم آخر نى خبيث فجعلوا يأكلون النىء الخبيث ويدعون الطيب النضيج ، فقال من هؤلاء يا جبريل ؟ قال

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) الضريع : شوك شائك لا تطيق الدواب أكله لخبيثه ، وقيل هو الشوك اليابس .

(٣) الزقوم : نبت شديد الحرارة كان ينبت فى صحراء تهامة .

(٤) رضف جهنم (بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة) : جمرها وهى حجرتها المحمأة .

هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال فيتركها وبأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، فمثل الزنا بأكل اللحم النيء الخبيث إشارة إلى أن ذوى الطباع السليمة والنفوس المستقيمة لا يقربونه لما فيه من الضرر والخبث وما يترتب عليه من المفاسد .

( هـ ) ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقارض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم . فقال من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة يقولون ما لا يفعلون ، فهم يعملون على الفتنة ليصلوا إلى هدف دنيوى ولا يريدون الأمر بالمعروف ولا النهى عن المنكر فهم يفسدون ولا يصلحون قاتلهم الله أنى يوفكون .

( و ) ثم مر على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل من أمتك يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها ، فقد يفوه المرء بما يودى به ويهلكه ، قال الشاعر الحكيم :

يموت الفتى من عشرة بلسانه      وليس يموت المرء من عشرة الرجل  
فعرته بالقول توجب قتله      وعرته بالرجل تبرأ على مهل

وفى الحديث الشريف : ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت )<sup>(١)</sup> .

( ز ) ولما وصل ﷺ المسجد الأقصى مثل له الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام فأمهم فى الصلاة إيداناً بأن رسالته خاتمة الرسالات وهى شاملة لكل ما جاء به سابقوه من الأنبياء والرسل جميعاً وتزيد أنها دائمة باقية إلى يوم يرث الله الأرض وما عليها ومن عليها .

---

(١) وما شاهده عليه السلام فى هذه الرحلة كبير فقد مثلت له الدنيا ، والمرابون ، وقطاع الطرق ، والخائضون فى اغراض الناس ، والنساء المنحرفات .. إلخ ، مما لو استقميناه لطال المقام وامتد الحديث ..

## والثانى : وهو المعراج .

(١) لقد كان المعراج من المسجد الأقصى إلى السموات العلا ، وفى حديث البخارى (... ثم عرج بى إلى السماء ...) ، وقد اجتمع فى كل سماء مع نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، واطلع على أحوال الجنة والنار ورأى من الملائكة ما لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام رأى ليلة المعراج فى مملكة الله تعالى خلقاً كهيئة الرجال على خيل بلق شاكين السلاح لا يرى أولهم ولا آخرهم .

فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال ألم تسمع قوله تعالى : ﴿وَمَا يَظُنُّمْ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾<sup>(١)</sup> فأنا أهبط وأصعد أراهم هكذا يمرون لا أدرى من أين يجيئون ولا أين ينتهون .

(٢) وانتهى به عليه السلام المطاف إلى مكان علوى رفعت إليه فيه سدرة المنتهى ، وفى هذا يقول ﷺ ... ( ... ورفعت لى سدرة المنتهى فإذا نبتها كأنه قلال هجر وورقها كأنه آذان القبلة ... ، ثم فرضت على الصلاة خمسون صلاة فأقبلت حتى جئت موسى .. فقال ما صنعت ؟ قلت فرضت على خمسون صلاة ، قال أنا أعلم فسله التخفيف ، فرجعت فسألته<sup>(٢)</sup> ... وما زال يتردد بين ربه وموسى حتى استقر على خمس صلوات فى اليوم والليلة ، والصلاة هى العبادة الوحيدة التى فرضت فى السماء دون وساطة جبريل عليه السلام ، وهذا دليل على عظم شأنها ولا غرور .. فقد قال ﷺ : ( الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ) ، وورد أنها العبادة الوحيدة الباقية إلى قريب من النفخة الأولى .

هذا : ولما عاد ﷺ إلى مكة وأصبح الصباح كان لا بد أن يعلم القوم بما رأى وما شاهد ، وتروى كتب السيرة أنه خرج إلى المسجد وأخبر قريشاً ، فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً ، وارتد أناس ممن آمنوا به عليه الصلاة والسلام من

(١) الآية ٣١ من سورة المدثر .

(٢) وفى رواية أخرى للبخارى ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاءت سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة ... إلخ الحديث .

ضعاف الإيمان ، وسعى رجال إلى أبي بكر رضى الله عنه فقال : (إن كان قال ذلك فقد صدق) ، فقالوا : تصدقه على ذلك ، قال : إنى أصدقه على ابعده من ذلك أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة ، فسمى الصديق ، وكان فى القوم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه إياه فجلاه الله له فجعل ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب فيه ، ثم أخبرهم عن غيرهم التى تحمل تجارتهم وعن موعد أوبتها وصدق عليه السلام فى كل ما قال لكنهم لم يؤمنوا . ومن أعمى الله قلبه وأضله فلن يؤمن (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) (١) .

### والخلاصة :

(١) الإسراء والمعراج وقعا فعلاً كما أخبر بذلك الصادق عليه السلام . ونحن نؤمن بوقوعهما إيماناً عميقاً قوياً لا يتزعزع لأن قدرة الله لا تحد . ومما يقوى الإيمان وبشئته ما يحدث فى زماننا على أيدي البشر من دوران حول الأرض ، وإرسال الصواريخ إلى القمر ، وما نرى ونشاهد من نقل الصوت والصورة بل والطيران بالسرعة الخارقة وغير ذلك ، فإذا كانت علوم البشر المحدودة قد وصلت إلى قهر البر والبحر والجو . فكيف يمكن أن تقف قدرة الله وعلمه عند حد .

(٢) - مما ذكره القدماء فى حكمة الإسراء والمعراج أنهما كانتا للمناجاة ولهذا وقعتا من غير مواعدة وهذا أوقع وأعظم ، وكان التكلم مع موسى عن مواعدة وموافاة وشتان ما بين المقامين ، وأيضاً كانت الحكمة فى أن يشاهد عالم السموات العلى وما فوقها كما شاهد الأرض حين طيف به فتمت سياحته عليه السلام فى العالمين العلوى والسفلى . ورأى من ملكوت ربه ودلائل عظيمته ما رأى .

نسأل الله تعالى التقدير أن يعيد هذه الذكرى المباركة الطيبة كل عام على الأمة العربية خاصة والإسلامية عامة بالسعادة والتقدم فى الميدان العلمى تقدماً يسبقون به الشرق والغرب ، كما نسأله جلت قدرته أن يجمع كلمة العرب والمسلمين ويوحد جهودهم ويرزقهم الأمن والاستقرار والرخاء والبركات إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

(١) الآية ١٧ من سورة الكهف .

## إمام الأنبياء

عن أنس رضى الله عنه : « ثم بعث آدم فمن دونه فأهمهم فى تلك الليلة » أخرجه الطبرانى .

وعند مسلم من رواية عبد الله بن الفضل عن ابى سلمة عن ابى هريرة رفعه « ثم حانت الصلاة فأممتهم » .

وفى حديث أبى أمامة عند الطبرانى فى الأوساط « ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً » ..

وفى رواية يزيد بن أبى مالك « ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الأنبياء فقدمنى جبريل حتى أممتهم » .. إلخ ما روى فى هذا مما حفلت به كتب الحديث الشريف .

(١) من آمن بالله سبحانه ، وأيقن بأنه تعالى قادر على كل شىء ، وأن عمله محيط بكل ما دق وما جل لأنه خالقه :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup> لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ<sup>(١)</sup> ، من عرف ذلك لا يدخله ريب فى صدق رسل الله وما تقع لهم من معجزات أعيت سائر البشر أن يأتوا بمثلها ، ولا يصح أن يقاس غائب على شاهد بمقاييس العقول الحادثة المخلوقة التى ما استطاعت أن تجول فى غير المحسوسات لتنتج ، وهذا يقتضينا أن نوقن يقينا جازماً بقيمة الله وعظمته وأنه وحده مدبر الكون ومصرف شؤونه ونسأله أن يهدينا سواء السبيل .

(٢) من هذا المنطلق ندرك أن الإسراء والمعراج وقعا لرسول الله ﷺ بالجسد والروح معاً ، وأن الله أراد منهما أن يطلع حبيبه ومضطفاه على ملكوت السماء والأرض ، وأن يرى ويشاهد مدى عظمة المخلوقات التى لا يقع عليها حس البشر ولا

(١) سورة الحديد : الآيتان ٤ ، ٥ .

يمكن أن يقع ، فهي فوق ما يؤملون ، وفي مستوى لا يرقى إليه إلا الذى اختاره ربه ليحمل خاتمة الرسالات السماوية ﴿لثَوْبَةٌ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ ، وفي الوقت نفسه ليكون ذلك اختباراً لمدى إيمان المؤمنين وكشفاً لنفاق المنافقين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ، وقال العلماء السابقون : (إن الحكمة فى تقديم الإسراء إلى بين المقدس على العروج إلى السماء هى إرادة إظهار الحق للمعاند الذى يريد إخماده ، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء مباشرة لم يجد إلى دفع معاندة الأعداء سبيلاً ، فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سأله عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا قد رأوها ، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك . فلما أخبرهم بما حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس فى ليلة ، وإذا صح خبره فى ذلك لزم تصديقه فى بقية ما ذكره فكان ذلك زيادة فى إيمان المؤمن ، وزيادة فى شقاء الجاحد) (١) .

(٣) وبدأ رحلة الإسراء بأنه جىء لرسول الله ﷺ بدابة دون البغل وفوق الحمار (٢) يضع خطوة عند أقصى طرفه ، فحمل عليه ومعه الروح الأمين ، ولم يزايل ظهر تلك الدابة حتى انتهى إلى بيت المقدس .

وهنا يروى الإمام أحمد عن ابن عباس قوله : (فلما أتى النبى ﷺ المسجد قام يصلى فإذا النبيون أجمعون يصلون معه) (٣) . ولدى فراغه من الصلاة انطلق به جبريل إلى السماء الدنيا ، يقول رسول الله ﷺ : (فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء) . وتكرر هذا السؤال والجواب عند كل سماء حتى السابعة ، وكانت له لقاءات مع الرسل والأنبياء فى كل سماء .

(١) ص ٢٠٠ ، ج ٨ ، من فتح البارى للحافظ بن حجر العسقلانى ، طبعه الحلبي بالقاهرة .  
(٢) هو البراق : وقد وردت له اوصاف كثيرة ومتعددة ، قال ابن أبي جمرة خص البراق بذلك الشرف لأنه لم ينقل أن أحداً ملكه . بخلاف غير جنسه من الدواب ، والقدرة كانت صالحة لأن تصعده من غير براق ولكن ركوب البراق كان زيادة فى تشريفه لأنه لو صعد بنفسه لكان فى صورة ماش ، والراكب أعز من الماشى .

(٣) ولما دخل عمر رضى الله عنه بيت المقدس ، قال : أصلى حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة (فصلى) رواه الإمام أحمد .

ففى السماء الدنيا لقى أبا البشر آدم ، فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : مرحباً بالإبن الصالح والنبي الصالح ، وفى السماء الثانية وجد يحيى وعيسى فسلم عليهما فردا عليه السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، وفى الثالثة وجد يوسف فسلم عليه فرد عليه السلام وقال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، وفى الرابعة التقى بإدريس فسلم عليه ورحب به ، وفى الخامسة هارون فسلم عليه ورحب به ، وفى السادسة شاهد موسى ، وفى السابعة وجد إبراهيم فقال له جبريل : هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه فرد عليه السلام قائلاً : مرحباً بالإبن الصالح والنبي الصالح ، ثم رفع بعدها إلى سدرة المنتهى ، وبعدها رفع له البيت المعمور ، يقول ﷺ : (ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن : فقال هى القطرة التى أنت عليها وأمتك) ثم عرج به حيث فرضت الصلوات .

(٤) فى خلال الرحلة رأى رسول الله ﷺ أشياء كثيرة ، لا نرى بأساً من إيراد بعضها مستقى من أوثق مصادرنا السنة ، للذكرى والعبارة ﴿وَذَكَرْنَا لِلذِّكْرِى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

(أ) روى البيهقى أنه ﷺ مر بشيء يدعوهُ متنجياً عن الطريق فقال له سر ، ثم مر على عجوز فقال : ما هذه ؟ فقال له جبريل : سر ، ثم مر على جماعة فسلموا عليه فقال جبريل : أردد عليهم ، ثم شرح له جبريل ما رأى قائلاً : الذى دعاك إبليس ، والعجوز هى الدنيا ، والذين سلموا عليك : إبراهيم وموسى وعيسى .

(ب) وروى البزار أنه عرض على رسول الله أقوام بيض الوجوه وآخرون فى ألوانهم شىء ، قم دخلوا نهراً فاغتسلوا فخرجوا وقد خلصت ألوانهم ، فقال له جبريل : هؤلاء من أمتك خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولعل فى هذا المشهد تفسيراً للآية الكريمة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

(ج) وروى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ سأل جبريل قائلاً : ما لى لم

(١) ما ورد هنا هو تكملة لما ذكرناه فى شرح الحديث السابق مما شاهده ﷺ فى معراجه .

(٢) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران .

آت أهل سماء إلا رحبوا وضحكوا إلى ، غير واحد سلمت عليه ورد على السلام ورحب بي ، ولم يضحك إلى ؟ قال : ذلك مالك خازن النار وهو لم يبتسم قط منذ أن خلقه الله تعالى لهول ما يرى وما يشاهد .. نسأل الله السلامة من شرها .

(د) رأى جبريل على حقيقته الملائكية التي خلقه الله عليها عند سدرة المنتهى ، قال ابن عباس عند شجرة النبق التي تنتهي إليها علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله وحده ، وهذه الشجرة هي كما وصفها الله : ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ روى أحمد ومسلم والترمذى إنها فى السماء السابعة نبتها كقلال هجر وأوراقها ثل آذان الفيلة ، يسير الراكب فى ظلها سبعين خريفًا لا يقطعها .

(هـ) ولما كان لقاء رسول الله ﷺ فى معراجه قد تكرر كثيراً مع الملائكة ، فلهذا وجب أن نعرف شيئاً عنهم ، وليكن معلوماً أن الحديث عنهم حديث سمعى بمعنى أنه سمع من الصادق الأمين ، كما ورد ذكرهم بالقرآن الكريم ، فالإيمان بهم من الأمور الرئيسية فى الدين كالإيمان برسل الله وكتبه واليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (١) . ومن أنكر وجودهم كفر لأنه أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة واردة بالقرآن العظيم والسنة الشريفة .

والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل بالأشكال الحسنة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقوله كأنه صلصلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قال الحق وهو العلى الكبير » وطبيعتهم الطاعة التامة لله ، والخضوع لجبروته والقيام بأوامره وهم يتصرفون فى شؤون العالم بإرادة الله ومشيئته وهو سبحانه يدبر ملكه وهم لا يقدرون على شىء من تلقاء أنفسهم .. قال تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢) .

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥٠ من سورة النحل .

## وظائفهم :

تحدثت عن وظائفهم كتب التوحيد (أو علم الكلام) طويلاً وقال العلماء : إن الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يعرف أن لله ملائكة يسبحون له الليل والنهار لا يفترون وهذا إجمالاً ، وأن يعرف بعضهم ووظائفهم التى يقومون بها كما حددها الصادق الأمين فيما أوحاه إليه رب العالمين : كجبريل وهو الروح الأمين الذى نزل بوحى الله على رسله عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وميكائيل ، وهو المكلف من قبل الله تعالى بأرزاق العباد يوزعها كما أمره ربه ، وعزرائيل وهو قابض الأرواح عند إنتهاء الآجال أنه يقبض روح نفسه فى المدة التالية للنفخة الأولى ويستمر فى عملية قبض روح نفسه أربعين سنة ، وإسرافيل ، وهو الذى ينفخ فى الصور مرتين ، المرة الأولى يصعق بها كل شىء إلا من شاء الله ، والنفخة الثانية يقوم بها من مات بعد الأولى .. قال تبارك وتعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

ومنهم الملك المكلف بتسجيل حسنات البشر الملك المكلف بإحصاء سيئاتهم ، قال تعالى : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ<sup>(٢)</sup> .. ومن فضل الله على عباده أن كاتب الحسنات يشبثها فى سجل العبد بمجرد أن يهيم العبد بها وإن لم يفعلها ، فإن فعلها كتبها له عشرراً وقد تضاعف إلى سبعمائة ، وأن كاتب السيئات لا يشبثها إلا إذا عملها العبد فعلاً ، فإذا هم بها (أى السيئة) ولم يعملها خشية الله كتب له حسنة ، وإن تركها لعدم توفر أسبابها لم يكتب عليه شىء .. ومنهم منكر ونكير وهما اللذان يسألان المرء فى قبره بمجرد أن يقادره آخر قدم من المشيعين . نسال الله أن يلهمنا الجواب ، ومنهم مالك خازن النار (وقانا الله شرها) وهو الذى لم يتسم قط منذ أن خلقه الله كما تقدم ، ورضوان حارس الجنان جعلنا الله من أهلها جميعاً . وللملائكة عمل فى تدبير أمور الكون من إرسال الرياح والهواء ومن سوق السحب وإنزال المطر وإنبات النبات

(١) الآية ٦٨ من سورة الزمر .

(٢) الآيات ١٧ ، ١٨ من سورة ق .

ونحو ذلك من الأعمال الخافية على الأنظار التي لا تقع تحت الحواس ، وهم يلازمون الإنسان في حياته كلها وبعد مماته . قال تعالى : (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) <sup>(١)</sup> لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ <sup>(٢)</sup> مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) <sup>(٣)</sup> ، قال المفسرون : (أى للإنسان ملائكة يتعاقبون عليه . حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير وشر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وآخر قدامه بين أربعة ملائكة بالنهار وأربعة آخرين بالليل ، حافظان وكاتبان) .. كما جاء في الحديث الصحيح (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيصلعون إليه الذين يأتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيولون : أتيناهم وهم يصلون وتركتناهم وهم يصلون) <sup>(٤)</sup> .

(٥) ونختم الحديث عن الإسراء والمعراج بالإجابة على تساؤل وارد فى هذا المقام وهو : هل رأى سيدنا رسول الله ربه حقًا ؟ والجواب : إن للعلماء منذ عهد الرسول كلامًا كثيرًا حول هذا الموضوع (روى البخارى ومسلم عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمته هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت لقد قف شعرى مما قلت ، أين أنت عن ثلاث من حدثكهن فقد كذب . من حدثك أن محمد ﷺ رأى ربه فقد كذب ثم قرأت : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ <sup>(٤)</sup> ، ﴿وَمَا كَانَ لَيْسَرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْتًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ <sup>(٥)</sup> ، ومن حدثك أنه يعلم

(١) أى هم يحفظونه بأمر الله وأذنه وجميل رعايته وكلاءته .

(٢) الايتان ١٠ ، ١١ من سورة الرعد .

(٣) رواه البخارى .

(٤) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٥١ من سورة الشورى .

ما فى غد فقد كذب . ثم قرأت : ﴿وَمَا تَنْبِيْ نَفْسٍ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾<sup>(١)</sup> ومن حدثك أنه كنتم فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(٢)</sup> ، ولكنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته مرتين . قال الإمام النووى رحمه الله : (لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ، ولو كان معها لذكرته وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية ، وقد خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابى إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاق . والمراد بالإدراك فى الآية الإحاطة وهو لا ينافى الرؤية) .. وأقول بعد إستقراء كامل لأراء القوم ودراسة المذاهب المختلفة فى كتب البحوث العقلية والمناقشات التى دارت رحاها فى العصور الأولى للإسلام .. إنى خرجت مؤمناً بأنه ﷺ رأى ربه حقاً ، وصدقاً ، وهذا ما لا يمنعه العقل ، ولو ذهبت أورد الأدلة لطال البحث فى غير طائل ، وعسانا لا نكون بعيدين عن الحقيقة بل متابعين للسلف من أئمة هذه الأمة والله أعلم ، وأسأل الله القوى القادر أن يعيد ذكرى الإسراء والمعراج على أمة سيد الرسل بالشمل الجميع والخير العميم والكلمة الموحدة ، ويهيىء للمسلمين من أمرهم رشداً إنه سبحانه وتعالى نعم المسئول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ، وصلاة وسلاماً على إمام الأنبياء وخاتم المرسلين وآله وصحبه .

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

## هدى الرسول ﷺ في تبليغ الدعوى والدفاع عنها

روى الترمذى وأحمد والنسائى ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما أخرج رسول الله من مكة وهاجر إلى المدينة قال أبو بكر رضى الله عنه : اخرجوا نبيهم . إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن القوم ، فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه : ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنِ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ .  
قال أبو بكر : فعرفت أن سيكون .

الإسلام دين أخوة وسلام ، لا يدعو في تعاليمه الأصلية إلى قتال مسلح أبداً لحمل الناس على الدخول فيه قوة واقتدار ، وأبرز ما أوصى به أتباعه في هذا الصدد ، هو أن يحملوا نوره إلى البشرية قاطبة ، ويعرضوا هداياه فى لطف ورفق ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(١)</sup> .. قال المفسرون لهذه الآية الكريمة : (وخلاصة ذلك : أسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المثلى ، وهى الدعوة بالتي هى احسن وليس عليك غيرها ، أما الهداية والضلال المجازاة عليهما ، فالى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذا هو اعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال لسوء اختياره ، ويحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبيه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، وهو كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين) . وقال سبحانه قولاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، ولا يحتاج إلى العدول عن ظاهره ، يوضح تماماً بأدنى نظر أن الحق أبلج وأن الباطل لجلج ، فيكفى الكشف عن مزايا الحق وهو الإسلام ، وثبت ذلك بالآية الكريمة : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> ،

(١) سورة النحل ١٢٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٦ .

ومعنى ذلك : لا إكراه على الدخول فى الإسلام فقد بان خيره ووضح ﴿لَمَنْ كَسَانُ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾<sup>(١)</sup> فمن تأمل وفكر ثم ترك من تكون عبادته سبباً فى الطغيان والبعد عن الحق والهدى إنساناً كان أو وثناً ، أو تقليدًا لمارق أو اتباعاً لهوى ، ثم آمن بالله الواحد الأحد ، اعترف بقلبه وفعله بصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم مبشرون ومنذرون بأوامر الله وحده ونواهيه ، فقد استمسك بأوثق عرى الفوز والنجاة ، وأقوى وسائل الخير والنجاح ، والله سبحانه يسمع ويعلم ما تبدى وما تكن الصدور ، وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : (أن رجلاً من الأنصار أسلم وكان له أبنان بقيا بعد الإسلام على دينهما ولم يسلم ، فقال الرجل ويدعى الحصين - للنبي ﷺ . ألا استكثرهما ؟ أى أحملهما على الإسلام مكرهين ؟ حيث أبيا الدخول فيه طائعين ، وفى رواية أنه حاول بل وشرع فى إكراههما فعلاً ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، فقال الرجل يا رسول الله .. أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فنزلت الآية الكريمة : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..﴾ فخلاهما أبوهما وما يعبدان ..

وفى سورة فصلت رسمت الآية (٣٣) الطريقة المثلى للدعوة إلى الله .. قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ . ومن أصدق من الله قليلاً ؟ ومن أجل وأفضل وأسمن ممن يرشد الناس إلى الله تعالى بقوله الصادق ، ثم يطبق ما يفعل على ما يقول ، لأن القدوة العملية أجدى وأكمل ، والمثل الأعلى فى هذا هو رسول الله ﷺ ، وقد كان سيدنا الحسين بن على رضى الله عنهما إذا تلا هذه الآية الكريمة يقول : (هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أوجب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أوجب الله) .. ثم أشارت الآية التالية لهذه (رقم ٣٤) ، السورة نفسها إلى أن هذا عمل لا يتحملة إلا من عرف أن السيئة لا تكافىء الحسنة ، فيجب على الداعى أن يختار الأفضل فكلما صد وعودى وعورضت دعوته من الجاحدين دفع شرهم بخير الدعوة التى هى أحسن ، حتى يلين قلب قاسيهم ويسلس قياد عاصيهم ، ويدركوا من حسن صنيعه عنهم جال ما يحمل إليهم من سعادة وخير ، فينخرطوا فى

(١) سورة ق ٣٧ .

سلكه ويوالوه ويتصدروا هم لحمل الهاية إلى سواهم .. قال تعالى : ﴿ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، قال عمر رضى الله عنه : ( ما عقببت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ) ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ( أمر الله نبيه فى هذه الآية بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعتو عند الإساءة فإذا اقتدى المسلمون به ﷺ فى هذا عصمهم الله من الشيطان وأخضع لهم عدوهم ) . وهضم هذا المعنى من الآية الكريمة مؤمن صادق الإيمان وتمثله شعراً فقال :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب  
فما الناس إلا واحد من ثلاثة  
فأما الذى فوقى فأعرف قدره  
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن  
وأما الذى مثل فىن زل أو هفا  
وقال آخر فىمن عادوه :

وإن كثرت منه لدى الجرائم  
شريف ومشروف ومثل مقاوم  
واتبع فىه الحق والحق لازم  
أجابته عرضى وإن لام لائم  
تفضلت إن الفضل بالحلم اكتم

فإن نهشوا عرضى وفرت عروضهم  
ثم جاءت الآية الكريمة رقم ( ٣٥ ) من نفس السورة فأشادت بفضل سلوك هذا الطريق طريق رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى وبينت أن هذا هو سبيل أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام وضخمت حظ من سار على شكالتهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ . قال المفسرون : ( .. وما يتقبل هذه الوصايا وينسج على منوالها ويطبقتها تماماً على سلوكه إلا الصابرون على تحمل التكليف الشاقة والقادرون على تجرع مرارة الشدائد والكاظمون الغيظ والتاركون الانتقام لأنفسهم لن هذه أمور شاقة صعبة المنال ، لا يتحملها فى مجرى العادة إلا من عصمه الله ووقفه ) .. نسأل الله أن ينظمنا فى سلكه ويسلك بنا طريقهم إنه هو البر الرحيم .

وفوق هذا وذاك يحث الله أمة سيدنا محمد ﷺ على حمل تعاليمه بنفس الطريقة ، طريقة الهدوء والحلم وضبط النفس والبشر ، والابتعاد عن كل ما يشير المدعو

ويغضبه ، فيقول سبحانه في سورة آل عمران آية رقم (١٠٤) : ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . وبهذا يستر حملة شاعل الهداية سائرين في الطريق اللاحب الذى سلكه مرشد العباد ومنير دجناتهم ومبصرهم سيدنا رسول الله ، وتستمر صوى وأعرم الدعوة تهدى الضال وترشد الحيران بأسلوب بعيد عن العنف يقرب ولا ينفرد ويحبب ولا ييغض .

بعد أن استبان بالكتاب والسنة ، أن الدعوة الإسلامية قد أمر رسولها بإتباع الطرق السلمية فى التبليغ عن الله تعالى نعود فنتساءل : إذن ما الذى حمل الرسول الكريم وصحبه على خوض المعارك الحربية منذ غزوة بدر وما سبقها من سرايا وما تلاها من غزوات ؟ ما الذى أجبر هؤلاء الهداة على الاشتباكات المسلحة ، ويجىء الجواب نصا من القرآن الكريم ينزل الله على نبيه آيات تتلى وتحمل فى ثناياها السبب الداعى لهذا الإذن بالقتال حين يقول الله تعالى : ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٣٩)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ.﴾<sup>(١)</sup> وهى أول آية أذن فيها لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام بالقتال ، وتنص صراحة على السبب الداعى إلى هذا الإذن ، وقد أجمله سبحانه وتعالى فى قوله ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ والظلم الذى وقع على رسول الله ﷺ وصحابته فى مكة أول الدعوة بآد للعيان فى إيذاء المشركين لهم إيذاء شديداً تناول الأبدان بالضرب والقتل أحياناً ، وتناول الأقوات بقطع الطعام عنهم ومقاطعتهم فى البيع والشراء ، الأخذ والعطاء وتناول العقيدة نفسها بصددهم ، عن مزاولة عباداتهم فى الأماكن العامة فضلاً عن البذاءة فى القول والإساءة فى المعاملة ، وكانت نهاية المطاف فى التنفنن فى إيذاء الذين آمنوا بالله ورسوله أن أخرجوهم من ديارهم مسقط رؤوسهم ومراتع صباهم ، ففروا بدينهم إلى البلد الذى يطمنون فيه على عقيدتهم ويجهرون فيه بعبادة ربهم وحده ، روى الترمذى وأحمد والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة إلى المدينة قال أبو بكر رضى الله عنه : أخرجوا نبينهم .. إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن القوم ، فأنزل الله سبحانه على نبيه :

(١) الآيات ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج .

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنِ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، قال أبو بكر : فعرفت أن سيكون قتال .. وما كان لمسلمين من ذنب ولا جناية إلا أنهم تركوا عبادة حجارة لا تنفع ولا تضر وعبدوا الله الواحد الأحد قيوم السموات والأرض ، يقول القرآن الكريم : ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِنَّا نَكْفُرُ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾<sup>(١)</sup> ، ويقول : ﴿وَمَا تَقْضُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾<sup>(٢)</sup> مبيّنًا بهذا شأن الكافرين دائمًا فهم ينقمون على المؤمنين إيمانهم .

ونخلص من هذا إلى أن الأسباب التي دعت للدخول في الاشتباك المسلح مع الكفار تتلخص في :

(١) حماية الدعوة ، ودفع الاعتداء الواقع على حملتها ، كما حدث من إعتداء كسرى على من أرسله<sup>(٣)</sup> رسول الله ﷺ إليه ، ثم محاولته (أى كسرى) قتل رسول الله عندما شرع هذا المشرك العنيد يغزى بالعطاء الجزيل من يأتيه برأس محمد رسول الله ، ولكنه قتل على يدي ولده « شيرويه » قبل تنفيذ مؤامرته على الرسول ﷺ ، وكما فعل هرقل ملك الرومان حين أمر بقتل كل من أسلم من أهل الشام ، ولكل ذلك جهز عليه الصلاة والسلام جيشًا قبيل وفاته لقتال الروم بالشام .

(٢) درء المفساد وجلب المصالح عن النهي عن الإعتداء والبغي والظلم ، قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فحروب الرسول كانت دفاعًا وليس فيها شيء من العدوان ، وقد كان المسلمون يكرهون القتال ويحبون المسالمة وتشهد لذلك آية نزلت فرض القتال .. قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥)</sup> ، قال المفسرون : (المراد بذلك : أن المسلمين أنفسهم فئة قليلة ملت هذا الدين واهتدت به ، فخافوا أن يقاوموا المشركين

(١) سورة الممتحنة الآية ١ .

(٢) الآية ٨ من سورة البروج .

(٣) هو عبد الله بن حذافة السهمي الذي حمل كتاب رسول الله إلى كسرى فلما وصله مزق الكتاب استكبارًا .

(٤) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

بالقوة فيهلكوا جميعاً ويضيع الحق الذي هدوا إليه وكلفوا إقامته والدعة به ، فأبان الله سبحانه وتعالى لهم سنته التي جرت بنصر الحق وحزبه على الباطل وأهله ما استمسكوا به ودعوا إليه وافعوا عنه ، وأن القعود عن المدافعة ضعف في الحق يغرى به أعداءه ويطمعهم في التنكيل بحزبه والتألب عليه للإيقاع به) ..

(٣) من أسباب القتال المشروع نقض العهود ونبذها ، قال تعالى : ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> ، أى بدأوا بالقتال ثم نقض العهد فهم المعتدون فعلاً ، كما حدث في عهد الكفار لعهد رسول الله ﷺ ، الذى عقده معهم فى صلح الحديبية ، وترتب على ذل عزمه عليه الصلاة والسلام على فتح مكة . هذا إلى أن الإسلام لم يقر مشركى العرب على دينهم ، كما فعل مع النصارى واليهود لأن الشرك الذى كانت عليه العرب لم يكن ديناً مطلقاً بل عبادة اصنام لا تضر ولا تنفع ، ولأنه لا يمكن أن يستقر حال الإسلام فى الجزيرة العربية وفيها مشرك واحد لأنه يثير القلاقل والفتن ، ولهذا يقول رسول الله ﷺ فى شأن مشركى العرب : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) رواه البخارى .

(٤) أوجب الإسلام الجهاد على جميع المسلمين إذا اجتاحت بلاده وغزيت من عدو خارجي حاول الاستيلاء على جزء من أرض المسلمين ومثال ذلك فى عصرنا . ما حدث فى فلسطين من احتلال العصابات اليهودية لجزء منها فهذا يوجب على المسلمين النفير العام دفاعاً عن هذا الجزء المحتل ، ودفعاً للعار الذى لحق بالإسلام وأهله من جراء الاعتداء الأثيم فالإسلام لا يعفى أحداً من المسلمين من تحمل المسؤولية كاملة غير منقوصة .

**وهكذا :**

لو تتبعنا الحروب والغزوات التى حدثت فى عهد رسول الله ﷺ وعهود خلفائه .

(١) الآية ١٣ من سورة التوبة .

الراشدين لما وجدناها تخرج عن واحد مما أشير إليه سابقاً ، فأبو بكر رضى الله عنه يؤمن بالدعوة ويدافع عنها ويرد الإعتداء على حملتها بتسيير جيش أسامة الذى أعده رسول الله قبيل وفاته لغزو بلاد الروم . وكذلك فعل حينما بعث جند الإسلام يقضون على الفتن الداخلية التى أثارها رجال الجزيرة العربية هم مانعو الزكاة ، وحروب الردة أيضاً التى ابلى فيها خالد بن الوليد رضى الله عنه بلاء حسناً أعاد إلى الإسلام هيئته وقوته ، ومكنت له فى وطنه الأصيل بالجزيرة كلها ، وفى عهد عمر رضى الله عنه فتحت الشام ومصر وبلاد فارس ، وإذا عرفنا أن كل هذه البلاد كانت تهدد الدعوة ويعمل حكامها حينذاك على الكيد للإسلام وأهله ، ويحاولون القضاء على هذا النور الذى عم الجزيرة وأيقظ العرب ، يالبون بمكانتهم اللاتقة بهم على وجه الأرض ، أيقنا أنه لم يكن هناك بد من إعلان الحرب عليهم .

### والخلاصة :

أن العلاقات بين الدول فى نظر الإسلام يجب أن تقوم على السلام والكرامة الإنسانية والوفاء بالعهود وتبادل المصالح فى شتى صورها ، أما إذا ديست العهود ونقضت ، وأهدرت الحقوق وامتهنت ، وعوديت دعوة الإسلام وحوريت ، وتعطلت مصالح المسلمين أو اغتصبت أرضهم واحتلت فهنا القتال ولا مفر منه . يقول الله تعالى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ<sup>(١)</sup> وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup> صدق الله العظيم ، ولعل فيما مضى برهاننا على أن الإسلام لم ينشر دعوته بالسيف ، وإنما نشرها وينشرها فى كل زمان ومكان بالحكمة والموعظة السنته . والله لا يحب المعتدين ، والسلام على من اتبع الهدى .

(١) الاياتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنفال .

## رسالة رسل الله رحمة وحجة

« عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :  
ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ،  
وليس أحد أغبر من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ، وليس أحد  
أحب عليه العذر من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل » .

رواه مسلم

اقتضت حكمة الله العلى الكبير ألا يعذب أحد بأى نوع من العذاب الدنيوى أو  
الأخروى مجازاة له على فعل شيء أو تركه إلا إذا أرسل رسولا يهدى إلى الحق ،  
ويردع عن الضلال ، وبقيم الحجج ، وبمهد الشرائع ، وبلغ الدعوة ، قال سبحانه :  
﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أُنقِيَ  
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾<sup>(٢)</sup> قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ  
مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ<sup>(٣)</sup> وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ  
السَّعِيرِ<sup>(٤)</sup> فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ<sup>(٥)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ أَوَلَمْ  
نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلًا وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> ...

فقد أرسل الله المبشرين والمنذرين إلى العباد منذ بدء الخليقة ، فما من بقعة  
عرت على ظهر الأرض إلا وجاء أهلها رسول من عند الله داعياً إلى الحق بإذنه  
وسراجاً منيراً . قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾<sup>(٧)</sup> وما ذهب إليه بعض أهل  
التأويل من أن هذه الآية الكريمة لا تدل على أن الله سبحانه أرسل رسوله إلى جميع  
الأقوام والأمم ، إذ المراد عندهم منها أن الله عز وجل لم يتأصل أمة بالعذاب إلا  
بعد أن قطع أذارها بإرسال رسول إليها يحذرها عاقبة كفرها وانحرافها . هذا

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات من ٨ إلى ١١ من سورة الملك .

(٣) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٢٤ من سورة فاطر .

التأويل بإياه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾<sup>(١)</sup> .

وهؤلاء المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين منهم من ورد ذكره وذكر أمته في الكتاب الكريم ، ومنهم من لم يرد فيه خبره ولا خبر قومه . قال سبحانه وتعالى : ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾<sup>(٢)</sup> ، كالذين أرسلوا إلى الأمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك .

جاء في تفسير المنار في الجزء السادس منه ص(٧٠) عند تفسير قول الله تعالى : ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ الآية ١٦٤ سورة النساء - ما نصه : ﴿وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي كالمرسلين إلى الأمم المجهولة علمها وتاريخها عن قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك ، كأمم الشرق (الصين واليابان والهند) ، وأمم بلاد الشمال (أوروبا) ، وأمم القسم الآخر من الأرض (أمريكا) .

وإنما لم يقص الله تعالى عليه خبر الرسل الذين أرسلهم إلى أولئك الأقوام لأن حكمة ذكر الرسل وفوائد بيان قصصهم له ﷺ لا تتحقق بقصص أولئك المجهول حالهم وحال أممهم عند قومه وجيران بلاده من أهل الكتاب ، وهذه الحكم والفوائد هي المشار إليها في مثل قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ سورة يوسف الآية ١١١ ، وقوله : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاعَلْنَا فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة هود الآية ١٢٠ ، وقوله : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْقُرَيْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ سورة القصص الآيات من ٤٤ إلى ٤٦ .

فالعبرة والتثبيت والذكرى والاحتجاج على نبوته ﷺ كل ذلك يظهر في قصص من ذكرهم من الرسل دون حاجة إلى من لم يذكرهم ، وحسبنا العلم بأن الله تعالى أرسل

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٢) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

الرسول في كل الأمم ، فكانت رحمته بهم عامة لا محصورة في شعب معين احتكرهم لنفسه كما كان يزعم أهل الكتاب . غير مباليين بكونه لا يليق بحكمة الله ، ولا ينطبق على سعة رحمته ، قال تعالى في سورة النحل الآية ٣٦ : ﴿وَلَقَدْ بَعْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ سورة فاطر الآية ٢٤ .

وهذه حقيقة من حقائق العلم الإلهي والدين السماوي لم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعم مشاغبوهم أن القرآن مقتبس من كتبهم ، وكم فيه من هذه الحقائق ولكن طبع على قلوبهم فهم لا يعقلون . ولا نخوض في إحصاء الأنبياء والرسول فإنه لا يعلم إلا بوحى من الله تعالى ، ولم يبين الله ذلك في كتابه ، ولا فيما صح من الخبر عن المصطفى ﷺ .

وكل هذا الكلام واضح بين صريح ، فإن الله تبارك وتعالى لم يحرم أمة نصيبها في هداية الرسل فأرسل رسله تترى ليعلموا الناس ما يجب عليهم فعله ، وما يجب عليهم تركه ، حتى يثابوا أو يعاقبوا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَدًا وَآلَكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿لَسَلَىٰ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَخْزِي﴾<sup>(٣)</sup> ، فالدين تشريع موافق لسنة الفطرة في تزكيته للنفوس وإعدادها للحياة الأبدية في الدار الباقية ، ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله في الدنيا والآخرة .

لن يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الأكمل الصحيح الذي يريده الله ، ويبلغه رسله عليهم السلام ، والله تبارك وتعالى لم يقصص علينا سير جميع الرسل عليهم أفضل وأزكى السلام ، والحكمة في هذا جد واضحة كل الوضوح ، فإن عدد الذين بعثوا منذ أن استقر الإنسان على الأرض من الكثرة بحيث لا تتسع عدة أسفار حتى لمجرد سرد أسمائهم عليهم السلام ، وقد ورد الكلام عنهم مجملاً في كثير من آيات الذكر الحكيم ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَفْرَىٰ كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً

(١) الآية ١١٥ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٣٤ من سورة طه .

رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>(١)</sup> ... وهذا يفيد كثرة المرسلين وإن من أرسلوا إليهم كذبهم واتبعوا أهواءهم .

ولئن كان معظم الأخبار المنقولة عن الأمم السابقة تدل على أن تلك الجماعات عولت في عقائدها على الأوهام فلا يصح بناء ما قرره القرآن الكريم أن يقال : إنها لم تتل حظها من الرسل فضلت هذا الضلال البعيد وإنما المقطوع به والذي لا يتسرب إليه الشك لدى المؤمن أنها حادت عن جادة المبعوثين ، فهوت فيما تردت فيه من البعد عن الحق وإتباع الهوى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ<sup>(٢)</sup> وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(٣)</sup> وقد اقتصر القرآن العظيم في حديثه عن الرسل عليهم السلام على المعروفين لإتباع موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، لأن في ذكر غيرهم إطالة لا مبرر لها يغنى عنها الإجمال الذي ورد في هذه الآية الكريمة التي سبقت الإشارة إليها ، وهذا من معجزات القرآن الكريم ، فالله سبحانه عالم بأنه سيأتي زمان ترتبط فيه الأمم ترابطاً قوياً باكتشاف وسائل الانتقال السريعة ، وحينئذ يتساءل الناس هل أرسل الله رسلاً إلى الأمم التي لم يكن بيننا وبينها اتصال قبل رسالة سيدنا محمد ﷺ ؟ وإذا لم يكن فلماذا حرموا ذلك ؟ وربما بدت شبهة أخرى على القرآن المعجزة وقد جاء فيه : ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(٤)</sup> فالإمام بالقضية على هذا الوجه المجمل الكافي يعد آية تثير الإعجاب لدى المفكرين الذين يعلمون أن من عاصروا نزول القرآن كانوا يظنون أن حدود العالم لا تمتد إلى أكثر مما وصل إلى علمهم حينذاك .

وقد قرر القرآن العظيم أن الله تبارك وتعالى كان يرسل الرسل إلى تلك الأمم ، فلا يرفعون يهدأ يتهم رأساً ، ولا يقبلون هدى الله الذي أرسلوا به ، بل كانوا يسخرون منهم ويسفهونهم ، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ<sup>(٥)</sup> قَالَ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا

(١) الآية ٤٤ من سورة المؤمنون .

(٢) الآيات من ٦ ، ٧ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ<sup>(١)</sup> . وقال سبحانه : ﴿بِأَحْسَرَةٍ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ، وصدق الله القائل : ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ، والقائل سبحانه : ﴿... وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup> . فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾<sup>(٥)</sup> . فتكلم الآيات الكريمة وكثير غيرها مما اشتمل عليه الكتاب العزيز تدفع ما قد يقال . إن الديانات التي عمت الجماعات البشرية في جميع أطوارها التاريخية إنما كانت مجموعة من الأباطيل الأضاليل فلو أنهم حظوا يرسل يهدونهم سواء السبيل لكانوا أفضل مما وجدوا عليه ، فلماذا كان من تأكيد القرآن أن الله سوى بين البشر جميعاً في إرسال رسله بهداية السماء إليهم ، ولكنهم آثروا أن يقيموا على أساطيرهم وأن يطرحوا ما جاء به الوحي من عند الله العلي الكبير دافع قوي لهذا الالتباس . ويؤيد ذلك تأييداً لا يقبل النقض ، ولا يزال معظمها على حاله يوم دخلوها رغم محاولة تغيير عقائدهم التي ورثوها بأساليب شتى لكنهم لم يظفروا إلا بالنجاح القليل رغم الجهود الجبارة التي لا حدود لها . ولقد حدثني سيد فاضل منذ أيام جاب كثيراً من البلاد المتاخرة في عقائدها ، وأقام بين أهلها طويلاً قال : أن المثقفين من بعض الطوائف التي تعج بها تلك البلاد يعدون بعد أن نهلوا من أرقى جامعات أوروبا فيرتدون رداء العقيدة التي شبوا في نطاقها ، مع أنه لا يمكن لها أن تتسجم مع العقل ، ولا أن تتفاعل مع الواقع وكأن لسان حالهم يردد الآية الكريمة : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup> .

أعتقد أنه بعد هذه الآيات الكريمة ، وبعد هذا البيان الواضح لا يصح بحال أن يقال : ان الله لم يرسل رسلاً إلا في رقعة ضيقة من الأرض هي ما بين الفرات والراين ، وما بين قزوين والنيبل وإنما الواقع أن الله أرسل رسله لكل البشر ولكن من أقوامهم من آمن ومنهم من كفر . والله ورائهم محيط .

(١) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٣٠ من سورة يس .

(٣) الآية ٤٥ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيات ١٠١ ، ١٠٢ من سورة يونس .

(٥) الآية ٢٣ من سورة الزخرف ، ونصها : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ لَدُنَّا إِلَّا قَالَ مُتْرَكُوهَا إِنَّا سَاءُ مُجْتَبِئُونَ بِمَا لَمْ يَحْكُمِ اللَّهُ بِهِمْ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا أَنْزَالَ نَسِيحًا﴾ .

## صمام أمن الحياة وسبيل النجاة فى الآخرة فى ثلاث

حب الله ورسوله ، والتحاب فى الله ، وكراهة الرجوع إلى الكفر بعد الإيمان .

عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما : وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .. رواه البخارى

### الفصل الأول

(١) راوى هذا الحديث هو أنس بن مالك الصحابى الجليل رضى الله عنه ، كان خادماً لرسول الله ﷺ ، ومما أثر عنه قوله : (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى فى شىء فعلته : لم فعلته ؟ ، ولا شىء تركته : لم تركته ؟) .

وجاءت أمه يوماً إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ادع لخويدمك أنس بكثرة المال والولد وطول العمر ، فقال الرسول الكريم عليه السلام : (اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك فيه ، وأطل عمره ، وأغفر ذنبه) ، واستجاب الله لنيبه دعاءه لأنس ، فقد روى أنه عاش ما يقارب المائة عام ، وكان له نخل ويستبان يجنى منه ثماراً كثيرة ، ونسل له أولاد عديدون ، يقول أنس : قد حقق الله دعاء رسول الله ﷺ فى الدنيا ، وأرجو أن تتحقق لى المغفرة يوم يقود الأشهاد .

(٢) الخلال الثلاث التى وردت فى هذا الكلم الطيب كلم رسول الله ﷺ هى صمام الأمن فى الحياة الدنيا والآخرة ، فقد جمعت أطراف الخير وملكت نواصيه ، وفى الوصول إليها والحصول عليها والاتصاف بها لذة روحية وسعادة نفسية وراحة قلبية وأمان من كل ضر ، ثمرتها حلاوة الإيمان ، والتقرب من الديان والانتظام فى سلك أوليائه الذين عرفوه فنوا فيه وتعلقت آمالهم برحابه ، وصقلت قلوبهم بصقاله فلا يصدرون ولا يوردون إلا عن طريقه القويم ، ولا يدرجون إلا فى سبيله المستقيمة

التي لا تميل يمنة ولا يسرة مهما لوح لهم بما يلهي غيرهم من عرض وجوهر ، فما العرض والجوهر إلا من واديه ، ولا يعرف كنه الشيء إلا مبدعه من لا شيء ، يقفون عند الحد المرسوم ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾<sup>(١)</sup> ويمضون بعيداً عن مدار النهي ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾<sup>(٢)</sup> إن لأن لهم المسلك واستنار ، قالوا : هذا فضل ربنا ، وأن تحول شائكاً مستعصياً معنتاً أو قاتلاً قالوا : هذا فضل ربنا ، وأن تحول شائكاً مستعصياً معنتاً أو قاتلاً قالوا : صبراً فالموعد الجنة والراحة هناك ﴿وَأِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾<sup>(٣)</sup> وتساوت لديهم بأساء الحياة ونعماؤها ، ما دامت حلاوة الإيمان تعمر قلوبهم ، وتسكن إليها نفوسهم ، وتنتشى بها أرواحهم ، وأولئك هم الذين يمضون في الطريق طريق رسل الله ، حملة رسالته وأمناء وحيه ، غير هيايين ولا وجلين ، يمرون بالحياة مرور الكرام يصلحون ولا يفسون ، يحسنون ولا يسيئون ، يقدمون الخير للبشرية ولا ينتظرون الجزاء العاجل منها ، هم ملح الحياة وأساتها ، وقادتها الحقيقيون وساتها ، لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، وإلا لهلك الحرث والنسل وأنهار بنيان الوجود ، هم شموع على الطريق تضيء للسالكين ، ويدور تمحو دجنة الليل البهيم ، غيوث أينما حلوا أرووا ، وحيثما هطلوا أثمروا ، وليوث عرينهم محمى ، وحمامهم مصان .. ﴿يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ فَكَذَلِكَ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٤)</sup> .. ﴿إِنَّ اللِّسَةَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>(٥)</sup> و ﴿إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾<sup>(٦)</sup> .

وهم منبثون في ارض الله ، قد تراهم ولا تعرفهم ، وقد تعرفهم ولا تلقى إليهم بالا « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » .. لهم صفات تحدثت عنها سورة الفرقان قرب نهايتها وعدتها دون حصر ، فاتحتها : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾<sup>(٧)</sup> ، وخاتمتها : الجزء

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٨ من سورة الحج .

(٦) الآية ٤٠ من سورة الحج .

(٧) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

الأوفى فى رحاب من أحبوا ومن احتسبوا عنده بلاءهم وابتلاءهم ﴿أَوْلَيْسَكَ يُخْزَوْنَ  
الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا كَبْحَةً وَسَلَامًا﴾<sup>(١)</sup> ، لا يريمون الموضع الذى اختاره حبيبهم  
لهم ولا يبرحونه : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾<sup>(٢)</sup> وما أسن المستقر وما  
اجمل المقام .

(٣) ثلاث صال خصال المتصفون بها بهذا الفضل لأنها من أعمل القلوب لا  
يجد الرياء إليها سيلاً ، ولا يتطلع عليها إلا علام الغيوب الذى يعلم السر وأخفى  
فهي خالصة لله ، المتخلقون بها يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ  
الدِّينَ﴾<sup>(٣)</sup> وهذه الصفات الثلاث :

- (١) أن يقدم العبد حب الله ورسوله على كل شىء .
- (٢) أن تقوم العلاقات بين الأفراد على اللقاء تحت كلمة الله ورسوله .
- (٣) النتيجة الحتمية لصدق حب الله ورسوله والحب فيهما هي كراهية ما يبعد  
عن ساحتهم وبالتالي اتقاء ما يلقى بصاحبه فى السعير وهو الكفر بعد الإيمان ، فمن  
أحبهما وأحب فيهما أقام على الإسلام وفنى فيه وشطن عن كل ما يحول بينه وبينه ،  
وحفظ نفسه من الكفر كما يحفظهما من النار والدمار ..

ولنأت على تفصيل القول فى هذه الخلال الثلاث واحدة واحدة ، ونبدأ بالتى بدأ  
بها رسول الله ﷺ .

أولاً : هذا الكلام الموجز الدقيق ، ألقى أول ما ألقى ويرز إلى الوجود أول ما  
برز إلى صحابة رسول الله من فم رسول الله ﷺ ، فماذا كان موقفهم منه ؟ هل قالوا أن  
فى حلاوة الإيمان استعارة بالكناية ، وإن إثبات الحلاوة تخييل .. إلى آخر ما هنالك  
من لغويات ؟ لا - لم يفعلوا شيئاً من هذا ، لأنهم يعونهم بقطرتهم ، ويعرفونه بسيلقتهم  
العربية الخالصة لسان حالهم ، يقول :

(١) الآية ٧٥ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٧٦ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٩ من سورة الأعراف .

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سيلقى أقول فاعرب

ولأنهم لا يهتمون بالشكل اللفظى ، وإنما بجوهره ومعناه ، وجوهره ومعناه ينسابان إلى قلوبهم إنسياباً يجعله مدركاً بالجنان والبصائر ، فيبحث كل سامع فى دخيلة نفسه عما يتعارض مع حب الله ورسوله من مال وولد ووالد ونفس ونفيس فينقى منه قلبه ووجدانه ، ليحل هناك فى القلب الوجدان حب الله ورسوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(١)</sup> . وحب الله مرتبط دائماً بحب رسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> ، كما ارتبطت طاعة الله بطاعة رسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾<sup>(٣)</sup> .. ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(٤)</sup> .. وكان هذا الارتباط الوثيق لأن الله سبحانه هو مصدر الشريعة وموحها ، والرسول هو المختار لتبليغها وإيصالها إلى البشرية جميعاً ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾<sup>(٥)</sup> .

### لماذا نحب الله ورسوله ؟

(١) أما حبنا لله تعالى فمبعثه أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلقنا وهو الذى بيده مقاليد أمورنا ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾<sup>(٦)</sup> هو مدبر أحوالنا وهو رازقنا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾<sup>(٧)</sup>

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٦) الآية ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٧) الآية ٥٨ من سورة الذاريات .

وهو الملك لكل شيء ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَكُفْرُهُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَكُنْزُهُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> وهو المعبود بحق ، لا إله إلا الله فى الكون كله إلا هو ، فلا شريك له ولا ند ولا مشابه .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ولنتساءل من الذى أوجد الكون من العدم ؟ من الذى يجرى الفلك ؟ من ذا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ؟ من يعاقب الليل والنهار ؟ من يأتى بالشمس من المشرق ؟ من يحيى ويميت ؟ ومن .. ومن .. التى لا تنتهى . جوابها واحد : هو الله سبحانه وتعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ<sup>(٣)</sup> .

إن نظرت إلى السماء هالتك نجومها ، وإن تأملت نبات الأرض بهرتك أشكاله وألوانه .. وإذا فكرت فى البحار وعوالمها لم تسبر غورها ، وناهيك بالجبال والرمال والوديان والصارى وما أجنحت الأرض فى بطنها وما ملت على ظهرها ، كل ذلك يتساقط فى نظام دقيق مدير محكم بديع ذلك تقدير العزيز العليم .

(٢) أما الرسول ﷺ فهو الذى فتح العيون العمى والقلوب الغلف والآذان الصم على آيات الله ، وجاء بالتشريع والتنظيم لحياة الإنسان فى جميع صورها وأشكالها وتحديث بما أوحى إليه عن أسرار الوجود وما بعد الحياة وهدانا الله به إلى الصراط المستقيم .

فإذا لم نحب الله ورسوله فمن الجدير بالحب بعدهما ؟!

سؤال لا جواب له إلا العمل بهذا الكلم الطيب وتطبيقه واقعياً والله المستعان .

(١) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٢) الايتان ١ ، ٢ من سورة الملك .

## الفصل الثاني

مضى بنا القول في هذا الحديث الشريف<sup>(١)</sup> عن الحلال الثلاث التي وردت فيه إجمالاً ، وأشرنا إلى أنها جمعت أطراف الخير ، وملكمت نواصيه ، وإن الحصول عليها والاتصاف بها سعادة ما بعدها سعادة ، وراحة قلبية لا تعادلها راحة ، ثم تساءلنا لماذا نحب الله ورسوله ؟ وأجبنا على هذا التساؤل ، ولم يتسع المقام لتفصيل كيفية حب الله ورسوله حباً منتجاً نافعاً ، ثم الإصاح عنم التحاب في الله تعالى ، والإبانة عن وجوب كراهية العود إلى الكفر بعد الإيمان ، كل أولئك هو ما سنعرض له في هذا الفصل بعون الله تعالى :

### أولاً : حب الله ورسوله كيف يكون ؟

(١) حب الله يكون بامتثال أوامره واجتناب ما نهى عنه ، فالحبيب منقاد دائماً لمن يحب ، مطيع لما يأمر ، منفذ لما يشير به ، والله تبارك وتعالى لا يأمر إلا بما ينفع ويسعد ، فهو سبحانه يريد الإنسان أن يعمر الدنيا بالعلم النافع والعمل المفيد ، فقد جعله خليفة في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾<sup>(٢)</sup> وعلمه الأسماء كلها مما سيمر عليه في هذه الحياة ليدأب في البحث عنها وينتفع بها حين يكتشفها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾<sup>(٣)</sup> .. قال المفسرون : (المراد من الأسماء المسميات ، وعبر بها عنها للصلة الوثيقة بين الدال والمدلول وسرعة الانتقال من إحداها إلى الآخر ، وأيا كان ، فإن العلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات ، أما الألفاظ الدالة عليها فهي تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح) .

والحكمة في تعليم الله آدم أسماء الأشياء أو مسمياتها إن الله تبارك وتعالى أراد تشريفه وبيان علة اصطفاؤه له ، كيلا يفخر عليه الملائكة بما علموا ، وعرفوا مما

(١) في الفصل السابق .

(٢) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

علمهم الله وعرفهم . وأما إظهار أسرار العلوم المكنونة فى غيبه سبحانه وتعالى فيحصل واقعاً على يد من يشاء الله من عباده فى مختلف الأجيال والعصور .

(٢) ومادام الإنسان خليفة فى الأرض فلا بد له أن يوجد مجتمعات فاضلة تسودها المحبة والإخاء والتعاون والتواد والسلام والأمن والطمأنينة ، حتى يستطيع العاملون أن ينتجوا ، وينشئوا حياة كريمة تدفع العالم فى مدارج التقدم والرقى على أساس متن من تعاليم الله التى أوحاها إلى رسله عليهم السلام ، وختمهم بسيد الخلق محمد ﷺ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾<sup>(١)</sup> الذى أنزل الله الكتاب عليه تفصيلاً وتبياناً لكل شىء وكانت سيرته - فى المدة التى عاشها داعياً ومشرعاً وقائداً وحاكماً وهادياً ومرشداً - تحمل الخطوط العريضة لكل مسالك الحياة ودروبها .

(٣) وقد رسم رسول الله ﷺ القاعدة التى يمكن فى ظلها للإنتاج البشرى فى كلمات قصيرة اللفظ عميقة المعنى واسعة الدلالة ، فقال ما خلاصته : ( اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال)<sup>(١)</sup> فالقلق والخوف والجوع والمرض مزعجات تتلاشى معها القوى العاملة ، وتبيد فى ظلها كل عوامل الخير والرشاد ، وتسود الفوضى ، ويعم الفساد .

والطمأنينة والأمن والقوة والعافية كل أولئك يحمل الإنسان على الدأب والتنقيب والبحث عن مكنونات الوجود لخير الناس جميعاً ، فيكشف مخبآت الأرض والبحار والهواء والماء وكل ما يحيط به من علويات وسفليات ، وما شاء الله له أن يعرف من أسرار الكون ويستخدم معلوماته فى تخفيف آلام البشرية وإيجاد مستويات متقدمة أرقى وأفضل .

فهذا كان حب الله ورسوله عاملاً أساسياً على تثبيت أركان الفلاح والصلاح فى هذه الحياة الدنيا فمن أحب الله ورسوله سلم الناس من لسانه ويده ، فأمنوا على أرواحهم

(٤) الآية ٤٠ من سورة الأحزاب .

(١) نص الحديث : ( اللهم غنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) .. رواه مسلم .

وأعراضهم ، وتكاتفوا وشد بعضهم أزر بعض ، وسد واجدهم حاجة معدومهم فساروا كتلة مترابطة لا ينفذ إليها الضعف ، ولا يعترض الوهن ولا الخور سبيلها .

### ثانياً : التحاب في الله :

(١) لو جعل الناس أساس علاقتهم وقوام صلاتهم المنافع المادية البحتة لتقطعت بهم السبل ، وضلوا الطريق ، فمن يستطيع أن يرضى الناس جميعاً بماله مثلاً ولو كانت عنده خزائن قارون وله ملك سليمان ؟ لا أحد . وفي الأثر (أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم) ومن تحابا في الله جعلاً أساس علاقتهما رضاه فصفت نفوسهما للخير ، وصغت لداعى البر والمعروف ، وأخدمت جذوة الغضب ، وقلت بوادر الشقاق والعنف والعداء ، وحمل كل منهما حال صاحبه على الخير حتى ولو أساء إذ يلتمس لإساءته عذراً ، فيستر خطاه ، ويبارك صوابه ، يحفظ عرضه وماله إرضاء لله وتلبية لداعى الحب فيه .

(٢) ومن عجب أنا لو دققنا النظر قليلاً فى أحوال المتحابين فى الله ، لو وجدناهم ملتقين على المنافع المادية أوفى وأكمل وأعظم ما يلتقى الناس من حيث لا يشعرون فلا يرضى أحدهم أن يساء أخوه أو يجوع أو يعرى وهو يستطيع ان يصد عنه الإساءة ، ويسد جوعته ، ويستر عريه ، يؤثره على نفسه ولو كانت به خصاصة لأنه يرجو بمساعدته عون الله وتوفيقه ، ولأنه يؤثر الآجل فيصبر على العاجل ، وحين يشفى من أجله ظاهراً يسعد باطناً ، ويهدأ نفساً ويطيب قلباً .. لأنه يثق فى أن الحياة الدنيا متاع فيكفيه قليلاً ، وتصل أخاه فى الله بكثيرها ، ويؤمن أن الدار الآخرة هى الحيوان فيعبر إليها عن طريق بذل كل جهد ومال وولد فى سبيل الآخرين وإسعادهم - ليحظى عند العلى الكبير بما أعده له وما ادخره لأمثاله من الجزاء الأوفى .

(٣) والمتحابون فى الله تسعد بهم أوطانهم وأقوامهم حيث لا يصدر عنوهم إلا العفو والعافية ، ويعملون دائبين متعاونين فى حقول الكرامة والإيثار يكفون أيديهم عما يؤذى ، ويسطونها بما يفيد ويجدى ، يمرنون باللغو كراماً ، يزرعون الحب ويقتلعون الغل والحقد والحسد ، ينمون الفضائل ويبيدون الرذائل ، يستلون السخائم من النفوس ويملاؤها مودة ورحمة وعافية وتراحماً وأملاً كريماً .

### ثالثاً : كراهية الرجوع إلى الكفر بعد الإيمان :

(١) من آمن بالله ودخل في زمرة المصدقين برسالة سيدنا محمد ﷺ ، وسعد بما يسعد به من أستظل براية الإسلام وذاق حلاوة الإيمان مع المؤمنين ، وعاش في أوطانهم وهو واحد منهم ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وخالطت معرفة الله وجدانه ، وملكت حواسه ، لا يستطيع أن يفلت من ريقة الإسلام ، ولا يمكن أن يعود إلى الكفر بعد الإيمان ، وقد شبه الرسول صلوات الله عليه وسلامه كراهية العود إلى الكفر بكراهة القذف في النار ، لأن كراهة القذف في النار أشد على النفس من غيرها .

(٢) وقد حدد الشارع جزاءً قاسياً لمن تسول له نفسه الرجوع عن الإيمان وهو القتل ، سماه (مرتدأً) ونظيره في التشريعات المعاصرة ما يطلق عليه الخيانة العظمى وهي إفشاء أسرار الوطن وإطلاع العدو عليها لينال منه ، وعقوبة الخيانة العظمى هي الإعدام وهو جزاء عادل لمن تسول له نفسه هتك ستر البلاد والعباد التي نعم بالعيش في ظلها دهرًا طويلاً .

### والخلاصة :

(١) الإيمان نور يقذفه الله في القلوب ، ويشرح له الصدور ، والأرض الصالحة تنبت إذا أصابها الوابل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(٢) للإيمان حلاوة ولذة روحية وعقلية يجدها من تجافى الماديات ، وأخذ منها بالقدر الذي يمسك الذمء ، ويبقى على الحياة ، وجعل في ماله حقاً للسائل والمحروم ، وفي قوته فضلاً للعاجز المستغيث ، في علمه هداية للجاهل ، وطلب جزاء كل ذلك ممن بيده مقاليد الأمور ، فدفع بالتى هي أحسن ، وأخذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الدنيا وسفاسف الأمور . ولو كانت الصلة بالله ورسوله وارتباط الناس جميعاً قائمة على أساس الحب القلبي - إذن لانجابت كل الشرور وبادت كل عوامل الفساد والإفساد .

فاللهم اجعلنا ممن أحبوك وأحبوا رسولك وتحابوا فيك ومروا بالحياة هادين مهديين ، لا يسيئون ولا يساءون ، ينفعون ولا يضررون ، يعيشون للصالح العام ، ولا تجد الأنانية إلى أنفسهم سبيلاً محاطين برعايتك وعنايتك وتوفيقك ولا حول ولا قوة إلا بالله هو حسبنا عليه نتوكل وإليه ننيب .

## نداء الإسلام

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن  
يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما فى التهجير<sup>(١)</sup> لاستبقوا إليه  
ولو يعلمون ما فى العتمة<sup>(٢)</sup> والصبح لأتوهما ولو حبوا » .

(رواه البخارى وغيره)

(١) الإسلام هو الدين عند الله . أراده باقياً خالداً ما بقى الكون وخلد . وأرسى  
أسسه على قواعد ثابتة عجيبة ، لا تقبل النقض ، ولا يتطرق إليها الخلل ، تنهض  
بالبشرية وتسعد الإنسانية ، سهلة هينة يسيرة ، تعالج المشكلات المستعصية ، بوسائل  
غاية فى اليسر ، ونهاية فى اللطف ، قاطعة للداء ، وجالبة للشفاء .

تأمل قليلاً قول سيد الخلق : (لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ...)  
قال الشارحون السابقون - والفضل للسابق على أى حال - لو يدرى المسلمون ما فى  
الأذان من الفضيلة والأجر العظيم والثواب الجزيل ، وانتهوا إلى هذا الحد .. وهذا  
شرح وقول لا غبار عليهما . ولكن أتساءل لماذا استحق الأذان والصف الأول الهروع  
إليهما ؟ لأى شى كان اجر المؤذن المحتسب ، والواقف فى الصف الذى يلى الإمام  
كبيراً ؟ لأن المؤذن يجمع الناس للصلاة وحسب ، أم لأن الوجود فى الصف الأول  
يعنى المبادرة إلى الاستجابة لداعى الله وكفى ؟

الجواب : قد يكون الأمر كذلك ، ولكن الدراسة الواعية للأذان والفهم العميق  
للمبادرة إلى الصف الأول يعطى معنى دقيقاً رائعاً ، ولو أن الناس فهموا لتكاملت  
إنسانيتهم ، ولعمروا الدنيا كلها كما يريد رب الإسلام رب كل شى . ذلك أن ألفاظ  
الأذان ، تحمل فى طياتها دعوة صريحة واضحة جلية إلى التحرر من كل عبودية إلا

(١) التهجير : وقت صلاة الظهر ، وقال مالك رضى الله عنه : صلاة الجمعة فى وقت الهاجرة ، أى شدة الحر .

(٢) العتمة : وقت صرة العشاء .

الله ، واللجوء إلى الواحد الأحد وحده ، فالله أكبر : تهز القلوب المؤمنة هزاً عنيقاً لتصرفها عن بهيمة عمياء ، وتنزع بها إلى تحسس وجودها ، ومكانها من هذا الوجود ، فالله اكبر ولا كبير غيره ، لا تلجأ إلى سواه ، ولا تلذ بحمى من دونه ، وبالتالي كن عبداً مخلصاً خالصاً له ، تنطق بالحق ، وتتحامى بحمى من دونه ، وبالتالي كن عبداً مخلصاً خالصاً له ، تنطق بالحق ، وتتحامى الكذب ، لا يغررك ما جمع فلان من مال ، فالله أكبر ، وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ، فالواهب هو ولا معطى غيره ، وقد يميل بك المال عن طريق الحق لو أعطيته فالواهب هو ولا معطى غيره ، وقد يميل بك المال عن طريق الحق لو أعطيته (بضم الهمزة) إن من عبادى من لو أغنيته لفسد حاله ، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> ، ولا يهولنك عدد أو عديدة فالله أكبر له الغلبة ، وإن راقك علم عالم فالله اكبر -ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾<sup>(٢)</sup> فهو واهب العلم ومن اتقى الله علمه ، فالله أكبر إليه مرجع كل شئ وهو على كل شئ قدير ، تفكر فيما خلق وأبدع -بل فى بعض ما أوجدى على مثال سبق- فإنك لن تستوعب الوجود بعقلك الحادث وقدرتك الضعيفة الواهية الواهية إلا بمدد من الله ، تأمل : هذه الأرض تجد ما حوت قد تتعدد أشكالاً ، وتباين ألواناً ، فهذا ماء عذب ، وذلك ملح أجاج ، وتلك صحارى ورمال ، ووهاد ونجاد وأخرى تنبت الحب الحصيد ليطعم الناس ويعيش الحيوان سل البحار عما حوت ، وتحدث إلى خبراء طبقات الأرض عما عليه اشتملت ، تسمع العجب العجاب مما عملوه . فكيف بهم لو أدراكوا ما لم يدركوا مما غاب عنهم . مما أستاثر اللع بعلمه .. وما سيفتح به على الآيتين من بعدهم -إذا- لوقفوا حيارى مشدوهين . وما استطاعوا جواباً ، لادراكوا أنهما لم يدركوا شيئاً ﴿وَمَا أَرَيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

بعد هذا يتناهى إلى من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - يتناهى إليه أن

(١) الآية ٢٧ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

لا إله إلا الله ، فلا بشر لا حجر ، ولا شجر ولا مدر ، ولا شمس ولا قمر ، ولا تمثال ولا صنم ، ولا مال ولا ولد ، وإنما هو إله واحد يُعبد ، وفي ظل وحدانيته تتوحد القلوب ويأتلف الناس . ويتداعى بعضهم إلى نصرة البعض يعيشون أخوة متحابين ، فلا خصام ولا جدال ، ولا شقاق ولا نزاع ، ولا شك ولا اتهام ، وهكذا تمضى ألفاظ الأذان التي تكرر كل يوم خمس مرات ، بل إن رمت الحق عشر مرات ، تجذب القلوب المستعدة إلى واجب الوجود ، الذي أرسل محمداً بالهدى والدين الحق ليظهره على الدين كله ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وما تعالي وما قال أنى ملك أو ملك (بفتح اللام فى الأولى وكسرهما فى الثانية أو العكس) ولا طغى ولا استكبر . وإنما هى رسالة هادية هادفة موجهة إلى الخير ، إلى السلام ، إلى الأمن ، إلى الطمأنينة ، إلى الإخوة العالمية ، إلى الاستقرار النفسى والعملى ، إلى الركون إلى الأديان ، لا عنجهية فيها ولا التواء ولا غش ولا خداع ، ولا كذب ولا نفاق ، ولا تجبر ولا ادعاء ، سبحانه ربي برأت محمداً على غرار أسلاف له سبقوه : إبراهيم وموسى ونوح وعيسى وسائر إضرابهم الذين رددوا دائماً ، قل : لا أسئلكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني ، ولم يدعوا إلى عصبية . ولم يرضوا بجهالة جاهلية ، وإنما وضحو السبيل إلى الله وسبيل الله خير دائم فى الدنيا ونعيم مقيم فى الآخرة .

(٢) حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، اقبلوا ، تعالوا ، هلموا إلى صلاة طيبة دانية القطوف ، فلاح ونجاح ، ومساعدة ورضى وهدى ورحمة ومودة ، وتعاطف وإخاء ومحبة ، فيها تذكية للنفوس ، وتطهير للقلوب ، قد أفلح من زكاها وطهرها وسما بها عن سفاسف الأمور وحقارات الأهواء ، ونظر بعين البصيرة إلى أفق الوجود الممتد عبر الماضى . والسائر فى طريق الغد دون توقف ، فلك دائرة ، وبشر حائر ، ولكن هنا الفلاح ، وهنا سفينة النجاة ، ربانها ربه ، وداعيتها هاديتها ، باسم الله تجرى وباسمته ترسو .

يعجب كثيراً عالم عالمى عظيم القدر فى الدنيا قديمها وحديثها<sup>(١)</sup> أفى عمره فى التجوال الهادف واتخذ من علم اجتماع مرفقاته ، فهو أستاذه من أرقى جامعات الدنيا ،

(١) القديم غير أمريكا والحديث هى -والمراد بالحدثاة أو الحدوث هنا الاكتشاف فى العالم (بفتح اللام) عالمان قديم وجديد وهكذا مسيرة الحياة ، وإرادة رب الحياة .

لحيته وتحدثت إليه أو تحدث هو إلى طويلاً ، وفي الواقع كانت منجاة لرسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وليس حديثاً كما يعرف الناس الحديث ، قال الرجل العلامة : إنى أعجب لماذا صار الأمر إلى ما إليه صار ، وما الداعى لما دعى إليه الداعى الغفل الذى أوصد باب قلبه وحاول نفس الشئ من قومه -أهله وعشيرته<sup>(١)</sup> فسلام للصلاة ، ودرسوه وفلسفوه ، ولقنوه الأبناء نوراً ، وهدى وتجاوياً مع الخير -لو فعلوا- لانتقادت إليهم تلك القطعان الضالة فى دروب الحياة ، ولغدوا حديث اليوم والغد فى المفاخرة وحسن المآثر ولكن ... وهنا يستولى على الجميع صمت رهيب يعلم الله ما وراءه لأن كشف الحجاب عنده وحده ... وما يعلم الغيب إلا الله<sup>(٢)</sup> .

(٣) والصف الأول : يستحق الاستفهام لأنه نتيجة - عملية - رائعة لفهم النداء ، وهروع فى هرولة وخشوع واستجابة للداعى ، ولياذ بجانب الله ، ولجوء إلى حماه ، فالفاضل إلى الفضل سباق وإلى الخير نزاع ، عظم ثوابه ، وتضخم أجره ، صار قدوة عملية ، وصورة واقعية محبة لم يجب أن يكون عليه المطيع للخالق المطاع ، يحمل قلباً عامراً بالإيمان ، مليئاً بالثقة بالرحمن فمن أحب استجاب ومن استجاب لى ومن لى بادر ، فهو لا يرضى أن يكون فى المؤخرة ، وإنما يتصدر دائماً فى كل مسلك يوصل إلى الله ، ويبادر إلى تلقى رحمته فى سكينة وأدب ، ووقار واعتزاز .

والنداء والصف الأول جديران للاهتمام مستحقان للاستيقاق ، فمالكهما قد ملك ناصية الخير ، وفاقدهما وإدراكا وتحصيلاً وفعلاً قد ظلم نفسه ﴿وَمَا ظَلَمْتَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

(٤) والإسلام يبنى أمة ، ويقيم دولا ، والرخاوة والميوعة واتباع الهوى تهدم المجد التليد وتؤدى بالقوى إلى الحضيض فليس مؤمناً من تراخى وتوانى ، لأن التراخى والتوانى ينجمان عن ضعف وخور ، يعقبان انحطاطاً وإسفافاً ، ومن أخرته الهجرة عن الاستيقاق إلى الخير ، أو عاقته العتمة عن تلبية الداعى فهو من الهوان على

(٢) يشير إلى من يتزعمون فى بلاد المسلمين وينحرفون عن الإسلام دون إدراك لمقومات الأمة الإسلامية كما أَرادها الله .

(٣) هذا العالم هو الاستاذ الدكتور J.B. رئيس قسم الاجتماع بكلية فرنسا بباريس .

الله بمكان لا يغبط عليه لأنه أضعف الروح وأنى الجسد ، والروح بقاء والجسد فناء ، ومع قليل من حرية الكلمة تستطيع أن تلوى أعناق القوم إلى ملاحظة التاريخ حيث يجدون أناساً قد نسوا أو تناسوا قوة الروح وعظمتها ، وركنوا إلى ما مآله العفن والاندثار ، فجعلوا إرواء حيواتهم حياة لهم ، فانهاروا ومضوا تتابعهم اللعنات ، وستلاحقهم إلى حيث دلفوا تحت الصفائح والجنادل ، فمن تغلب على النفس الحوارة وحاول شد أزرها ، سما بها إلى النفس الواعية للحقيقة المدركة لما يفيد من العاجل والآجل ، فلا يستوى قاعد قابع خائف من حر الهاجرة أو من أقضته رهبة الظلام عن الهرولة إلى المساجد لصلاة جامعة ، مع آخر رأى سعادته فى طاعة الله فأرهق الجسد ، وأربى الروح ، ورثت حبال مودته مع الفانى لتجيد مع الباقي . ووراء ظاهرة الشريف على جماله غيب أجمل وأقوى إشعاعاً أدركه العاقلون المحبون لله ، العالمون به ، العارفون لسلطانه ، فجاهدوا الهوى ، ولم يركنوا إلى الراحة والدعة ، فما أهمتهم أنفسهم ، وإنما همهم رضا الله فساروا فى القيلولة إلى بيوت الله ، طائعين راضين آملين فى رحمته سبحانه ورضوانه ، وهؤلاء إذا حزبهام أمر أو جابهتهم نازلة - وما أكثر نوازل الأيام - استعانوا بقيوم السموات والأرض ، صاحب الحول والطول ، ومضوا يخوضون المعامع ، ويتنازلون فى حلبات الوغى ، ويتقدمون الصفوف ، لا ينكصون ويتألمون ولا يتداعون<sup>(١)</sup> أما الهول مهما كان ، ففوق كل قوة قوة الله ، ودون سلطانه كل سلطان ينصر بالتأييد أكثر مما ينصر بالعديد ، يوهن كيد المعتدين بما لا يرى ولا يشاهد حسيًا ، أقوى وأشد مما يداقمهم بالجحافل ، والقنايل .

فالإسلام : قواعده وتوجيهاته ، إشارته وتعبيراته فى أصوله الثابتة ، دعوة صريحة جلية لبناء الإنسانية الحققة الواعية المنبعثة من روح الله ، المدركة لفعاليتها مع الوجود الذى يجب أن تممره بالخير والفضائل ، حتى لا يخشى إنسان حيوانية الآخر ، ولا يرهبه رهبة تمحو شخصيته ، وتعفى آثاره مروءة بدروب الحياة القيمة الأصلية ، وإنما يشد أزره ، ويكون عضدًا له يسانده ويقويه ، وتتكامل الأجزاء فى كتل تتراص ، وتتجمع لتحقيق ما أعتقده الحوارون مستحيلًا ، أو قريبًا من المستحيل ، ونظرة أخرى

(١) من التداعى بمعنى الانهيار والإنحلال (من قولهم تداعى البناء إذ آل إلى السقوط ثم انهار) .

إلى فحوى التوجيه النبوى الكريم تبدى للناظر الفاقه المتدبر أن عابد الفناء  
المستجيب للدعة لا يستحق الرضى من الله ، ولا يلتفت إليه لأنه آثر غير ذى أثير<sup>(١)</sup>  
وأحب من يستحق البغض بل وضع يده فى يد خصم عنيد لدود لياكل روحه ،  
وبغنى فضائله وبلاشيه كما تلاشى ذكاء الجليد .. وفى موضعى - حيث أنا الآن -  
رأيت توأمى عمل ، وصنوى مسلك . بدا<sup>(٢)</sup> أحدهما للرأى شبحاً هزيباً يسير إلى  
جوار من امتص منه الحياة ، ثم هاهو ذا يمضى عنه إلى فريسة أخرى ، يتركه هملاً  
نادماً ولات حيث مندم ، وأما الآخر الصنوى فى النسيلة والأصل فقد بهر الرأى للألاء  
روحه ، وشموخ أنفه ، وارتفاع هامته ، لأنه جافى مسلك صاحبه ، وكان نداء الفناء  
عنده دبر<sup>(٣)</sup> أذنه ، إذ ادرك - قبل الوقوع - إنه فناء ، وواصل حتى وصل إلى هدفه ،  
وسيصبح غداً من قادة الفكر وسادة العقل فى الدنيا مع رصيد ضخّم من الحيوية الروحية  
الفعالة والخلق الهادئ الرصين ، والعلم الراسخ الأكيد المستمد من جوهره من صلته  
الوثيقة بالباقي الدائم ، ويمثل هذا وإضرابه تعتر الإنسانية ، وتبنى المجتمعات  
الفاضلة وتنتصر الأمة وتتصدى للقيادة والسيادة فى كل ميدان إصلاحى هادف .

وأحسبني قد قطعت من الزمن كثيراً فى فكر ، ومضى بى صاحبى رقيقاً ، ولن  
استغل رفقة فيما لا يجدى على الإنسانية الجداء المفيد ، وإنما استأنه فى العودة مرة  
أخرى قبل أن يطول الحديث ويتشعب وأفارقه إلى موعد لقاء بعون الله تعالى  
وكلاءته - وقد وعيت تماماً أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإن من أراضى الفناء فنى  
معه ، ومن لا ذ بالباقي بقى وصمد وخلد كما يشاء الله ، والكل يسعى لصيد فخائب  
يحمل فى جعبته (سربانا)<sup>(٤)</sup> وموفق يقود فى معيته غزلاً .. والكل ماض فى الطريق ..  
وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر .. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

(١) أى اهتم بما لا يستحق الاهتمام .

(٢) بدا بمعنى ظهر .

(٣) بسكون الباء وفتح ما قبلها .

(٤) سربانات Le Serpent : كلمة أعجمية مدلولها فى اللغة العربية الثعبان الفتاك ومعنى العجمة هنا أنها

غير عربية وكفى فهى فرنسية .

## الملائكة تشهد الصلاة

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهو يصلون وأتيناهم وهو يصلون » . رواه البخارى

(١) الله تبارك وتعالى ربنا ورب كل شئ وهو على كل شئ وكيل ، بيده وحده الحفظ والحياطة ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، والبشر هم أحب خلق الله إلى الله ، فقد سخر سبحانه للإنسان كل ما خلق<sup>(١)</sup> ، واختاره ليكون موضع رحمته ومظهر عظمتة ، حيث تركز فيه واستكن سر كل شئ ، فهل يتركه هملاً غفلاً من رقابته ؟ حقاً إنه وحده يعلم السر وأخفى ، ومع هذا - لحكمة يعلمها هو سبحانه فى حقيقتها وتدرج نحن البشر مظاهرها ، فمهما بحثنا ونقبتنا فنحن على الشاطئ شاطئ المعرفة ، أقول مع إحاطته سبحانه بكل شئ علماً ، قد جعل الملائكة شهوداً على أعمال عباده

(١) قارئ الآيات الكريمة من أول سورة النحل ، المتدبر لها السابر غورها الفائص على دررها يعرف أخباراً ويستطلع أسراراً لا تستجلب للعابر دون تفهم أو تبصر حيث يصل ، ولا يمكن أن يصل وإنما يقف على شاطئ المعرفة ، فأسرار القرآن لا تتناهى للبشر ، وكما قلت كثيراً وكما أعتقد أن فى الكتاب العزيز حكماً وأى حكم وإعجاز وأى إعجاز ومقاصد وأى قاصد ، لا تنجلي دفعة واحدة لواحد من الناس ، وإنما تمضى مع الزمان لتضى كل زمان ، ومن أراد مزيداً فى هذا الصدد فليطالع ما كتب الأولون حيث يجد بين علماء متعاصرين اختلافاً فى الإدراك .

إدراك ما وراء اللفظ القرآنى اختلافاً قد يصل إلى التناقض أحياناً ولا تناقض إلا فى فهم الإنسان . ولمحة بيسيرة ، ومع مرور سريع بالآيات الكريمة من أول سورة النحل : أتى أمر الله ولماذا نزلت الملائكة ، وما هو الروح ؟ وهذا خلق السموات والأرض وما فيها والإنسان داخل فى طى ذلك ، ثم إيجاد الحيوان ، وما هو الطريق ؟ وأنزل من السماء ماء أنبت به الزروع وأنعمى الضروع وسخر لكم الليل والنهار والبر والبحر ، ولعن هذه النجوم والتخوم ؟ كل ذلك يريك العجب العجائب الآخذ بالآبواب من أسرار القرآن الكريم وما حوى فاللهم ارزقنا فهمه والسير على نهجه إنك سميع مجيب الدعاء .

وخص المؤمنين بالإسلام<sup>(١)</sup> بتعاقب الملائكة فهم وملاحظة أعمالهم ، يلازمونهم ويرفعون إلى مولاهم<sup>(٢)</sup> - وهو أعلم بهم وأحوالهم - والمرء حيث يشعر ويدرك ويتحقق بإيمانه أنه في حفظ الله وإن ملائكة الله معه لا يفارقونه قيد أنملة ، إذا ذهبت طائفة أعقبها أخرى ، حالتذ يعمل مطمئناً ويسير هادئاً وبنام آمناً .. ويسافر أو يقيم في رعاية الله وأمان منه ، لا يعكر صفوه اضطراب الوجود ولا اختلاف الجديدين .. وقد حدثني من لا يكذبني حديثاً وقع له هو بنفسه ، قال : شاء الله - ولا راد لمشيئته - لأمور خارجة عن إرادة الحاكي - فهو عبد والعبد طوع وإرادة مولا ، أن أنزل بلداً لا عهد لي به ، ولا معرفة لي بلسانه ولا ألفة مع سكانه ، سرت يوماً في شارع غاص بالناس من كل حذب وصبوب لا أدري ماذا أتى وماذا ادع ، كيف أتحدث وإلى أين أسير ؟ .. وهنا بدر إلى القلب .. هؤلاء الذين ترى ، يمشون في واد نشأوا فيه لهم به صلة قرابة وقرية ، وأنت مع من تسير ؟ وفي رعاية من تتحرك ؟ تذكرت وما كنت ناسياً أن مسيرى في رعاية من لا تأخذه سنة ولا نوم ، في رحاب بارئ الكون ، وإن له ملائكة طوافين ، جعلهم حرساً دائماً لعباده ، وما أنا إلا عبد لرب له قدرة هي فوق كل قدرة ، وعلم دونه كل علم ، وعين لا يقف أمامها حجاب ، فما دمت عالماً به متتهجياً نهجه ، فكيف أخاف وهو ربي يسمع ويرى . وأكرر القول ولا أكذبك الحديث .. هنا تبدل حالي وشملتني قوة روحية عارمة ، ومضيت لطيتي هادئاً آمناً ، ووصلت إلى ما رمت في يسر ورفق . واستقبلني من لا أعرف كأني معه نشأت ودار الحديث بيننا صادراً من أحسن قلب بأرق ألفاظ وأدق عبارة يرسم الطريق رسم سابر لها خبير بدروياها ! وصدق الله العظيم ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ قلت : لقد ذكرتني بقول قرأته منذ سنين وسنين لرحالة مصري<sup>(٣)</sup> جاب الصحارى واكتشف المجهول ، قال : لا يمكن لعابر الصحراء أن يجوس خلالها إلا إذا كان مؤمناً بالله وعظمته وقيوميته واذكر دائماً قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(١) إن الدين عند الله الإسلام .

(٢) ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ، لأن الذين كفروا واتبعوا ما اسخط الله وكفروا من بعد ما تبين لهم الهدى فاضلهم وأحبط أعمالهم .

(٣) المرحوم «أحمد محمد حسنين باشا» مكتشف واحة جفجوب في صحارى مصر .

فهل فكر الخلق فى نعم بارئهم؟! عجباً للقلوب القاسية، ولا أقول «ويل» حتى لا أعدو مكان العبودية، فهو سبحانه وتعالى الذى قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

## (٢) يتعاقبون فيكم الملائكة<sup>(١)</sup>:

الملائكة هم الذين يتعاقبون - أى يجئ بعضهم عقب البعض - ويتعاقبون فى المؤمنين، تدور أمام هذا التعبير معركة نحوية بعض شرح هذا الحديث الشريف على القول بأن الراوى قد أوجز الرواية، حيث ورد الحديث بألفاظ أخرى " «إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم» و «.. الملائكة يتعاقبون فيكم» ومن الشراح من رأى اللفظ الشريف فى موضعه، وأورد له حلولاً لغوية<sup>(٢)</sup> تجعله حيث هو فى مرتبته الكريمة من القمة البلاغية لأنه صادر من قمة البشرية، وتعاقب الملائكة مستمر بالليل وبالنهـار، ويستفاد من تنكير (ملائكة) أنهم مختلفون فمراقبو أعمال الليل غير مراقبى أعمال النهار، وضرب ذلك وارد بالقرآن الكريم فى قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا<sup>(٥)</sup> فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ حتى بشر المسلمون بعضهم بعضاً بالخير فقال قائلهم: (ألا يغلب عسر يسرين)، وورد أيضاً فى الآية الكريمة: ﴿عُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ<sup>(٣)</sup>﴾ .. ومن الملائكة من يلزم كل إنسان فى كل زمان ومكان يحفظونه ويحسون أعماله، ولهذا ورد سؤال أجاب عنه المتقدمون فى بحث مستفيض هل هم الحفظة، وهل هم المعنيون بقوله عز وجل: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ .. وسواء كانوا متفقيين فى الكيفية والوظيفة أم مختلفين فليس هذا هدف بحث اليوم، إذ بكل قيل ولكل قول دليل، وكنه البحث هنا متجه إلى ما وراء هذه الرقابة أو الرعاية الإلهية للمؤمنين، فهى تحملهم على الإخلاص، والدؤوب والمواصلة، فقد برأ الله العباد

(١) الملائكة أجسام نورانية - من النور - تشكل بالأشكال الحسنة، خلافاً للجن فإنهم أجسام نارية - من النار - تشكل بالأشكال الحسنة والقيحة.

(٢) قال ابن مالك: تحمل الرواية على لغة بنى الحارث المشهورة بلغة (أكلونى البراغيت) فالواو علامة الجمع وملائكة فاعل. وقال سيويه: ملائكة خبر لمبتدأ محذوف أى هم الملائكة - سبق جواباً لسؤال مقدر - من هم؟ فقيل: هم ملائكة .. إلى آخره، فهذا بحث يطول يرجع إليه فى أمهات الكتب اللغوية الباحثة فى علم النحو.

(٣) الآية ١٢ من سورة سبأ: ﴿وَلَسَلِّمَانُ الرَّبِيعُ عُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ...﴾

على نسق يجعلهم إذا شعروا بملاحظة الغير لهم أحسنوا وأجادوا وأتقنوا ، وإذا علمنا نحن البشر أن ملائكة الله معنا يكتبون أخبارنا ويحصون أحوالنا ويبلغون مولانا - وهو العليم الحكيم - كل ما يصدر عنا ، كان هذا داعياً قوياً ، سبباً أصيلاً موجباً للإستزادة من الخير والبعد عن الشر ، وإدامة محاسبة النفس والوقوف بها عند ما يرضى الله حتى تنال رضاه .

(٣) ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر : والتعاقب لا يمنع اجتماع لأن التعاقب أعم من أن يكون معه اجتماع أو لا يكون ، وورد ذكر صلاة العصر فيه تكريم للمؤمنين ولطف بهم لتكون الشهادة مقرونة بأفضل الأعمال وأحسن الذكر ، وقيل لفضل العمل في هذين الواقفين عند الله تبارك وتعالى ، فمن ترك مضجعه ولبى نداء ربه وقت العصر ووقت الفجر كان فعله هذا دليلاً على إيمانه القوي وعلامة رسوخ عقيدته ، وشدة استجابته لداعى مولاه ووقوفه عند حدوده ، ومواظبته على العمل بأوامره والبعد عن نواهيه .. وقوله ﷺ : ثم يعرج الذين يأتوا فيكم فيه اكتفاء بذكر أحد المتماثلين عن الآخر ، نظير ذلك من الذكر الحكيم قوله تعالى ﴿سَرَّابِلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ...﴾ أى والبرد ، وقيل استعمل لفظ (بات) بديلاً عن (أقام) استعمالاً مجازياً ، وحينئذ يزول اختصاصه بالليل أو النهار ، فكان من صعد من الملائكة يسألهم ربهم ، وقد ورد ما يرجح هذا فى رواية النسائي ... (ثم يعرج الذين كانوا فيكم) والعروج مطلق غير مقيد بليل أو نهار .

#### (٤) فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم :

يسأل الله سبحانه الملائكة - وهو أعلم بعباده- كيف تركتم عبادى ؟ ولم يسألهم كيف لقيتموهم ؟ ففى هذا إشعار بأن الأعمال بخواتيمها ، ولهذا ورد فى الدعاء : (اللهم احسن عاقبتنا فى الأمور كلها) ، فمهما أحسن (بالبناء المجهول) البدء فسينسى إحسانه إذا صار الختام سيئاً ، والحساب لا يتجه إلى الماضى بقدر ما يتجه إلى النهايات ، حتى الكفر سوف يعفى عما فيه إذا آمن المرء ، قال رسول الله ﷺ : (... الإسلام يجب ما قبله) ، فمن اسلم مخلصاً ومات فور إسلامه لن يعذب على ما

سلف منه أيام كفره ، وكذلك من تاب من جرائم ارتكبتها قبله وعفر له ، يقول جل شأنه : ﴿وَأَنِّي لَعَنَّا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾<sup>(١)</sup> ، وفي حديث يصور رسول الله ﷺ (توبة العبد) بصورة تحبها إلى النفس وتباعد بين المذنب وبين القنوط من رحمة الله ، وتجعله في وضع كريم حين يتوب وحين يتحاشى الذنوب ، ويقبل على مولاه بقلب سليم بعد قطيعة ونكوص عن الهدى ، واصغ سمعاً ودع النور يلج إلى قلبك حين تتلوا هذا الحديث الشريف ، فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ ، قال : (الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامة وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده)<sup>(٢)</sup> ، فهذا الحديث الشريف يشير بل يعلن في وضوح أن العبرة دائماً بالخاتمة ، وباب التوبة مفتوح على مصراعيه لا يوصد إلا إذا اقتربت الساعة أى صارت قاب قوسين أو أدنى ، وقال العلماء : هذا يكون في نهاية الزمان وهو ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿... يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيهَا إِيمَانُهَا خَيْرًا﴾<sup>(٣)</sup> . وأشهد الله ملائكته على أعمال بنى آدم ، إظهار لحكمته في خلق الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾<sup>(٤)</sup> . وفي هذا رد على اعتراض سابق ورد من الملائكة حكاة القرآن الكريم في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...﴾ الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .. والله سبحانه أعلم بكل شيء وهو على كل شيء شهيد .

تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهو يصلون : ودائماً يطول الحديث عن هذا الركن العظيم من أركان الإسلام (الصلاة) فهي من أهم الأركان إن لم تكن أهمها ، فيها يجتمع كثير منها : فالركن الأول .. وهو كلمة التوحيد متحقق في أعمال الصلاة

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .

(٢) رواه البخارى وغيره .

(٣) الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

مرات ومرات ، والثاني هو هي ، والثالث : وهو الزكاة .. تدعو إليه الصلاة وتذكر به فيما يتلى فيها مع الذكر الحكيم ، والمؤمن إذا ولج المسجد وشاهد اختلاف الناس بين غنى وفقير ، وصحيح ومريض ، ومعافى وسقيم ، حمله ذلك على بذل العون لإخوانه والبحث في شؤونهم ، والعمل السريع على إغاثة ملهوفهم وإعطاء محتاجهم ، وبذل كل ما يستطيع على حسب مقتضيات الأحوال ، ومنها أن البعض فقير عار جافع غير طاعم ، فالمسلم المصلى ذو الغنى والجاه يحمل ماله ليدفع جوعاً ويكسو عارياً ويرحم ضعيفاً ، والزكاة مظهر كريم من مظاهر التعاون العملى فى الإسلام بين المسلمين ، والرابع هو الصيام .. متحقق ممن يعتاد المساجد ويقبل على الله فلا بد أن يكون محافظاً على صيامه . وإن شذ البعض فالشذوذ لا يدوم ، لأن الصلاة المستوفية لشروطها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وغالباً ما يدور الحديث حول ما يهم المسلمين فى كل أحوالهم ، فإذا حل موسم الحج تحدثوا فيه وعنه ، وتلاقوا عليه وعملوا على تنفيذه ، وبهذا تكون الصلاة سبباً ومدعاة لتنفيذ أركان الإسلام ، الصلاة الحققة هي التى تحمل صاحبها على الاستجابة لله تعالى ، وأما الصلاة التى تؤدى عادة واعتباطاً فليست موضع حديث ولا ذات بال ، وقد ورد فى بعض الآثار الشريفة (من لم تنهه صلاته فكمن لا صلاة له) ، وقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>(١)</sup> يعطى أن من لم ينته لم يصل وإن صلى . وقد اهتم بها كثيراً سيد الخلق ﷺ فى كل أحواله وأقوله ، وجعلها فيصلاً بين الكفر والإيمان فى بعض أحاديثه الشريفة وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وإذا تجاوزت الشدة طورها ، قال : أرحنا بها يا بلال ، وما دامت هناك حياة ووجود يسبح فيه الإنسان ، فهناك آمال وآلام ، ولا بد من الاستعانة على المسالك المتشعبة بمدد الله العليم الحكيم ، وقد وجهنا سبحانه إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾<sup>(٢)</sup> .. وحديث الصلاة حديث يطول .

(١) الآية الشريفة رقم ٤٥ من سورة العنكبوت . والآية بتعامتها : ﴿اللُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ عَمَلُونَ﴾

(٢) الآية ٤٥ من سورة البقرة .

قالت الملائكة لرب العالمين : تركناهم وهو يصلون وأتيناهم وهم يصلون فهذا أفضل حالات المؤمن وخير أعماله ، وأخيراً كلما ازداد الباحث عمقاً في دراسة الإسلام ازداد إيماناً ورسوخاً بأنه لا صلاح للدنيا ولا قيام لمجتمعات فاضلة فيها إلا بتعاليم الإسلام ، تعاليم الله تبارك وتعالى التى أوحاها إلى مبلغها سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . فاللهم وفقنا دائماً لاتباعه وسلوك طريقه واجمع كلمة المسلمين على تنفيذ وصايا الإسلام إنك سميع مجيب .

## الافتداء برسول الله ﷺ

قال عمرو بن العاص : « بينما النبی ﷺ یصلی فی حجر الکعبة إذ اقبل عقبه بن أبی معیط ، فوضع ثوبه فی عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضی الله عنه ، فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبی ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلاً ان یقول ربی الله ؟ ا » رواه البخاری .

(١) الحديث عن رسول الله ﷺ لا یمل ، ولا ینتهی المتحدث فيه إلى نهاية یقف عندها ویقطع الكلام ، لأن حیاته علیه الصلاة والسلام هی رسالته ، ورسالته فی كل أوضاعها رسم دقیق لمشاكل البشر ، وحل أدق لكل مشكلة ، وعرض شامل لمراحل الحیاة ، ومنار واضح لمعالم الرحلة فی كل أحوالها وملابساتها ، ویناء قوى متماسك لمجموعة الكمالات الروحية والمادية التي تقیم صرح الوجود الإنسانی سامقاً شامخاً لا تنال منه زوابع العصور المختلفة ، ولا تؤرجحه أعاصیرها ، وإسعاف سریع حاسم لكل حائر فی ظلام الحیاة أو عان فی مدرجها - لهذا كان استحضار تاریخه ودراسة جهاده ومعرفة العقبات التي بدت فی أفقه ولانت أمام عزمه القوی وثباته العبقری ثم ظهور النور الهادی ، وانبلاج الصبح القاضی على الظلام وتوطيد أركان السمو والعزة فی أصحابه والأرض التي عاشوا عليها والأمة التي حکموها بتعالیم الإسلام - كل أولئك یمنحنا نحن العاشین فی هذا الجو الصاخب اللجب بالمنكرات المضطرب بالفساد الخلقى والاجتماعی أقول : یعطينا القوة والصبر والكفاح والاستهانة بما نلاقى حتى نصل إلى ما یرضی رب العالمین ورسوله ، ونعيد تخطيط مجتمعاتنا على أساس من التبصر الإسلامی مترسمین خطی سید الخلق ﷺ ومستمدین العون ممن أعانه ووقفه ربنا ورب العرش العظیم .

(٢) یمضی علیه أفضل الصلاة وأزكى السلام فی طریقته الذي رسمه له قیوم السموات والأرض ناشراً دین الله ، باثاً دعوته ، مثيراً دعائمها ، غیر عابئ بايذاء المشركین ، ولا ملق بالا لارجاف المرجفین ، ینادیه الروح الأمين بأصدق الحديث : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٩٤)</sup> **إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**<sup>(٩٥)</sup> ﴿١﴾ فهو ﷺ

(١) الأيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة الحجر .

يعلم علم اليقين أنه لابد من مستهزئين به ، سيففون له بالمرصاد ، ويذلون قصارى جهدهم لتحويله عن طريقه ، ولكن من هم أولئك المعارضون ؟ أليسوا عبدة أوثان لا تنفع ولا تضر ، وهو الداعي إلى التوحيد . إلى عبادة من ييده ملكون كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه سبحانه وتعالى عما يشركون ، وقد أخبره بأن فريقاً من قومه لن يؤمنوا مهما أيقنوا بأنه صادق ، لأنهم يصمون آذانهم عن الحق ، ويتعامون عن نوره الأبلج ، ومع هذا يجب ألا ييأس ، وألا يتردد وإنما عليه أن يستمسك بالذي أوحى إليه ، ويصمد مهما لاقى من عنت ومشقة ، وليؤمن بأن عقاب الله واقع ، بالمخالفين المعاندين ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ <sup>(٤١)</sup> فَإِنَّمَا نَذَرْ لَكَ فَأَنَّا مِنْهُمْ مُتَّبِعُونَ <sup>(٤٢)</sup> أَوْ لِرَبِّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ <sup>(٤٣)</sup> فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ <sup>(٤٤)</sup> وَإِنَّهُ لَدَرَكْرُوكَ وَ لِقَوْمِكَ وَسَوْفَ نَسْأَلُونَ <sup>(٤٥)</sup> ﴾ <sup>(١)</sup> .

(٣) نهرع إلى التاريخ لنستمع إليه وهو يقص علينا أبناء الرسول العظيم ، وكيف واجه عناد الشرك بقوة الإيمان ، وجهامة الكفر بسماحة الإسلام ، وعتو المال والولد ، بعون الله شديد المحال .

افتن الكافرون ما شاءت لهم عقولهم أن يفتنوا ، وعمدوا - في بعض محاولاتهم العدوانية - إلى ما تعمد إليه الدول المعاصرة من مقاطعة الأعداء ليحصروهم ، ويحصوا عليهم أنفسهم ، ويمنعوا عنهم القوات حتى يضطروهم إلى التسليم دون قيد أو شرط .

يقول المؤرخ محمد بن اسحاق : ( فلما رأت قريش أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وبدأ الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا - أي الكفار - واثتمروا فيما بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ) وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، دعا عليه رسول الله ﷺ فشلت

(١) الآيات ٤٠ : ٤٤ من سورة الزخرف .

أصابه . وانحاز بنوا هاشم وبنوا عبد المطلب إلى ابي طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا عليه ، وخرج من بنى هاشم أبو لهب إلى قريش فظاھرمهم وكان أبو لهب يقول : يعذنى محمد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى یدى ثم ینفخ فى یدیه ويقول : تبا لكما ما أرى فىكما شيئاً مما يقوله محمد . فأنزل الله سورة كاملة خاصة به وبزوجته الكافرة ، قال تعالى :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ<sup>(١)</sup> مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ<sup>(٢)</sup> سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ<sup>(٣)</sup> وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ<sup>(٤)</sup> فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ<sup>(٥)</sup>﴾<sup>(١)</sup>

وأبو لهب فى موقفه هذا يضربه الله مثلاً للملحدین فى آیات الله فى كل زمان ومكان الذين لا يؤمنون إلا بما يحسون ، ولا يلقون بالآ إلا للمادة البحتة لأن الله تبارك وتعالى طمس على بصائرهم فلا تدرك ، وختم على قلوبهم ، فلا تعى ، حالت المادة الكثيفة بينهم وبين معرفة مدبر الكون فأنى لهم أن يستجيبوا لداعى الحق .

(٤) مضت الأيام بطيئة متناقلة ، وتعاقب جديدها ، نقضت الصحيفة وعادت أمور المقاطعين وأعمالهم إلى تباب ، وأمر الدعوة ظاهراً لا يستطيع أحد أن يوقف تياره الجارف . ولا بأس أن نورد طريقة حدثت أثناء المقاطعة فقد لقي أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد عمته خديجة بنت خويلد ، وهى عند رسول الله ﷺ ، ومعه فى الشعب فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والأت والعزى لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البخترى ابن هاشم بن الحارث ، فقال : ما لك وله ؟ فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم ، فقال أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من الآخر ، فأخذ أبو البخترى لحي بعير ، وضربه به فشجه ، ووطئه وطمأ شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب منهما يسمع ويرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتون بهم ، ولكن الله تبارك وتعالى مخزى الكافرين وحاشرهم إلى جهنم جميعاً .

(١) روى البخارى أنها نزلت غداة قال أبو لهب للرسول الكريم حين جمعهم وبلغهم : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ وروى أنه ظل سائر يومه ینفخ یدیه ويقول : تبا لك يا هذا ... الخ .

(أ) يتمثل الأنموذج الأول : فى أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما أنزل فيها وفى زوجها من القرآن الكريم ، فقد جاءت إلى الرسول وهو جالس عند الكعبة ، ومعه أبوبكر الصديق ، وفى يدها حجر كبير ، فلما وقفت عليهما أخذ الله بصرها فلم تر الرسول الكريم وإنما رأت أبا بكر وحده فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ لقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو رأيت لضررت بهذا الحجر فاه ، ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله بصرها عنى .

(ب) والنموذج الثانى : يتضح فى الأخص بن شريق<sup>(١)</sup> الذى كان إذا رأى رسول الله همزه<sup>(٢)</sup> ، وإذا غاب عن ناظره لمزه ، فأنزل الله فيه : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ السورة .

(ج) والمثل الثالث : العاص بن وائل السهيمى الذى لقى خباباً بن الارت من أصحاب رسول الله ﷺ فقال له : أليس يزعم محمد أن فى الجنة ما يريد أهلها من مال وخدم وثياب ؟ فقال : بلى ، قال : يا خباب لن تكون أنت وصاحبك آثر عند الله منى لأنى فى الدنيا اعظم حظاً منكما فنزل فيه قول الله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا<sup>(٧٧)</sup> أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا<sup>(٧٨)</sup> كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَكَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا<sup>(٧٩)</sup> وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَزْدًا<sup>(٨٠)</sup>﴾ الآيات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من سورة مريم .

(د) والرابع : أبو جهل بن هشام الذى قال لرسول الله يوماً : لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى تعبد ، فنزل قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تُسَبِّحُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية ١٠٨ من سورة الأنعام ، فكف الرسول ﷺ عن سب آلهتهم .

(هـ) ومنهم النضر بن الحارث بن علقمة الذى كان جلس مجلساً فى أهل مكة

(١) قيل الأخص بن شريق وقيل غيره ، وقال مجاهد : هى عامة فى كل من هذا فعله .  
 (٢) قال مجاهد عطاء : الهمزة : الذى يطعن فى وجه الرجل ، واللمزة : الذى يفتابه من خلفه إذا غاب عنه والأصل فى الهمزة : الكسر وفى اللمزة أنه الطعن بالرمح ، ثم شاع استعمالها فى المعنى السابق .. قال شاعرهم :

إذا لقيت عن شحط تكاشرنى      وأن تغيب كنت الهامزة للهمزة

يقول أن محمداً يحكى أساطير الأولين ، وما هو بأحسن حديثاً منى ، فنزل قول الله الكريم : ﴿ وَقَالُوا أَطِيرٌ الْأَوَّلِينَ اِكْتَتَبَهَا فِيهَا تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا <sup>(٥)</sup> ۚ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا <sup>(٦)</sup> ۝ ﴾ الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الفرقان ، وقال تعالى فيهم أيضاً : ﴿ وَبَلِّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَيْمِينَ <sup>(٧)</sup> ۚ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنذِرُ لَهُ ثُمَّ يُمْسِرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ <sup>(٨)</sup> ۝ ﴾ الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الجاثية .

( و ) والمثل السادس هذه الحادثة التي يرويها عمرو بن العاص من بلوغ الحقد والغيب بعقبة بن أبي معيط ، مبلغاً أفقده عقله وصوابه ، فامتدت يده الاثيمة إلى عنق البشير النذير يريد خنقه ، ولولا أن الله ساق إليه الصديق في هذه اللحظة الحاسمة لتغير وجه الدنيا ولقد صدق الله حيث يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَفْعَلُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

هذا : ولو ذهبت استقصى ما حدث به التاريخ من تفنن المعاندين في عدائهم لرسول الله وسلوكهم كل السبل لمحاولة صده عن الحق لمضى الزمان ولما تأت إلا على القليل من فعالهم ، وتلك أمثلة مما صادفه وصمد هو له ليقتردي به خلفاؤه من الأئمة المهديين ، والدعاة المجاهدين من العلماء المتفقيين في دين الله ، فلا تتحقق من الأئمة المهديين ، والدعاة المجاهدين من العلماء المتفقيين في دين الله ، فلا تتحقق وراثته الأنبياء في العلماء إلا بجهادهم في سبيل الدعوة ونشرها وتبليغها والصبر عليها فالأنبياء لم يورثوا مالاً ولا ضياعاً وإنما ورثوا جهاداً وتبليغاً ودعوة إلى الله تعالى بالتى هى أحسن حتى تلين القلوب ، وتستجيب ، ولا يصح سلوك طرق العنف والشدّة حتى لا يتولد العناد والمجابهة في المدعوين والله يقول لموسى وأخيه عليهما السلام حين ارسلهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتَا نَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ الآية ٤٤ من سورة طه ، ويقول : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الآية .. ويقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ... ﴾ والإسلام فى حاجة دائما إلى تكاتف أبنائه ليحملوا رايته ، وعامل واحد يطبق ما يقول على فعل خير وأجدى على الأمة من آلاف يقولون ما لا يفعلون فالقدوة العملية هى التى تنتج وتثمر ، وللمسلمين فى رسول الله أسوة حسنة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، نسأله جلّت قدرته أن يوفق المسلمين قاطبة لفهم كتابه وسنة نبيه والعمل بهما إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

## من توجيهات الرسول ﷺ

قال رسول الله ﷺ : « الكبائر : الإشراف بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين . ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قال : قول الزور » .  
رواه البخارى ومسلم

(١) من توجيهات الشريعة الإسلامية التي تجمع أصول ما حرم الله على عباده في الأعمال والأقوال ، كما تشمل ما يقابلها من أصول البر والفضائل ما ورد متفرقاً في السنة الشريفة ، وفي كثير من سور القرآن الكريم ، وما ورد في السنة الشريفة ، نبه إليه الرسول الكريم في مناسبات مختلفة ، كإجابة سائل ، أو توضيح الحكم في حادثة معينة ، أو علاج أمر شائع بين الناس ، أو متوقع ظهوره في مستقبل الأيام ، وأساليب الرسول ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم في هذا التنبيه والتوجيه ، والحث والتحذير - متعددة متنوعة ، فتارة يبدأ الحديث بلفظ أبياعكم . كالحديث الذي رواه البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « أبياعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا فهو كفارة وطهور ، ومن ستره الله فذلك إلى الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » . وتارة يبدأ الحديث بلفظ اجتنبوا ، كالحديث الذي رواه البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن الرسول قال : « اجتنبوا السبع موبقات : الشرك بالله ، السحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف الغافلات المؤمنات » . وحيناً يبدأ الحديث بلفظ (ألا) كقوله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، وقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال ﷺ يكررها حتى قلنا : ليته سكت » رواه البخارى .. ومن أمثلة ما حذر الرسول أمته منه مما يقع في مستقبل الأيام قوله : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ،

والماشى خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعد به» رواه البخارى ومسلم .

(٣) ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول لعباد الله جميعاً الذين أرسل إليهم . أقبِلوا على آيين لكم ما حرم ربكم عليكم ، فإنه سبحانه وهو الذى يحل ويحرم ، وأنا مبلغ عنه بإذنه ، فأسمعوا عنى هذه الوصايا واعملوا بما جاء فيها ينجيكم ربكم من عذاب أليم فى الآخرة ، ويمكن لكم فى الأرض فى الحياة الدنيا .

**الوصية الأولى :** ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نهى عن الإشراك بالله ، وبدأ به لأن الشرك ظلم عظيم ، فهو الكفر وهو أشد المحرمات إفساد للعقل طمساً للفترة السليمة لا يقبل الله معه صرفاً ولا عدلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> . وكل ما عدا الله مخلوق لله وعبد له ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانَ عَبْدًا﴾<sup>(٢)</sup> فاعبده وحده بما شرعه على السنة رسله وأنبيائه لا باهوانكم ولا بتوجيه أحد من الخلق أمثالكم فإن نكصتم على أعقابكم فذلك هو الخسران المبين ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾<sup>(٤)</sup> .

**الوصية الثانية :** ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً كاملاً تاماً لا تدخروا فيه وسعاً ، ولا تألوا معه جهداً ، وهذا نهى عن الإساءة إليهما مهما صغرت تلك الإساءة فى نظر صاحبها ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾<sup>(٥)</sup> وفى سورة لقمان : ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾<sup>(٦)</sup> وقد روى البخارى والترمذى والنسائى -

(١) الآية : ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآية : ٩٣ من سورة مريم .

(٣) الآية : ١٩٤ من سورة الأعراف .

(٤) الآية : ٥ من سورة البينة .

(٥) الآية : ٢٣ من سورة الإسراء .

(٦) الآية : ١٤ من سورة لقمان .

عن ابن مسعود قال : « سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها <sup>(١)</sup> ، فقلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، فقدم عليه الصلاة والسلام الصلاة لأنها مشتملة على التوحيد والتضرع إلى مبدع السموات والأرض وما بينهما ثم أعقبها بر الوالدين ، وقدمه على الجهاد فى سبيل الله هو أكبر الحقوق العامة على الإنسان ، وذلك لأن حقوق الوالدين على ولدهما أعظم وأجل عند الله من جميع حقوق الخلق عليه ، وعاطفة البنوة من أقوى غرائز الفطرة ، فمن قصر فى بر والديه والإحسان إليهما كان فاسد الفطرة مضيعاً للحقوق جميعها فلا يرجى منه خير لأحد .

**الوصية الثالثة :** «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» فلا يجوز بحال ، ولا يحل أبداً أن تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر الواقع بكم فعلاً أى الفقر المتحقق الحاصل ، وفى آية أخرى وردت فى سورة بنى إسرائيل نهى عن قتل الأولاد خشية الفقر المتوقع أى غير الحاصل فعلاً وإنما تخاف حصوله لكثرة الأولاد ، قال تعالى : «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ غَشِيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» <sup>(٢)</sup> وقدم هنا رزق الأولاد على رزق الآباء عكس آية سورة الأنعام ، فكأنه سبحانه يقول : لا يباح لكم أبداً الإقدام على هذا الفعل الشائن لأن الله يرزق العباد ، ويضمن لهم ذلك بصريح القرآن الكريم «وَلِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» (٢٢) «فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» <sup>(٣)</sup> ، «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» <sup>(٤)</sup> ولكن لابد من السعى والجد فى الحياة والعمل على الكسب الحلال ، فالسما لا تمطر ذهباً ولا فضة «فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا» <sup>(٥)</sup> وحشت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الكثيرة على وجوب الجد فى سبيل كسب الرزق والحصول على ما يمكن الحصول عليه من العيش الحلال ، ولا يعترف الإسلام بالكسالى والأتكاليين ، ولا يقر

(١) أى لأول وقتها .

(٢) الآية : ٣١ من سورة الإسراء (وليس بنى إسرائيل) .

(٣) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .

(٤) الآية : ٦ من سورة هود .

(٥) الآية : ٥ من سورة الملك .

أبدأ سؤال الناس طريقاً للحصول على القوت ، فالمسألة تجيء نكتة سوداء فى وجه صاحبها يوم القيامة ، واليد العليا دائماً خير من اليد السفلى وخيرات الأرض وما أكنت فى باطنها وما أجننت بحارها ، وما حوته مما أودعه الله فيها - يكفى أهلها مهما تكاثروا ، فالذى خلق الأرض قدر فيها أقواتها سواء للسائلين وهو العليم الحكيم ، ولهذا كانت الدعوة إلى تحديد النسل بمعنى إيقافه مؤقتاً أو التوقف عنه نهائياً دعوة مخالفة للشريعة مجافية لروح تشريعاتها ، وما قاله العالم الإنجليزى (مالس) فى نهاية القرن التاسع عشر عن تحديد النسل كان حديث خرافة . تكفل بتنفيذه أبناء جنسه فأعفونا من مناقشة القول ، وإنما يجوز التنظيم للنسل فى حدود الشريعة الإسلامية ، ولينأمل المفتون قول الصادق الأمين عليه السلام لمن جاءه يطلب الإذن فى العزل عن سانيه وخدمته . ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة فافعلوا ما شئتم ، وعزل الرجل وحملت المرأة وشكى الرجل إلى المصطفى ، فأعاد عليه رسول الله القول فى جزمه وتأكيده : ( ... ألم أقل لك ما من نفس كائنة إلى يوم القيامة إلا وهى كائنة ؟ ) ..

**الوصية الرابعة :** ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ ، وتطلق الفاحشة على ما ثبتت شدة قبحه عقلاً وشرعاً ، ولا يرتكب الفاحشة إلا البعيد عن معرفة الله وعن مستوى العقلاء . والفواحش التى يقتربها الجاهلون ، منها : الزنا واللواط ، وقذف المحصنات والمحصنين ، وكثير من الناس من يرتكب بعضها معلئاً بيا ، ومنهم من يأتيها سرّاً بعيداً عن أعين البشر ، أخرج ابن أبى حاتم عن أبى حازم أنه سمع مولاه يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مسألة الناس من الفواحش) وأخرج ابن أبى حاتم أيضاً عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أرايتم الزانى والسارق وشارب الخمر ، ما تقولون فيهم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هن فواحش وفيهن عقوبة) ، وعن عكرمة قال : ما ظهر منها ظلم الناس وما بطن منها الزنا والسرقه ، لأن الناس يفعلونها فى الخفاء ، وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ، وقال تعالى : ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ﴾<sup>(١)</sup> وفى سورة الأعراف : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي

(١) الآية ١٢٠ من سورة الأنعام .

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْأَنْثَمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»<sup>(١)</sup>.

الوصية الخامسة : «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» ، نهى عن قتل  
النفس التي حرم الله قتلها بالإسلام أو بالعهد أو بالاستئمان . روى الترمذى قول  
رسول الله ﷺ : « من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح  
رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين خريفاً » . وروى البخارى من حديث  
ابن عمر رضى الله عنهما : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد  
من مسيرة أربعين عاماً » . وقول الله تبارك وتعالى : «إِلَّا بِالْحَقِّ» أى إلا بما يبيح قتل  
النفس شرعاً ، فى الحديث الشريف : (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأمر ثلاثة : كفر  
بعد إيمان ، وذنبي بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » . وقد ختم الله سبحانه وتعالى  
هذه الوصايا الخمس بقوله جل ثناؤه : «ذَلِكُمْ وَمَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» إشارة إليها  
وهي التي تليت في الآية الكريمة السابقة .

**والوصية معناها :** ما يعهد إلى الإنسان عمله من خير أو ترك شر مع اقتران ذلك  
بما يرجى تأثيره من وعظ أو توضيح لمغبة الشر ومنفعة الخير حتى يكون المرء على  
بصيرة بما يدع وما يأتي ، ووصانا الله تبارك وتعالى بهذه الوصايا التي مر الحديث  
عنها لما فيها من الخير العميم والمنفعة المؤكدة ، فالله لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا  
عن شر ، وكل هذا تدركه العقول الناضجة ، والأفهام السابقة بالتأمل والسير والبصر  
المستتير ، وفي العبارة الكريمة «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» تعريض بأن من يعادى تعاليم السماء ،  
ويطرح توجيهات رب العالمين وينكر ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويسدر  
في غيه ويتمادى في جهالته ويستمر في سيره المعوج ويتخذ سبيل الغي سبيلاً ، من  
يفعل ذلك يقيم دليلاً لا يدفع على أنه لا يعقل أمر وجوده ولا يدرك ما يرفعه مما يخلد  
به إلى الأرض فالأمور التي سبق النهي عنها ليست فيها مصلحة ظاهرة أو خفية لدى  
المفكر المتدبر فمسي أن تعقلوا فتدركوا موطن الفائدة ومحط الخير وطريق الهدى  
فتؤمنوا بالواحد الأحد القادر مالك الملك الذي بيده مقاليد كل شيء وهو على كل

(١) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

شئ قدير ، وحين يدرك الإنسان عظمة ربه وقيوميته يطيع أمره ويتجنب نهيه ، وحينئذ تتكامل إنسانيته ويؤدي رسالته في الحياة ، رسالة الخير فسي جميع صورته وأشكاله ، يبتعد عن مهاوى الشر ومزالق الردى .

**الوصية السادسة :** ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾<sup>(١)</sup>  
 أى مما يتلى عليكم من الوصايا الإلهية الحقيقية بالإتباع أن لا تقربوا مال اليتيم إذا كنتم ولاة أمره ، أو تعاملتم معه ، إلا بأفضل الطرق التى توصل إلى حفظ ماله ونمائه وتكاثره وزيادته ، والإبقاء عليه كاملاً غير منقوص ، ولا تتصرفوا فى ماله إلا بما يعود عليه بالفائدة المحققة والمنفعة المؤكدة ، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾ أبلغ النهى ، لأن هذا التعبير الكريم يتضمن النهى عن الأسباب والابتعاد عن الوسائل التى توقع فى الفعل وتوصل إليه ويلوغه الأشد معناه بلوغه سن الرشد ، وقال صاحب السان العرب : الأشد معناه : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة ، وقد اشترط الشارع الحكيم إيتاء اليتامى أموالهم بلوغهم سن الحل (بضم الحاء واللام) والرشد معاً ، ويظهر رشدهم فى المعاملات المالية بالاختبار والتجربة . قال تعالى فى سورة النساء : ﴿وَأَتْلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> وهو خطاب للأولياء والوصياء ، وميزان الرشد يبدو واضحاً جلياً بكثرة التجارب والمران وإحسان المعاملات وإجادة التصرف فى تقلب المال وتشميره ، قد حذر الله تبارك وتعالى من أكل مال اليتيم لما يترتب عليه من الفساد والأثم الكبير . قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> فمن هضم حق اليتيم وتعدى على ماله وتجاوز المعتاد فى معاملته فقد حشى بطنه ناراً وحمل معه سعيره من الدنيا وارتكب ما يوجب غضب الله عز وجل .

**الوصية السابعة :** ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وهذا امر بالعدل فى حالتى الأخذ والعطاء ، فيجب إتمام الكيل والميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تشترون أو لغيركم فيما تبيعون ، وقد ذم القرآن الكريم المظفين فى سورة سماها باسمهم

(١) الآية ٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٠ من سورة النساء .

ويوعدهم بالعذاب الشديد والنكال الأليم فقال تبارك وتعالى : ﴿وَيْسَلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾<sup>(١)</sup> الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ<sup>(٢)</sup> وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ وأوضحت الآيات أنهم بعيدون عن الإيمان بالبعث والحساب ، فقال تعالى : ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ<sup>(٤)</sup> لِيَوْمٍ عَظِيمٍ<sup>(٥)</sup> يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(٦)</sup>﴾<sup>(١)</sup> . ولما كانت إقامة القسط تاماً أمراً دقيقاً جداً لا يمكن تحقيقه في كل مكيل وموزون تمام التحقيق ، قال سبحانه وتعالى ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى انه تعالى لا يلزم إمرأء إلا بما يسعه فعله بدون مشقة ولا حرج . فالمراد أنه يضبط الكيل والميزان بحيث يعتقد انه لم يظلم فيهما بزيادة أو نقص يعتد به شرعاً ، وقد قص القرآن الكريم علينا ما كان من قوم سيدنا شعيب وبعدهم عن العدل فى الميزان والكيل ، فقال لهم نبينهم : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِكِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وروى الترمذى لصحاب الكيل والميزان : « أنكم وليتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم » .

**الوصية الثامنة : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾** أمر بالعدل فى الأقوال حين الشهادة أو القضاء ، ولو كان المشهود له أو عليه وكذلك المتقاضى عندكم قريباً ، فالعدل فى الأقوال لازم وواجب كالعدل فى الأفعال ، وقد ورد فى سورة النساء ، واضحاً جلياً قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> وشدد الله فى العدل حين الشهادة أو القضاء مهما كانت الصلة بالمشهود له أو عليه أو المتقاضى لأن العدل قوام حياة الأمم فلا يصح أن تحكمننا الصلات قربت أو بعدت فتحملنا على الظلم أو الميل عن الصراط المستقيم ، ومن حاد أو ظلم فالله سيحاسبه لأنه رجل وعلا يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ولا تخفى عليه خافية .

(١) الآية من ١ إلى ٦ سورة المطففين .

(٢) الآية ٨٥ من سورة هود .

(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

الوصية التاسعة : ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أمر بالوفاء بعهد الله دون مخالفة وهو ينتظم ما عهده الله تعالى إلى خلقه على السنة أنبيائه ورسله ، وما عاهد الناس عليه بعضهم بعضاً مما يوافق الشرع . وقد ورد لفظ العهد في القرآن كثيراً مشيراً إلى ما ذكر قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ ، وقال : ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ ، وقال : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ ، وقال : ﴿أَوْكَلْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا بَيْنَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وجعل الله الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين ، فقال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾<sup>(١)</sup> وعد رسول الله ﷺ تكث العهد من صفات المنافقين في قوله : (وإذا عاهد غدر) ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى ان ما سمعتموه مما تلوته عليكم هو ما وصاكم به الله فلعلكم تذكرون ما فيه من الصلاح لكم فيحملكم ذلك على العمل به ويذكر بعضكم بعضاً ﴿وَوَاصُوا بِبِالْحَقِّ وَوَأَصُوا بِالصَّبْرِ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرْ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿سَيَذَكَّرْ مَنْ يَخْشَى﴾ .

الوصية العاشرة : ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ بيان لما يدعو إليه ﷺ من الدين الخالص فالصراط المستقيم هو شرع الله ، عن ابن مسعود رضى الله عنه : خط رسول الله ﷺ خطأ بيده ، فقال : « هذا سبيلي مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك وعن شماله ثم قال : هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ » وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما في معنى هذه الآية : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات . ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه ، فالأمر باتباع الصراط المستقيم والنهي عن سبل الضلال هو ما وصاكم به ربكم فبيئكم للبعد عن كل ما يشقى ويردى في الآخرة ، وعمل ما يوصلكم

(١) الآية ٨ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ٣ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٣ من سورة غافر .

إلى السعادة الحققة فى الدنيا ، وقد وردت آثار كثيرة فى شأن هذه الوصايا منها ما أخرجہ الترمذى وآخرون عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : «من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليه خاتمه فليقرأ هذه الآيات : قال تعالى .. إلى قوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا جميعاً إلى العمل بهذه الوصايا وإتباع كل ما جاء به سيدنا محمد ﷺ ، والسلام على من اتبع الهدى .

## تنفيس الكرب وجزاؤه

عن عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :  
« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من  
كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا  
والآخرة ، ومن ستر مسلماً في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة ،  
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ومن سلك طريقاً  
يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في  
بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا  
نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكروهم  
الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . »  
رواه الشيخان : البخارى ومسلم ، واللفظ للإمام مسلم .

تمهيد :

كل يوم تطلع شمس ، أدرك جديداً من عظمة الإسلام ، ودقة تقيمه للحوادث  
الجارية ، وإحكامه وصف الأدواء وعمق إدراكه لتتائج إهمالها ونفاذ البصيرة فى  
تركيب الدواء ، ويزول عجبى حين أعود إلى نفسى وإيمانى وأصل إلى أن موحى كل  
شئ ومفصل جميع الآيات<sup>(١)</sup> هو العليم الخبير ، ولو تجرد شخص من إيمانه مع فضل  
عقل وقليل من بصيرة وإدراك ووضع أمامه التفاصيل الإسلامية ، ويحث طالباً الحقيقة  
غير مكابر ولا متعنت لألقى الذى وجدناه لا يقبل كماله جديداً ، ولا يبقى معه رأى  
لقائل ، ولا وزن لبحث باحث فى النواحي التى فصلها ولوفر الناس على أنفسهم  
أرواحاً أزهدتها خلافات الرأى وأبادتها طرائق المفكرين الذين اعتمدوا على التجربة  
فى أمور لا تخضع للتجربة بل لا تحتاج إليها بعد أن سلط الإسلام عليها أضواءه  
فبدت ليلة بدر لا ليلة محاق ..

(١) لا أعنى آيات القرآن الكريم وإنما أعنى الآيات الواردة فى قوله تعالى (وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

عاج واضطراب القرن التاسع عشر الميلادي سائراً في طريق ثورات وإرهاقات ذو  
قرنها في أسلاف له سبقوا ومضوا مع الزمن الذي مضى ، والهدف والغاية بل الرجاء  
والأمل الذي ننشده وينشده الجميع هو - كما يقولون - العيش الكريم لكل المستويات ،  
بل قالوا : لا مستويات وإنما هو واحد لا يزيد<sup>(١)</sup> ومضى قرنان إلا قليلاً إذا صرفنا  
القول عن ما عجت ومادت به عصور انقضت من فتن وانقلابات فكرية وتبعها حروب  
وقتل ، أقول : مضى قرنان فتعالوا ننظر النتائج ونتساءل : هل وصلوا إلى نتائج أم لم  
يصلوا ؟ والجواب : أنهم وصلوا وأنهم لم يصلوا .. ولا تناقض هنا ولا تضاد . فما  
وصلوا إليه هو الفوضى بعينها فوضى شعبية وإرهاق للإنسانية وقتل للحرية بالمعنى  
المراد من الكلمة ، بل إبادة كاملة إلا من استطاع الفرار ولجأ إلى مامن ، ونقف هنا  
مع الزمان لحظات لا تطول لتتلقى الجواب على تساؤل وارد ولا ريب .. ذلكم التساؤل :  
كيف تقولون بوجود ضغط وإرهاق في الوقت الذي يحصلون فيه على كشوفات تصل  
بهم إلى غزو القضاء بل وارتداد القريب منه فعلاً ؟ وما أسرع ما نتلقى الجواب من  
مصادره التي لا تعدو في أحكامها الحق والمنطق ، وكان الرد على هذا التساؤل ما  
نصه : نعم يا سيدي هناك كشف لبعض مخبآت الكون وأسراره لا ننكرها وإلا كنا كمن  
يعمى عن ثلوج الشمال وأمطار الاستواء فاستمع : أن مصدر تلك الكشوف علماء  
أحيطوا بسياج حديدي يحول بينهم وبين ما يجري بعيداً عنهم ، وإن كان في أوطانهم ،  
ثم أغلق عليهم ما يريدون وخولوا ما يشتهرون دون قيد أو شرط ، مال ، غذاء ،  
إغراء ، قضاء شهوات ، متاع .. إلخ ، كل ما يخطر ببالهم ولأضرب لك مثلاً ، هل  
رأيت الجنود في الميدان مع المرفهات يساقون إلى الموت ومعهم ما يبتغون ، هناك  
- لدى العلماء المعنيين - الأصل وهنا - في ميدان القتال - الصورة المنعكسة وإن  
شئت فقل أنها الناشئة عن الانعكاس (reflexe) ولعلك أدركت الجواب أنها الحربة  
تطلب للجميع ولا يصل إليها إلا واحد بالمليون .

وأما أنهم لم يصلوا إلى نتائج حاسمة فيما أرادوا فهذا جوابهم هم وهو حقيقة

(١) بينا في حديث سبق أن وحدة الطبقات محالة ، وأن الاختلاف الذي فطر الله الكون عليه هو في  
صالح الحضارة الإنسانية والتقدم العمراني .

منطقهم القولى وواقعهم الفعلى مع أنهم حاولوا التطبيق ، ولا يقول التاريخ أنهم طبقوا فعلاً ، فالتقم الحر لا يخط إلا ما يعتقد وإلا ما به يؤمن مهما جر ذلك من بلاء أو جلب من عنت ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ هذا إيماني ولا اجبر أحداً على إيمان ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ .

وأعود إلى الإسلام باحثاً فأنا مؤمن دائماً وأعرض ما هو مستقى من مصادره من معدنه « والشىء من معدنه لا يستغرب » من محمد بن عبد الله سيدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسأمر بالحديث الشريف شرحاً ولعل من يتصفح يحاول أن يتعمق فكرياً وأن يصل إلى نتائج ، فما عجز فلاسفة الدنيا عن تحديده ، حدده ووضحه الإسلام وفصله رسول الإسلام .

### (١) من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيمة :

ما اكثر كرب الدنيا : الجوع كربة ، والعرى كربة ، والجهل كربة ، والغربة كربة ، وفقد الأحباب كربة ، والحروب كربة ، ولو ذهبت أسرد كرب الدنيا لطال القول ، وضاق المقام عن الاستيعاب ، وفي الدنيا يستطيع سد الرمق بلقمة ، وستر العورة بخرقه ، ومحو الجهل بقليل علم ، ورد المغترب ابن السبيل إلى وطنه ، وتعزیه الفاسد أحبابه ولو بكلمة طيبة ، وأخيراً فى الدنيا من يستطيع إيقاف المجازر البشرية الدائرة الرحى فى كل مكان بكلمة ، بإشارة فإذا تلاشت تلك السبعة العجاف اللاتى يأكلن ما يقدم لهن المميته للنفوس الكريمة ، المبيدة للأخلاق الكريمة الحاملة على النفاق ، مورد الفجور والخنا ، ملعب الشهوات مقصلة البرءاء ، أقول : إذا اختفت عم الخير وساد البشر ، وتفتحت العقول ، وتحاب البشر ، وتلقى الجميع فى رحاب خالقهم أخوة متصافين هذا فى دنياهم وأما أمر الآخرة ، وما ادخره الله هناك من أجر للممتثلين فلا تدرك منه إلا اسمه ، وأما تفاصيله فتسمو على مداركنا ولا يصل إليها تخيلنا . فما عنده سبحانه هو ما استأثر بمعرفة كهو وتفصيله ، ووعده الله لا يتخلف جزءاً وفاقاً ، وهل جزاء الإحسان غلا الإحسان ؟

## (٢) ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة :

تفصيل بعد إجمال لتدرك النفوس المستعدة جمال القول وحسن نتائج الفعل ، وأى أثر أبقى وأقوى وأكثر حسناً ممن يعتمد إلى بعض فضل ماله الذى لا يضيره إنفاقه ، ويمضى به سواد الليل إلى دار محتاج يعرف بسيماه لا يسأل الناس إلحافاً ، أو إلى مقر معتر أو بيت بائس فقير ويطرق بخير ويمد يده بالفضل ، ثم يؤوب إلى مصدره آمناً فى رعاية الله مطمئناً هادئ النفس قريح العين له أدى واجباً يغفل عنه الكثيرون ، وأعان محتاجاً ، ويسر على معسر ، وليس هذا فقط فقد قال سادتنا العلماء السابقون رحمهم الله تعالى بقدر ما أدوا لدين الله خدمات ، أن الحديث الشريف يشمل أيضاً فكاًك أسير الدين والتنازل عنه للمعسر ، فهذا مما لا يضير الدائن وإن كان نفعاً للمدين . وقد وعد الله أنه سيرده إلى فاعلة يسراً فى الدنيا وبركة فى المال وفى الوالد وفى العافية وأما فى الآخرة فما أحوجه إلى تيسير الله وعونه وهناك فى المستقر الموحش الذى لا ينفع فيه إلا عون الله وحده . وقد ورد فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس ، فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا فلقى الله فتجاوز عنه » وروى مسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أنه طلب غريماً فتواري ، ثم وجدته ، فقال : « إني معسر » فقال : قد وضعت الدين عنك ، فإني سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « من سره أن ينجيه الله عز وجل يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » ولمسلم أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله فى ظله » .

## (٣) ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة :

كل إنسان معرض للخطأ ، والمعيبات لا يخلو منها مخلوق ، والسيئات يواقعها كل من سار على قدم ، فالمجرد من الزلات لا وجود له فى الوجود إلا رسول أو ملك كريم ، والمتجافى عن الهفوات ليس نادراً وإنما يكاد يكون معدوماً ، وكل لا يحب أن يرى غيره نقائصه ، ولا أن يطلع على معايبه ، ويحاول جاهداً - إن كانت عنده بقية من حياء - أن يتواري عن الأنظار ، وكثير من الناس مستور ، ولا يحب أن يجاهر بالسوء من القول أو الهجر من الفعل ، ومع هذا فقد يرى بعض خاصته ممن لهم به

مساس بعض ما عنده ، وقل من يثبت على وفاء ، وندر من يقيم على ود ، فالقلوب متقلبة ، وكل يغنى على ليلاه ، وقد تبدو ليلسى فى صورة رائعة حين التشنيع على الآخرين ، وهنا يجىء الإسلام بالعلاج الرحيم ، والقول السديد الكريم فى رفق ولطف ويسر دون عنت يدخل إلى النفوس نسيماً عليلاً وأمثاً مقيماً وراحة قلب وأنس فؤاد ، ويعطى الأجرحين يطلب العمل فطبيعة البشر إنتظار المكافأة فيقول سيد القائلين وأفضل الناطقين بالضاد : « ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » اطلع على عورتها وسترها ، وعرف من أين يصله سوء ودافع عنه ، وخاصة إذا لم يكن الواقع فى الزلة مجاهراً ولا معتاداً ، ولا معرفاً بين الناس بسوء ، فأخفى سيئته وأقال عثاره ، فأما جزاؤه فى الدنيا فنعم الجزاء حيث يهيه الله له من يستره إذا زل ، ومن يأخذ بيده إذا عثر ، وكما تدين تدان ، وأما فى الآخرة فأسمع قول رسول الله ﷺ مفصلاً : روى أبو داود فى سننه قول رسول الله ﷺ : « من رد عن عرض أخيه رد الله وجهه عن النار يوم القيامة » وقال عليه الصلاة والسلام : « من رمى مسلماً بشيء يريد أن يشينه به حسبه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » ولا ادري كيف ؟ وإنما تفصيل ذلك عند علام الغيوب . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من مسلم يخذل امرءاً مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ ينصر مسلماً فى موطن ينتقص فيه من حرمة ، وينتهك فيه عرضه إلا نصره الله تعالى فى موطن يحب فيه نصرته » .

#### (٤) واللله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه :

وهذا نوع من الجزاء العاجل والآجل معاً ، فبعد التفصيل فى المواطن الثلاث أجمل القول جامعاً كل أنواع المعونات وأماكنها وكيفيتها وكميتها فى بذل العبد وعونه لأخيه فى موطن ضعفه ووقت حاجته إليه : فيتنفس عنه كربة ويسر عليه ، ويستر عورته ويقل عثرته ، ويداوى كلومه ويذكره بما يحب أن يذكر به ، وما جزاء ذلك إلا عون الله وأكرم به من عون ، عون من بيده مقاليد الأمور ، سبحانه رسى ما أكرمك وما اعظم ما أوحيت إلى رسولك ، وما أبين ما وصى به حبيبك وخليك عليه وعلى آله الصلاة والسلام فهل عقل وتدبر إتباع سيدى رسول الله ، أم هم بالاسم إتباع وفى الواقع أحمال وأعباء ؟ ...

## (5) ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة :

ما اكثر ما حث الإسلام على العلم ، وما اكثر ما شاد بالعلماء ، وما أوضح الآيات البيّنات المحكمات فى كتاب الله التى تدعو إلى العلم وترفع من شأنه وتحث عليه ، وأن الاستقصاء فى هذا يطول وكتاب الله مفتوح لمن يريد معرفة وفقها ، وخاصة رأى الإسلام فى هذا ، أن أمة تقيم على جهل ليست أمة مسلمة ، وليست متمية إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمحمد سيد العلماء ورسول الهداية ونيراس الوجود ، ونشأ لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الله اجتباه وعلمه فكيف يكون من أتباعه جاهل أو مقيم على جهل مادام يجد إلى التفقة فى مختلف العلوم سبيلاً ؟ وفى الحديث الشريف دعوة قوية صريحة ، بل صرخة داوية تردد أصداءها أركان الوجود ، تهبب بالمؤمنين أن هلموا إلى مناهل العلم فاعترفوا منها حيثما وجدت «خذ الحكم ولو من فم الكافر» وإنى وجدت ، فلا حياة بدون علم ... وكل لذة ومتعة لها سن معينة فى مراحل حياة الإنسان تزول بزوالها ، وتمضى معها لذة العلم وإلا حب العلم ، فإنها المستمرة الدائمة مادامت الحياة ، فمهما بلغ الإنسان من الكبر عتياً فلا يزال شغوفاً بالتعلم والاستزادة من المعرفة - إن كان عاقلاً - وهو الميدان الكريم الذى يتبارى فيه ويتنافس أصحاب العقول الممتازة فى هذه الدنيا دون مساس بحرية الآخرين أو النيل منهم .. فميدان العلم هو ميدان الجهاد من المهد إلى اللحد ، الجهاد الشريف النافع المنتج المفيد .. الإقبال على العلم يفتح أبواب المعرفة ، ويسمو بالخلق وينهض بالأمم ويرقى بالشعوب ، ويقدم المتأخر ، ويرفع من لم ينهض له مال أو جاه ، ويجعله فى مركز قيادى .. ولو عرف المسلمون قيمة توجيه الرسول العظيم لعضواً عليه بالنواجذ لكان لهم السبق فى كل مجال ، ولظلت لهم القيادة والصدارة عبر الزمان ، وما أحلى هذا التعبير النبوى الجميل « سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » أى علم هذا يوصل إلى الجنة ، ويفتح إلى الجنة ، ويفتح أبواب الفردوس ويبعد الطريق إليها ... أهو علم السنن والفرائض ؟ أهو معرفة حدود الله التى نزلت على رسول الله ﷺ ؟ أم هى علوم الدنيا كما يحلو للبعض أن يسميها من كشوف وبحوث فيسة بحتة ، ومعرفة أسرار الذرة وقنابلها وصواريخها وما سيرفر من أسرار ؟ والجواب .. جواب الفاحص

الفاقة لما نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .. هو : اطلبوا كل العلوم دون استثناء ، فلا يوجد في الإسلام شيء اسمه علوم دنيا فقط ولا علوم دين فقط ، فهذا متمم لذلك وجزء منه ، والنقص من أحدهما نقص من الخير ، وفتح ثغرة للهلاك والدمار ديناً ودنيا . فمتى يستطيع الحفاظ على حدود الله ؟ وكيف يدافع عنها ؟ ولا يمكن هذا إلا بمعرفة آلة الحفاظ والوصول غليها ، وشاء الله عز وجل أن يجعل لكل هدف سلاحاً ، فمن ملك ناصية العلوم الكونية وعرف أسرارها قسم مركز الصدارة - كما هو مشاهد لا يحتاج إلى دليل - وبهذا يستطيع الحفاظ على ما استحفظ عليه من حدود الله - وبهذا يستطيع الحفاظ على ما استحفظ عليه من حدود الله - إما إذا تسلمت زمام تلك الأسرار أيد بعيدة عن هدى الله ، فحينئذ يكون الدمار الذي يعيش فيه ، ويسير إليه حثيثاً عصرناً .. واسمعوا .. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ولا أزيد .. فهل درى النائمون ؟ وهل استيقظ الغافلون .. إلى أى زمان يظنون متخلفين ؟ إلى أى الحقب يا رب يستمرون تابعين لا متبوعين .. علم ذلك عندك وحدك .. فاللهم أيقظهم ووجههم وفقههم فى حدودك ، وأمض بهم إلى حيث يتعلمون آلة الدفاع عنها ، فالعلم العلم والجد فى طلبه الجد أيها السائرون فى غي إن كنتم تعقلون .

### (٦) وما اجتمع قوم فى بين من بيوت الله ... الخ :

لا يمكن للسارى أن يمضى فى طريقه ، ولا للحائر أن يهتدى ولا للمريد الخير أن يقبل عليه بإخلاص ، ولا لعالم لما مر من توجيه كريم فى هذا الحديث الشريف أن يؤديه كأمانة يحب أن تؤدى إلا إذا عرف هؤلاء ربهم واعصموا به ولاذوا بحماه . وقاموا بواجب طاعته ، ولهذا حث سيد الخلق على عمارة المساجد بالعبادة - ولا بالفرش والنفائس - وجعل الله زوارها جلساء ملائكته ، وجعل الملائكة والرسل شفعاء محبيها ، وهنا يرد السؤال ذو المصدر الجاهل الغافل وهو ما جعلته مقدمة البحث وجوابه هو جوابه .. وإلا فقل لى بريك : هل من الرقى إعلان الحروب على الضعفاء ؟ وهل من التقدم الحضارى قتل الأنفس وإبادتها ؟ وهل من وسائل العمران المادى ظلم الحاكمين المتسلطين ؟ وما نراه من أحوال شعوب معاصرة هو برق خلب فالتنا والقتال إذا لم يعصمها دين خلق تبيد كل حضارة ذات قيمة للإنسان إلا فى

مواطن الحريق التامة المطلقة لا مطلق حرية .. ولا ينظم الآلات المجنونة ، ويرد إليها صوابها ، ويوجهها إلى المعامل والمصانع إلا عقل يعرف الله ويعرف عظمته ، وحديث المعاصرين حديث يطول لا يوقف التساؤل عنه مهما طال القول فيه ، ولا دافع للبلاء المتسلط على العالم إلا خرف الله والإيمان به سبحانه والرجوع إلى أحكامه وتلاوة كتابه والعمل بما فيه ، وحينئذ تغشى العاملين الرحمة وتنزل عليهم السكينة ويهتدون سواء الصراط .

### (٧) ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه :

قضية الأنساب والفخر بها ليست واردة في الإسلام ، ولا يعيرها أى اهتمام ، فكثير من قريش سيصلى سقر ، وعديد من بنى هاشم فى الجحيم ، ولا نسب أعلى من نسب ينتمى إليه رسل الله ، فكيف .. ولد نوح فى النار وكذلك زوجته مع زوجة لوط .. - وعلى النقيض - آسية إمراة فرعون فى أعلى عليين من الجنة والرضوان ... وهل استمتعتم إلى وصايا رسول الله لأقربائه الأقربين ومن أقرب إلى قلبه وأحب إليه من فلذة كبده .. الزهراء .. فاطمة بنت محمد رضى الله عنهما وعنا بها .. يقول للجميع رسول الله : اعملوا فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً .. واعملا لتكونوا مع صهيب وبلال فى رحمة من الله ورضوان ..

وهل رنا إلى هذا الجزء من الحديث الشريف من يرى عظمة بعض النظم فى رفع الوضعاء ، وتسم بعض أهل الحرف الدنيا غارب السلطة والاقتدار .. هل حاولوا أن يتعرضوا على الإسلام ليدركوا أن أبواب الدنيا فى جميع مظاهرها الكريمة مفتوحة للعاملين لا لذوى الأنساب الجوفاء .. هل رأوا ابن أم مكتوم يعاتب فيه رسول الله بقرآن يتلى ويتعبد به إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، وهل دروا أسماء القادة فى عهد رسول الله ليدركوا أن العمل هو كل شيء ولا شيء للأنساب ...

ويعد فاجزم عن إيمان وأتكلم بقوة يقين .. وأدافع بالبرهان وأدلى بحجتي فى أوضح بيان وأدعوا الأمم المعاصرة إلى أن تصيخ سمعاً إلى الإسلام وتقرأ هذا الحديث وأمثاله وتعنى القرآن وتوجيهاته لتهدأ ، وتستريح من عناء المذاهب

والأفكار الفاسدة التي يموج العالم المعاصر بها دون الوصول إلى هدف أو تحقيق  
أى نتيجة فى صالح الإنسانية الحرة الكريمة ، وليقوم عالم متحضر يحافظ على حضارته ،  
وبصيرها حضارة تختفى معها آلام البشرية ، وتجف الدموع ، دموع الشكالى والأيامى  
واليتامى ، ويكسى العراة ويطعم الجياع ...

ومع هذا لا أنسى الواقع الذى نعيشه ونعيشه شعوب تحمل - للأسف الشديد -  
اسم الإسلام .. وهنا أقول وأتساءل وأرجو الجواب ممن يستطيع الجواب :

- (١) هل غفلة الشعوب المتسمة بالإسلام ورضاها بالاستبعاد من الإسلام ؟
- (٢) هل جهل المسلمين ورضاهم بالدنى ، وعد اشتراكهم المخترعات الحديثة  
من الإسلام ؟
- (٣) هل إغلاق العقول دون كل منطق مفيد من الإسلام ؟
- (٤) هل حكم المتعالمين بالكفر على من يتعلم لغة أجنبية أو يقول بكروية  
الأرض فى القرن الحاضر من الإسلام ؟
- (٥) هل الجبن والتأخر والانحطاط والرضا بالظلم من الإسلام ؟

وأصبح من كل قلبى ينادى منادى الله كل يوم خمس مرات من أعلى مكان : لا ،  
وألف لا .. ليس شىء من هذا من الإسلام ولا يمت بصلة إلى أصول الإسلام أو فروع  
الإسلام .

فالإسلام ما عرفت فى هذا الحديث ، وما جاء فى القرآن وفى كل حديث  
﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ .

## الظلم العظيم

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قول الله تبارك وتعالى :  
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(١)</sup> .  
شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : « أينما لم يلبس  
إيمانه بظلم ؟ »

فقال رسول الله ﷺ : أنه ليس بذلك ، ألا تسمعون لقول لقمان :  
﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

كان لقمان نجار من السودان آتاه الله الحكمة ، وقيل أنه كان نبياً ، والنبي هو  
من كلف من الله بشرع يعمل به ، ولم يؤمر بتبليغه ، والصحيح أنه كان حكيماً فقط ،  
وقد عزيت إلى لقمان المقالات الكثيرة المشتملة على الحكم البالغة . ومما روى من  
حكمه التي لم ترد في القرآن الكريم قوله : « يا بنى : إن الدنيا بحر عميق وقد غرق  
فيها أناس كثيرون فأجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى وحشوها الإيمان ، وشراعها  
التوكل على الله لعلك تنجو ، ولا أراك ناجياً » .

وقوله : « من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس  
من نفسه ، زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية ، يا بنى :  
لا تكن حلواً فتبلع ولا مرأاً فتلفظ ، يا بنى إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فأغضبه قبل ذلك ،  
فإن أنصفك عند غضبه فأخه ، وإلا فأحذره » .

وقد أفرد الذكر الحكيم للقمان سورة خاصة جعل عنوانها «سورة لقمان» تحدثت  
عنه ، وإن الله تبارك وتعالى آتاه الحكمة وكان شاكرًا لله مثنيًا عليه بما هو أهله ،  
محبًا لخير الناس موجهاً نفسه لما خلق لأجله من الطاعة والعبادة وإخلاص كل شيء  
لله وحده ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

(١) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»<sup>(١)</sup> ... ثم تلتها الآيات توضح ما وصى به لقمان ابنه وهو أشفق الناس عليه وأحبههم لديه ، أمره أن يعبد الله وحده ونهاه عن الشرك ، وأوضح له أن الشرك ظلم عظيم لأن فيه وضعا للشئ في غيره موضعه ، وتسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا يستطيع جلب خير أو دفع ضرر وهى الأصنام . روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنه ليس بذلك ألا تسمعون لقول لقمان : ﴿يَأْتِي لَّا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولقد كان المحور الذى دارت عليه الرسالات جميعاً هو التوحيد وإفراد العلى الكبير بالعبادة وإطراح عبادة غيره ، ووضح ذلك فى القرآن الكريم وضوحاً كاملاً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ<sup>(١)</sup> اللَّهُ الصَّمَدُ<sup>(٢)</sup> لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ<sup>(٣)</sup> وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ<sup>(٤)</sup>﴾<sup>(٤)</sup> ... ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾<sup>(٥)</sup> ، ولما كان الشرك ظلماً عظيماً كان الذنب الذى لا يغفر والخطيئة التى لا يقبل معها عدل ولا شفاعة ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٦)</sup> فمن آمن بالله ثم اكتسب خطيئة أو إثمًا ولم يصر على ما ارتكب فالله يغفر له إذا تاب : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾<sup>(٧)</sup> ثم نمضى الآية الكريمة ذاكرة وصايا لقمان لابنه : ﴿يَأْتِي إِسْبَاطًا لِمَنْ تَكُنْ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) الآية ١٢ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٤) سورة الصمد (الإخلاص) .

(٥) الآية ١٦٣ من سورة البقرة .

(٦) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٧) الآية ٨٢ من سورة طه .

(٨) الآية ١٦ من سورة لقمان .

وفى الآية ٥٩ من سورة الأنعام يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ . فالله تبارك وتعالى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، فمهما فعل العبد من صالح الأعمال أو طالحها فالله محصيها ومحيط بها علماً ومحضرها يوم القيامة حيث كانت وإن وجدت فى جوف صخرة أو فى أسفل باطن الأرض ، ومجز عليها أن خيراً فخيئراً وإن شراً فشر ، فالله سبحانه لطيف يصل علمه إلى كل خفى ، خبير بظواهر الأمور وخوافيها يسجل على الإنسان أعماله ويحصيها فى كتاب لا يضل ربي ولا ينسى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّمْ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾<sup>(١)</sup> ولن يؤاخذ شخص بجزيرة غيره ولن يحاسبه على عمل سواه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومن مقتضيات توحيد الله عز وجل وتنزيهه سبحانه وتعالى عن الشركاء والأنداد إخلاص العمل لوجه الله ، وابتغاء المثوبة عنده وحده ، وتطهير النفس من جرائم الرياء والنفاق ، وحين تتلوث النوايا بالمراعاة وحب الظهور والشهرة . حين تفقد الأعمال الصدق والإخلاص لم يجد صاحبها مثوبة تنتظره ، ولا عاقبة تسره ، روى أبو أمامة أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله ، أرايت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر . ما له ؟ فقال الرسول : لا شيء له ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ان الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغى به وجهه » .

فدون الشرك الظاهر بالله الواحد القهار ألوان أخرى خفية من الشرك تتصل بالنوايا ودخائل النفوس ، سماها الرسول « الشرك الأصغر » وحذر منها ودعانا إلى تحرير النفوس من آثارها . قال ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء .. يقول الله عز وجل للمرائين

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٢) من الآية ١٥ من سورة الإسراء .

إذا جرى الناس بأعمالهم : أذهبوا إلى الذين كنتم ترءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ..» ..

وروى أن رسول الله ﷺ وقف ذات يوم خطيباً فى أصحابه فقال : « يا أيها الناس : اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من ديبب النمل . قالوا : وكيف نتقيه يا رسول الله وهو أخفى من ديبب النمل ؟ قال : قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه » .

وهذا النوع من الشرك يقتحم على النفوس أسوارها ، فيدخل على المجاهد فى جهاده وعلى العالم فى علمه ، وعلى الغنى فى ثروته وعلى الواعظ فى وعظه ، وعلى العابد فى عبادته ، والمعصوم من عصم الله ، ولهذا نجد الرسول ﷺ يسوق لنا نماذج من أصحاب النفوس المريضة والنوايا المدخولة لئبتعد عنها ونحاذر أن نشاكلها .. فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به ، فعرفه الله نعمته ، فعرفها قال الله له : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فى سبيلك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لى يقال : هو جري ، فقد قيل .. ؟ ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى له ، فعرفه نعمة ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، فقال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار» .

ثم يبحث لقمان ابنه على عبادة الله وإقامة الصلاة وأدائها كاملة مستوفية لشروطها وأركانها ، فيها إرضاء الله والإجابة إليه ، وفيها النهى عن الفحشاء والمنكر ، ومتى ضعفت النفس واستكانت إلى بارئها سبحانه وعبدت ربها حق العبادة وراقبتة فى سرها وعلايتها ، أستعدت لأن تتحمل رسالة الأنبياء وترث الرسل وتجاهد فى سبيل الله فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فالكامل يفيض الكمال على غيره وأما من فقد شيئاً من ذلك فمحال عليه أن يمنحه سواه ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

وبهذا يوجه لقمان ابنه - بعد أمره بالعبادة - إلى أن يهدى الناس ويعلمهم وبأمرهم بالمعروف ويهديهم قدر استطاعته ومبلغ قوته ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(١)</sup> .. ثم ينهى عن المنكر ، عن معصية الله ومحرماته التي تهوى بمن قارفها فى جحيم يشوى الوجوه ويذيب الأبدان ويأتى على الأخضر واليابس .

ولما كانت الدعوة إلى الله شاقة ومجابهة الناس مضنية عسيرة كان لابد لها من التذرع بالصبر وقوة العزيمة والثبات على الحق والاعتماد على الله ، وهذا من الأمور التي أوجبها الله على أوليائه وكلفهم بها وسيحاسبهم أن قصروا فى تحميليها ، لأنها جليلة الفوائد عظيمة المنافع فى الدنيا والآخرة ، حكى ذلك التنزيل الحكيم عن لقمان فقال الله تبارك وتعالى :

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٢)</sup>

ثم شرع يحذر ابنه أيضاً من أشياء لو فعلها لتعرض للهلاك وباء بالفشل وحل به الخسران المبين فناده ليناه : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أى لا تعرض عنهم بوجهك تكبراً وإستهانة . بل أقبل عليهم من غير كبر ولا عتو ، وفى هذا المعنى يروى الإمام مالك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «لا تباعضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً» .

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أى لا تسر مختالاً متبختراً لأن هذا فعل الجبارين المتغطرسين الباغين فى الأرض بغير الحق ، يقول الله تعالى فى سورة الإسراء بالآية ٣٧ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تُعْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ .

روى أن غضيف بن الحارث قال : «جلست إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعتة يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي ؟ ألم تعلم إنى بيت الوحدة ؟ ألم تعلم إنى بيت الظلمة ؟ ألم تعلم إنى بيت الحق ؟ يا ابن

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٧ من سورة لقمان .

آدم ما غرك بي ؟ لقد كنت تمشى حولي ذا خيلاء وكبر « وفى الحديث الشريف :  
 « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ  
 فَخُورٍ﴾<sup>(١)</sup> أى لا يحب المعجب بنفسه الفخور على غيره .

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أى أمشى هوناً لا سريعاً مغرطاً ولا بطيئاً متشبهاً ولا ترائى  
 الناس بل راقب مولاك وحده .. رأى عمر رضى الله عنه رجلاً متماوتاً فقال له :  
 « لا تمت علينا ديننا ، أماتك الله ) ورأى آخر مطأطئاً رأسه فقال له : « أرفع رأسك  
 فإن الإسلام ليس بمريض » .

﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أى لا ترفعه حيث لا يكون إلى رفعه حاجة لأنه اكثر  
 وقاراً للمتحدث وأكثر راحة لنفس المستمع .

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾<sup>(٢)</sup> تعليل لسابقة فأبشع الأصوات وأقبحها ما  
 رفع فوق العادة بلا داع وهو شبيه بصوت الحمير فى جهارته ، وفى هذا من الذم  
 والتنفير من فعل ما لا يخفى ، وهو أدب من الله تعالى لعباده حتى يتركوا الصياح فى  
 وجوه الناس تهاوناً أو اعتداء عليهم .

هذا مجمل وصايا لقمان ابنه كما وردت فى القرآن الكريم ، وقد جمع بعض  
 العلماء من وصاياه الشئ الكثير وأفراد لها الجاحظ أبوابا فى بعض كتبه . فأقامتنا فى  
 الدنيا إقامة مؤقتة والرحيل عنها آت ميعاده لا ريب فيه ، فالعاقل من اتعظ وسمع وأعد  
 العدة ليوم يلقي فيه الله ويعاتبه فيه رسول الله ويحاسب فيه هلى كل ما عمل من خير  
 أو شر : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾<sup>(٣)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٤)</sup>﴾<sup>(٣)</sup> ، قال  
 رجل لسيده على كرم الله وجهه : صف لنا الدنيا . قال « وما أصف لك من دار من  
 صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم ومن أفتقر حزن ومن استغنى افتتن ، فى حلالها  
 حساب وفى حرامها عقاب » ، ودخل رجل على معاوية وقد أسن وجاوز المائة : فسأله

(١) الآية ١٨ من سورة لقمان .

(٢) الآية ١٩ من سورة لقمان .

(٣) الايتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

عن الدنيا كيف وجدها فقال : سنيات بلاء ، وسنيات رخاء ، يوم فيوم ، وليلة فليلة ، يولد ولد ، ويهلك هالك ، فلولا المولود لباد الخلق ، ولولا الهالك لضاقت الدنيا بمن فيها ، فقال له : سل ما شئت ، قال : عمر مضى فترده ، أو أجل حضر فتدفعه ، قال : لا أملك ذلك ، قال : لا حاجة بي إليك .. قال رسول الله ﷺ : « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذأفيرها » .

نسأل الله جلّت قدرته أن يبصرنا بوصايا الرسل والأنبياء والحكماء ، ويسلك بنا طريقهم القويم ، ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ويباعد بيننا وبين الشر والإثم ما ظهر منه وما بطن . اللهم بصرنا بعيوننا ، وأكف شر خلقك عنا ، واهدنا سواء السبيل ، واهدنا اللهم فيمن هديت .. إنك سميع مجيب .

## الدعوة إلى الإيمان

قال رسول الله ﷺ : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فادأها  
كما سمعها » .

(رواه الترمذى)

(١) العمد الأساسية فى حفظ الشريعة الإسلامية ، وصيانتها من التبديل  
والتحريف : الكتاب والسنة<sup>(١)</sup> .. فهما المعينان للذان لا ينضبان أبداً ، والركنان  
الذان لا يسمو إلى مكانتهما ولا يحل محلها شىء آخر ، فإذا ورد النص فى القرآن ،  
حاكماً فى قضية من القضايا فلا مجال لقول بعده ، وما أروع النص القرآنى تفسره  
وتشرحه أحاديث رسول الله ﷺ : « أوتيت القرآن ومثله معه » .

ومما انعم الله به على المسلمين : ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إن حفظ  
القرآن الكريم من الضياع . وصانته من التبديل والتحريف اللذين حدثا للكتب  
السماوية السابقة فأستمر وسيستمر كما أنزل على خير خلق الله هدى ونوراً لقوم  
يعلمون ، وقد دلت على ذلك آيات قرآنية محكمة واضحة المعنى ، بينة الدلالة ، لا  
تحتاج إلى تأويل . منها قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَوِّجُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى  
لَعَلَّكُمْ تَهْتَفُونَ﴾ وقوله جلّت حكمته ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ  
حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ . وقد شرح (بالبناء المجهول) هذا الكتاب العزيز وفسر فى أغلب  
القرون التى مرت بعمر هو بها ، وجال شراحه ومفسروه كل مجال ، ولا يزال ... فيما  
أعتقد - بحراً خضماً زاخراً بالخير فى حاجة ماسة إلى غواصين مهرة يستخرجون  
لآله ويعرضون للعالمين درره لينقش ظلام ظلام الجهل عن عقول ران عليها ما فعلت  
وما اجتاحت من سيئات ، وأعتقد أن هذا العمل لا يقف عند حد ولا ينتهى إلى نقطة  
يوقف أمامها ، ومادامت الشمس تشرق وتغرب ، والقمر يبدو ويختفى والفلك يدور

(١) ويأتى بعد ذلك الإجماع والقياس .. إلخ ؛ وياب الاجتهاد مفتوح لمن فتح الله عليه وبصره بعلوم  
الشريعة واللغة وأستوفى الشرائط المتفق عليها عند جهاذة الفقهاء والباحثين وهى معروفة  
بتفاصيلها فى بحوث قام بها متقدمون ومعاصرون ولا تكاد تختلف عند الفريقين .

ويضطرب في مجاله ، فلن يأتي يوم يقول عالم إلى هنا يقف البحث في القرآن ومدلولاته ، بل إن فيه من الآيات ذات الدلائل الخافية ما لا يصل إلى فقه مرماه بشر ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وإن كنت اعلم وقرأت طويلاً وعالجت كثيراً ما أورده المتأخرون من بحوث . وما داروا فيه من منطلق حول معنى آية سورة آل عمران<sup>(١)</sup> إلا إنى قوى الإيمان بأن لله علماً لا يصل إليه مخلوق .. وما استأثر الله بعلمه ليس من صالح البشر أن يعلموه أو على الأقل ليس مما تتوقف عليه أمور حياتهم فى مختلف مجالاتها فكل ما يفيدهم فى العاجل والآجل قد فرس وجاء واضحاً لا لبس فيه .. ولا يحتاج إلى إطالة فكر وأعمال نظر .

(٢) ونعود إلى السنة الشريفة - والقول اليوم فيها- وأقصد منها هنا أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله - وتقريراته وهى التى عبر عنها القرآن الكريم بالحكمة فى آيات كثيرة منها قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة من دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup> والسنة تأتى فى المرتبة التالية للقرآن ذى الذكر . وكثير من الأحكام أجمل فيه وفصل فيها .. بل منها ما لم يرد ذكره صريحاً فى القرآن . ولولا السنة الشريفة ما عرفه ولا فقهه الأولون ولا من جاء بعدهم . ولهذا كان لزماً على عقلاء المسلمين ، فى كل عصر ومصر ، أن يديموا الحفاظ على السنة ، وقد قيض الله لها رجالاً وعوها تمام الوعى ، متناً وسنداً ، نصاً وتأويلاً ، وأدوها أمانة للأجيال التى تمر بالحياة من بعدهم وكان عملهم خالداً خلود السموات والأرض . وسيكون فى موازينهم يوم القيامة نوراً يقودهم إلى دار الخلود فى فرايس الجنان ، وفى القمة منهم الإمام البخارى وهو أشهر من أن يدل عليه بقول . وكذلك تلميذه الإمام مسلم الذى كان كلما دخل عليه يسلم ويقول : « دعنى اقبل يديك يا طيب الحديث ، وبأستاذ الأستاذين وبأسيد المحدثين » . وكثيراً من الفقهاء حفظ لنا

(١) قوله تبارك وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الآية رقم ٧ من سورة آل عمران

(٢) الآية رقم ١٢٩ من سورة البقرة .

التاريخ ما جمعوا من أحاديث شريفة ومن هؤلاء الإمام الصابر أحمد بن حنبل ، ومن قبله فقيه المدينة الإمام مالك رضى الله عنهم جميعاً ، ولم يعد هناك جديد من نصوص الأحاديث زيادة على ما وعى السابقون ، وقد حث العلماء على إتقان قراءة الحديث خوفاً من الدخول فى قوله السابقون ، وقد حث العلماء على إتقان قراءة الحديث خوفاً من الدخول فى قوله ﷺ : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقد قال الأصمعى عند شرح هذا الحديث : « أخوف ما أخافه على طالب العلم أن يلحن فيدخل تحت طائلة هذا الحديث » وهذا ورع من الأصمعى عظيم وفى الحديث الذى معنا : « فوعاها فأداها كما سمعها » لأن الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، واقتصرت مهمة علماء الشريعة الآن على التبليغ ، على الوعى والداء ، وليس التبليغ سهلاً ، بل هو مهمة قاسية شاقة بالغة المشقة والأهمية وقد حث عليها القرآن فى قول الهل العليم الحكيم : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾<sup>(١)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال سيد الخلق : « ليلبغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع »<sup>(٣)</sup> .

(٣) والعصور التى مرت إلى الآن منذ بروز ذكاء الدعوة الإسلامية ظهر فيها مبلغون على اختلاف درجاتهم وأحوالهم ، ولا أظن أن عصرنا يحتاج إلى التبليغ كما هى حاجة عصرنا . فالناس عامة فى كل مكان من البسيطة لا يعلمون الإسلام على حقيقته أبداً . اللهم إلا الخواص وخواص الخواص . ونظرة عجلى أو فاحصة على بلاد المسلمين نفسها التى بثت فيها تعاليم الإسلام وقامت فى رحابها الدعوة أول ما قامت تظهر لك بما لا يقبل المزيد من القول من عامة الناس ، وما الشعوب إلا العامة ، لا يفقهون من إلا ما يتردد من أصدااء الآذان كل يوم ، وإلا صلاة لا روح فيها ، وصيماً تركه الأكترون ، وزكاة أهملت ، وحجاً لم يحقق المنافع المقصودة .. إلخ .

(١) الآية ٣٣ من سورة فصلت (حم) .

(٢) الآية ١٠ من سورة آل عمران .

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وهناك أقوام يطربون للترنم بالآيات دون سبر معناها وما تهدف إليه ، ومضحك جداً وشر المصائب ما يضحك - من أمر المسلمين أن تسمع القرآن يتلى طول يوم وفاة شخصية معروفة ، أما الدراسة المنظمة الواعية فقد عدا عليها الزمان فيما عدا عليه من أمور المسلمين اللهم إلا ظلالاً تتراءى هنا وهناك في شخصيات وعت قلوبها آيات الله والحكمة وهؤلاء وحمد لله - لا يخلو منهم زمان ولا مكان وإن كانوا قلة نادرة إذا أحصوا .

وأكرر القول - بعدما لمست من قوة التنظيم ضد الإسلام وخاصة العرب عامة لدى الأعداء وما أكثرهم إذا عدوا .. إن ارتباط العالم الآن بسرعة الصوت لم يدع شيئاً خافياً على العالمين في كل مكان . فالمسافات مهما بعدت قد طويت ، وسلطت الأضواء على كل بقعة في المعمورة وعرف القاصي أحوال ما بعد عنه . حتى أصبح يراه رأى العين من وراء التلفاز بواسطة الأقمار الصناعية . ويعلم الحوادث فور وقوعها ، لأنها تنقل حية تنبض بالحركات الأصلية . وسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم ، وهنا .. بات العالم الإسلامي مكشوفاً لكل راء فى الدنيا سميتها جديدة أو قديمة ، والكل مجمع - إن صدقاً وإن كذباً - على أن الإسلام لا يحمله مسمى موجود الآن . فالبدار ، البدار إلى التنظيم والعمل ، لتأخذ الشريعة الإسلامية مكانها اللائق بها فى حياة الناس جملة وتفصيلاً .

(٤) لقيته طبيياً<sup>(١)</sup> يسكن مكاناً قاصياً عن بلاد المسلمين ولم يراها رغم أنه نيف على الخمسين عاماً وجاب كثيراً من البقاع فألته هل تعرف عن الإسلام شيئاً ؟ قال : نعم وعن المسلمين أشياء ، أما الإسلام فشىء كان يتعلم قديماً ولم له مجال فى مجال المدنية الحديثة فانزوى هنا فى دور العبادة فى صورة شوهاة مزرية ودليلي - كما يقول هو- أن العالم الإسلامي كما ترى مفكك متجاف منطو على نفسه نافر من كل جديد حريص على الظل لئلا يتبدد فى ضوء الشمس ويذوب فى حرارة القيظ ، أو يتجمد فى صباة الزمهرير .. فسألته : هل قرأت عن الإسلام شيئاً ، فأجاب ما لى

(١) البروفسور P.CH استاذ الجراحة فى جامعة (باريس) فى ذلك الوقت ، وكان اللقاء فى جرويل

GRENOBLE بفرنسا .

وللقراءة وكتاب الوجود الإسلامى مفتوح لكل مريد ، ويعد لأى وصبر مع الرجل أقتنعه لكى يقرا كتاباً ترجم حديثاً للغة الفرنسية والإنجليزية وعاد بعد ثلاثة أيام ليقول : لقد أضعت على رحلتى الترفيهية التى قطعت وقتها من عملى ، وحملتنى حملاً على استيعاب الكتاب فى ترجمته . قلت : ثم ماذا ؟ أجاب : اقتناع تام بأن الظل لا يمثل الصورة الأصلية بحال بل هما نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، الإسلام نعم هو إن كان ما فى هذا الكتاب . وما درى صاحبى أن ما سطر فى هذا الكتاب أو الكتيب لا يمثل إلا ثمالة ضئيلة من حقائق الإسلام .

هنا برز أمام عيني حديث رسول الله ﷺ : « نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » ، وتساءلت بعد طويل رؤية من يتحمل إثم ما غرق فيه المسلمون من البعد عن تعاليم السماء ؟ وأجاب مرافقى<sup>(١)</sup> : المسؤولية التاريخية متجه صوب كل مسلم فاقه لدينه ، مدرك لمراميه ، ملم بأحكامه ، غائص على مزاياه ، عليه أن يبلغها كما سمعها ، بقوله وفعله حيثما وجد وأينما حل ومن استعان بالله أعانه .

(٥) عرفت كثيراً من الدعاة فى بلادنا ، وعرفت لهم أخلاقهم ، وعلمهم وواسع أحاطتهم بمهمتهم ، وما بذلوا من جهود فى سبيل الله ، وهؤلاء مضافاً إليهم بعض كبار الاساتيد الذين ألفوا ونشروا بحوثهم قد أدوا ما عليهم أو بعض ما عليهم حيال الإسلام رغم ما وجدوا وما يجدون من عقبات وملاحقات جاهلة ، ومتابعات عمياء ، ولكن هيهات أن يجدى هذا الجداء الكافى حيث انه إما محصور أو مقصور وفى كلا الأمرين ضيق وعنت وظلام ودخن ، ومطلوب الإسلام لا يتوقف عند جهد داعية موظف ، أو مدرك غيور ، فما الحيلة ؟ وما الطريق ؟ لقد رسم الطريق أعداء الإسلام - وأعدى أعداء الإسلام فى الحقيقة . أن بحثت ورمت الحق ، هو الجهل والجهل به فقط ولا تزيد - فالتاس فى مجموعهم عقلاء ، والعاقل ضالته الحق حيثما وجدته ، ومن أصر على حق وأعتقده نجح فى الوصول إلى هدفه ، والطريق المرسوم ، لا يقف عند مطالبة الحكومات بالدعوة ونشرها ، وإنما نرجو من الحكومات التعضيد المعنوى أيضاً كما تفعل سائر الدول غير المسلمة ، وأما العمل الجاد فعلى أغنياء المسلمين وفقرائهم أن

(١) ابن اخت خالتي على رأى القاضى العادل أباس بن معاوية .

يساهموا فى الدعوة بأموالهم وجاههم .. وأعرف جماعة فى بلد غربى تأخذ (سنتا) واحداً ومن كل مشتر شيئاً حقير أو جل فى صندوق (الله) حسب تعبير القوم ، ونما السنّت فصار ملايين الجنيهات الإسترلينية بنيت بها مشافى ومدارس فى بلاد المسلمين وغير المسلمين ونجحت أو كادت . هذا مع البحوث العميقة التى تظهر علاجاً ربما كان اسماً فى نظر القوم للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الدولية التى يصدر هذا من علماء مخلصين ، وأخشى ، والله وأستحى من الله ذى الفضل العظيم أن أقول : ابن أبو حنيفة ؟ والغزالي ، وابن سينا ، وابن تيمية ومن إلى هؤلاء ممن بحثوا دون أن يسألوا وإذا أعطوا أبوا ، وما موقف ابن حنبل من ابنه عنا بعيد ، فقد حدث التاريخ بان عبد الله بن أحمد بن حنبل دعاه إلى غداء يوماً - أى دعا الابن أباه - فأبى وقال : (إنك تقبل هدايا السلطان وأخشى على دينى منها) وأكرر الآية الكريمة ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> فلا يأس يا رب وإنما هى شكوى إليك وطلب معونة وما ذلك على الله بعزيز .

(٦) بقى شىء أخير فى هذا الدور من القول - هو أن يحاول المسئولون الذين يشغلون وظائف فى الخدمة العامة أن يجعلوا سلوكهم وفق تعاليم دينهم ، حتى لا يرى العالم الانقسام البادى بين حقيقة المكتوب وزيف العمل ، والقذوة العملية دائمة خير من ألف كتاب (والعدد هنا لا مفهوم له) .

وقبل أن أختتم هذا الحديث ، اقترح على وزارات الأوقات والشئون الإسلامية فى العالم الإسلامى أن تجعل فى كل عدد من مجلاتها الناطقة باسم الإسلام صفحتين على الأقل باللغة الفرنسية أو الإنجليزية ، وترسلها إلى كل سفارة لها فى البلاد الناطقة بهاتين اللغتين شارحة مشكلة عويصة من مشاكل العصر على ضوء الإسلام ، وموجهة توجيهها خفيفاً أى سهلاً فى عبارته (للعامة) إلى تعاليم الإسلام ، وليس ذلك على همة القائمين على تلك الوزارات بعزيز والله الموفق والمستعان .

(١) الآية ٨٧ نت سورة يوسف .

## من وصايا النبوة

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : بادروا بالأعمال سبعة . هل تنتظرون . إلا فقراً منسياً .. أو غنى مطفياً .. أو مرضاً مفسداً .. أو هرمًا مفسداً .. أو موتاً مجهزاً .. أو الدجال . والدجال شر غائب ينتظر .. أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

رواه الترمذى

(١) من الحقائق التى لا تحتتمل الشك أن الحياة الدنيا بكل ما فيها ومن فيها فانية ، وإن مقام الإنسان فيها - طال أو قصر - محدود بموعد لا يعلمه إلا علام الغيوب ، وأن حال الإنسان فى هذه الحياة لا تثبت على لون واحد ، فهى دائمة التغير والتحول ، فمن شدة إلى رخاء ، ومن فقر إلى غنى ، ومن مرض إلى صحة ، ومن شباب إلى هرم ، وكل ذلك غيب مجهول للإنسان ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾<sup>(١)</sup> .

ومن عجيب أمر الحياة أن تمامها إيدان بنقصانها ، وصفوها مقدمة لكدرها ، وفرحها يسلم لحزنها ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾<sup>(٢)</sup> .

إذا تم أمر بدا نقصه      توقع زوالاً إذا قيل تم

ومما يصور هذه الحقيقة أبلغ تصوير الشاعر:

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ أحسنت      ولست تأمن ما يأتى به القدر  
وسالمتك الليالى فاغتررت بها      وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وقيل للحسن البصرى كيف أصبحت ؟ فقال . كيف يصبح من هو غرض لثلاثة أسهم .. سهم رزية ، سهم بلية ، سهم منية .. وقالوا : من أخطأه سهم المنية لا يخطئه سهم الرزية .

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الأنعام .

ومن الكلمات النيرة المشرقة التي تجلو الغشاوة عن الأبصار ، وتفتح مغاليق القلوب ، وتصور حقيقة الإنسان في هذه الحياة قول الإمام الحكيم على كرم الله وجهه : (إنما المرء في الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا ، ونهب للمصائب ففى كل أكلة غصص ، ومع كل جرعة شرق ، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهد آخر من أجله ، فنحن أعوان التحوف ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء ، فمن أين نرجو البقاء .. وهذان الليل والنهار لم يرفعها من شىء شرفاً إلا أسرعاً الكرة في هدم ما بنينا ، وتفريق ما جمعا ؟ ... ) .

ومن هذا التصوير الواضح لحقيقة الحياة الدنيا ، ومقام الإنسان فيها ، كل من مقتضيات العقل ومستلزمات الحكمة ألا يضيع الإنسان لحظة تمر به دون المبادرة إلى النزود من العمل الصالح . حتى يؤمن الإنسان مستقبله الأبدى فى حوار ربه العدل الذى يجازى كل امرئ بعمله أن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾<sup>(٧)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٨)</sup> .

يقول الإمام على كرم الله وجهه : (أن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وأن الآخرة قد أقتربت وأشرفت باطلاع ، ألا وأن المضممار اليوم والسابق غداً .. ألا تائب من خطيئته قبل منيته ؟ .. ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه ؟ .. ألا وأنكم فى أيام أمل من ورائه أجل .. فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يضره أجله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أيام أجله فقد خسر عمله ، وختره أجله .. ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة .. ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالها ، ولا كالنار نام هارها .. ألا وأنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى يسوقه الضلال إلى الردى ، ألا وأنكم قد أمرتم بالطعن ، ودلتم على الزاد .. وأن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وول الأمل ، فتزودوا فى الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً ) .

وفى هذا الحديث الشريف يذكر لنا الأب الرؤوف الرحيم والناصح الأمين سيد الخلق ﷺ سبعة أخطار تعرض لها الإنسان فى حياته ، وبطلب منه أن يؤمن نفسه ومستقبله ضد هذه الأخطار حتى يضمن لنفسه حياة أبدية راضية مرضية فى دار الخلد والسلام .

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

أما هذه الأخطار فهي الفقر المنسى ، والغنى المطغى ، والمرض المفسد ،  
والهرم المفند ، والموت المجهز ، والدجال ، والساعة ، وأما التأمين ضد هذه  
الأخطار فهو بالبادرة إلى الأعمال الصالحة - قبل فوات الوقت وضياع الفرصة .

**الفقر** : أعدى أعداء الإنسان ، وأشدّها خطراً على دينه وخلقه ، وهو إذا اشتد  
بصاحبه وضغط عليه ، أضل عقله ، وأفقده صوابه ، وسد فى وجهه منافذ الأمل  
والرجاء ، وأنساه المبادئ والقيم فاستهان بكل فضيلة وتجرأ على كل رذيلة ،  
واستباح لنفسه السرقة والغصب وأحل لها السلب والنهب ، وسول لها العدوان على  
النفس والمال دون وازع من خلق ، أو ضمير يردع ، وإذا ضل عقل الإنسان ، ومات  
ضميره أظلم قلبه ففسد ربه ، وخسر دنياه وآخرتة ، وقد استعاذ رسول الله من الفقر  
وفى الأثر « كاد الفقر أن يكون كفراً » وقال الشاعر :

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى      ولم أر بعد الكفر شراً من الفقر

**والغنى المطغى** : هو الذى يحمل الإنسان على الطغيان ومجاوزة الحدود ،  
وإهمال الحقوق واللواجبات ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾<sup>(١)</sup> وفى القرآن  
الكريم صور ناطقة توضح أثر المال فى النفوس المريضة ، وما قصة قارون وصاحب  
الجنة وأهل سبأ إلا أمثلة واضحة لما يفعله المال بعقول المغرورين الذاهلين عن  
حقيقتهم وحقيقة دنياهم .

**والمرض المفسد** : هو الداء العضال ، وكل ذرة من جسد الإنسان منفذ مفتوح  
لجراثيمة من جراثيم الأمراض الفتاكة التى تشل حركته وتهدم كيانه ، وتقعد به عن  
النهوض للواجبات والمكرمات .

**والهرم المفند** : هو تقدم السن وطول العمر الذى يذهب بعقل صاحبه ويوقعه فى  
الغند وهو الكذب دون أن يحس فى ذلك نقصاً وذلك لفساد تصوره وضعف تفكيره ،  
والإنسان إذا بلغ هذه المرحلة من العمر خرف ، وضعفت قوته وانحل عزمه ، والتصق  
بالأرض لا يقوى على عمل ولا يستطيع حراكاً ، وعندئذ يصبح عالة على أقرب الناس

(١) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة العلق .

إليه ، لا هو حى فيرجى ولا ميت فيستريح ويريح ، وقد تعتربه نوبة إفاقة وهو فى هذه الحالة فيرى ما صار إليه أمره ، فيتحسر على ما مضى من شبابه وقوته ، ويتألم لما يعانیه من عجز وألم وفى هذا يقول الشاعر الجاهلى القديم عمرو بن قميئة :

كأنى وقد جاوزت. تسعين حجة      خلعت بها عنى عذار لجسامى  
على راحتين مرة وعلى العصا      أنوء ثلاثاً بعدهن قيامى  
رمتى بنات الدهر من حيث لا أرى      فكيف بمن يرمى وليس برام  
فلو أنها نبل إذن لا تقيتها      ولكن أرمى بغير سهام

والإنسان قد يغيره شبابه ، ويخدعه طول أمله ، فيسوف فى التوبة ، ويتقاعس عن الطاعة والعبادة حتى يصير إلى هذه السن المخرفة العاجزة ، ففتوته الفرصة ولهذا وجه الرسول الكريم نظر الإنسان ليدخر من شبابه إلى هزمه .

**الموت المجهز :** هو الموت السريع . الذى ينزل بالإنسان بغتة دون تنبيه سابق من شيخوخة أو مرض عضال فلا يدع لمن نزل به فرصو يتدارك فيها ما فاته ، أو يوصى بخير . والإنسان - أى الإنسان - معرض لهذه النازلة الفادحة التى تخترم عمره فجأة فتضع حداً ونهاية لآماله وأطماعه . وما من إنسان إلا وقد رأى هذه الحققة نازلة فى قريب من أقرباه أو صديق من أصدقائه ، كان يقدر له - فى ظنه - فسحة من العمر وطول الأجل ، لصغر سنه ، أو لصحته وقوته .. ولهذا نبه الحديث الشريف الناس إلى أن يتوفوا ما يترتب هذا الخطر الداهم الذى قد ينزل بهم فجأة وذلك بالتزود من العمل الصالح ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً . عن أبى هريرة . قال رجل للنبي ﷺ : يا رسول الله ، أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح حريص . تأمل الغنى وتخشى الفقر ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا . وقال ﷺ : بأدروا بالأعمال مرضاً حابساً أو موتاً خالساً . وقال الحسن البصرى فى دعائه : اللهم أجرنى من أن أكون مختلساً - يختلسه الموت على غفلة .. وقال الشاعر :

وربما عوفص ذو غرة      أصح ما كان ولم يسلم

وكان أحد الصالحين إذا خوف من الموت يقول للشيوخ : الزرع إذا بلغ ما يصنع به ؟ قالوا : يحصد ويقول للشبان : يا معشر الشبان كم من زرع لم يبلغ أدركته الآفة .

وقال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

ومر شيخ من العرب بغلام فقال له الغلام : أحصدت يا عماء ؟ يعنى آن لك أن تحصد - تموت - فقال له : يا بني وتختضرون . يعنى تموتون خضراً .

**والدجال** : علامة من علامات الساعات الكبرى . وهو رجل أعور يخرج في آخر الزمان ويدعى الألوهية ، وبظهر الله على يديه من خوارق العادات ما يفتتن به بعض الناس عن دينهم . أما المؤمنون الثابتين على الحق من غيرهم يقضى عليه ، ويقتله المسلمون بقيادة سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام - كما روى البخارى فى صحيحه .

وأمر هذا الرجل المفتون معروف لدى الأنبياء والمرسلين السابقين وقد حذروا أممهم من غوايته وقتنته ، وفى هذا الحديث الشريف أخيار صريحة بمجيئه ، وتحذير واضح من شره وقتنته ، وحث على استباق الخيرات والمسارة فى المبرات قبل أن يظل الناس زمانه . روى البخارى ومسلم عن عمر أن النبى ﷺ استتعت الناس - طلب سكوتهم والاستماع إليه - يوم حجة الوداع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر الدجال ، فأظن فى ذكره وقال : ما بعث الله من نبى إلا أنذرته أمته ، وأنه يخرج فيكم ، فما خفى عليكم من شأنه فلا يخفى عليكم . أن ريكم ليس بأعور ، وأنه أعور العين اليمنى كأن عينه طافية .

وقد وردت عدة أحاديث يستفاد من مجموعها أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل آخر الزمان أثناء وجود الدجال ، فيحكم بالقسط ، ويقضى بشريعة الإسلام ، ويقتل الدجال .

عن عروة بن مسعود الثقفى رضى الله عنه قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين ، قال : لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً .. فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن

مسهود فيطلبه ، فيهلكه » . وقد استعاذ رسول الله بالله من شره ، كما ذكر لنا بعض ما يكون من فجره وكفره .

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( يخرج الدجال فيوجه قبله رجل من المؤمنين ، فيتلقاه المسالِح . مسالِح الدجال - طلائعه وجنوده - فيقولون له إلى أين تعمد ؟ فيقول : ما برنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحد دونه ؟ فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن قال : يا أيها الناس أن هذا الدجال الذى ذكر رسول الله ﷺ . فيأمر الدجال به ، فيشج ، فيقول : خذوه ، وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً فيقول أو ما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح الكاذب ، فيؤمر به ، فينشر بالمنشار من مفرقه حتى بين رجله ، ثم يمشى الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم فيستوى قائماً ، ثم يقول له : تؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . ثم يقول : يا أيها الناس أنه لا يفعل بعدى بأحد من الناس ، فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل الله ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلاً ، فيأخذ يديه ورجليه فيقذف به ، فيحسب الناس أنه قذفه فى النار ، وإنما ألقى فى الجنة ، فقل رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين ) .

ويستنتج الشيخ رشيد رضا من جملة الأحاديث الصحيحة الواردة فى خبر هذا الداهية أنه يهودى . فيقول رحمه الله (ويدرك القدر المشترك من الأحاديث الواردة فى الدجال أنه من اليهود ، وأن المسلمين يقاتلونه . ويقاثلون اليهود فى البلاد المقدسة ، وينتصرون) .

والساعة : والمراد بها القيامة واليوم الآخر ، وهى مما أستاذت الله بعلمه ، فم يطلع أحداً من خلقه لا نبياً ولا رسلاً ، ولا ملكاً مقرباً ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾<sup>(١)</sup> وكان الناس يسألون رسول الله عنها ، ويلفون فى المسألة فأمره الله أن يرد علمها إليه وحده . قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٢) من الآية ٤٧ من سورة فصلت .

وقال جل شأنه . ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾<sup>(١)</sup> وهى وإن خفى علمها على الناس فقد جعل الله لها إمارات تدل على قربها ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾<sup>(٢)</sup> وتبد الساعة يبعث الناس وأحيائهم وحشرهم من قبورهم ، ثم يكون الساب والجنة والنار .

(٢) والأعمال التى أمرنا بالمبادرة إليها هى الأعمال الخيرة الصالحة ، وفى مقدمتها ما افترضه الله على عباده من فرائض . وفى الحديث القدسى يقول ب العزة تبارك وتعالى « ما تقرب إلى عبدى بسىء احب إلى من أداء ما افترضته عليه » ، وقد ذكر الإمام السيوطى فى كتاب شرح الصدور حديثاً أخرجه الطبرانى والحكيم والترمذى فى نوادى الأصول ، والأصبهاني فى الترغيب - وهذا الحديث يجمع صنوفاً مختلفة من البر والخير تقدمها للقارئ الكريم ليعيها ويأخذ نفسه بها : عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : خرج علينا سول الله ﷺ فقال : إني رأيت البارحة عجباً . رأيت رجلاً من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه ، فأستقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله ، فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الملائكة ملائكة العذاب ، فجاءته صلته فأستقذته من بين أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتى يلتهب عطشاً كلما ورد حوضاً منع عنه ، فجاءه صيامه ، فسقاه ، وأرواه . ورأيت رجلاً من أمتى والنبليون قعود حلقاً حلقاً . كلما دنا لحلقة رد ، فجاءه اغتساله من الجنابة فاخذ بيده وأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلاً من أمتى بين يديه ظلمة ، وخلفه ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة ، فهو متعحير فيها ، فجاءه حجه وعمرته ، واستخرجاه من الظلمة ، وادخله النور ، ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ، ولا يكلمونه ، فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا عشر المؤمنين كلموه ، فكلموه ، ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته ، فصارت سترأ على وجهه وظلا على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتى أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاء أمره بالمعروف ونهيه عن

(١) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ١٨ من سورة محمد .

المنكر ، فاستنقذاه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة . ورأيت رجلاً من أمتي جائئاً على ركبتيه ، بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه ، فأخذ بيده ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت به صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله ، فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد فت موازينه فجاءته إفراطه<sup>(١)</sup> فثقلت موازينه ، ورأيت رجلاً قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة ، فجاءه حسن ظنه بالله ، فسكن رعده .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لصالح الأعمال وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه ، وأن يجمعنا مع رسوله الكريم في روضات الجنات أنه يجمعنا مع رسوله الكريم في روضات الجنات أنه سميع مجيب .

---

(١) الإفراط : جمع قرط (يفتح الفاء الموحدة والواء المهملة) وهو ما تقدمك من اجر وعمل ، وفرط الولد صغاره ما لم يدركو ، في الدعاء للطفل الميت : اللهم أجعله لنا فرطاً أي اجرًا يتقدمنا حتى نرد عليه .

## الفقه فى الدين

### المصدر الوحيد لمن أراد للدنيا سلاماً

قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه<sup>(١)</sup> فى الدين ،  
العلم بالتعلم<sup>(٢)</sup> » .

#### تمهيد :

(١) الدين الإسلامى الذى أوحاه الله سبحانه جملة وتفصيلاً إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلى ، هو خلاصة ما بلغه رسل الله عليهم السلام من قبله<sup>(٣)</sup> ، فجميع الشرائع التى جاءوا بها تنص صراحة على توحيد المعبود ، وأفراده بالانقياد له ، والخضوع لجلاله ، وإن بدا واضحاً شىء من الاختلاف فى بعض التكاليف وصور الأعمال . فالمسلم الواعى العامل بدينه ، هو من خلص قلبه من شوائب الشرك . وأسلم وجهه لله رب العالمين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾<sup>(٤)</sup> .

(٢) والله تبارك وتعالى عليم بما ينفع العباد وما يضرهم ، وخبير بما يدفعهم قدماً إلى ما يسعدهم فى الآجلة والعاجلة ، وما يعوق سيرهم ، وينحرف بهم إلى جادة المغضوب عليهم والضالين ، وما يتردى بهم فى هاوية الغضاء والأناية المقيتة القاتلة ،

(١) الفقه (بكر الفاء) : العلم بالشىء والفهم له ، واللفظة . وغلب على علم الدين لشرفه . ويقال ، فأفقه ، باحثه فى العلم ففقهه غلبه فيه ، (والدين) بتشديد الدال (الميملة) وكسرهما من استعالاته ، انه يطلق اسماً لجميع ما يتعد عز وجل به .. وفى الحديث الشريف : كان النبى ﷺ على دين قومه ، أى على ما بقى فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى حجهم ومناكحهم ويووعهم وأساليبهم ... إلخ .

(٢) فى اللغة . علم الرجل علماً ، حصلت له حقيقة العلم ، وعلم الشىء عرفه وتيقنه وعلم الأمر ، أتقنه ، وهو فعل مطاوع ، يقال : علمته فتعلم .

(٣) قال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾ ، الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٤) الآية ١٢٥ من سورة النساء .

وبفسد جواء حياتهم بالحققد والتنافر والتعدى والتشاحن ، وبحيل المقام على الأرض جحيماً وعذاباً أليماً ، فتتبدل نعمة الله كفرةً ، ويقول أمر البشر إلى بوار ودمار ، وما كان الله جلت قدرته ليترك الخلق سدى بدءاً ونهاية ، عباهل مباحل بلا راع ولا قائد .

(٣) فأرسل الرسل ، وققاهم بسيد أولى العزم ، وأنزل عليه شريعة محكمة ، لم تغادر من أمور البشر شيئاً إلا كان لها فيه القول الفصل . مضت ترافق الإنسان منذ أن جنه رحم أمه إلى أن يواربه ثرى رسمه ، فترعاه جنيناً وطفلاً وصيباً وشارخاً وكهلاً ، وتدرس ما يحيط به فى تلك المراحل لا على أنه فذ يعيش فى برج مشيد ، وإنما باعتباره عضواً فى مجتمع لجب صاحب ، لهذا المجتمع معاملاتة وتشريعاته وقضاياه حوائجه المعاشية ، مع أحكام صرته بغيره من أبناء جنسه ، بل ومع الحيوان والجماد أيضاً ، فهو سببى الدور ، ويقيم المصانع ويشق الطرق ، وتكون له المزارع ليطلعهم ويكتسى وآلاتها لتنتج ما يكفيه فى مستوى لائق كريم .

(٤) فالإسلام فى جوهره وأصوله ، فى نصه وروحه ، يعطى - إن لم يكن تفصيلاً - قواعد كلية تعالج كل مشكلة فى الحياة ، وتطب لكل داء ، ومن يتعمق فى فهم تراث الأولين ممن صحبوا رسول الله ، من سلك طريقه من تابعيهم ، يجد تطبيقاً للأحكام على الواقع ، الأحكام المنصوصة نصاً ، أو المستخلصة من النصوص ، بعد فهم وروية ، ولهذا أعان أبا بكر أصحاب رسول الله بأرائهم فى المشكلات التى واجهته بعد حبیب الله ، ولأجله أيضاً حبس عمر كبارهم عن الانتشار فى الأقطار المفتوحة ، ولما مضت بهم الأيام إلى النهاية المحتومة هياً الله رجالاً حملوا الأمانة فكان الأئمة المجتهدون الذين تفقهوا فى الدين ، ووعوه وأدوه للأجيال التى عاصرتهم والتى جاءت من بعدهم ، أولئك الذين أراد الله بهم خيراً ففقههم فى الدين ، وتعلموا وعلموا فأفادوا وخلدوا .

### الفقه فى الدين :

(١) من استقصاء المعانى اللغوية (لفقه والدين) والربط بينها وبين مدلولاتها الشريعة ، نجد النور العقلى يضىء جوانب الدلالات الأصلية ، ويغوص فى قوة إدراك ،

وحمية إيمان باحثًا عن لآلتها المخبأة ، وجواهرها المكنونة ، لتبرزها في ثوب قشيب يتهافت على اقتنائها طلاب الحق ، ورواد المعارف الإنسانية ، ومحبو السلام والاستقرار والحرية .

هذه حقيقة أدركها الذين باعوا أنفسهم الله ، والذين نقضوا عنهم غبار الجهالة حين بهرتهم الدعوة الملحة إلى العلم والتعلم والبحث والدروس والتي حملها الإسلام في صراحة صريحة ، وسلك بها درويًا لم يسر فيها غيره وولج أبوابًا لم يطرقتها سواه ، فلا يعرف دين سبقه إلى الحث على العلم كما حثت آيات قرآنه وسنة رسوله ، وما ذلك إلا سعيًا لإبراز قوة الشريعة الإسلامية ليتجه إليها المتخصصون ، وليحملوها إلى الناس كافة تدفع عنهم الضير وترفع الأصر ، وتحم الأغلال .

(٢) الناس أعداء ما جهلوا ، ومن جهل شيئًا عاداه ، والشريعة الإسلامية في العصور المتأخرة لم تجهل فقط ، وإنما جهلت وأهملت ، وإذا ذكرت فإنما تقرن بالسخرية والاستهزاء ، أو الوحشية والإجرام والقهر والإذلال .

وتعالوا تتأمل وضعها في القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر ، وتتأمل المسلمين عنوانها ، ودعاتها وحكام الأقاليم الموسومة ، نجد في كل مكان جهلاً فاضحاً بالشريعة نفسها بين أبنائها ، اللهم إلا أضواء خافتة تتراعى هنا وهناك لا تغني ولا تفيد ، يحقرها الغريب عنها ، ولا يشعر بوجودها المقيم في رحابها .

ما الذى يدعو المفكرين إلى البحث عن الإسلام ؟ أجهل أبنائه أم فقر دولة وظلم حكامها ، واستبعاد الرعية وسومها الخسف والإرهاق . أم البروج العاجية التي يعيش فيها قادة الجند وزعماء الجاه والسلطان ؟

(٣) ولما بدأت أمم الإسلام تفرك عينيها . وتحاول تحريك جسدها لتنهض على قدميها بهرما المنظر الساحر البراق فى واد غير واديها فتناولت إليه أعناقها لا لتساير الرقى الصناعى وحسب ، ولكن لتتمرغ فى حماة التشريعات الغربية عن بيتتها والمصنوعة لغيرها ، تنقلها كما هى دون تدبر أو وعى أو تفكير فهوت جائية أمام الغزو الفكرى المريع ، وأخذت بالدعاية البراقة الخادعة الماكرة ، ذات الظاهر

الناعم الملمس ، والباطن المنطوى على العداة الماحق الفاجر ، ودكت حصونها حين خلت من المدافعين الأقوياء ، وما تجدى قلاع لا تحميها السواعد الفتية ، ولا العقول الفاقهة النيرة ، وديس التراث ولاكنه السنة سوء ممن ينتسبون إليه وهو منهم براء ، ممن يعيشون على أسمه ويلغون فى دمه ، ومن يحتمون فى ظلاله ويقطعون أوصاله .

(٤) دفعاً لمثل ما وقع فى الفترة التى غشى فيها الجهل كل مرافق الأمة الإسلامية ، وتحذيراً من الإنذماج فيه ، كانت وصية رسول الله ﷺ بالعلم والتعلم ، والفقه والتفقه .

وكلمة (خيراً) فى الحديث الشريف نكرة فى سياق الشرط فتعم كل خير وتنويه للتعظيم ، فهو الخير الكامل وفيه بشرى عظيمة للمتفقه ، كما أخبر رسول الله ﷺ « من يرد الله به خيراً يفقه بالدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطى »<sup>(١)</sup> وفى حديث آخر « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، إذا فقهوا »<sup>(٢)</sup> وروى الترمذى وابن ماجة قول رسول الله ﷺ « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

وقول الرسول الكريم : « وإنما العلم بالتعلم » يدفع إلى تلقى العلم من أربابه فقد لا يستطيع طالب العلم البادئ الاستفادة من مجرد مطالعة الكتب ومراجعة ما لديه من موسوعات ، فللعلم اصطلاحات وللمؤلفين اتجاهات وإشارات وتوجيهات يعى بها اللبيب ولا تدرك إلا بموقف (بتشديد القاف المكسورة) وفى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة عبارات يحتاج فهمها على حقيقتها إلى طول بحث وتدارس مع أستاذ فاقه واع ، وقد تمضى بالمرء السنون وهو مقيم على فهم خاطئ لا يصححه إلا توضيح موضح أو إجابة لودعى مره ، أو الجلوس فى مجلس حبر ذى قدم راسخ فى العلوم .

ولو كانت القضية مجرد إطلاع ، أو استقلال بفهم ، ما حث القرآن على الهجرة

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

فى طلب العلم من مظانه حين يقول : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾<sup>(١)</sup> وفى قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُنَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ هُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾<sup>(٣)</sup> .

(٥) والآن فى الحقبة التى نعيشها نرى نور العلم العام آخذاً طريقه إلى كل مكان فى الأمة الإسلامية يدخل إليها شعاعه من الكوى والنوافذ ويفتح لأبنائها ماله ليلجوا من أوسع الأبواب ...

وأحب أن أضع بين يدى بنائنا المسلمين حقيقة ما أظنها خافية على أولى الألباب وأصحاب الإطلاع الواسع ، وذوى النظر الفاحص البعد عن التعصب الغال للعقول عن الانطلاق فى حرية اتجاه وكما توجيهه ، تلكم هى : أن الذين حاربوا الدين فى الغرب والشرق لم يكن لهم إطلاع موجه على الإسلام وحقائقه ولا معرفة كاشفة لأصوله وفروعه ، ولهذا لم يكونوا متجهين بأسلحتهم المختلفة إليه بتاتاً ، وإنما أرادوا بالإصالة حرب الاستعباد الدينى الكهنوتى المتحكم فى تفكيرهم وأمور حياتهم ، والذين يسد عليهم منافذ الرحمة واللقاء مع الله - حتى ولا دعاءه - إلا إذا استعملوا المفتاح الذى بأيديهم هم<sup>(٤)</sup> فكم من رأس هوى باسم الدين ، وكم من ضحية قدت باسم الكهنوت الممقوت الذى ثار عليه (مارتن لوثر) ومن نهج نهجه وعبر على طريقه .

ولكن .. جاء حرب الإسلام تبعاً لحرب مطلق دين ، وأعان الجهل بقواعد الإسلام ، على إذكاء تلك الحرب ، وإشعال نارها ، ومن فضل الله علينا أن نرى بوادر اليقظة الإسلامية تأخذ طريقها إلى الوجود وتتسع ورويداً ورويداً منذ حار كثير من العلماء النصب والأزلام ، ومنذ ظهر على مسرح الحياة بعض الأفضاذ من رجال

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٨٧ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ١٢٩ من سورة البقرة .

(٤) أى الكهنة أنفسهم .

الإسلام المتمكنين في بدء القرن العشرين الميلادي في مختلف الأمصار ، وأشاعوا في المسلمين الوعي الإسلامي القويم .

ولا أظن أن مد الإسلام سيتوقف وإنما أمل في الله أن يستمر وينشط فقد انتشر الآن قراءة القرآن الكريم متقنة بواسطة المصاحف المرترلة التي تذاغ من مختلف إذاعات العالم حتى الكافر منها<sup>(١)</sup> وأثبت علماء المسلمين من مختلف ديارات الإسلام يحملون الحقيقة الإسلامية ويقدمونها للناس في صورة جميلة مقبولة ، وانتشت المجامع للبحث العلمي الخالص لله ولخدمة المجتمع الإسلامي . يجتمع فيه علماء الأمصار الإسلامية على اختلاف نشأتهم وطرقهم في البحث والدرس محاولين الوصول إلى قواعد تطابق العصر في التقنين والتشريع وأمور المعاملات المختلفة مستقاة من روح الشرع الشريف وهم واصلون بعون الله متى صدقت النيات وصلحت الأعمال وهي صادقة وصالحة بتوفيق من بيده ملكوت كل شيء .

### والخلاصة :

أن فقه الدين ومعرفة مقاصد الشريعة ومرايها ودراستها دراسة فاحصة ، والإلمام الكامل بتراث العلماء المجتهدين في مختلف العصور يوصل تماماً إلى تثبيت أركان الإسلام ، ونشر أحكامه حتى يصبح مصدر كل تشريع في كل مجال فلا عدو لقيم الفاضلة كالجهل بها ولا مساعد على العمل بها كالعلم بفائدتها ، وما كان الإسلام ولن يكون مصدر إزعاج أو إثارة أو ظلم أو إضراب ، وإنما هو المصدر الوحيد لمن أراد للدنيا سلاماً وأمناً ، وإخاء ومحبة ، وشعباً ورياً ، وإحساناً وعاوناً في الملمات ، وقهراً للعدو الأكبر الشيطان ، وبنياً لكل فضيلة ومحققاً لكل رذيلة .

ويقرر الحديث الشريف عون الله ورضاه وتوفيقه لمن تفقه في الدين لأنه سيصبح مناراً هي ومصر إشعاعاً للرحمة والخير ، يوزن مداده بدم الشهداء يوم القيامة ، فقد جاهد بعلمه ووقف ياته على خدمة دين الله والتمكن له فعل الشهداء سواء بسواء .

(١) وهذا مما يعين على فهمه وتدييره .

كما بين الحديث الشريف فى غير لبس ولا غموض وجوب مدارس العلم مع أعلامه (وإنما العلم بالتعلم) والتواضع له وتلقيه من صادره الراسخة فيه ثم حملة فى أمانة واعتزاز ، وقوة مستمدة من الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾<sup>(١)</sup> .

ويعد .. فإننا نسوق هذا الحديث فى مستهل العام الجديد ، والمسلمون يحتفلون بذكرى الهجرة النبوية التى كانت مصدر إعزاز للإسلام والمسلمين لتلفت الأنظار إلى أن نصرته الإسلام وحمايته فى هذا العصر تستلزم تسليح المسلمين بالعلم والفقهاء فى الدين ليردوا عنه عادية الملحدين ، وشبه المضللين ، وجهل الجاهلين ، وإن الإسلام لم يؤت من قبل أعدائه بمقدار ما أصيب به جهل أبنائه .

ولا سبيل لنصرة دين الله وإعزازه إلا بفهم روحه والبصر بتعاليمه ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة .

---

(١) الآية ٣ من سورة الطلاق .

# الحياة المثالية الفاضلة

## تحققها أركان الإسلام

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً »  
متفق عليه

### يبين يدي البحث :

(١) للإنسان المكانة الأولى في الوجود ، من أجله خلق الله كل شيء ، وله سخر ما في السموات وما في الأرض ، ومنحه ما يوصله إلى اكتناه أسرار المخلوقات ، والوقوف على دقائق خفاياها ، وإيضاح مبهماتنا ، يعمل فكره في المحسات ، ويعكف مجيلاً عقله فيما يرى وما يبصر ، ولا يقف عند حد الظواهر التي تتاجيه من قريب أو بعيد وإنما يحاول رفع الغطاء والنقوذ إلى ما وراء ما يحيط به ، باحثاً عن الحقيقة ، آملاً في واحة يلتقى عندها عصا السير ، يعد أن يعييه الجهد وينال منه الكد والوصب كل منال ، وقد يصل إلى ما صبت إليه نفسه ، فيطيب عيشاً ، ويقر عيئاً ، وقد يقضى نجه دون هدفه ، ويجى من بعده من يحاول أن يتم ما بدأه ، وبطل ركب البشرية متلاحقاً في متاهات الحياة ، ويستقيم له الدرب مرة ، ويلتوي به أخرى ، تطلع عليه شمس وتغيب ، ويجنه ليل يقشعه فجر ، وإذا سئل إلى أين ؟ أجاب : نشد الراحة ونبحث عن المثالية المسعدة ، حيث لا آلام ولا شكوى ، ولا تبرم ولا ضيق ، ولا عدوان ولا معتدين ، حيث لا بطنه مفزعة ، ولا خواء قاتل .

(٢) ونعود فنتساءل : هل وقعت الإنسانية على الخبر الذي يحيل بؤسها نعيمًا ، ويصير شقاءها سعادة ؟ والجواب : قلب طرفك شرقاً وغرباً ، وارجع البصر وانظر على ماذا يقع . فلا تجد إلا معدباً للون لا يد له فيه ، ومستبعد بغير ما اكتسب ، ومقتولاً

دون جنانية في حرب لم يسعرها ، ولم يشعل نارها ، وإنما يصطليها كارهاً ، ويخوض غمارها مرغماً ، حرب تأتي على أخضره ويابسها ، وإذا عن له أن يقول متى تنتهي ؟ تلاشى صوته في ضجيج أصوات المبيدات ، دون أن يحظى بجواب أو يقع على خبر . فهل من نطاسى بارع يبتز الداء ويقضى على العلة ؟ وبعد أن تشوب الإنسانية العاقلة إلى رشدها ، وتتسامى قليلاً من الماديات التي ظاهرها الرحمة وفي باطنها يكمن الهلاك ، وعندئذ تجد الجواب سهلاً هيناً في متناول الآخذ ، تجده قوياً في رفق واضحاً في غير خفاء ، تجده في قواعد الإسلام ، في رسالة السماء ، في هداية الرحمن الرحيم في تدبير العلي الحكيم ، في الطريق الذي خطط من يعلم السر وأخفى ... هنا الأمل المنشود والغاية المرجوة ، وليس هذا قولاً يلقي على عواهنه ، أو يقال تعلقة ، وإنما معه برهانة وطيابة حكمته ، هنا حين تفهم التوجيهات الإسلامية ، ويعى الناس ما تهدف إليه الدعوة الإلهية ، هنا السر الكامن في أركان الإسلام .

### كلمة التوحيد :

(١) تترايط أركان الإسلام ترابطاً عجيباً ، ويأخذ بعضها برقاب بعض ، لتسير بالإنسانية في طريق مستقيم يبدل خوفها أمناً وجفاءها صلة ، وظمأها وجوعها شعباً وربياً ، ويفضأها محبة ، وحقدها شعوراً بالمودة والإخاء فقد دعا رسل الله جميعاً إلى توحيد الله وإفراده سبحانه بالعبادة ، فلا يطأطى من أسلم رأسه لغير بارئه ، ولا تعنو جبهته إلا لخالقه ، ورسول الله خاتم الأنبياء وصفوة الله من خلقه ، دعا قومه إلى التوحيد مقتضياً بذلك آثار الرسل من قبله ، فمن آمن به نبذ عبادة الحجارة ، وأسقط الأصنام من حسابه وقد كان آخر ما فتته بيده الشريفة يوم الفتح ، وبذلك انتهى عصر الأوثان من دنيا المسلمين إلى الأبد .

### الصلاة :

(٢) ولا بد أن تدوم الصلة ببارئ السموات والأرض ، وأن يلقي المسلم رحاله في رحاب مولاه حتى يقوى على مواجهة شدائد الحياة والتغلب عليها ، ففرض الله عليه الصلاة ، وكلفه أن يقيمها خمس مرات في اليوم والليلة فأول ما يفعله بعد ليل طويل

ونوم عميق هو صلاة الفجر يستقبل بها أضواء النهار ، ويسعى بعدها بهدى الله ضارباً في الأرض ماشياً في مناكبها مبتغياً من فضل الله ، متعاوناً مع رفقائه وعشرائه في إسعاد مجتمعهم الذى فى جوه يعيشون وعلى أرضه يدرجون ، وبخيراتهم ينتفعون ، فإذا أكدهم العمل ونال منهم الدأب عادوا إلى ربهم يطلبون منه قوة على قوتهم وعاوناً على أعمالهم ، واستقامة لطريقهم ، ثم استراحوا فترة من النهار يقومون بعدها قانتين ، ويعرجون إلى مسالك حياتهم يلتمسون ما عند الله من الرزق فى تجارة يديرونها بينهم ، وزراعة يرجون جناها ، ويؤملون خيرها ، وفى أعمال أخرى مما هياهم الله لها ، حتى إذا أقبل الليل وآذنت شمس النهار بالمغيب أبوا إلى ربهم يستقبلون بقلائه ليلهم الذى فيه يسكنون ومن وعثاء الجهد يتريحون ، وقبل أن يأووا إلى فراشهم يتجهون إلى خالقهم ومن يمسك بأنفسهم ليرسلها إلى أجل مسمى إن كان لها عيش لازال ، أو يقبضها إليه إن حل ميعاد الرحيل إليه .

وجعل الصلاة فى جماعة أفضل منها فى الانفراد بدرجات كثيرة ليتلاقى المسلمون ما أمكنهم التلاقى ، وليكونوا على علم بأحوال بعضهم البعض ، فيعطى السائل ، ويطعم المحروم ، ويكسى العارى ، وتقضى لكل ذى حاجة حاجته ويعيش أبناء المنطقة الواحدة متعاونين متراحمين ، حتى إذا كان يوم الجمعة ونودى للصلاة أجاب كل مسلم النداء وتوافدوا على الجامع الكبير من أطراف البلد فيصلون ثم يبحث بعضهم أحوال بعض فى اخوة صادقة ورعاية حقة ، وإخلاص النية فى العمل لخير الجميع .

### الزكاة :

(٣) ما دام المسلمون قد التأم جمعهم فى الصلاة ، وتداعوا إلى البر والتقوى ، وجادت نقوس الواجدين بعباء المحتاجين ، فقد شرع الله لهم الزكاة حقاً لمصارفها المذكورة فى القرآن الكريم ، ليشعر غنيهم بأن عليه واجباً فى ماله لا يعطيه تفضلاً ولا وجود به منة ، وإنما هو ما ألزم به شرعاً فى مال الله الذى آتاه غياهم وجعله مستخلفاً فيه ، حتى يجتث به الحقد والكراهية من المجتمع ويقيم الحب والتراضى مكانهما ، فتعم السعادة ، وتقتلع جذور الجريمة التى يبعثها الفقر وينميها البؤس وينمو المال

المزكى ويزيد ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (١) .

وهذا الركن من أركان الإسلام يكاد يكون معطلاً ، ولو أن المسلمين أقاموه ونفذوه وما وجد في بلاد الإسلام شاك ولا عان ولا محروم ، ولماتت المبادئ الهدامة فى مهدها وقضى على أكثر العلل الاجتماعية والأفكار الوافدة التى تعانى منها مجتمعاتنا والتي لا تنمو إلا فى بيئة الفقر والحرمان ، ومنع الغنى زكاة ماله يجنى ثماره فى الدنيا كراهية وحقداً من مواطنيه ، وسيمثل له ثعباناً أقرع ينهشه يوم القيامة ، وحبذا لو تدخلت الحكومات الإسلامية كلها فى جمع الزكاة من الأغنياء المانعين وصرفها فى مصارفها الشرعية ، وإذن لأقامت ركناً من أركان الإسلام يكاد يندثر ، وفتحت باباً كريماً يجد فيه المعوزون ما يسد حاجتهم فى كرامة وعزة .

ومما ورد عن رسول الله ﷺ من فضل الزكاة والصدقات عامة ما رواه البخارى عن عبد الرحمن بن صخر قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان لى مثل أحد ذهباً ، لسرنى أن لا يمر على ثلاث ليالٍ وعندى منه شىء ، إلا شىء أرصده للدين » . وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث متفق عليه : « ما من يوم يصبح العبد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهم اللهم أعط متفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » . وعن أسماء رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك ، ولا توعى (٢) فيوعى الله عليك ، ارضخى (٣) ما أستطعت متفق عليه .. وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : انتهيت إلى النبى ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآنى قال : « هم الأخرسون ورب الكعبة ، فقلت : فذاك أبى وأمى من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم » متفق عليه .

وأعتقد اعتقاداً جازماً أنه لو زكى الأغنياء أموالهم ، وبذل الواجدون للمحتاجين وأعطوا فضول ما يملكون كما أمر الله ورسول لقضى على العوز والفقر

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) الأيما حفظ الأمتعة بالوعاء ، والمراد هنا لا تمنعنى فضل الزاد عن احتاج إليه .

(٣) الآيات من ١ إلى ٥ من سورة العلق . ارضخى أى أعطى ولو شيئاً يسير .

قضاء مبرماً ، ولما وجد فى ديار الإسلام من يستطع رفع صوته بما يخالف الإسلام ولعمت المودة والرحمة والاستقرار والأمن والسلام ، وباليت قومی يعلمون .

### الصيام :

(٤) لقد شرعه الله تبارك وتعالى لمعاني عديدة ومقاصد كثيرة سبق الحديث عنها دراسات مضت ، والذي نقصد إليه هنا من فوائده ومراميه هو أن الزكاة والصدقات لازمة لزوماً لا شك فيه يقدمه أصحاب الأموال إلى من ليس بيدهم مال ، ولكنهم قد يبخلون لأنهم لا يشعرون بحاجة غيرهم ، فمن طعم وشرب لا يحس ألم الجائع الظامى ، كما أن المعافى لا يدرك قسوة المرض ، فكان حبس المسلم الغنى عن الطعام والشراب طوال أيام رمضان تمكنا لإحساس الجوع والظما أن يلج عليه رغم كثرة ما تحت يده من طعام ، ليدرك مدى حاجة الخاوى الذى لا يجد ما يسد رمقه ويمسك ذمائه فتسخو نفسه وتجوّد يده بالعطاء مما أفاء الله عليه من الخيرات التى يملكها .

### الحج :

ومتى تجافى الناس عن عبادة الأوثان وصدقوا برسالة خير الأنام ، وصاموا رمضان إيماناً واحتساباً إبتغاء مرضاة الله ورضوانه ، فقد سعدت بهم أوطانهم ، وارتقت مجتمعاتهم ، وسادت فيهم روح المحبة والتعاون ، والتفانى فى حب الله ورسوله ، وتوطدت بينهم أركان العدل والمساواة .

بعد ذلك تنهياً نفوسهم وتشوق إلى آفاق أخرى واسعة ، تنتظم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، فيرتحلون من أقاصى المعمورة وأدانيها ، آمين البيت الحرام ، تلكم هى رحلة السلام إلى أرض السلام ، رحلة الحج المقدسة التى تتم بها أركان الإسلام .

### حكمة الحج :

(١) يرتحل الناس من بلد إلى بلد فتصح أجسامهم ، وتنمو مداركهم ، ويروا ما لا يستطيعون رؤيته لو أقاموا حيث نشأوا ، واستقروا حيث ولدوا ، ويتلاقى بعضهم ببعض فيتحقق ما أراد الله أن يتحقق ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ مِنْ كُلِّ

(١) الآية ١١ من سورة الأنعام .

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا<sup>(١)</sup> وفى لقاءاتهم يتدارسون أحوالهم المختلفة فتروج سلعهم ، ويتبادلون المنافع ، فيعمهم الخير ، ويرتفع مستواهم الأدبي والمادى .

(٢) فقد شاء الله تبارك وتعالى أن تختلف أقاليم الأرض فى المناخ ، وتتباين فيما تثمر ، فينتج هذا البلد الصناعى عديداً من المصنوعات ، ويخرج الآخر كنوزاً خبيثة تحت ترابه لا توجد فى غيره ، ويغل ثالث الحبوب والأقوات ، فضلاً عن التقدم الحضارى فى بعضها ، والتخلف عن الركب فى أماكن لم ينتشر فيها العلم ولا الوعى المفيد الدافع إلى الرقى ، ومن إنزوى فى عقر داره ، أو لبث مقيماً حيث هو لا يتعدى حدود وطنه كيف يعلم علم الآخرون ومتى يساير المتحضرين ؟ لذا كان لابد من لقاء الناس من مختلف الأوطان ، فى أقطار الأرض ، حتى تمتزج الحضارات ، وتتقدم الإنسانية جمعاء فى طريق واحد وسبيل مستقيم .

(٣) والذين جمعهم الإسلام عقيدة ، ووحدهم منهاجاً ، ووجههم فى عباداتهم اليومية نحو بيت الله الحرام أولى فى الوجود ، بالتلاقي ، والتعارف ، والتقارب بالأجسام بعد التجارب بالأفكار والأرواح بعد أن أزال الإسلام من بينهم كل اختلاف ، حتى يتزودوا فى أرجائها كلمة الله أو ما نودى الرسول للتبليغ ، ورفرفت فى سمائها أجنحة الملائكة ، وحمل الروح الأمين سائراً فى دروبها رسالة الله يبلغها رسوله ، ونهض من وديانها حملة الدعوة إلى الناس كافة ، فبلغوا أهل المشارق والمغارب ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمكّن لهم فى الأرض فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .. ولله عاقبة الأمور .. ويشهدوا منافع لهم ، تجارية وعلمية وثقافية ، فتقوى الروابط وتشتد الأواصر .

(٤) فالحج سفارة بين المسلمين ، وتجارة رابحة رائجة ، وتعود على تحمل مشاق السفر ، وفراق الأهل والولد ، وسعادة روحية ما بعدها سعادة ، وتحصيل علوم وتبادل معارف ، وتزود للدنيا والآخرة ، وما جزاء الحج المبرور المبارك المقبول المؤدى بإخلاص نية وصدق وعزيمة وسلامة طوية إلى الجنة ، فقد ورد عن أبى هريرة رضى الله

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

عنه أن رسول الله ﷺ : « ... والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » وهو أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد . كما أخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ سئل : « أى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » .

### الخلاصة :

أن أركان الإسلام تضمن للبشرية نجاحاً دنيوياً فى شتى المجالات حين تجمعهم على التعاون الصادق ، والإخاء الكامل ، والتعاطف الذى يحل فيه المسلم أخاه محل نفسه فيضيعه حيث يضع نفسه ، فيتأخر ليقدمه ، ويذبح ليشبعه ويعمرى ليكسوه ، ويسير الليالى كادحاً ليربحه ، يشاركه بؤس الحياة ونعيمها ، ومخاوفها وأمنها وشقوقها وسعادتها فى إخلاص خالص من الرب ، بعيد عن الشكوك لا يخالطه هوى الأنفس ، ولا تنفك عنه القلوب .

أن أركان الإسلام تجمع البشرية فى وحدة روحية عبوديتها خالصة لله ، لتقف صفاً قوياً كالبنيان المرصوص أمام عدوها الشيطان ، الذى يفرق الجمع ويشتت الشمل ويقضى على كل كمال ، وليلقى البشر عامة متى آمنوا بالله ورسوله حين يرجعون إلى ربهم آمنين مطمئنين ، أحياناً على سرر متقابلين .

فلنتداعى إلى الله ، ولنسلك طريقه ، ولنكن هداة برة ، نحمل الرسالة ونؤديها إلى الدنيا كافة ، ولا ننى ، ولا نضف ، ولا نتعاس ، ولا نخاف عدونا ، مادمنا لا نريد إلا الخير للكافة ، والهداية للعامة ، والسلام للأوطان ، الرحمة للعباد ، والله الموفق لكل صواب وسداد أنه نعم المولى ونعم النصير .

## حقوق وواجبات بين الآباء والأبناء

قال رسول الله ﷺ : « اعدلوا بين أولادكم فى النحل <sup>(١)</sup> كما تحبون أن يعدلوا بينكم فى البر والعطف » <sup>(٢)</sup> .

### تمهيد :

الأولاد هم أشهى ثمرات الحياة ، يدرك ذلك من وهبه الله إياهم ومن ابتلاه بالحرمان منهم ، عليهم عمارة الدنيا ، وبهم سيادة الأمم قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبُشُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال رسول الله ﷺ : « الولد ثمرة القلب » ، وحب الولد كامن فى طبيعة الإنسان كمون النار فى الحجر الصلد ، علت درجته أو هبطت ، يستوى فى صفوة الله من خلقه وهم الأنبياء والمرسلون ، ومن عداهم من البشر ، فقد تضرع سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى ربه أن يهب له ذرية صالحة ﴿... رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup> فَبَشَّرَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ <sup>(٥)</sup> ونادى زكريا ربه نداء خفياً ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ <sup>(٦)</sup> وَيُرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا <sup>(٧)</sup> .

وقد قرر الإسلام حقوقاً تقابلها واجبات لكل من الوالد والمولود قبل الآخر تضمن استمرار حسن العلاقات بينهما ، كما تقيم أسرة قوية متماسكة تبنى مجتمعاً فاضلاً ، يشيد أمة عزيزة صالحة للقيادة والسيادة ، سأحاول - مستعيناً بالله - رسم الخطوط لما يجب أن تقوم عليه الصلة بين الولدين والمولودين مستمدة من كتاب الله تعالى وهدى رسول ﷺ .

(١) النحل (بضم النون المشددة وسكون الحاء المهملة) : العطاء ، مصدر نحله نحلاً إذا أعطاه

والنحل بوزن الحبل العطية .

(٢) رواه الطبرانى .

(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف .

(٤) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الصافات .

(٥) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة مريم

## أولاً : حقوق الأبناء على الآباء :

(١) أول ما يجب على الوالد حيال أولاده قبل أن يوجدوا ، هو أن يختار أمهم ذات خلق ودين وعفة ومروءة ، قال عليه الصلاة والسلام : « حق الولد على والده أن يحسن موضعه<sup>(١)</sup> وأن يحسن اسمه وأدبه » وقال عليه السلام : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » وقال رجل يمين على أولاده :

وأول احساني إليكم تخيري لمامجة الأعراق باد عفافها

(٢) فإذا برز الولد إلى الوجود وهبط من مستقره في بطن أمه إلى الأرض بدت حقوقه على والديه قوية واضحة فهو في مهده محتاج إلى عطف والديه وحنانهم ، وعندما يدرج على البسيطة يستحق الرعاية والتوجيه إلى الآداب المحمودة ، روى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم » وروى الشيخان<sup>(٢)</sup> : « ... أن أناساً قدموا على رسول الله ﷺ فسألوا : هل تقبلون صبيانكم ؟ فقال : نعم . فقالوا : لكننا والله ما نقبل . فقال النبي ﷺ : أو أملك إن كان الله قد نزع الرحمة من قلوبكم ... » .

(٣) ومن حسن رعاية الولد العناية بطعامه وشرابه ، روى البخارى : « يقول الولد : اطعمنى . إلى من تدعنى ؟ » وروى أبو داود والحاكم وأحمد فى مسنده : « ... كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » ... وإذا تعددت الأولاد وجب العدل بينهم فى العطف والعتاء . روى الطبرانى قول رسول الله ﷺ : « أعدلوا بين أولادكم فى النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم فى البر والعطف » وفى قصة يوسف عليه السلام مثال واضح لما أثاره الشعور بتفضيل يوسف على أخوته من شقاق ونفار بينه وبينهم ، ولتنصت إلى القرآن الكريم وهو يحكى طرفاً مما كان أمرهم ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجهه أبيكم وتكفونوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾<sup>(٩)</sup> الآيات الكريمة .

(١) أى يختار والدته من أصل طيب .

(٢) البخارى ومسلم .

(٣) الآية ٨ ، ٩ من سورة يوسف .

ومنعاً لأسباب الشنآن والعداوة قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم ولو في القبلة » . وأنكر رسول الله ﷺ التمييز بين البنين والبنات في المعاملة حتى لا يحملهم التمايز على عقوق الآباء وجفوتهم ، فقال عليه السلام : « ساووا بين أولادكم في العطفة فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء » . وكان ﷺ إذا رأى فاطمة الزهراء رضی الله عنها مقبلة قام لها عن مجلسه وأخذ بيدها فقبلها ، وعن أم خالد بنت خالد بن سعيد رضی الله عنها قالت : (أتيت رسول الله ﷺ مع أبي وعلى قميص أخضر فقال ﷺ : « حسنة حسنة »<sup>(١)</sup> . فقالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فنهاني أبي ، فقال رسول الله : دعها ، ثم قال . « ابلى واخلقى ، ابلى واخلقى »<sup>(٢)</sup> .

(٤) ومن الواجب على الوالدين أن يوجهوا أبناءهم إلى بارئ الكون سبحانه ويغرسوا الإيمان فيهم بقدرته وقيوميته ، وقد رسم القرآن الكريم الطريق الواضح في وصية لقمان لابنه حيث يقول ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> ثم يمضى معه مستدلاً على قدرة الله بالبرهان العقلي : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِنْتَقَالٍ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي سَمَاوَاتٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup> ثم يأمر بعبادة الله وحده والتجرد له والتفاعل الكريم مع المجتمع الذي يعيش فيه وتحمل الآلام في سبيل الله نشراً للفضيلة وإجتناً للرديلة : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٥)</sup> ثم يدل على الخلق الكريم الذي يمكن له في قلوب الناس ويجعل منه القدوة الممتازة الصالحة في السلوك القويم : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾<sup>(٦)</sup> وأقصد في مشيك وأغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير<sup>(٧)</sup> .

(١) يمتدح ثوبها وهي يومئذ طفلة .

(٢) دعاء لها بطول العمر والسعادة .

(٣) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٤) الآية ١٦ من سورة لقمان .

(٥) الآية ١٧ من سورة لقمان .

(٦) الآية ١٨ ، ١٩ من سورة لقمان .

(٥) كما يجب أن يتناول الوالدان طعامهما مع أولادهما في مواعيد منتظمة  
 إيناساً لهم وقياماً بحق رعايتهم وتمكيناً للآداب الاجتماعية الإسلامية فيهم ، ، فعن  
 سفيان رضى الله عنه أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة ،  
 ويجمع الفضل قول رسول الله ﷺ : « ما نحل والد ولده من نحل أفضل من خلق  
 حسن » ، وقال حكيم عربى : « لآعب ولدك سبعاً وأدبه سبعاً وصاحبه سبعاً ثم  
 أ جعل الحبل على غاريه » .

(٦) وحب الأولاد يغرى الإنسان بالحياة ، ويحملة على القيام بواجباته حيالهم  
 ميله الغريزى إليهم ، قال الأحنف لمعاوية وقد غضب يوماً على ابنه فهجره : (يا أمير  
 المؤمنين ، إنما أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض  
 ذليلة ، وبهم نصول عند كل جليلة إن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوك فأعطهم ، وإن لم  
 يسألوك فابتدئهم يمنحوك ودهم ، ويحبوك دهرهم ، ولا تنظر إليهم شزراً ، ولا تكن  
 عليهم ثقيلاً فيتمنوا موتك ، ويكرهوا قريك ، ويملوا حياتك) ... وقال أبو تمام :

وإنما أولادنا بيننا      أكبادنا تمشى على الأرض  
 لو هبت الريح على بعضهم      لا تمتعت عيني عن الغمض

### ثانياً : حقوق الآباء على الأبناء

(١) أكد القرآن الكريم حقوق الوالدين على أولادهم تأكيداً قاطعاً حيث قرن  
 الله سبحانه طاعته بطاعتهم ، والإيمان به بالإحسان إليهم ، فقال تبارك وتعالى :  
 ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾<sup>(١)</sup> وقال عز من قائل : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ  
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا  
 أُفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾<sup>(٢)</sup> وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ  
 ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء .

(٢) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(٢) وأوجب لهما حق الطاعة ولو كانا كافرين ما لم يأمر بما يخالف قواعد الإسلام : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾<sup>(١)</sup> فقد تحملا كثيراً من المشقات والآلام في سبيل ولدتهما ، وتبرز هنا بعض الآيات الكريمة فضل الأم وتبين مقدار ما تحملت وحدها من متاعب وما لاقت من صعاب في حل الولد جثيناً في بطنها وما تكبدته في ولادته وإرضاعه مما يوجب لها حقاً زائداً على حق الوالد وإن كانا حقيقيين بئر الولد ومعرفة جزءاً وفقاً على ما أسلفنا له من خير ، قال تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُثِبتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقد استجاب الله دعاء من فعل هذا مع ولديه وأعد له الثواب العظيم عنده وهياً له المكان اللائق في الجنة فقال جل شأنه : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup> .

(٣) ثم حذر الله تبارك وتعالى من عقوق الوالدين وأنذر من أساء إليهما بالعذاب الأليم وخسران أعماله ، واستحقاقه لغضب الله وعقابه ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَفْ لَكُمْ أَنْ أَعِدَّانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلْتُ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ﴾<sup>(١٧)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلْتُ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ<sup>(١٨)</sup> وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَرَبُّوْنَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾<sup>(٤)</sup> ومنع رسول الله ﷺ من كل قول أو عمل يجر الإهانة والإيذاء إليهما ولو بسبب بعيد لا يكونان فيه الهدف المباشر فقال عليه الصلاة والسلام : ﴿إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل : يا رسول

(١) الآية ١٥ من سورة لقمان .

(٢) الآية ١٥ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ١٦ من سورة الأحقاف .

(٤) الآيات من ١٧ إلى ١٩ من سورة الأحقاف .

الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه .

(٤) وهكذا نجد الإسلام السمح الكريم يحافظ كل المحافظة على علاقة الآباء مع الأبناء في صورة نقية طاهرة عفة توثق روابط الأسرة ، ويحكمها إحكاماً تاماً لا يتسرب إليه الخلل أبداً ، لينشأ فتیان الإسلام في ظل أبوة رحيمة وحانية وأسرة قوية مترابطة ، فيشربوا متزنين يقودون أمتهم إلى العز والمجد ، ويفقهون دورهم القيادي على الأرض في إرشاد العالم إلى الله تعالى ، وبالتالي إلى السعادة الدائمة في الدارين والسلام الحقيقي في الدنيا ، وليكونوا في الآخرة ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾<sup>(١)</sup> فالدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون . فاللهم فقهنا في دينك ووقفنا لإتباع سنة نبيك وهدى حبيبك المصطفى ، وخذ بأيدينا إلى ما يرضيك إنك أنت وحدك الهادي إلى سواء السبيل ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ٤٧ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٨٨ من سورة هود .

## روابط المجتمع كما يرسمها الإسلام

روى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

يحرص الإسلام أشد الحرص على استدامة حسن الصلات بين المسلمين ، ويعمل جاهداً على تنقية المجتمع من كل ما يسيئ ، أو يكون مصدر إساءة ، وفى الحديث الشريف بيان لصفات المسلم الذى انقاد لأوامر الله تبارك وتعالى ، وأسلم وجهه لله رب العالمين ، فترك هوى نفسه ، وجانب ميولها السيئة ، وكرس كل ما يصح أن يقتنى ويستأثر به فى هذه الحياة ، وصيره تابعاً لمرضاة الله استجابة لأوامره وطاعة لرسوله ، وعملاً بما ورد فى محكم التنزيل : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

فإذا تم للمسلم ذلك الحب الخالص ، وبدأت ثماره تؤتى أكلها ، بادر إلى امتثال أوامر الله ورسوله جميعها فكف عن أخيه المسلم كل ما يستطيع كفه من شر ، وقيد نفسه بإحكام الإسلام فلا يطاوع نزعات شيطانه ولا وساوس نفسه ولا ثوران غضبه بل يطرح كل ذلك وراء ظهره ويكبح جماحه ويقول : (أسلمت نفسى وقوتى لله سيدي ومالكي رب العالمين) ، وكل امرئ يستطيع أن يزن أموره ويخلص إلى الخير وينأى عن الشر بمراقبة هواه حين يتعارض مع رضا ربه ، فيحول اتجاهه بقوة الإيمان وينتصر عليه بما استكن فى قلبه من ثقة بالله ، وتلك هى الشدة الممدوحة التى يقول رسول الله ﷺ عنها : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (٢) .

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة .

(٢) رواه البخارى .

ولما كانت اليد مظهر القدرة غالباً ، دخل في السلامة منها السلامة من كل ما يعمل بها وينتج الإساءة كالقتل والسرقة والنهب والسلب والضرب وقطع الطريق وتشمل الإساءة باليد الإساءة بالكتابة والإشارة ، ومثلها العين في غمزاتها ، ويدخل في هذا الباب أيضاً ، غضب الدور والاستيلاء على ما يخص الغير بغير الحق ، وإصدار الأوامر للإتباع بعمل ما يضر ، وقد وردت أحاديث كثيرة تجل عن الحصر تحذر عاقبة الإساءة باليد واللسان وسائر الجوارح ، منها ما روى البيهقي عن أم معبد رضی الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم طهر قلبي من النفاق ، وعلمي من الرياء ، ولساني من الكذب وعيني من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » . وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن عمرو رضی الله عنهما قال : كان رسول ﷺ يقول : « اللهم إنسى أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر » . وروى البخاري عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » . فالمرء إذا حفظ لسانه ، وراقب ما يصدر عنه وعف عن الناس فلم يخصص في أغراضهم كان مسلماً حقاً ومؤمناً صدقاً ، فمعظم الآفات من اللسان .

### جراحات السهام لها التام ولا يلتأم ما جرح اللسان

فرب كلمة أهلكت أمة ، وأشعلت حرباً ضروساً ، وأفسدت ملكاً كبيراً ، ولهذا قدم رسول الله ﷺ اللسان على اليد ، لأن عمل اليد غالباً ما يجيء تالياً لعمل اللسان وناجماً عنه أو مترتباً عليه ، وقد حرم الإسلام على المسلم سباب أخيه ، والعدوان عليه خوفاً على روابط المسلمين أن تنماع وتفكك ، قال ﷺ في حديث متفق عليه : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . وروى البخاري عن أبي ذر رضی الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « لا يرمى رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . ومن يعلم ما في القلوب غير علام الغيوب ؟ وقد عاب رسول الله فعل من تسرع في إلحاق الأذى بمن نطق بالشهادتين وقال له : « هل شققت عن قلبه » وجاء القرآن الكريم مؤيداً ما قصد إليه سيد الخلق فقال تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا...﴾<sup>(١)</sup>.

ومما حرم الله من الإيذاء باللسان : النميمة والغيبة ، فأما النميمة فهي السعي بين الناس بالفساد ، قال ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات » أى نمام<sup>(٢)</sup> ، وأمام الغيبة فيكفى فى شناعها ومجافتها للطبع السليم وبعدها عن الخلق الكريم ، وتردى صاحبها فى الوحشية قول العلى الكبير : « وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ »<sup>(٣)</sup> ، ويقول رسول الله صلى : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أ رأيت إن كان فى أخى ما قال ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »<sup>(٤)</sup> ، ولا يظن احد أن ما يلقي من القول استهتاراً ودون ترو لا مسئولية فيه ، لا بل فيه مسئولية وأية مسئولية ، قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وأن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم »<sup>(٥)</sup> . وعن عقبة بن عامر قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وأبك على خطيئتك »<sup>(٦)</sup> . وعن أبى سعيد (مرفوعاً) قال : « وإذا اصبح ابن آدم فغن الأعضاء كلها تتذلل وتتواضع للسان فتقول : ( اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمتم استقمنا وإن أعوججت أعوججنا ) »<sup>(٧)</sup> . فاللسان إذا فسد أفسد الأعضاء جميعاً ، ومن فساده الكذب فى الحديث ينقله ويرويه عن شخص لآخر ليوغر صدره بها ويسى ما بينهما ويباعد شقة خلاهما ، وقد نهى عن ذلك رسول الله ﷺ ، فهن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ . « لا يبلغنى أحد من أصحابى

(١) الآية ٩٤ من سورة النساء .

(٢) رواه البخارى .

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخارى .

(٦) رواه احمد والترمذى .

(٧) رواه الترمذى .

عن أحد شيئاً فإنى أحب أن اخرج إليكم وأنا سليم الصدر»<sup>(١)</sup> وعن سفيان ابن أسد الحضرمي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت به كاذب »<sup>(٢)</sup> .

وقصارى القول انه مهما لقي المسلم من عنت وإساءة فيجب عليه الصبر ودفع السيئة بالحسنة ولا يصح له اعتزال الناس مادام قادراً على القيام بالخدمة النافعة للمجتمع الذى يعيش فيه ، فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم »<sup>(٣)</sup> .

ومما يزيد فى تماسك المجتمع الإسلامى وإرساء قواعد الألفة بين أفرادهم بعدهم عن الفحش فى القول والعمل وهجرهم كل ما من شأنه أن يؤرث نار العداوة والشقاق ولهذا قال سيد الخلق : « والمهاجر من هجر ما نهى الله » .

والأصل اللغوى للهجرة : الترك مطلقاً وقد يراد به ترك الوطن إلى غيره ، وفى الشرع مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوفاً من الفتن ورغبة فى إقامة الدين ، وفى الحقيقة مفارقة كل ما يكرهه الله إلى ما يحبه .

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول

وتطلق الهجرة على هجرة القلب لما يكون عليه من يخالف فى العقيدة ، وعلى الشرائع الباطلة والعادات المستهجنة التى تهدم الإنسانية ، وتنشعب معاولها فى بناء الخير الشامخ القوى ، فالهجرة تنتظم الحسية منها والمعنوية فلجوء المرء إلى وطن يحميه يعادل لجوء القلب إلى ما يلوذ به وينطوى على وده ومحبته ، وكل عند صاحبه حبيب .

ولما كان من المؤمنين الصادقين من فاتتهم الهجرة الكبرى من مكة إلى المدينة . تلك الهجرة التى كانت آية الإيمان الراسخ ، والنسب أشاد بفضلها القرآن الكريم

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه .

وأعظم اجر من قام بها ، وحكم لهم بالصدق في طاعة الله ونصرة رسوله ، قال تعالى :  
«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا  
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ»<sup>(١)</sup> . وواضح أنه بعد فتح مكة لم يسبق من  
سييل إلى تحصيل تلك الهجرة الخاصة - قال رسول الله : « والمهاجر من هجر ما  
نهى الله عنه » معلناً أن الفضل في الحقيقة ليس راجعاً إلى ترك مكان إلى آخر ،  
ولإنما المقصود هو الفرار من الافتتان عن الدين والابتعاد عن الوقوع بين براثن  
الشیطان الرجيم ، وعلى هذا فلا يزال باب الهجرة مفتوحاً وإن فات مظهره المحسوس  
وهو الانتقال من دار الكفر إلى الإسلام ، فالمسلم في كل أحواله معرض للفتنة ،  
ووساوس النفس الأمارة بالسوء ، ومنازعة الهوى ، وكلها شرور تحاول الاستيلاء على  
قلبه حتى تسلبه إيمانه ، فمن تغلب عليها ولجأ إلى حمى ربه مستعيذاً به فهو مهاجر  
إلى الله قاصد عونه راغب في رحمته ، فعن ابن عباس رضی الله عنهما قال : قال  
رسول الله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاداً ونية وإن استنفرتم فانفروا »<sup>(٢)</sup> ،  
وعن عمرو بن عبید أنه سأل عائشة رضی الله عنها عن الهجرة فقالت : « لا هجرة اليوم  
فقد كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عن دينه فأما  
اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، والمؤمن يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية »<sup>(٣)</sup> ،  
وعن مجاشع بن مسعود قال : انطلقت بابني معبد إلى النبي ﷺ ليبياعه على الهجرة  
فقال : « انقضت الهجرة لأهلها فبياعه على الإسلام والجهاد » . وفي هذه الأحاديث  
الشريفة ما يدل على أن الهجرة الباقية هي هجرة السيئات ، روى أحمد من حديث عبد  
الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعربى إلى رسول الله فقال : يا رسول الله أين  
الهجرة إليك ؟ حيث كنت أم إلى أرض معلومة أم لقوم خاصة أو إذا مت انقطعت ؟  
قال : فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : « أين السائل عن الهجرة ؟ قال : هأنذا يا رسول  
الله . قال : إذا أقمت الصلاة وآتيت الزكاة فأنت مهاجر وإن مت بالخضرة » . قال :

(١) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

يعنى أرضاً باليمامة ، وفى رواية : « الهجرة أن تهجر الفواحي ما ظهر منها وما بطن  
وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، ثم أنت مهاجر وإن مت بالخضرة » .

فالله تبارك وتعالى نسال أن يمكننا من التغلب على هوى النفس وكيد الشيطان  
وأعدائه من الجن والانس وأن يجعلنا ممن هجروا المعاصي وهاجروا فى سبيله .

وقد عرفنا مما مر فى شرح الحديث الشريف كل ما يؤكد المحبة بين الناس  
ويقوى ألفتهم ، ويغرس روح التضامن والتكافل فى المجتمع الإنسانى ، وأن من كف  
يده ولسانه عن إخوانه وعشرائه ومواطنيه فهو معدود فى المهاجرين الذين يناون عن  
الدنيا ويتعدون بأنفسهم عما حرم الله لينالوا رضوانه ويحفظوا مغفرته ويدخلوا جنته  
وشعارهم دائماً : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا  
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » (١) .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر .

## حسن الجوار

قال رسول الله ﷺ : مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .  
رواه البخارى

### تمهيد :

(١) تدور عجلة الزمن دون توقف ، ويتعاقب الملوان فى حركة دائبة ، وتمضى الأيام إلى غايتها المحتومة ، ونهايتها التى لا تستطيع التخلف عن بلوغها ، تلك سنة الله فى الكائنات ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ومرور الليل والنهار ينسى ، وبه تتضاءل حيوية الأشياء بعد قوة ، وتذبل بعد نضارة ، وتضعف بعد شدة ، وقد تتلاشى فتصبح أثراً بعد عين ، وتصير ذكريات تخلف الحقائق ، وأوهاماً عابرة تلى وعياً راشداً .

(٢) وقد مرت بالمسلمين أربعة عشر قرناً إلا قليلاً منذ أن أشرقت على الوجود شمس الرسالة المحمدية بأذن ربها ، وشرعت تمسح بريشة أشعتها الذهبية جبين الحياة المكتئب ، فتشع ظلامه ، وتبيد آلامه وتقضى على علله وأدوائه ، وتضع حداً لحيرة الإنسانية البادية فى آراء فلاسفتها ، ومفكرىها ونصيح بهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾<sup>(١)</sup> .

وحملت الأمانة - فى أول عهدنا بالوجود- نفوس قوية وقلوب قتيية ، بثتها فى وضوح وجلاء ، وطبقتها فى حزم وقوة ، وعضت عليها بالنواجذ ، فأرسلت أحكامها نظاماً متكاملأً ، سعدت به كل مكان ممكن أن يوجد فيه إنسان ... وكمال الشريعة الإسلامية كمال يأخذ الأبواب ، ويستولى على مجامع القلوب ، ولا غرو فمصدرها العليم بكل ما دق وما جل .. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ٢٤ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٣) .. ولكن - ما أقسى الاستدراك ها هنا - ... منذ أمد طويل وأعداء الإنسانية يكيدون لها محاولين إخماد جذوة الإسلام بتناوش المسلمين من بعيد ، وسلوكوا معهم مسلك الخفاش الذى يقال أنه يهبط على النائم فيتغذى بدمه ، حتى إذا شعر آلام الامتصاص وبدأ يصحو ، حرك الخفاش أجنحته يجلب للنائم الهواء الذى يعود به إلى ثبات عميق ثم يتركه ويختفى ..

وهكذا استطاعوا تنحية الإسلام عن ميادين الحياة العملية .. وطال الرقاد .. ولم يبق من نور الشريعة الغراء إلا أضواء خافتة تتراعى بين الفينة والفينة هنا وهناك ، وأظلمت دنيا المسلمين من حولهم واكفهرت أجواؤهم وأصبحوا يتخبطون على غير هدى ... «نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ»<sup>(١)</sup> ، فساروا وراء عدوهم الكاشح يتلمسون طريقهم على ضوء ما يريد هو ، فأودى بهم وأرداهم ، وصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى : «.. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ..»<sup>(٢)</sup> ..

(٤) واليوم - وقد أخذت أحوال المسلمين تتحول إلى الاتجاه الصحيح ، وأخذوا يفيقون على قرع الحوادث فى المناطق التى يعيشون فيها - لابد لنا من جولة حاسمة تثبت فيها وجودنا ، ونبدئها بإصلاح أنفسنا على ضوء تعاليم قرآننا وهدى نبينا ، حتى نمحو ما ران على القلوب لطول ما بعدت عن مرامى الإسلام وأغراضه - وحقًا - لا يصلح أى خير هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ... فإذا تكون المؤمن القوى ، وزحفت إلى مجتمعاتنا طلائع الشباب المسلم الفتى ، أمكننا أن نقف صفاً واحداً يتقدم جموع الدنيا الحاشدة برسالة السماء فيقودها إلى ما يسعدها ويحول بينها وبين ما يشقىها ..

(٥) وحين نحاول إمطة الأذى عن طريق الإسلام ليسيير الركب ، ويمضى قدمًا فلا نجد خيراً من توجيهات رسوله الأمين المتمثلة فى سنته الشريفة بعد هداية القرآن العظيم ... وتربية الفرد المسلم تربية واعية وأخذه بوحي الله يغنيه عن التلفت إلى سراب الغرب والشرق ... وحديث واحد من أحاديث رسول الله لو فهم كما يجب أن يفهم ، وطبق كما يحق له أن يطبق ، لكان أجدى على الدنيا من محاولات المفكرين والمصلحين الذين يعتمدون على تجارب تخطى وتصيب ، وقواعد يهزها ضعف البشر وقصورهم ..

(١) الآية ١٩ من سورة الحشر .

(٢) الآية ١٠ من سورة البقرة .

## مع رسول الله ﷺ

ولنتأمل كيف وضع رسول الله للمجتمع الإسلامى نظامه ، ولنلمس جانباً واحداً من جوانب متعددة ، تقوى روابط هذا المجتمع ، وتضم صفوفه بعضها إلى بعض ، وتوحد اتجاهاته الخيرة وتدعمها ... ذلكم الجانب هو حسن الجوار .

(١) والجوار ضرب من ضروب القرابة ، فهو قرب بالمكان والمسكن ، واندماج فى الطريق والعمل ، وقد تقوى وتشدت رابطة المرء بجاره أكثر مما تقوى وتشدت بمن جمعه به نسب واحد ، والأمة الإسلامية عند الشارع الحكيم أسرة مترابطة الأفراد ترابطاً لا تنفصم له عروة ، ولا تنفك معه لحمه ، والتعاون فى الحياة ينير دياجيرها ، ويفتح مغلقتها ، ويعين على قطع مفاوزها ، وكل ذلك يشمر مدينة فاضلة وأماناً وسعادة ، وتراحماً ومودة .

(٢) والإسلام لم يدع شيئاً يحقق التعاون الكريم المنتج النافع إلا حث عليه ووكدته وجعله من صلب الدعوة وأسسها ، ولهذا .. حث كثير على حسن الجوار وعمل جاهداً على توثيق العلائق الكريمة بين الجيران فقال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » وجعل الإحسان إلى الجار دليلاً على صدق الإيمان وكماله فقال عليه السلام : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » فلا يتم الإيمان حتى يتحقق هذا الشرط ، وهذا أمر له منتهى الخطورة فى حياة كل امرئ مسلم إذا الإيمان غاية كل متدين ، وعلى مقدار ثباته ورسوخه يتوقف استحقاقه للكرامة فى الدنيا والآخرة ، فإذا توقف ذلك على كفى الأذى عن الجار وعلى السعى فى إيصال الخير إليه سارع كل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر إلى تحقيق هذا الشرط فى أعماله وأقواله .

### القرآن والجار :

أمر الله سبحانه وتعالى عباده بتوحيده ، والإحسان إلى الوالدين وذوى القربى واليتامى والمساكين ، ثم درج مع هؤلاء فى وجوب الإحسان إليهم : الجار ذا القربى

والجار الجنب والصاحب بالجنب .. فقال سبحانه : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا  
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ  
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ..﴾<sup>(١)</sup> . والجار ذو القربى هو الذى يدل على مع جواره بصلة القربة  
القريبة ، والجار الجانب هو الذى تربطك به قرابة بعيدة والصاحب بالجنب هو رفيق  
السفر أو المنقطع إلى صاحبه والمؤمل فى فضله .

وتنتهى الآية الكريمة بالنهى عن الكبر والخيلاء والتفاخر ، لأن الفخور المتكبر  
المختال حقىر عند الله ممقوت عند الناس ، لأنه لا يقوم بعبادة ربه ولا يلين قلبه لذوى  
قرباه ولا لجيرانه وإنما المتوقع منه الإساءة وكفران النعمة ، ولذلك قال الرسول ﷺ :  
﴿ لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن  
يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، فقال عليه السلام : إن الله جميل يحب الجمال ،  
الكبر بطن الحق<sup>(٢)</sup> وغمط الناس<sup>(٣)</sup> . »

### موقف الإسلام من الجار غير المسلم :

فى الأثر أن الجيران ثلاثة أقسام :

(جار له حق واحد ، و جار له حقان ، و جار له ثلاثة حقوق) .

فالجار الذى له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم فله حق الإسلام وحق  
القربة ، وحق الجوار . والذى له حقان هو الجار المسلم ، فله حق الإسلام وحق  
الجوار ، وصاحب الحق الواحد هو الجار غير المسلم فله حق الجوار فقط ، وأعظم  
به من حق<sup>(٤)</sup> .

وقد حث الإسلام على مبادلة أهل الكتاب بالزيارة ، ومشاركتهم فى أفراحهم  
وأتراحهم ، وأباح الأكل من طعامهم ومصاهرتهم ، وورد معظم ذلك فى محكم القرآن

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء .

(٢) بطن الحق : رده وعدم قبوله .

(٣) غمط الناس : احتقارهم وازدراؤهم - رواه داود والترمذى عن ابن مسعود .

(٤) أخرجه البزار فى مسنده .

الكريم .. قال الله تبارك وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾<sup>(١)</sup> وقد ورد أن رسول الله ﷺ عاد ابن جاره الكتابي حين مرض . وذبح ابن عمر شاه فجعل يقول لغلامه : أهديت إلى جارنا الكتابي ؟ أهديت إلى جارنا الكتابي ؟ فقال الغلام : كيف تقول هذا ؟ فقال ابن عمر رضى الله عنهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »<sup>(٢)</sup> ولم يخصص الجار بالمسلم بل أطلقه فشمّل الإحسان إلى كل جار مهما كانت عقيدته ونحلته .

### نماذج من حقوق الجار :

روى عمر بن شبيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال : « أتدرون ما حق الجار ؟ .. إن استعان بك أعتته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه (أى واسته بمالك) . وإن مرض عدته (أى زرتة) ، وإن مات تبعته جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابه مصيبة عزيتة ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب الريح إلا بأذنه ، ولا تؤذنه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، وإن اشتربت فاكهة فأهد له فإن لم تفعل ، فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

فانظر رعاك الله أيها المسلم الذى غفل عن حقيقة دينه واتبع هواه حتى داهمته مدينة فاجرة قطعت الأواصر ، وفككت الروابط ، وفرقت المجتمع ، وكادت تأتى على كل الفضائل الإنسانية فى غيبة التشريع الإسلامى القويم ، وتأمل كيف أقام الإسلام علاقات الجوار ، وكيف وطدها ، ووسط القول فيها حتى جعل الجار شريكاً فى كل خير مادى وروحي وأدبى ، وهكذا يستل الإسلام بتوجيهه السديد سخائم النفوس ويمكن للتراحم والتعاطف بين الناس جميعاً .

(١) الآية ٥ من سورة المائدة .

(٢) رواه البخارى .

## مثل اسلامية عملية تطبيقية :

(١) تحرى هذا الأدب الكريم المسلمون الأوائل فكانوا يتخرجون من مقابلة أذى جيرانهم بمثله ، جاء رجل إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال : إن لى جاراً يؤذيني ويسينى ويضيق على .. فماذا أصنع معه ؟ فأجابه ابن مسعود : إن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه ، ولم يشر عليه بالانتصاف لنفسه ، فلعل التغابي عن أذى الجار يحمله على الندم والارعواء .. يقول الله تبارك وتعالى : ﴿لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> .. ولو قبولت كل إساءة بمثلها لتصدع بناء المجتمع وسرى فيه الوهن والانحلال ، ولهذا كان حصر الخلاف في دائرة ضيقة أولى من تركه يستشري ويتسع نطاقه .

(٢) بلغ عبد الله بن المقفع أن جاراً له شرع يبيع داره في دين لزمه ، وكان من عادة ابن المقفع أن يجلس في ظل دار جاره هذا ، فلما تحقق الخبر قال : ما قمت إذن بحرمة ظل دار جاري إن باعها لفقره وعدمه وحاجته وأنا أستطيع حفظها عليه .. وبإدارة من فوره إلى دفع الدين وأبقى الدار لصاحبها .

## الخلاصة :

ونخلص بعد استعراض الآيات والأحاديث والآثار التي مرت آنفاً إلى النتائج الآتية :

(١) أن مرور القرون المتطاولة والمسلمون يرزحون تحت نير الاستعمار أبعد الشريعة الغراء - نصاً وروحاً - عن مسرح حياة المسلمين فلم يعد لتعاليمها أثر في البيت ولا في المدرسة ولا في المحكمة ولا في السوق بل غفلوا غفلة تامة عن فهمها وإدراكها وولوا وجههم شطر ثقافة دخيلة ماكرة مجرمة لا يراد بها إلا مزيد من حبس الإسلام في قمامة محكمة الإغلاق .

(٢) أنه عندما تفتح هذه المغاليق وتعود تعاليم الإسلام إلى مسرح الحياة وتطبق

(١) الآية ٣٤ من سورة فصلت .

أحكامه ، يوجد المجتمع المثالي الذي تنشده الإنسانية الفاضلة ، والذي لبث الفلاسفة والمفكرون يحملون به دهرًا طويلاً .

(٣) إن أهم ما يساعد على تفهم حقائق الإسلام هو حسن عرضها بالصورة والأسلوب اللذين يناسبان العصر ، وما أحسنها لو عرضت مقارنة حتى يتسنى للناشئة - معرفة الغث من السمين وتبين النافع من الضار ، وحينئذ يميز الله الخبيث من الطيب ويسفر الصبح لذي عينين .

والله الموفق والمستعان

## الوئام

قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

رواه البخارى

(١) نشر الإسلام السلام بين الناس ، وحضهم على الألفة والمحبة ، وجمع كلمتهم ، ووجد صفوفهم ، ودعا إلى ترك العداوات والمنازعات ، ومحا الإحن من الصدور ، وأزال البغضاء من القلوب ، واستل السخائم من النفوس ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> ، وأنصف مظلومهم من ظالمهم ، وآخى بين أتباعه المختلفى الأجناس والألوان ، ومنع اعتداء قلوبهم على ضعيفهم ، وأعطى كل ذى حق حقه كاملاً غير منقوص ، وأقام بهذا كله مجتمعاً تظله راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(٢) وميزان التفاضل ومقياس الدرجات فى الإسلام هو (التقوى) ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> والتقى من الناس هو أكثرهم التزاماً لحدود الله ، وأعظمهم تأسيماً برسول الله ﷺ ، وأشدهم ملازمة لطريقته وشريعته وهديه ، ومن سنن الرسول ﷺ الرحمة والرفق : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> ، والتفانى فى العمل لخير الإنسانية جمعاء ، واقتلاع بذور النفاق والعداوة ، وحث روح التعاون والتآلف والتآزر ، واستخدام مختلف الوسائل لتركيـز الخلق الطيب بين المسلمين حتى يصير ملكة راسخة فيهم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

(٣) فيأمر بصلة الرحم ، ويقول : « لا يدخل الجنة قاطع رحم » ويبين سيدنا على كرم الله وجهه مزايا صلة الأرحام فيقول : (من يقبض يده عن عشيرته فإنما يقبض

(١) الآية ٦٣ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

عنهم يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة ، ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله ما أنفقه في دنياه ، ويضاعف له في آخرته ، وأعلموا أن لسان صدق يجعله للمرم في الناس خير له من المال ، فلا يزداد أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه ، ولا يغفلن أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذى لا يزيده إن مسكه ، ولا ينقصه إن أهلكه .

(٤) ثم يأمر الإسلام بإحسان معاملة الإخوان بل المؤمنين عامة فهم أخوة في الدين نفس وروح ، وأخوة النسب لحم ودم ، وفرق شاسع ما بينهما ، ويدعو إلى العفو عن الهفوات التي تبدو من البعض فيقول جل وعلا : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٥) ويبرز القرآن الكريم صفات الرسول العظيم التي آنتست الشارد ، وأمنت الخائف ، وقربت النافر ، فيقول عز من قائل : ﴿... فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>(٣)</sup> ، ثم يشهد له بشهادة منقطعة النظر فيقول : ﴿وَالَّذِي لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup> .

(٦) وأن تعاليم الإسلام لتأمر بإحسان معاملة البعيدين عن ساحة الإسلام ، وهم الذين يتبادر إلى الذهن أن إساءتهم مطلوبة ، لأنهم خصوم ، ولكن يقول الله تعالى : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٥)</sup> ، ويقول الرسول الكريم : « من آذى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة » ، بل أوجب القرآن برهم والأقسط إليهم إذا كانوا مواطنين صالحين : ﴿وَيَنبَأُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ...﴾<sup>(٦)</sup> فإذا سالمك غير المسلم ولم يؤذك في دينك ولم يعمل على

(١) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٣٤ من سورة فصلت (حم) .

(٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٤ من سورة القلم .

(٥) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٦) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

إخراجك من وطنك فاعمل على نفعه وإكرامه ويره ... ، وذلك حتى يشعر الذين يظلمهم الإسلام بالأمن والطمأنينة على أنفسهم وأموالهم وأبنائهم ، فلا يسعون بالفساد فى المجتمع العام الذى يؤويهم ويرعاهم وحتى لا توجد ثغرة ينفذ منها البعيد الذى يتربص الدوائر بالإسلام والمسلمين .

(٧) والأنصواء تحت راية التوحيد يجعل المؤمنين أخوة على تنائى ديارهم وتبعد أقطارهم فالمحبة بين المؤمنين شرط الإيمان الكامل : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » ، وسائر الفضائل الإيجابية شىء لا بد منه لدعم المجتمع الإسلامى ، والتمكين له بالثبات والدوام فلا بد من حسن المعاملة ، والعطف على الفقراء والمحتاجين له بالثبات والدوام فلا بد من حسن المعاملة ، والعطف على الفقراء والمحتاجين وتفريج أزمات المكروبين ، ولا بد من ترك التنابز بالألقاب وتجنب السخرية بالناس ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، ويقول عليه السلام : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » ، ويقول عليه السلام : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .

(٨) وينهى عن العداوة بين أمم الإسلام جميعاً ، فالمسلمون أفراد أسرة واحدة بل جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، ولا يستقيم أمرهم إلا بالاتحاد والتكتل وجمع الكلمة ومحو أسباب الفرقة والخلاف ، ومن خرج على اتحاد المسلمين فهو مارق وجزاؤه النار يوم القيامة ، ولا يصح أن يقف المسلمون أفراد وجماعات موقفاً سلبياً بعضهم من بعض ، بل لا بد من العمل الإيجابى لما ينمى روابطهم ويزيد فى هيبتهم وقد حض الإسلام على ذلك بوسائل شتى من أبرزها ، أنه جعل ركنه الركين وهو الصلاة حين تؤدى جماعة أفضل وأكمل وأعظم

(١) الآية ١١ من سورة الحجرات .

أجراً من أداؤها فرادى ، كما أمر بإقامة جماعة أسبوعية أشمل من جماعة الأوقات المعتادة يومياً هي صلاة الجمعة وجعلها فرض عين كل مسلم ، وأخرى حولية في صلاة العيدين ثم المؤتمر الإسلامى الأعظم الذى يجمع المسلمين من أنحاء الأرض وشتات المعمورة وهو الحج وحثمه على القادر المستطيع صحياً ومادياً ، حتى يضم وجوه المسلمين وقادتهم ليتشاوروا فى شئون بلادهم التى تجمعها كلمة التوحيد ، وليعلم بعضهم أحوال بعض حتى يتقوا ويقفوا صفاً واحداً أمام أعدائهم الكثيرين وبذلك تتجمع قوتهم ولا تتفرق ويعززون ولا يذلون ... ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

(٩) كل هذا فضلاً عن إلزام المسلمين بالمسارعة إلى تبادل المنافع العمرانية ، وتوثيق الوشائج الأدبية والعلمية ، والمبادرة إلى نجدة المستغيث فى حالته السلم والحرب ، ففى التقاعس عن نصرته المعتدى عليه فى أى بقعة وفى أى مكان إنما هو انحراف عن أوامر الله تعالى ، وما ذاك غلا لأن الاعتداء على البعض اعتداء على الكل ، وضياع دولة يؤدى إلى ضياع أخرى حتى يصبح المسلمون أثراً بعد عين ، وما المثل القائل : (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) عنا ببعيد .

(١٠) بعد .. فالأمم الإسلامية اليوم على مفترق الطرق فإما أن تحزم أمرها وتأخذ حذرهما وتعد لكل نازلة عدتها ، وتدرع بالمحبة والوئام ، وتعتبر بالماضى المائل فى الأذهان والمتجسم فى الأندلس ، والحاضر البادى للعيان والمتمثل فى فلسطين المحتملة ، وبهذا تحتل مكانها اللائق تحت الشمس ويحسب لها حسابها فتجلى الغاصب عن أرض الوطن المحتلة ، وتعيد المشردين إلى وطنهم الحبيب وتمحو العار الذى لطمخ جبين العرب والمسلمين عامة ، وإما أن يسدر كل فى غيه بعيداً عن الصف ويزيد عماية وجهالة . وهنا لا قدر الله - الطامة الكبرى والبلاء الأعظم ، وأعتقد أن هذا لن يكون إن شاء الله وفى المسلمين الرجال الذى أرى ويرى العالم الآن .

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

## والخلاصة :

(١) إن مكارم الأخلاق تحمل على التغاضى عن كل إساءة من القريب أو البعيد وإن هذا هو الطريق الوحيد لجمع الشمل ، والقوى هو الذى يتحمل الإساءة ويصمد لها ولا يقابلها إلا بالصمت والابتسام : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(١)</sup> وقديماً قال الشاعر :

فإن نهشوا عرضى وفرت عروضهم      وإن هووا غى هويت لهم رشداً  
وقال آخر :

وذى رحم قلمت أظفار ضعيفة      بحلمى عنه وهو ليس له حلم  
يحاول رغمى لا يحاول غيره      وكالموت عندى أن تحل به الرغم

(٢) أن ابن آدم خطاء والله غفور رحيم ، والعصمة كما يقولون لا تكون إلا لنبي وليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب .

وأخيراً باللين والتعاطف ومراعاة الرحم وحقوق الوطن وحسن تفهم الأمور يلتقى أبناء الأمة جميعاً على كتاب الله وفيه الخير كل الخير ، ويقتدون بسيد الخلق وفيه ﷺ الأسوة الحسنة ، وبهذا نعيش فى الوطن الواحد فى أمن وسلام وطمأنينة ووئام رائدنا جميعاً خدمة ديننا ورفعة وطننا وسعادة مجتمعنا ، والله الموفق والمستعان .

(١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .

## المجتمع النظيف

عن عبادة بن الصامت<sup>(١)</sup> رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :  
« بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا  
تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا  
فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً  
فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه  
على ذلك »

(رواه البخارى ومسلم وغيرهما)

### تمهيد :

الإسلام عقيدة مستقرة فى القلب ، ودوامها بالفناء فىها ، وغذاؤها ذكر الله عز  
وجل والسير غير ذى العوج على الجادة التى سلكها رسول الله ﷺ ، ووضح معالمها ،  
ونتائجها العمل الدائب لخير المجموعة البشرية ، بل والمخلوقات جميعاً حتى  
الجماد منها ، ومع التصميم المؤكد ، والدءوب المستمر للوصول إلى الغاية التى  
ترنو إليها ، والهدف الذى أحكمت من أجله ، والأمل الذى تنشده واقعياً .

وأقوال سيد الخلق دائماً تلقى ضوء التوجيه الإلهى على دجنات الوجود ،  
ليتمكن السارى من العبور دون تعثر غير مكب على وجهه ، وإنما يمضى سويماً على  
صراط مستقيم ، والحديث الشريف موضوع البحث يعالج مشكلات مزمنة عاصرت

---

(١) تعريف موجز براوى الحديث : هو عبادة بن الصامت (بضم العين) الأنصارى الخزرجى رضى الله  
عنه ، كان أحد النقباء الأثنى عشر ليلة العقبة ، وقد شهد بدرأ مع رسول الله ﷺ ، وفى خلافة سيدنا  
عمر رضى الله عنه وجه إلى الشام قاضياً ومعلماً ، فأقام فى حمص ، ثم انتقل إلى فلسطين ، وهو  
أول من ولى القضاء بها ، وروى له مائة وواحد وثمانون حديثاً ، ورد منها فى صحيح البخارى تسعة  
أحاديث ، ومن صفاته الخلقية (بكسر الحاء المعجمة) أنه كان طويلاً جميلاً ، ومن صفاته الخلقية  
(بضم الحاء مع اللام) انه كان يحب الخير وإسداء الجميل لكل من عرف ومن لم يعرف ، وتوفى  
فى خلافة معاوية وقد ناهز الثانية والسبعين ، ودفن فى بيت المقدس .

وجود الأرض منذ أن كان لآدم عليها وجود ، ويصف علة العلل في كل داهية دهياء وملمة عمياء ، ثم تتعاقب في طي الكلم الشريف إشارات إلى زبالات<sup>(١)</sup> تتراعى لضعيف الإدراك ، أنواراً لألاءة ، كما يتوهم الظمان الثمالة كأساً مترعة .

خمسة أشياء<sup>(٢)</sup> لو أنها أختفت من مجتمع ما لصار مثلاً طيباً يحتذى وبيدار فى فلكه ، والمقيم عليها مقيم على دخن فى العقدة بل وفى وجوده من حيث هو كلبنة فى بناء عام ، يبيته القلق النفسى ، ويصعبه الألم الحسى ، ومصيره إلى شفا جرف هار يهوى به فى واد ضيق من الضياع والفناء ، كما يمضى الجيل المعاصر فى الغرب على غير راعيها أو بالأحرى سار نفس المصير ، ولنأت عليها الواحدة بعد الأخرى تفصيلاً وإيضاحاً للمراد ، وتبياناً للناس ، وتبليغاً عن رسول الله ﷺ .

قال الصادق المصدوق :

(بايعونى) والبائع هنا المؤمنون ، والمشتري هو الله تبارك وتعالى . وواسطة العقد سيد الخلق ، والبائع يترك سلعة لدافع الثمن ، والربح فى هذه البيعة ربحان ، بعد عن مهاوى الهلاك . وأجر مضاعف ، والعجيب فيها أن ينأى المؤمن عن الخطر ويتقاضى خيراً فوق خير ، وهذا فضل يستوجب الشكر . وكيف يوفى المخلوق شكر الخالق مهما طال الأجل وامتدت الإقامة فى الدنيا ، فتم الله لا تتناهى ، ولهذا قيل :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة له على فى طيها يجب الشكر فكيف وفاء الشكر إلا بفضله وإن طالت الأسباب واتصل العمر

(١) (على أن لا تشركوا بالله شيئاً) .. بعد بحث طال أمده ، واستقصاء استمر حقبة من الدهر ولا يزال ، واستقراء لما أمكن استقراؤه من حوادث الحياة ، وتتبع لمجتمعات بدت ثم بادت ، وأخرى لازالت فى الطريق تعبر ، تتوقى الوهج ، وتحاذر القر ، تكون (بتشديد الواو المكسورة) القافلة فى صورة مختلفة شكلاً ، وامتحدة فى اللب .. أقول بعد هذا كله .. وضح لطالب الحقيقة أن الإيمان بالله وتوحيده وجميع

(١) زبالات : جمع زبالة .. وهى الضوء الخافت ، أو ما يبقى من زيت السرج ، والمراد هنا المعنى الأول .

(٢) قال بعض العلماء الشىء عندنا هو الموجود .

ما له سبحانه من صفات الكمال بلسم شاف ، ودرع واق من البوار الذى يحيق بالإنسانية الضالة ، فمن آمن ووجد ، احب الواحد الأحد ، ومن أحب اتبع ، ومن اتبع تابع ، وفى ظل هذا الإلتباع للقيومية المطلقة ، تتلاشى الضلالات ، وتذوب آثارها كما يتلاشى الجليد تعرض لحمارة القيظ ، بعد أن جمعته صبارة الزمهرير ، وذلك حين يعرف الإنسان قدره ، ويزن الأمور بميزان الشريعة شريعة الله وحده .

وقد يحاول الفانى ، أو يتساءل : وأين البرهان ؟ والجواب فى نفس تركيبه ، وصلب تكوينه ، يتحدث طويلاً عن ليل صار نهراً أو كاد ، وعن مسافات تلاشت وبحار انكشفت بعض سرها - ولا أقول كله - وفضاء اجتاحت حرمته ، ومع كل هذا يقول الإنسان : أين الدليل ؟ ولو تأمل المعلومات الضئيلة التى كشفت له بواسطته ، لأدرك أن العامل الأصيل فى كشفها - كما يبدو - عقله ، وما عقله إلا من صنع غيره ، ولا حاجة أن نذهب إلى أبعد من هذا ، فالوجود الإضطرارى والفاء الملاحق لا علة لهما ولا سبب إلا أن القادر أراد فأوجد ، وضع للنهاية حداً لا تعدوه وميقاً لا تتخلف عنه (الذى خلق الموت والحياة) .. وطريق العلم مفتوح والمارون فيه كثر ، ومهما اتسع الكشف وحسنت النتائج أو ساءت فما أوتيتهم من العلم إلا قليلاً ... أفبعد هذا يشرك عالم مستنير ؟ ولو كان عالماً مستنيراً ما أشرك ، ولو ترك الجميع الشرك لسادت الإنسانية الفاضلة ، وعم الوجود سلام دائم فى ظل توحيد الله وتمجيده . ولكن متى ؟ علم ذلك عند من استأثر بالغيب تعالى وتقدس . وفى قوله الشريف عليه الصلاة والسلام : « لا تشركوا بالله شيئاً » دقة غير متناهية ، فـ ( شيئاً ) يشمل كل شيء ، وذو الحظ العظيم من أدرك وعرف .

(٢) ولا تسرقوا : ما السرقة ؟ وما سببها ؟ كيف الخلاص منها ؟

السرقة كما ورد فى بعض تعاريفها : أخذ المال المعصوم خفية من حرز مثله ، فالأخوذ هو حق الغير ونتاج جهده وكده ، ولا حق فيه للأخذ بعد أن حصل عليه صاحبه وأرزه وصار ملكاً له بطرق مشروعة<sup>(١)</sup> فالأخذ ظالم معتد أئيم لانه تعدى وضعه

(١) اقصد بالطرق المشروعة ما شرعه الله تعالى وحده .

فى مجتمعه ، فهدد الآمن وأخاف الناس ، وأذى غيره بغير جريرة ، وهو - أى الآخذ - يعلم ذلك ولا ينكره فتحفيه دليل على علمه بعدم مشروعية عمله ، والعللة قد تتعدد وتتنوع ولكل شىء أسباب ودواع ، ورسول الله ﷺ - مبلغ عن ربه - ولا يطلب الابتعاد عن السرقة إلا به منع أسبابها الممكنة المنع ، فإذا تحقق لكل إنسان مطلبه فى مجتمعه ، وصارت السرقة جبلة وعادة فلهذا علاج حاسم .

فالمجتمع الإسلامى الذى أمر الله بتحقيقه واقعياً هو الذى لا يعرف الحقد إلى أهله سبيلاً ، فالكل طاعم ، كاس ، فاقه ، واع ، مدرك لما يحيط به ، لا يشكو ألماً ولا فقرًا ولا جوعاً ولا جهلاً ، مجتمع كل أفرادهم يعملون ويتعاونون على البر والتقوى ، تلاشت فيما بينهم الخصومات ، وعقدت قلوبهم على المحبة والوداد ، تكافل يشمل المجموع يعم الجميع ، ويقوم به كل مواطن فى حدود قدرته ، وفى دائرة اختصاصه ذلك هو المجتمع الذى تخلص من موجات السرقة والاختلاس ، فبعد هذا كله : لا تسرقوا . وهل النهى ينهى الداء .. هو نهى وهو دواء ، والمتماذى فى الخلاف لع علاج آخر مبسوط بأدلته وأسانيده عند فقهاء الإسلام .

(٣) ولا تزنوا : ثلاثة الأثافى ، انتهاك للمحرمات ، وإعتداء على الأعراض ، وقلب للحقائق ، ينتج اختلاط أنساب ، وعفونة أخلاق ، ودواعيه رعونة شهواب . لا تليق بمجتمع ينشد القوة ، ويمجد الفضيلة ، ويسعى لقيادة الدنيا إلى الطريق السوى ، ولكل شهوة اكتفاء مشروع ، وحق مقرر ، وطريق مرضى من رب العالمين ، فلا داعى إلى الإلتواء ، اللهم إلا شذوذ الطباع ، واعوجاج المسالك ، والبعد عن الصواب ، اين الكمال فى مجتمع جهلت فيه الأنساب ، وضاعت صلوات ذوى القربى ، وعفت فيه آثار التراحم ؟ الجواب : لا كمال ولا قرب منه بل انهيار وانحطاط وتلاش وفناء . ولهذا ينادى الإسلام بحزم وإصرار إن كنتم مؤمنين - بايعونى على أن لا تزنوا .. والحلال بين والحرام بين .

وفى الدنيا المعاصرة مجتمعات تسمى نفسها راقية ، وقد سمت الأشياء بغير أسمائها ، فقلبت الحقائق ، وأصبح الفجور عند أهلها .. حرية ، والتلاقى غير المشروع .. إنسانية ، وتغير خلق الله .. فلسفة ، وبست تلك الفلسفات الحقيرة

الحقيقية في ميزان العقول العاقلة ، تلك لعمر الله مجتمعات تنتزى سما ، وتقطر قيحاً ودماً ، ولا بد أن تتهاوى وإن طال الزمان ، فقد طلعت الشمس يوماً على أقوام ودول قويت شوكتها وتسلطت على المعمورة في أيامها ، وحين شاء الله لها الزوال - استدرج أهلها من حيث لا يعلمون فزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسناً وجعلوا للجمال إلهاً عبده ، وللحب الجسدى إلهاً يصمى بسهمه القلوب المستعدة ، وكانت عاقبتهم أن دمر الله عليهم ، وللسائرين في دريهم أمثالها ، ويمر الآن أمام ناظرى نفس (الفلم) بصور ممثليه ومشاهديه كما حدث التاريخ ، وكما قرأت ذلك ووعيته منذ زمن طال أمده وهانذا أراه واقعياً . فالقوم صائرون إلى ما صار إليه آباؤهم من قبل . والحمى والوقاية والقوة والأيد في دعوة الإسلام القوية المدوية (لا تزنوا) فهل من مدكر - ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

(٤) ولا تقتلوا أولادكم : وهل يقتل الإنسان ولده ؟ .. إنه لأمر عجاب محير للألباب ولكن بعض الوقائع تؤكد القرآن الكريم يحكيه ، وإنا لنرى ونسمع أن أناساً من الناس قتلوا أولادهم قتلاً حقيقياً ، فيه إزهاق للنفس ، ومواراة البدن تحت الصفائح والجنادل وآخرون يقتلون ولكن في صورة أنكى وأشد فالقتل عن الوائدين لا يتعدى أثره نفسين أو ثلاثة شخوص ، أب مؤاخذ وأم تكلى ووليد مهضوم مجار عليه ، وأمام القتلى الآخرون ، فلم يموتوا وحدهم ، ولكنهم يموتون معهم أمماً ودولاً ، المتبصر يرى عقولاً خربة ، ومسالك معوجة ، سيسوس أصحابها أجيالاً قادمة .. وإذا كان الغراب دليل قوم .. فالبيعة هذه مستمرة ولم تنته بانتهاء الواد الجاهلى ، وإنما هى دائمة مادام أولو الأمر غافلين عن تربية الأجيال الصاعدة ، وما دام الآباء فى غيبوبة دائمة عن ظلال الأبناء .

الإسلام ينادى - لا تقتلوا أولادكم ، ولا تندوهم ، ولا تتركوا لهم الحبل على الغارب ، فيشب الولد غير عابى بواجب الأبوة وغير معترف بحق الأسرة عليه ، وغير مكتثر بأمه ، ومتى ضاع الجيل الصاعد فقد ضاعت الأمة وتلاشت ، ولهذا عنى

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

الإسلام بالناشئة وحث على حسن تربية الأبناء ليبنى أمة تقود الأمم ، وتكون شهيدة على غيرها ، مؤدية لرسالتها الإنسانية الشريفة ، كما أمر الله بها .

(٥) (ولا تأتوا بيهتان<sup>(١)</sup> تفترونه<sup>(٢)</sup> بين أيديكم وأرجلكم) :

... وهذا نهى بقطع دابر الفتنة ، فالمسلم الذى آمن بالله واتبع رسول الله لا يدعى على الناس ما ليس فيهم ، ولا يرميهم بالباطل ، من القول أو العمل ، ولا يزور من عند نفسه ما يهت غيره ويفضحه ، حتى لا تثار خصومات ، ولا تنشأ عداوات تفسد المجتمع التى تقوى الروابط الإنسانية ، وينشأ عنها تعاضد المسلمين وقوة شوكتهم .

وهنا - محك الأخلاق ، والموقف الذى يبدو فيه الجيد من الزائف ويعرف الغث من السمين ، فالمتجنى على الناس ما ليس فيهم ظالم لهم ولنفسه ، لأنه يرمى محصناً بالفجور ، وحين يصف المرء غيره بما ليس فيه ، إنما يعيب نفسه ويفسد العلاقة الطيبة التى تجمعها ، وقد عد القرآن الكريم رمى المحصنات بهتاناً ، فقال تعالى فى سورة النور ﴿... وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> وفى الآية الكريمة الأخرى سماه افكاً فقال سبحانه : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٤)</sup> . وجعل سبحانه لعنته وغضبه على الذين يرمون أزواجهم بهذا الفعل الشائن القبيح ، وجعل للذى تولى كبر الأفك العذاب العظيم ﴿... وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup> ... وكل هذا التشديد للحرص على سلامة المجتمع الإسلامى من الانهيار .

(١) البهتان : هو الكذب يهت ما معه (أى يدهشه ويوقعه فى الفضيحة) فهو أخص من مطلق الكذب لأن البهتان لابد أن يكون معه فضيحة .. (وقد مثل له بعض السابقين بقوله : كالرمى بالزنا وقذف المحصنات) أما الكذب فإنه أعم من أن تكون معه فضيحة أو لا تكون .

(٢) الإفتراء : الاختلاق .. أى لا أصل له فى الواقع . وخص الأيدى والأرجل لأن معظم الأفعال تقع بهما غالباً أو هى كناية .

(٣) الآية ١٦ من سورة النور .

(٤) الآية ١٢ من سورة النور .

(٥) الآية ١١ من سورة النور .

وأخيراً : يجعل سيد الخلق ما فصل سابقاً فيقول : (ولا تعصوا فى معروف) ، ثم أعقب كل ما مضى بما يشعر بضعف الإنسان وشدة إكرام مولاه له مهما قارف من الذنوب ، فقال - فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا بمرض أو نازلة ، أو أقيم عليه حد - فهو كفارة له ، ولهذا قال الفقهاء إن من أقيم عليه حد كان ذلك كفارة لذنبه ولا يعاقب فى الآخرة ، فالحدود جواهر ، على الرأى الصحيح المعتمد .. وليست زواجر فقط وإن قال به آخرون ، ولكل مجتهد نصيب .

ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله - أى لم يعلم بفعله أحد إلا الله فهو إلى الله - أى أن أمره بينه وبين ربه ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه - والأحاديث الصحيحة الأخرى تؤكد أن من ستره الله فى الدنيا فلن يعاقبه فى الآخرة والأمل فى رحمة الله كبير ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ويقول راوى الحديث الشريف سيدنا عبادة : فبايعناه على ذلك ، ونسأل الله أن يبايع المسلمون المعاصرون رسول الله على ذلك أيضاً حتى يلتئم شملهم وتتحد كلمتهم وتقوى مجتمعاتهم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

## منهج الحياة المثالي

قال رسول الله ﷺ :

« أتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس

بخلق حسن »

رواه الترمذی

(١) الإسلام دين عام للبشرية جمعاء ، أبيضها وأسودها وأحمرها . عربها وعجمها ، شريقها وغربها ، ختم الله به رسالات السماء ، واختار لتبليغه وبشه خير الرسل والأنبياء ، خاتمهم سيدنا محمد ﷺ ، ولا يخص به زمان ولا مكان ، فيه التشريع لكل حوادث الحياة الإنسانية حلت أو قلت ، عظمت أو حقرت ، له مجال فى كل مجال ، فى السلم والحرب ، فى القوة والضعف ، وفى الأخلاق والأعراف ، فى التجارة والزراعة ، فى الحكومات والشعوب ، قيادة عامة ، وقوامه كاملة ، تعم ولا تخص ، تجمع تسعد ، تحت على السلم وتمنع الحرب ، تبعث على القوة ، وتمنع الخور ، لا تعرف اليأس ، لأن بارئها ومشرعها بيده مقاليد كل شىء وهو بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، عالم بما جل وما دق ، مدرك للماضى والحاضر ، خبير بالمستقبل القريب والبعيد ، لأنه لا زمان معه ولا مكان ، فالزمان والمكان للناس فقط ليعلموا عدد السنين والحساب ، والسماء والأرض والشرق والغرب والشمال والجنوب ، كل هذا فى تقدير المخلوقين ، ولا مدلول له عند الخالق بالمعنى الذى يفهمه البشر .

(٢) ولو أقام المرء فى مكان واحد ، يقضى حياته فيه ما يبرحه ، ما فقه إلا قليلاً من مرامى وحى السماء الذى لا يدرك تماماً إلا بالتفرس فى وجوه الأشياء والانتقال من مكان إلى مكان ، ومن فكر إلى فكر ، ومن واد إلى آخر ، ومن جاب الدنيا علم الكثير ومن خالط الناس ودرس أحوالهم ووقف أعمالهم ، ووعى حوادثهم ، وأدرك مقاصدهم ، وخبر شئونهم ، استبان له كثير من أسرار كلام خير خلق الله ، وأدرك المزيد من مغزاه ومرماه ، وثبت لديه عموم التعاليم ، وشمول التوجيهات ووضح له

أمر الحياة ونفذ إلى لب الوجود بالقدر الذى يدخل تحت مقدور البشر ، وحينئذ يقف مشدوهاً أمام كلمة صغيرة تجمعها أحرف قليلة ، وتضيق بمدلولها الدنيا على اتساعها ، فاللفظ له معنى لا تحده أقطار دائماً ، لأنه قد يستوعب حكمة الموجود وما سيوجد ، ويقتضى فى أمر المدلج الحائر ومن ستطلع عليه شمس الحقيقة ، ويسلك مع الدراج فى عمياء مجهل ليقوده بصيرة ، ويعين السارى على ضوء الحقيقة فى كل الحقب والأعصر ، ويصاحب العائش فى قنن النيق ، والدراج فى سهولة الحياة ووديانها .

(٣) فى بلد نزل فيه كتاب الله تعالى ، ومجتمع تولى قيادته رسول الله ، وانتشرت فيع تعاليم السماء وطبقت بين أبنائه أحكامها ، قد يخفى الداعى إلى البحث العميق والدرس الدقيق ، وقد يعى الفكر الثاقب باكتناه السر المصون الموجه ، ولكن أخرج إلى الوجود الواسع العريض ، وأحمل هذه الجملة النقية الطاهرة الصادرة ممن لا يكذب ولا يمين ، ولا يخدع ولا يداجى ، ولا يهن أمام القوة ، أحمل قوله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت » وأعكس على ضوئها معاملة الأسرة وسير المجتمع ، وحوادث التاريخ وعبر الليالى تجد الحصن الذى تلوذ به ، والسلاح الذى يدافع عنك ، والقوة التى تعصمك ، والوسيلة التى تشق لك الطريق ، وتذل لك الصعاب ، وتدفعك إلى السير قدماً فى كل سبيل مهما غاب نجمه ، وطال ليله ، وادلهمت خطوبة ، وعز فيه الصديق ، وانقطع أثر الحبيب ، وتجد العياذ واللياذ فى تقوى الله ، حين يتملك قلبك سر وجوده تعالى فى كل مكان ، وحين تدرك أنه سبحانه يعلم خفيات الأمور ، وأنه يحرسك أن حرست دينه ويحفظك إن حافظت على تعاليمه .. « احفظ الله يحفظ ، احفظ تجده اتجاهاك » . وقد وجهك الراعى الأمين إلى الاستعانة بمن لا يضل ولا ينسى ، بمن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، بمن برأك ويرأ غيرك ، بمن حاك قلبك وقلب سواك ، بمن أعربك وأعجم من دونك . فعون العباد يعز ويختفى ويتلاشى ويضيع إما مع القدرة أو فى حال انعدامها ، ولكن عون الله باق دائم ، فإذا سألته وأنت محتاج إلى سؤاله دائماً فاتجه إليه وحده ، وما وراء ذلك فكله إليه واتقأ به متوكلاً عليه ، واعلم أن إليه مرجع كل شىء ، فالمخلوقات فى مختلف أشكالها ومتفرق أجناسها ومتباين أنواعها بيد الرحمن القادر ، فلا تجدك نفعاً إلا بتقديره هو ،

ولا تدفع عنك ضراً إلا بتيسيره هو ، ولا تؤذيك إلا إذا صدرت أوامره هو فقد سبق السيف العزل . وقر في الأزل ما هو قار وانضى ما هو منتف ، فحيثما كنت فأنت فى رعاية الله ، فى ملكه وكونه ، هو معك دائماً : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup> .

(٤) (حيثما كنت) ، ستجد من البشر ألواناً ، ومن أخلاقهم أشجاناً ، ومن قلوبهم صنوفاً رحيمة وأخرى قاسية ، ولكن لا عليك فتقوى الله ستعصمك من الناس ، فمن استقام استقامت له أمور الحياة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

الناس فى بيداء الوجود يظنون الظنون لأنهم يجهلون ، يحددون أعمال غيرهم وهم عن أعمالهم غافلون ، ولكن تقوى الله ستدلل الصعاب ، وسنخفى من طريقك العقبات ، وتهدم كل الحواجز المعوقة ، واعلم أنك مهما فعلت من الخير فلن يرضى عنك الناس ، ولكل موجود أشجان ، وقلما يتبلور الجميع فى بوتقة واحدة ، اللهم إلا إذا اعتمدوا الإسلام طريقاً ، وشرعة محمد منهاجاً ، وهداية الله نبراساً وضياء ، ولكن هيهات .. ويردنا عن هيهات نداء السماء : ﴿ إِنَّهُ لَا يَتَسَنَّوْنَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

(٥) يعلم من أرسل سيدنا محمداً ﷺ أن البشر سيقولون الأمرين من البشر ، وإن السماء لا تستمر جلواء ، وإن الأرض لا تقيم صلعاء ، وإن الماء يأسن ، وإن الصحارى تعمر وإن الوجود مادام مخلوقاً فهو فى تغير دائم وإن مدلول الضرورة لا يبد أن يتحقق ، والعجيب أن لها فى كل لغة فعل يرسم طريقها ويعنى غيره ، فاتبع السيئة الحسنة تمحها ، وقد لا تمحها فى نظرك أو فى مسلك غيرك ، ولا تعجب فأنت تعلم أن البعض قد يتذوق الشراب المختلف الألوان هو شفاء مهما كذبت البطون ، ويصدر حكماً بأنه مر المذاق ، وذلك لمرض أصيل أو عارض .

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٣) الآية ٨٧ من سورة يوسف .

ومن يك ذا فم مر مريض . يجد مرأً به الماء الزلالا

ودع ذا - وتأمل الذى يرى الشئ شيئين أو أشياء لمرض فى عينه حوله عن الحقيقة الواقعة ، ولكن هل يضير الشمس إن أنكرها من به رمد فلا تلق لهؤلاء بالآ وادفع السيئة بالحسنة فهذا طب رب السماء ، ارسم لغيرك طريق الخير فى سلوكك أنت معه ، واصبر وما صبرك إلا بالله ، وستأتى النتيجة أو ستنتج القضية المستوفية المقدمات حسبما وصفها العليم الخبير ، ويثبت فعل الصبروة التحول : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(١)</sup> ، ولكن استدرك دائماً متعب منهك فاسأل الله التوفيق والسداد حتى يتحقق لك ما تحقق لغيرك من الأزل ، صبروا وجاهدوا لتجد أنت الانتصار الذى وجدوا فالإقامة موقوتة ، والأحوال قلب حول ، وكن من القليل ولا تهتم كثيراً بالكثير ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٦) خرجت - يا أخى - إلى الساحة الواسعة ووقفت على نهر الوجود ، وانغمست أو غمست برغى فى مياه عذبة وأخرى أجاج ولبثت طويلاً أو قصيراً فى الطقس المعتدل الناعم الهادئ فالريح رخاء والهواء منعش والأرج العطر يفوح ، والهوج نائمة والأعاصير فى غيبوبة ، ورأيت وما أدراك ما رأيت ، رأيت أجناساً من كل الأجناس ، وأنواعاً فاقت أنواع المعلم الأول ، وتعى المعلم الثانى لوعاد ، وتذهل السائر على دربهما ، إذ لا بد أن تتبع السيئة الحسنة مع بنى جلدتك وأبناء جنسك وأنسك أبويك البعدين ، ونم بعد ذلك خالياً من التفكير فى شرهم وأحمل مصباح ديوجين - لا - واستغفر الله العظيم بل احمل مصباح السماء فتنعم بالهدوء وتقر نفسك ، فالمحو سيعفى آثار السيئة ، آثار خطوات الشر ، خطوات الشيطان ، شيطان الهوى والنفس .

(٧) التقيت به<sup>(٣)</sup> لأول مرة وعرفته عن كتب ويشهد الله أنى فتحت له قلبى وريشته ذات نفسى ، وماذا بعد تكرار الحديث وطول لقاء ، كنت أومل الخير وأرجوه ، وإذا

(١) الآية ٣٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٣٥ من سورة فصلت .

(٣) هو أستاذ فى معهد دراسات آداب اللغة الفرنسية فى مدينة (أور) بفرنسا .

باذا الفجائية تبدو على صفحة وجهه ، وتجسم على لسانه ، وتحرك جوارحه فيشب دون  
 مقدمات ، وبثور ، وباليته لحق يشور ويخور ، ولكنه ثور جريح ماتت فيه النفس  
 الكريمة لأنه بعيد عن ماء الحياة ، قلت : قل وافعل وزد أو أقلل ، فالبقاء قليل ،  
 وأظن أو أوجز فالأمر عندى سيان - وتأمل معى قليلاً أليس ماء (اللوار) وصنوه  
 (شير) كماء النيل وشقيقه دجلة ، وهل ماء التايمز غير ماء سيحون ويردى ، لا والله  
 إنما الخلاف على الضفاف يتقاتلون على الحياة وهم فى الواقع يقتلون الحياة ،  
 يقولون نريد أن نعيش وهم يحفرون قبورهم ويأيديهم ، يطلبون الحرية لكن فى الصورة  
 التى يفهمونها ، وهى معكوسة لا عكساً منطقياً وإنما عكسا واقعياً ، يرون أنهم  
 يحملون الفضائل ويدافعون عنها ، فكيف تلتقى بمن تلتقى بهذا فى هذا الجو  
 الصاخب اللجب ، ولا تفر وإنما حاول أن تردهم إلى الوجود الذى يريده بارئ  
 الوجود . لا تخش مخالبيهم البادية فى نعومة الحرير ، والمنطوبة على ما يملك الأسود ،  
 ودافعهم سلاح هين بسيط ولكنه فعول نافذ ، اسمه فى قول الحبيب : « وخالق الناس  
 بخلق حسن » اجلس إلى رعاة الآداب وأساتذة الأخلاق ، واستمع لنصائح أولئك  
 ومحاضرات هؤلاء فلن تجد كنا تأوى إليه فى زوايا أحاديثهم يقيك مطر سوء . وإنما  
 تجد الهدوء والطمأنينة فى ظل هذا الأمر الكريم (خالق الناس) عاشر الناس ،  
 عاملهم ، اسلك سبيل الحياة الكريمة معهم - ادرج فى مسالكهم ولكن (بخلق حسن)  
 وأى خلق وكيف تجده وتعثر عليه وهو بين يديك فلا تجعل - وقريب منك فلا ترحل  
 فى طلبه - استمع بقلبك بفطرتك الطيبة إلى قول أم المؤمنين عائشة تصف سيد الخلق :  
 (... كان خلقه القرآن) ، وبأعجباً هل كان خلق محمد لمحمد علمه أفضل الصلاة  
 وأزكى السلام ؟ وما محمد إلا رسول هو نور الدنيا ورائد الخير فيها ، نور يقشع  
 الظلام ويبدد الغيوم ، ويجلو الصفحة الكريمة للأفئدة المستعدة التى ران عليها ما  
 فعلت فهى على استعداد للجلاء إن وجد الحكيم الهادى يا ليتنا نتلاقى هنا فى ظل  
 الخلق الحسن .

(٨) قلت لصاحبى لقد عصبت عيناي وأغمضت برغمى فلم أرى شيئاً ،  
 فأجاب : قيل قديماً ولا حديث ولا حديث بل هى تقلبات جو . مرة حر وأخرى برد .

سكون واضطراب ، قيل له : عميت فقال حسناً لعلى لا أرى ما يضيرنى وما يعكر صفو قلبى ، ولكن غمضتى إلى أجل وقد مضى الأجل ، وعادت الحياة إلى إنسانيهما ليريا الوجود لا فى المادة وحدها ، بل فى الضياء الروحى المشرق العجيب الذى يحمله الخلق الحسن خلق القرآن فأوى إليك النافر الأسود والضال الأبيض والمعادى الآخر ، ويعود الجميع أحبة متشاكلين كما تشابهت أمور الحياة ومواردها يجمعهم دم آدم وحواء ، وهداية الأنبياء وتشريعات الرسل ...

(٩) فى هذا المكان تذكرت وما كنت ناسياً الرجل الذى هزمه احبابه ، وخذله أعوانه (عبد الرحمن)<sup>(١)</sup> فقتل فجر ليل كان منتصر فى امسه ، وما قتلتة إلا خيانة أتباعه لواجبهم فياليتنه يعود ولكن فى عزم خالد وأمانة أبى عبيدة وحزم عمر وسماحة أبو بكر وفقه على وحياء عثمان وغيره صلاح الدين رضى الله عنهم جميعاً وما ذلك على الله بعزيز<sup>(٢)</sup> .

---

(١) وعبد الرحمن ذاك - هو الذى قال فيه الزعيم الهندى (نهرى) فى مذكراته : أو لو انتصر عبد الرحمن إذا لتغير وجه الدنيا ، ولكن هيهات ، ولعل الناظر فى هذه الأوراق قد أدرك من هو عبد الرحمن ؟ إنه القائد العربى الذى تخلى عنه أعوانه فهزمت الإنسانية الفاضلة يوم هزم . رحم الله عبد الرحم الغافقى البطل الذى كاد يدق أبواب باريس لولا أن هزم فى (بواتيه) .

(٢) كتبت هذا الحديث فى فرنسا يوم كنت اطلب العلم فى جامعتها وقد زرت (بواتيه) وتحسر القلب ... وهيهات .

## حوار

عن حذيفة قال : « قال رسول الله ﷺ : فتنة<sup>(١)</sup> الرجل في أهله<sup>(٢)</sup> وماله<sup>(٣)</sup> وولده<sup>(٤)</sup> وجاره<sup>(٥)</sup> تكفرها الصلاة والصوم ، والصدقة ، والأمر ، والنهي »

(رواه البخارى)

التقيا على غير ميعاد ، وتبادلا التحيات والبسمات ، وعلقت يد أحدهما بيد الآخر وسارا متجاورين يشقان طريقهما وسط الجماهير المتدافعة كالموج ، وكانا يتحدثان كأنهما يتصايحان وأحياناً يتهامسات خوفاً على حديثهما أن يحمله النسيم إلى أسماع لا يحبان أن يصل إليها ، ثم اخترقا الجموع الصاخبة اللججة ، وحملتهما أقدامها إلى ركن هادئ في حديقة ذات ماض عريق ضارب في القدم ، تقوم إلى جوار حى من أحياء مدينة دعيت ولا زالت تدعى (مدينة النور)<sup>(٦)</sup> ولهذه الحديقة قصة فى

(١) أصل الفتننة فى اللغة : الابتلاء والاختبار ، ثم أطلقت عرفاً شرعياً على كل ما يكشفه الامتحانات من سوء ، وقد تطلق أحياناً على الكفر ، والبلية والعذاب ، والتحول من الحسن إلى القبيح ، وأحياناً على الميل إلى الشئ والإعجاب به ، وقد يكون ذلك فى الخير والنشر ، قال تعالى : « وَكَلِمَاتُكُمْ بِالْخَيْرِ فَتَنَةً » .

(٢) فى أهله : فقد تجاوز الحد فى حبهم فيعميه ذلك عن فعل الخيرات ، أو يفرض فى رعايتهم فتسوء حالهم ، وفى كلا الحالتين هو مسئول عنهم لأنه راعهم ، وكل راع مسئول عن رعيته ، كما ورد فى حديث شريف .

(٣) وماله : بأن يحاول تنميته بطريقة لا يقرها الشرع كالربا مثلاً أو يبذره ولا يوجهه حيث أمر الله سبحانه وتعالى .

(٤) وولده : أفردته ﷺ بالذكر مع أنه داخل فى الأهل غالباً ، لأنه كالمال زينة الحياة الدنيا ، والأب مغرم دائماً بأبنائه ، وكثيراً ما يودى به ذلك إلى الغفلة عن حقوق الله تعالى .

(٥) وجاره : فإذ كان الجار غنياً فقد يتمنى جاره الفقير زوال نعمته لشدة حقه عليه ، أو قد يهمل ذلك الغنى عون جاره الفقير ، وكلاهما إن فعل فهو بعيد عن أداء حقوق وصى بها رسول الله ﷺ وحث عليها القرآن الكريم .

(٦) هى مدينة باريس : ولهذه التسمية سبب خاص حدثنا به عالم فرنسى كبير من علمائها الإجلاء ، وإن كنت أرى أن مدناً أخرى كانت ولا زالت تستحق المشاركة فى هذا الوصف الكريم وإن عرفت به باريس منذ زمن طال ...

تسميتها وفي وجودها المستمر طالما تلاقى تحت أشجارها الوراقة الظلال . وحول بحيرتها الجميلة الساكنة ومحبون ، وللعشق والمحبة ألوان ومعان يطول شرحها ، ولا أعنى هنا العشق الفانى ، وإنما أقصد المتيمين بالبقاء أحبوا الحقيقة وجاءوا هنا يبحثون عنها - بين هذه الأخطاط العجيبة من البشر - على أيدي علماء أفاذ عباقرة .

وقصارى القول : جلس القرينان الخيران ، ودار بينهما حوار ليس عجيباً وإن كان لا يخلو من عجب . قال أحدهما : إن أمر الحياة والناس أمر يذهل العقول ، أيام تمر وتنقضى ، وأخرى تلاحقها ثم تتابع نفس المصير ، وهذا عام من أعوام الهجرة الشريفة جيد ، وقد سبقته أعوام تلاشت ثم فنيت وسيدركه ما أدركها من التلاشى والفناء ، والناس هم الناس منذ هبط أبواهم الأرض ، تسيرهم أهواء وتحكمهم رغبات ، وترفعهم أو تخفضهم شهوات ، منهم من أعمل فكره ، فتأمل وبحث وعقل ودرس ، ومن الدارسين من أنتج للإنسانية ما أفادها ، ومن الباحثين من مضى بالحياة قدماً ، ومنهم من أضاع حنادس زمانه ولا زال يسرى على ضوء هداه المدلجون ، وعلى النقيض من هؤلاء من هوى وانزوى ولم يشعر الوجود بوجوده ، بل منهم من وجمت يوم نجم أمه ، ومضى حيواناً مكرراً الهيولى لا يعدل سائمة ولا يزن قارضة ، ولا يباع ولا يشتري بدورهم ، فلم تدرك به الليالى ولم تدرك عبوره لحظات عبوره .

وهنا قاطعه الثانى : على رسلك يا أخى ماذا تريد من الحياة وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة تبديلاً ، ولن تجد لها تحويلاً كما نص القرآن الكريم فى محكم آياته البينات .

قال الأول : إلق سمعك وأنت شهيد ، وعش معى لحظات بعقلك وقلبك لأبشك شجونى ، أفضى إليك بذات نفسى ، فقد بلغ السيل الزبى وجاور الحزام الطيبين ، ولن نعدم ملجأ أو مغارة أو طريقاً نسلكه لنتوارى عن لوم اللائمين تارة ، وشماتة الحاقدين أخرى ، فنحن ورثة مجد ، وخلفاء من أحسنوا قيادة العالم ردحاً من الزمان ، وملأوا رحابه علماً ومعرفة وأصالة رأى ، وحملوا مشاعل الحضارة حقباً طويلة ، ولنا من التراث ما يبلى أرجه العطر ولا يختفى نوره الوضاء - وأعلم قبل أن تعترض أن هذا لا يجدى فى واقعنا المائل فتيلاً ، (فإن الفتى من يقول ها أنذا) ولكن سأسوق القول

مقتبساً من مجلس من مجالس رسول الله ﷺ قد يبدو لك -لأول وهلة- أنه قصى عن مجرى حديثنا ولكن متى تأملت وفكرت ألفت كل ما يصدر عنه صلوات الله عليه يصلح قاعدة وأساساً لنهضة عامة شاملة ومحركاً قوياً الهمم الوانية . والعزائم الحائرة فى يسر ولطف وإيناس ، وتوجيه حكيم ، وتدبير قويم . وإليك قول حبيب رب العالمين : « فتنة الرجل فى أهله وماله ... إلخ » الحديث الشريف .

أليس أهل الرجل همه الذى يههمه ، يعنيه أمرهم ، ويسعى فى الحياة جاهداً من أجلهم ، يستصرخهم فى الممات ، ويستعين بهم فى النائبات ، ويفخر بعددهم وعديدهم فى الرخاء والسلام ، فقل لى بريك : أليس إذا أحسن القوامة على أمورهم ، وسلك بهم المسالك الرشيدة التى شرعها الله ، ونأى بهم عن المهالك ، وجنبهم المزالق التى تغضب الحق ، فتقوم معوجهم ، وهدى ضالهم - كون بذلك جماعة متماسكة مؤمنة بحقها فى الحياة ، حريصة على حق غيرها ولا تعتدى ولا تقبل الاعتداء عليها .

والمال : وما أدراك ما المال ؟ عصب الحياة ، ومهوى الأفئدة ، يحقق الشئ ونقيضه ، فيدفع البعض إلى الجبروت والعدوان ويوردهم موارد الرذيلة والفساد . ويرفع من يحسن إدارته ، ويقدره قدره إلى مصاف القادة والسابقين فى كل مناحى الحياة ، فيقوته وسيولته تشاد المصانع على اختلافها وتبنى دور العلم ، وتعد القوة المستطاعة وتجنى المعرفة الحققة ، وتنمو الحضارة ، وتزدهر دروب الأمم ويقوى كيانها ، وذلك أن وضع فى موضعه وصين عن المبادى ، والضد بالضد (ويضدها تتميز الأشياء) . ثم ألم تقم باسمه مبادئ وحضارات ، كما أبيدت باسمه أيضاً مبادئ أخرى وحضارات . ولن يزال هدف المعارك والمناوشات .

وهلم يا أخى متأملاً الولد : والولد إما عبء وإما عون ، وما الأفراد إلا أولاد لآباء ، أو آباء لأولاد ، فلو سلك كل رجل مسلك الهداية الإلهية ، وحافظ على هذا الكنز العظيم ، والطاقة التى لا حد لها من القوة الإنسانية الكامنة فى الولد (ذكراً كان أو أنثى) وأفرغ خبرته فى حسن توجيههم ، فأماط الأذى عن طريقهم ، وشرع لهم نهجاً قوياً مستمداً من توجيه السماء ثم من خبرة عقلاء الإنسانية وهم كثر - إنه لو فعل -

لصنع لبنة وأية لبنة . وكون فرداً وأى فرد - إنه لو فعل - لأخرج لقومه قوة تبني وتصنع  
المجد ، وتحارب الانحراف . وتمضى لما أمر الله من غير لين ولا هوادة ، ولا تقبل  
الوقوف فى المؤخرة ، بل تأتى فى المقدمة دائماً<sup>(١)</sup> .

ثم الجار : وما الناس إلا جار ومجاور جار ، ولا يوجد من عاش فذا وحيداً بلا  
جار ، ولو ضرب خباءه فى قنن النيق أو وسط الصحارى أو سكن سفينة فى عرض  
المحيطات . فجاره هو أول من ينتهى خطه إليه ، فلا عزلة فى الحياة عن جار ولا  
انقطاع عن جوار ، وتأمل ثم احكم .

وأمر الجار فى الإسلام ، فى التقييم الاجتماعى ، فى البناء الإنسانى أمر عظيم ،  
فلا تقترب من جارك بحجر أو مدر ، وإنما بقلبك وروحك ، ولو ان الوصايا طبقت  
كما وردت . ولو أن الإنسانية فقحت إن جبريل مازال يوصى سيد الخلق صلوات الله  
عليه بالجار وشئون الجار حتى ظن عليه السلام أنه سيورثه لتضامنت وتجمعت وقويت  
والتأم أمرها وما تفرق شملها ، ولافت فى عضدها ، والجار الذى لا يستل سخيمة  
نفس جاره بمواساته بالمال إن كان ممولاً ، وبالجاه إن ضاق جاره بالحياة أو ضاقت  
الحياة به ، وبالموءة وطلاقة الوجه ، والعون بمختلف ضروب العون ، ولا يكون مؤمناً  
ولا ذا اثر فعال فى تكوين مجتمع متحاب متواد ، لأنه فصم المرودة ، وهدم البناء ،  
وخان الحق ، واتبع الهوى ومن أضل ممن اتخذ إلهه هواه .

ألا ترى يا أخى بعدما سقت إليك من الإيضاح أن هذا الحديث الشريف يضع يد  
العاقل على مواطن الداء ثم ها هو ذا يصف العلاج فيدعوا إلى الارتباط بقيوم  
السموات والأرض حق الارتباط ويدل على الدواء الناجع ، فالصلاة تذكر بالله  
وبالتالى تحمل المرء على راب الصدع ، وجبر الكسر ، ثم الصوم ولعلك وعيت ما

(١) لقبته رجلاً فرنسياً من المحاربين القدامى أيام إقامتى فى مدينة تور TOURS إحدى مدن فرنسا  
الكبيرة يعمل أستاذاً فى معهدها وجامعتها وقد جاوز السبعين عاماً ، حدثنى أنه حضر الحريين  
العالميتين الأولى والثانية (١٩١٤ ثم ١٩٣٩) جنرالاً وله أربعة أولاد وبتتان ، كلهم إما طيب أو  
قائد فى الجيش أو مهندس أو أستاذ فى جامعة فأطريت نبوغهم فقال : كم من النبوغ وأراه التراب  
حين لم يجد راعياً ، ولكن أنا الذى وجهت وجهت حتى وصلوا . ولا يخلوا قول الرجل الكبير من  
صدق ووعى حقيقيين جديرين بالاعتبار ، وليت كل الآباء يفعلون فعله .

قيل عن الصوم وما أكثر ما تحدث عن هذا الركن من أركان الإسلام ، إنه يذكر الصائم الواجد بأخيه المعدم ، ويضع يده على قيمة المال ، ويهديه إلى الهدف السامى لصرفه وانطلاقه ثم الصدقة إنها لذات أثر فعال فى تقوية جبال المودة ، وليس المراد بها هنا الزكاة المفروضة أبداً فتلك أمر محتوم لا فكاك منه ولا مفر عنه لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وإنما المراد هنا ما تعطيه يمينك حتى لا تعلم شمالك ما تنفقه ، هي ما ورد ذكرها فى الكتاب العزيز ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾<sup>(١)</sup> ، وقوله سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَتَّ سَعِ سَابِلٍ فِي كُلِّ سَنبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup> .

والأمر والنهى : وتلك مهمة شاقة لا يلقاها إلا الذين صبروا ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، ولا يزال يوجد من يقوم بها ويؤديها والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وهنا تنفس الثانى الصعداء وعقب على حديث صاحبه قائلاً : صدقت وما عدوت الحقيقة ونرجو - ولا ينقطع لنا فى الله رجاء - أن يظن المسلمون لوحى السماء فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ثم انفض مجلسهما على أن يلتقيا دائماً فى رحاب الله وعلى مائدة رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، فتلك هى الباقيات الصالحات وهى خير ثواباً وخير أملاً .

(١) الآية ٢٧١ من سورة البقرة ، والآية الواردة بعدها من نفس السورة وهى رقم ٢٦١ .  
(٢) أما الزكاة المفروضة فيكاد ينعقد الإجماع على وجوب إظهارها ليقتنى الأغنياء بعضهم ببعض فى إخراجها وليعلم الناس أن هذا الركن العظيم من أركان الإسلام لم يهدم بعد ، وإن كان قد ورد ذكرها فى القرآن العظيم باسم الصدقات أحياناً مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ...﴾ .

## بالحب لله صلاح الدنيا والدين

عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :  
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

(رواه الشيخان - البخارى ومسلم)

(١) هذا الحديث الشريف يعتبر أصلاً عظيماً من أصول الشريعة الإسلامية ، وقاعدة كريمة من قواعدها ، ومن نتائج تطبيقه والعمل به الاعتصام بحبل الله ، وترك كل ما من شأنه أن يسيء إلى الآخرين مهما كانت نوازلهم واتجاهاتهم . والنفس القوية العظيمة المترفعة عن السفاسف والدنايا تحب الإحسان وتتجنب الإساءة ، وتبتعد عن الإيذاء ، وإذا فشت في الناس المحبة والتواد في الله ، حصل التآلف ، وانتظمت أمر العباد وأحوالهم في معاشهم الدنيوى ، واتجهوا بقلوب صافية إلى ما ينفعهم فى الآخرة ، فيهابهم أعداؤهم ، وتتحد قواهم ، ويمتد سلطانهم وتسعد بهم الدنيا . فيهابهم أعداؤهم ، وتتحد قواهم ، ويمتد سلطانهم وتسعد بهم الدنيا . وقوله ﷺ : ( لا يؤمن أحدكم ) المراد : الإيمان الكاملة الشامل المبنى على التصديق والإيقان بوجود الله ووحدانيته ، وصدق رسله جميعاً عليهم الصلاة والسلام ، وهذا الإيمان والإسلام دون أن تقتصر محبته على فرد دون آخر ، لأن المؤمنين متساوون فى الأخوة (إنما المؤمنون أخوة) . وقال بعض السلف الصالح رضى الله عنهم جميعاً : (يمكن أن يكون التعبير بالأخ فى كلام رسول الله ﷺ ، عاماً وشاملاً فيدخل فيه كل الناس حتى الكفار فهم أخوة فى الإنسانية ، ومن واجب المسلم أن يحب للكافر الدخول فى الإسلام وأن يدوم عليه ، حتى يحصل له من الخير المأمول ما يستفيده المسلم العامل بأصول دينه ، والمطبق فى سلوكه أوامر الله ، والمجتنب لنواهيه ، ولهذا كان الدعاء بالهداية مستحباً دائماً فى كل الحالات ... أزة ) ، ( ما يحب لنفسه ) من الخير والمنفعة العاجلة والآجلة ، وفى رواية النسائى « حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه ويبغض لأخيه مثل ما يبغض لنفسه » ، وفى رواية الإمام مسلم « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ، أو قال : لجاره ما يحب ما

يحب لنفسه . والخير اسم جامع لكل الطاعات والمباحات : من العبادات والطيبات من الرزق وسعة العيش ورفاهية الحياة ، وفي الأثر الشريف : (انظر ما تحب أن يقدمه الناس إليك فأده إليهم) .

(٢) وينبثق عن المحبة المشار إليها في الحديث الشريف (الإيثار) وهو إيصال النفع إلى الغير مع الحاجة الماسة إليه . فالمحب في الله يؤثر أخاه بكل فضل ومعرفة جل أو قل ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا لِنَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup> فهم يقدمون إلى إخوانهم ما يحتاجون إليه ، مع أنه غير زائد عن حاجته ، فقد بييت أحدهم طاويًا ، ويطعم الطعام من هو أشد حاجة إليه منه ، راجيًا رحمة الله ومغفرته ، سالكًا ذلك الطريق طريق المحبة إلى رضوانه وجناته ، فهم لا يطلبون من الناس جزاء ولا شكورًا وإنما يفعلون ما يفعلون طمعًا ورجاء لما عند الله - قال تعالى : ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾<sup>(٢)</sup> إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا<sup>(٣)</sup> إنما نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا<sup>(٤)</sup> وقد يتعدى الإيثار الطعام والشراب إلى المال كله ، وما ملكت يد الإنسان ، بل أحيانًا يتجاوز ذلك إلى الفداء بالنفس والروح ، ومن أبرز الأمثلة التي يجب أن تحتذى في هذا الصدد ، ما فعله سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليلة الهجرة الكبرى حين بات في فراش رسول الله ﷺ وهو يعلم علم اليقين الذي لا يخامره شك ولا يصل إليه ريب أن الموت أدنى إليه من جبل الوريد ، فما بينه ورضى الله عنه وبين الاستشهاد في سبيل الله إلا أن تمتد إليه السيوف المشرعة في أيدي الأعداء من الكفار المترصدين لرسول الله ﷺ حينذاك ، ولكنه الإيمان بالله ورسوله ، والحب في الله لله وحده . وقل مثل ذلك في صنيع سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ووضع قدمه على فتحة جحر الثعبان الذي ناشه بأنيابه وأفرغ فيه سمه فما هاج ولا ثار حرصًا على الرسول الأمين وحفاظًا على حياته الشريفة . ومثل ذلك الفداء كثيرًا ما

(١) الآية ٩ من سورة الحشر .

(٢) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة الإنسان .

تكرر من أولئك الأبطال المغاوير الأفاذا الذين رسموا للحياة الحرة الكريمة أقوم سبيل لا عوج فيها ، فسادوا وغدوا ضياء ونوراً يسير على هداه المصلحون المخلصون ، والمؤمنون العاملون ، وخلدت ذكراهم ولن يمحوها كر ليل أو مر نهار حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

(٣) ومن دلائل المحبة لله ، ألا يتعرض المؤمن لحرمان الناس مهما كانت عقائدهم ومهما تنوعت مشاربهم ، واختلفت درويهم ، فلا يدخل المؤمن أبداً فيما لا يعنيه من شؤون غيره ، بل يجعل اهتمامه بما يفيدهم ، وما ينفعه وينفعهم ، وما يبقى عليه وعليهم ، وما يمضى به وبهم قدماً إلى كل فضيلة وسبق فى الخير وطاعة الله ، وعمارة دنياه ودنياهم بمحبة خالصة صافية لوجه الله .

روى الترمذى وغيره عن عبد الرحمن بن صخر قال : قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه<sup>(١)</sup> » وفيه إشارة إلى ترك الفضول ، فالمؤمن كالنفس الواحدة ، ومصداق ذلك قول رسول الله ﷺ : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » . ويلزم من ذلك ، كف الأذى والمكروه عن الناس عامة والمؤمنين خاصة ، وبهذا يبلغ المؤمن مرتبة الكمال والسمو النفسى ، ويحتل أشرف مكانة بين الناس ، سئل لقمان الحكيم مرة : (ما الذى بلغ بك ما نرى من الحكمة والفضل ؟ فأجاب : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وتركى ما لا يعنى) . وروى أبو عبيدة عن سيدنا الحسن رضى الله عنهما قال : (من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه) .

ومن مستلزمات المحبة أيضاً : أن يكون المؤمن أميناً فى كل شىء ، وأن يؤدى الأمانات إلى أهلها دائمة ، فهذا يوثق رباط الألفة ، ومما يعين على ذلك أن يصرف وظائف أعضائه فيما يجلب له حب الناس ومودتهم ، ويعين على رضا الله ومغفرته ، فلا يستعمل لسانه فى غيبة أو نيممة ، أو كذب ، أو بهتان ، أو بدعة مفسدة ، وألا

(١) رواه البخارى وغيره .

يصغى بأذنه إلى الافتراء والأضاليل ، وما لا يرضى رب العالمين ، مما هو خارج عن حدود الإسلام وقواعد الأخلاق الكريمة ، وأن يرد الودائع إلى أهلها . وأن يترك الشجار والخلاف ، والنزاع وأن يديم المعاملة الطيبة الكريمة مع كل من عرف ومن لم يعرف .

ومن أمانة المسئولين عن أمور العباد أن يعدلوا فيما بينهم ، وأمانة العلماء أن يدأبوا على تبليغ رسالة الله إلى خلقه أسوة برسول الله وخلفائه الأبرار ، ولا ينهوا ، ولا يضعفوا مهما لاقوا من عقبات ، حتى يتمكنوا لطاعة الله بين عباده ، ويحملوا الناس على الأخلاق الفاضلة ، ويبعدوا بهم عن الفواحش ما ظهر منا وما بطن ، ومن أمانة النساء ألا يخن في مال أو عرض ، ولا يوطنن فراشهن غير أزواجهن ، ولا يخرجن من بيوتهم إلا بإذن أولياء أمورهن وفي رفقة محارمهن ، ومن أمانة الرجال الحفاظ على زوجاتهم وإدامة حسن معاملتهن ، وبذل كل معروف لهن ، ومن أمانة التابعين أن يحافظوا على أموال متبوعيههم ولا يقصروا في أداء الواجب نحوهم ، وعلى متبوعيههم أن يعاملوهم بالحسنى وزيادة ، فيطعموهم مما يطعمون ويلبسوهم مما يلبسون ، فهذه هي أمانة الله التي يجب أن تؤدى ، والتي بها تقوى المحبة وتدوم الصلات الكريمة بين الناس على مختلف احوالهم ودرجاتهم وقد قال انس رضى الله عنه : ( خطبنا رسول الله ﷺ فكان مما قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » ) .

(٤) ولا يخفى أن حب المؤمن الخير للآخرين ، من التكاليف الشاقة المضنية فليس هو مجرد قول ، وإنما عمل بكل ما تطلبه الشريعة الغراء ، والنفس نزاعة إلى اتباع الهوى ، والشيطان يتربص بالمؤمن الدوائر ، وقد ورد في الآثار الشريفة : أن الله تبارك وتعالى خلق الدنيا وزينها بخمسة أشياء : علم العلماء ، وعدل الأمراء ، وعبادة الصالحين ، ونصيحة المستشارين ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، ولكن الشيطان الرجيم الذى شطن عن طاعة ربه ، وعصى مولاه ، وتوعد بنى آدم بالويل والثبور ، كما حكى عنه القرآن الكريم : « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلَيْنَا لِئْسَ أَخْرَجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »<sup>(١)</sup> وفى موضع آخر من الكتاب العزيز

(١) الآية ٦٢ من سورة الإسراء .

قال تعالى : ﴿إِن يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا<sup>(١١٧)</sup> لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا<sup>(١١٨)</sup> وَلَا ضَلِيلَهُمْ وَلَا مَئِينَهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَكُنْ أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا<sup>(١١٩)</sup> يَعِزُّهُمْ وَيَمْئِينُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(١)</sup> .

أقول : ان هذا العدو اللدود ، الذى لا يفتأ ينفث سمومه بين عباد الله ، ليفرقهم ، ويغرقهم فى المعاصى ويجلب لهم الذل والهوان ، هذا الشيطان : زين لابن آدم أشياء تناقض ما زين الله به الدنيا .. فقرن العلم بالكتمان ، والعدل بالجور ، والعبادة بالرياء ، والنصيحة بالغش ، والأمانة بالخيانة ، وهنا تلاشت المحبة بين الناس أو كادت إلا من عصم الله ، والذى يبشر بالخير ويدفع اليأس ما أشار إليه سيد الرسل بقوله : « لا تزال طائفة من أمتى قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم ... الحديث » . وهؤلاء يحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم وهم منبثون فى الأرض ، وقد لا يعلمهم إلا الله ، والعلماء يرسمون طريق الخير ولا يقصرون ، وعلى الله قصد السبيل . إنه نعم المستعان .

(١) الآيات من ١١٧ إلى ١٢٠ من سورة النساء .

## لوموا أنفسكم

عن عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :  
« قال الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الليل  
والنهار » ..

(رواه البخارى)

(١) الدهر مر الأيام وكر الليالى<sup>(١)</sup> وهما طرفان تقع فيهما الأحداث حلوها  
ومرها خيرها وشرها . وقال بعض شراح الحديث من السابقين رحمهم الله : (زعم قوم  
أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك العباد ، وأنكروا ملك الموت ، وأضافوا  
كل حادثة إلى الدهر ، وإخبارهم ملأى بشكوى الزمان ، وبهذا كذبوا الرسل وعادوهم  
وركبوا متن هواهم ، فضلوا الصراط المستقيم ، وجنحوا إلى الأثم الميسن) . وقد  
روى عن الإمام أحمد رضى الله عنه بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : (لا  
تسبوا الدهر ، فإن الله تعالى قال : أنا الدهر ، الأيام والليالى أجددها وأبليها ،  
وأتى بمملوك بعد مملوك) ، فإذا سب ابن آدم الدهر على أنه متصرف فاعل لهذه  
الأمر عاد السب إلى الله تعالى لأنه هو المؤثر الفاعل المختار سبحانه وتعالى ، قال  
القاضى عياض رحمه الله : (زعم من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله تعالى ،  
وهو خطأ بين فإن الدهر عبارة عن زمان الدنيا « ومعنى ذلك أن الله هو الدهر : أنه  
خالق الدهر أى موجد الأيام والليالى ومدبر الأمور فيهما قال تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ  
السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾<sup>(٢)</sup> ذَلِكَ عَالِمُ  
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»<sup>(٣)</sup> .

(٢) والتأمل فى وقائع الحياة الدنيا وأحداثها ويرى سيرها سيراً منطقيًا معقولاً  
فى الغلب الأعم ، فكل نتائجها مبنية على مقدمات صحيحة ، ووقائع الحال ثمرة عمل

(١) الآية ١٦ من سورة النور .

(٢) الايتان ٥ ، ٦ من سورة السجدة .

سابق ، ومكنون الغد مبنى على ما يجرى اليوم ، ومن حكمة الله تعالى ، أن جعل لكل شىء سبباً ، ولكن دأب الناس وخاصة الأتكالين منهم ، الذين أهملوا أموراً وسدت إليهم ، وأفسدوا أعمالاً نيظت بهم ، واتجهوا اتجاهاً مضاداً لما يجب أن تكون عليه الخطة المثلى الناجحة ، أقول : هؤلاء دأبوا على محاولة التفلسف من المسؤوليات بإلقاء تبعات نتائجهم على غيرهم ، فطورا يسبون أيامهم ، ويشكون ليايهم ويلعنون وجودهم ، وتارة أخرى يقولون : هذا غدر فلان ، وتلك إساءة إعلان ، وإهمال ثالث ، ومما يجرى على الألسنة المرة : لعن الله الأيام التى عشناها مع هذا ، والليالى التى جمعتنا بذلك ، ومعلوم من تكرار المثل على مسرح الحياة أن مثل هذا لا يجدى فى الواقع المؤلم قليلاً فلا يشفى علة ، ولا يطفى غلة ، ولا يراب صدعاً ، ولا يلم شعثاً ، ولا يجمع متفرقاً ، ولا يقوى واهياً ، بل يزيد الطين بلة ، والخرق اتساعاً ، فتتفاقم الأمور ، وتدلهم الخطوب وتتجمع سحب الكوارث ، ويصبح العارض مستقبل أوديتهم ربحاً صرصراً فيها عذاب أليم ، فلا الصديق أبقوا ، ولا من الهلاك نجوا .

(٣) والرسول الكريم ﷺ يوجه الأمة فى هذا الحديث إلى درس الأمور دراسة عميقة فاحصة واعية ، والإلمام بها إلاماً كاملاً شاملاً دقيقاً ، والوصول إلى أعماقها وترقب نتائجها فإنها واقعة فعلاً ، والإعداد لكل شىء بما يناسبه ان اقتضى قوة فليسعوا إليها ، وإن استلزم علماً فليسبقوا لى ساحاته ، وأن اجتماعاً فليأتوا بالحكمة على عوامل التفرق ، وأن وحدة فليسلكوا الطريق السوى إليها ، وأن مكرراً فليمكروا ، والحرب خدعة ، مع دأب مستمر وعمل متواصل وتعقل وإحكام وحزم ، ومما يقوى هذا ويمنيه دراسة التاريخ وفتح العيون لا بل العقول على أحوال الأمم المعاصرة ، والاستفادة من الشر أكثر من الخير ، وعدم الاستهانة بالعدو مهما كان ضعيفاً واهياً فى نظرهم (فلربما قتل البعوض الفيل) . (ولربما تموت الأفعى من سموم العقارب) . وليقتدوا برسول الله عليهم الصلاة والسلام ، فقد هزأ قوم برسولهم وقالوا كفرةً وعناداً : (انظروا نبيكم بعد أن كان رسولاً صار مجنوناً يصنع سفينة ليركبها فى الصحراء لتجرى على الرمال) ، وهكذا يصنع زمانه فيما لا جدوى فيه ولا فائدة ترتجى من ورائه لأنهم لم يصدقوه رسولاً ولم يؤمنوا به نبياً فلم ترق أفكارهم عن

الحضيض الذى أركسوا فيه ولم يدركوا أنه صادق وأنه غير عابث لأنه ينفذ أوامر من لا يعبت ولا يضل ولا يغلب ، وكان جوابه دائماً : ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾<sup>(٣٨)</sup> فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ<sup>(١)</sup> واستمر عاملاً مجدداً مثابراً واصل ليله بنهاره حتى إذا جاء أمر الله قضى قضاؤه ولا أراد لما قضى ، هذا مثل ، وتلك الأمثال يضربها الله لقوم يعقلون .

(٤) وحين يقول الله (يسب ابن آدم الدهر) فإنما يصور الإنسان التافه الحقير الذى يحاول أن يفر من واقعه الذى تردى فيه . يضرب ذات اليمين وذات الشمال يريد أن يصم أذنيه عن حقيقة أمره المؤلم الذى كان هو العامل الأول فى ظهوره على صورة مزرية ، وإلا فما هو الدهر : هو أيام وليال ، زمان ، أو عية خالية غير ممتلئة تطلب من يترعها بالعرق والدم ، تريد المستهين بالشدائد ، الهازئ بالعقبات مع السعى الجاد لإزاحتها عن طريق مسيرته ، ماضياً قدماً إلى الصدارة بجدارة ، فإن وصل فهو المجلى الذى يفتح له التاريخ صدره ، ويحفظ أعماله بين حنايا ضلوعه ، ويثبتها فى طيات أوراقه وأضابيره ، تلوى إليه الأعناق ، وتشد الرحال إلى واديه وينتجع الفضل حيث هو لا يبرح ، وإن كبا بعد الجهد المبذول ، وزل بعد العمل المتواصل ، بل إن هلك فسيهلك عن بينة ، ويعذره معاصروه ، ويقرع التاريخ خصومه ، وصاحت الدنيا تردد وإن لم يقل : لنا الصدر دون العالمين أو القبر .

ويدفعنى هذا التفكير فى المحيط الذى أعيش فيه ، فى المحيط العلمى البحت ، البعيد عن المهادى المادية ، والمهالك المردية ، فأرى قوماً منا فى جهالة فكر ، وقصر باع وعجز دون الغاية ، مع أنهم ذو ومجد تليد ولكن لا طريف<sup>(٢)</sup> لهم ، مجدهم ذكريات . لا . بل وقائع حقيقية مسجلة دروب علوم آبائهم ، تسجيلاً يشهد بطول الباع ، وغزارة المادة . واستهانة بالموت بالفناء المادى فى سبيل الحصول على نتيجة علمية وحقيقية كونية واحدة ، وكان لهم دعوب فتن غير أبنائهم وشغف غير أحفادهم ، فأخذ بألبابهم واستولى على جماع أفكارهم ، تفرغوا له يبيحثون عن درره ، ويغوصون على

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة هود .

(٢) وفى لغة : طارف أى جديد .

لأنه .. وكان لهم نتاج وأى نتاج .

وماذا كان موقف الوارث ذى الدم ، كان موقف الابن العاق ، كان ما نراه فى لقاءات فجة شخيفة متهاكمة متداعية . وأقول لك -لا ملقياً للقول على عواهنه- وإنما بالبرهان استطيع إيضاح الحقائق التى تكمن وراء ما أرى وماذا أرى وأى شىء أسمع ، تترامى إلى سمعى كلمات لا تخرج إلا من ضيق عطن ، وظلام أفق ، كلمات تحمل سبأً لباحث مدقق وعالم محقق ، لأن المتحدث لم يبلغ شأو المتحدث عنه ، ويكفى أن أقول (لم) لأن علم ما بعدها عند علام الغيوب وحده .. والذى أريده ان نعاود النظر فى أمرنا فلا نحاول النيل من الآخرين فندعى أنهم يحاولون تشويه آثار آبائنا ، ويسرقون تراث أجدادنا ، مع الواقع الذى لمستته ، والحقيقة التى أدركها على الطبيعة أن فى هذا الوادى<sup>(١)</sup> رجالاً يعرضون الحقائق ، وحقائق تراث آبائنا ، بل ويتعرضون لحضارتنا المعاصرة الآتية<sup>(٢)</sup> ويعرضون الكل بطريقة لا ضرب لها عند إضرابها<sup>(٣)</sup> عندنا ، ولا هى عند تلاميذهم الذين تربوا على أيديهم ثم عقوهم ، ولقد وجدت أحدهم وهو أعلمهم بالحقيقة حقيقة تراثنا بعد سبر غور حاضرنا ، لا يرضى أن ينسب إلى الباحثين فى علوم المشرق تحت الاسم المصطلح عليه بل يربأ بنفسه عن ذلك الاسم ، ويقول أنا عالم وعالم فقط ، لا واستغفر الله بل أنا باحث وباحث فقط ، وطالب معرفة ولا أزيد<sup>(٤)</sup> ، ويصدر منه القول فى تواضع عجيب ، وخلق سمح رضى ، ويجمع حوله الأبناء ذوى الدم الوارث ليطلعهم على مراثى عجيبة ، ومجالى بديعة غريبة من أسرار علوم ومعارف آبائهم فيبهرهم ما يسمعون لأنهم من قبل لم يسمعه وفى منبته الأصل لم يشاهدوه .

(١) ليس وادى المنبت أو المنشأ أو العمل إنما هو واد آخر بعيد هو أوروبا الجامعات العلمية حيث

أرشف منها ، لا أوروبا اللهو واللعب والمجون .

(٢) بتشديد الياء ، نسبة إلى الآن .

(٣) جمع ضرب .

(٤) يذكرنى هذا العالم بشيخ فلاسفة اليونان (سقراط) حين سمع أن كاهنة معبد دلفى تتعته

بـ (الحكيم) وأنه احكم من أظلتهم سماء أثينا ومن أقلتهم أرضها ، حيث قال قولته التى صارت

علماً على الحقيقة من بعده ، قال : أنا لست حكيماً وإنما أنا طالب حكمة وترجمت إلى لغتنا

الشريفة تحت كلمة (فيلسوف) ومعناها محب الحقيقة من حيث هى أو باحث عنها ...

فى مشهد من مشاهد مرورنا بالحياة ، قدم صديق إلى ذلك العالم زميلاً تحت عنوان انتسابه إلى المادة ، البحتة ، فرد عليه الشيخ فى حزم وخلق متعاقبين ودماثة طبع ورقة حاشية متناسبين : لقومك لأبائك تراث يعدل ملء الأرض ذهباً ، وحبذا لو غصتم عليه كما غاص من يمثلهم هذا الزميل فى درر البحر ولآله فانتزعوها منه انتزاعاً وأخذوها غلاباً ، وأثروا قبل وجود فيض المادة الحديث ، لا اكتم قارئى العزيز إنى أعجبت بالرجل كعالم وكمحقق أيضاً ، وباحث منصف ، ومع ذلك غبطته على تواضعه الذى يشعر محدثه أنه جاء يعطيه المعرفة لا ليأخذها عنه فيذكرنى هذا الموقف الكريم بقول القائل :

لقاه إذا ما جئته متللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وأعود إلى نفسى وإلى أترابى وإلى الجيل الصاعد من بعدنا ، فأقول : إلى متى نظل نسب دهرنا ، ونجتز طعام غيرنا ، ونعيب سواناً جهلاً ، ونتناول على زماننا وما لزماننا عيب سواناً وأدعوا الله مع العمل ، إن يرحمنا ويسلك بنا الطريق الذى يقبل عثارنا ويراب صدعنا ، ويوجهنا الوجهة المثلى . فاللهم اغرس فى نفوسنا الوفاء لأصحاب الحقوق علينا وفقهنا فى دينك الذى ارتضيته بالقيم الإنسانية ، وأرو الجيوب بالماء الفرات السائغ ، بعد أن لوث الإنسان الظالم وجهها بالدم المراق فى كل مكان .

ومن عجب ان الأرض لا تشرب الدم ، ولا تسمح له أن يغوص إلى أعماقها ، وما ذلك إلا ليبقى على وجهها شاهد صدق على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ... غفرانك ربنا وإليك المصير ، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما آمن الرسول والمؤمنون .

## حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا ..

وعن ابى ذر ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، فيما يرويه عن ربه  
قال :

« يا عبادى أن حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته محرماً فيما  
بينكم ، فلا تظالموا . يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني  
أهدكم . يا عبادى كلكم جانع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ،  
يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ،  
إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا اغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى  
أغفر لكم يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى  
فتنفعونى يا عبادى ، لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم ، كانوا على  
أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو  
أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم ، كانوا على الحجر رجل واحد منكم ،  
ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم  
قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص  
ذلك مما عندى ، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر . يا عبادى  
إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفىها ، فمن وجد خيراً فليحمد  
الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(رواه الإمام مسلم فى صحيحه)

(١) يا عبادى : ورد هذا اللفظ فى القرآن كثيراً فى مواضع عدة<sup>(١)</sup> وكذلك فى  
الأحاديث الشريفة ، ومن أوضح ما قيل فى المعنى المراد من لفظ العبد إذا أضيف  
إلى الله تبارك وتعالى هو : من يسلم الأمر كله سبحانه ويبرأ من حوله نفسه وقوتها  
ويعلم يقيناً بأن الله بيده ملكوت كل شىء . فلا يحزن على فائت ، ولا يفرح بآت ،

(١) منها : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي لَأَنتَ قَرِيبٌ) ، ومنها : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ...)

وإنما يمتثل الأمر والنهي كما وردا عن الصادق في غير التواء ولا ضجر ، ثم يطلب العون من الله وحده ويمضى في الحياة غير هيب ولا وجل مردداً :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

إنى حرمت الظلم على نفسى ... إلخ : الظلم ، وضع الشيء فى غير موضعه ، وهذا ينشأ ، إما عن جهل أو تجبر ، فالظلم الناشئ عن الجهل ، كالذى يصدر عن العامة أحياناً حين يصيب أحدهم داء فى جسده ، فيذهب إلى الحداد خبيراً فى هذا المجال وكيف لا ولديه المسمار والمحماة . ولو أبى صاحبه حرصاً على حياته لرماه بالجهل ظلماً وعدواناً ، ومثل ذلك ما حدث لأحد الأطباء الأخصائيين الأفاضل فى أمراض العيون حين أدخلوا عليه رجلاً حطمت رجله سيارة عابرة ، فأحاله على طبيب عظام ، فثار به القوم ولولا بقية من عقل لكان ضحيتهم ، إذ خالوه ممتنعاً عن اسعاف صاحبهم ، وما دروا أنه يوجههم إلى مصدر العلاج الناجح .

والثانى : منشؤه الغرور وحب السلطان . فإذا وسد الأمر إلى غير أهله ، سجنوا وقتلوا وعذبوا وأعتدوا على المال والأعراض تحت ستار الحفاظ على الأمن ، والسهر على سلامة الناس ، وإقامة العدل وإنصاف الشعوب ... إلخ ، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى وهى مسطورة على صفحات التاريخ قديمة وحديثة<sup>(١)</sup> ، والجهل والعدوان -محالان على الله تعالى فلهذا لا يصدر عنه ظالم ، ومن الناس -وما أكثرهم- من ينصب ظلمه على نفسه ، فيجحد آيات الله ، وبكفر نعمه ، فيحل عليه العذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

كلكم ضال إلا من هديته<sup>(٣)</sup> : وفى محكم الكتاب : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا

(١) ... وإلا فأى عدل فى إبادة الملايين فى الحروب العدوانية ، وأى عدل فى إجلاء الآمنين عن ديارهم وأموالهم ، وأى عدل فى كل ما نشاهده ونراه من عاد ومعتدى عليه فى زماننا هذا ، سبحانه ريسى إن هذا الظلم عظيم .

(٢) الآية ١١٧ من سورة آل عمران ، وفى القرآن الكريم ﴿إِنَّ الشُّرُكَاءَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ .

(٣) الهداية : لطف من الله حين تستعمل فى الخير ، وقد ترد على سبيل التهكم فى المجال الثانى ومنه : ﴿فَأَمَّا لَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ الرَّحِيمِ﴾ .

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ<sup>(١)</sup> .. والهداية الحقّة ، هي التوفيق إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر . والبحث في هذا وضده سر خاف ، جال فيه فلاسفة علماء ، وعلماء فلاسفة ، وإيماني : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾<sup>(٢)</sup> .

فاستهدوني اهدكم : يجب على العبد أن يتجه إلى الله تعالى اتجاهًا كاملاً راغبًا في رحمته طالبًا هدايته ، وهداية الله لعباده تكون بإقامة الأدلة الواضحة على وجوده وقدرته ونحن مفتقرون إليه مدعنون لحكمه ، نسأله جلت قدرته ان يفيض علينا من القوى العقلية والحواس الظاهرة والباطنة ما نتمكن به من إدراك قيوميته وعظمته حتى نكون من المهتدين .

كلكم جانع إلا من أطعمه : إشارة إلى أن الله هو الرازق ذو القوة المتين ، وإن ما في السموات والأرض ملك له ، ويعطى عباده بقدر ﴿وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزَلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾<sup>(٣)</sup> . وهو جلت عظمته يعلم ما ينفع العباد وما يضرهم ، ولهذا فاوتهم في الأقدار وما يملكون ، وفي بعض الآثار الشريفة : (إن من عبادي من لو أغنيته لفسد حاله وإن منهم من لو أفقرته لفسد حاله) . وقال سبحانه في شأن البعض : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾<sup>(٤)</sup> .

فاستطعموني أطعمكم : جرت حكم الله انه لا يستوى بين العامل الجاد في طلب الأفضل من الحياة ، والقاعد المتكاسل المخلد إلى الأرض ، فالسما لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، وإنما هي سعي وجد ودأب وعمل . والله وحده الموفق للأسباب ، المبارك في النتائج ، والإسلام دين عمل بحق ، واليد العليا خير من السفلى ، وغبرة ومثل يؤخذان من حادثة الصحابي المدقع الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب صدقة ، وهو مفتول العضل قوى الساعد ، فأمر عليه الصلاة والسلام أن يعود إلى بيته باحثًا عن شيء ذي قيمة مهما ضوّلت ، وقفل الرجل راجعًا بحلس وقعب ، عرضهما رسول الله ﷺ

(١) الآية ٤٣ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨٨ من سورة هود .

(٣) الآية ٢١ من سورة الحجر .

(٤) الآية ٢٧ من سورة الشورى .

على الحاضرين فى مزايده علنية ، وكان أن ييعا بدرهين سلمهما الرسول الكريم إلى الرجل ليشتري بهما حبلاً وفأساً ، وقال امض بحبلك وفأسك ولا أرينك بعد خمسة عشر يوماً ، ولما انقضى الأجل رجع إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فسأله : ما وراءك ؟ وأجاب : احتطبت وبعث ثم اشتريت لأهلى طعاماً وكسوة ، وفضل معى بعض الشيء ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « هذا خير من ان تجى المسألة نكتة سوداء فى وجهك يوم القيامة » .

أقول : هذه الواقعة تشير إلى أن المسلم لا يقبل منه التواكل وسؤال الناس ما بأيديهم ، فالمراد بالاستطعام هنا ، هو السعى مع رجاء التوفيق وبيث البركة فى الكسب ، والعامل من توكل على ربه وسأله العطاء مع المزيد من العمل والغدو فى سبيل العيش ، كالطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً .

لكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم : قريب فى فهمه وشرحه مما مضى فى الفقرة السابقة والكل يشير إلى افتقار العباد إلى خالقهم ، ووجوب اتجاههم فى كل احوالهم إليه سبحانه ، يدعونه ويرجون رحمته وعونه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

انكم تخطون بالليل والنهار ، وأنا اغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم : وغفران الذنوب متحقق بفضل الله ولا شك ، وقد وردت فى الاستغفار أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه الترمذى عن عبد الرحمن بن صخر أن رسول الله ﷺ قال : « إنى لاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » . وأخرج البخارى ومسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن عبداً أصابه ذنباً فقال : يا رب أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال سبحانه وتعالى ، علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، غفرت لعبدى ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً ، فقال : يا رب ، أذنبت آخر فاغفر لى ، قال : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى فليعمل ما شاء »<sup>(٢)</sup> ... وروى البخارى أيضاً عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « سيد الاستغفار

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) حديث صحيح ، رواه البخارى ومسلم .. والإمام احمد وابن حبان .

أن تقول : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»<sup>(١)</sup> .

إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى .. إلخ : لأن الله وحده هو القادر على الضر والنفع ولا يمكن لأحد من الخلق أن يرقى إلى ملكوته مهما بلغت سطوته بين أقرانه ، لأن واهب القوى والقدر هو الله وحده ، وحاشا أن يبلغ العبد مرحلة يقارع فيها الرب جل وعلا ، وإنما الله هو القادر على إنزال العقوبات الرادعة للعباد ... ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾<sup>(٢)</sup> .

وفى سورة الأنعام : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِمَّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْبِقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ .. الآية ٦٥ .

كما أن ملكه تعالى لا يزيد بطاعة عبد ولا ينقص بمعصيته ، لأنه سبحانه هو الغنى المطلق المتفردة فى ذاته وصفاته وأفعاله فملكه كامل لا يتصور فيه زيادة تحدثها عبادة عابد ، ولا نقص ينشأ عن عصيان عاص ، وذلك لأن ما عنده سبحانه لا يتناهى ، والنقص إنما يتصور فى المتناهى ، وضرب الله ، (المخيط) وهو الإبرة مثلاً لأنها أصغر ما يشاهد ، وهو مثال تقريبي ليفهم البشر .

إنما هى أعمالكم أحصيها : الإحصاء هو الجمع للتثبیت من الشىء ، وضم بعضه إلى بعض بحيث لا تفلت صغيرة مهما دقت ، ولا كبيرة مهما عظمت ، ولئن كان ذلك غير متصور واقعياً فيما مضى من زمان ، فإن الأجيال الحاضرة ، تدرکه ولا يمكن

(١) كان هذا سيد الاستغفار . لأن فيه الإقرار لله وحده بالألوهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعهد الذى أخذه عليه والرجاء لما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وفيه إضافة النعماء إلى خالقها وإضافة الذنب إلى نفسه ورغبته فى المغفرة واعتراف بأنه لا يقدر على ذلك سواه ، سبحانه وتعالى .

(٢) الآية ٥٨ من سورة الكهف .

أن تنكره ، حيث أمكن تسجيل الحركات الخفية والسكنات الغائبة عن إدراك بعض الحواس على أشرطة مخترعة كشفها الإنسان بعمله الحادث ، فكيف بقدره العليم الحكيم ، قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾<sup>(١)</sup> . وقال جل شأنه : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾<sup>(٢)</sup> . وورد في حق الخارجين على حدود الله ﴿ ... وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾<sup>(٣)</sup> . فلا يتطرقن إلى تفكير عبد أنه مفلت من تسجيل حسناته وسيئاته كما وقعت ، وإنها معروضة عليه وإنه قارئها ، يوم النشور .

فمن وجد خيراً .. إلخ : معلوم ان التاجر الماهر الناجح الباز أقرانه ، وهو من يجرى حساباً شاملاً لتجارته في فترات معينة ليدرك مدى ربحه من خسارته ، كما يختبر السوق دائماً ليرى أى السلع تنفق وأيها يبور فيغرق سوقه بما يروج فيه ، ويتحاشى ما لا إقبال عليه ، وبهذا يسبق ويتقدم دائماً ، وعلى النقيض منه ذلك المتوانى المتواكل الذى لا يهتم ببضاعته ولا يدرى عن رأس ماله ولا سوقه شيئاً ، حتى يصطدم بالواقع المحس المؤلف ، فيعلن إفلاسه وينحسر عن مسرح التجارة والتجار ، ثم يبئد ويفنى ، ولا يذكر إلا بسوء المنقلب ، ويثس المصير والعياذ بالله تعالى وعلى هذا فقس رجالاً عرفوا ربهم ودأبوا على طاعته وشمروا عن سواعد الجد في هذه الحياة يرجون تجارة لن تبور ، أكلوا من الطيبات وعملوا صالحاً ، وهؤلاء تلقاهم دائبين على تذكر خطاياهم ، ماديين أكف الضراعة فى إخلاص لرب العالمين رجاء أن يباعد بينهم وبين ذنوبهم ، وحين يجدون حلاوة العبادة يسعدون ويسرون ، ويوم يلقون ربهم يلقون نضرة وسروراً أولئك رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه ؟

وعلى الضد نرى قومًا عابثين لو حاولوا إحصاء زلاتهم لوجودها تجل عن الحصر وحينئذ لا يلوومون إلا أنفسهم ، حتى من أضلهم يتبرأ منهم ، ويردد كما ورد

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ١٣ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

فى محكم الكتاب : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup> . وهذا لا يحمل على اليأس ولا القنوط ، وإنما يجب أن يطرق العاصى باب التوبة والاستغفار ، كما مر بهذا الحديث الشريف ، وواجب على الصنف الأول أن يشكر الله على ما وجد من خير أعماله ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهَا ﴾<sup>(٢)</sup> . وأما الثانى ، فينحو باللائمة على نفسه الأمانة بالسوء ، لا يقنط من رحمة الله ﴿ وَإِنِّي لَلْفَقِيرَ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾<sup>(٣)</sup> .

هذا - وقد أخرج الترمذى هذا الحديث بزيادة على ما ورد فى مسلم ولا تخرج فى جملتها على ما تضمنته رواية الإمام مسلم ورحمهم الله جميعاً ونفعنا بما خلفوا من تراث كريم .

(٢) بإيجاز : نجد تعاليم الإسلام وقوانينه وما رسمه رسوله العظيم موحى به من عند الله سبحانه تدعو البسر إلى السداب على العمل النافع ، والاستهانة بكوارث الحياة . وأعتبرها ظواهر طبيعية ، وأحداث لا بد منها ، لتصقل عقولنا وتدلنا بالبرهان على قدرة الله ورحمته بالعباد ، وتدعونا إلى السير فى مدارج الوجود مترسمين خطى رسول الله فى الاستعانة به دائماً : ﴿ يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ﴾<sup>(٤)</sup> ولا تصدنا عن غايتنا أبواب موصدة مهما كانت ، فلا مستحيل فى الدنيا ، بل كل شىء ممكن ، مادام العزم قوياً والإرادة حية والبصيرة جادة والمثابرة متحققة ، والتوانى والتكاسل مرفوض .

أخلق بذى اللب أن يحظى بحاجته مدمن القرع للأبواب أن يلجا

ولتراقب السميع العليم فى أعمالنا ، فهى محصية علينا ، ولا نفرط فى حقوق

(١) الآية ١٦ من سورة النور .

(٢) الآية ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) الآية ٤٤ من سورة فاطر .

(٤) الآية ١٦ من سورة النور .

الأوطان ، ولا نهن أمام عدو ، ولا نتخاذل وإنما نجد ونسعى طالبين عون الله راجين نصره ، مضحين بكل عزيز وغال في سبيل أهداف كريمة طيبة ، تخدم وتسعد الإنسانية جميعاً ، وقد حكى القرآن العظيم على لسان واحد من رسل الله عليه الصلاة والسلام قوله : ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(١)</sup> .

---

(١) الآية ١٦ من سورة النور .

## البر حسن الخلق

روى الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « البر حسن الخلق ، والأثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

### (١) البر حسن الخلق :

البر فى اللغة هو التوسع فى أعمال الخير ، وفى الشرع : كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من صالح الأعمال وفاضل الأخلاق ، وهى كلمة قليلة الأحرف ولكنها كبيرة الأثر ، واسعة المعنى ، تشمل كل ما من شأنه أن يوصل إلى مرضاة الله عز وجل ، وقد وردت آية محكمة فى القرآن فصلت أنواع البر التى يعنىها ويدعو إليها الإسلام ، ونعت تلك الآية الكريمة على الذين زعموا أن البر هو التوجه إلى جهة مخصوصة فى الصلاة ، فالتوجه فى حد ذاته ليس برأ ، وإنما المقصود منه هو مناجاة قيوم السموات والأرض ، وهكذا أوضحت تلك الآية أن البر هو الإيثار ، إيثار الغير بالمحسوب من المال ، والصلات صلات ذوى الأرحام وغيرهم من بعدهم . قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الآية ١٧٧ من سورة البقرة) .

وهنا نمر مرأً خفيفاً بمعنى ما هدفت إليه تلك الآية الكريمة ، ونخلص منه إلى معنى الحديث الشريف ..

تأمل معنى قليلاً أو أمعن الفكر إمعاناً عميقاً فى أنواع البر التى وردت هنا ، ثم راقب الوجود ، الكون ، الناس ، المجتمعات ، الحكومات ، ثم طبق ما عنته الآية الشريفة على الواقع ، ارتقب النتيجة الواقعة بعد ذلك التطبيق ، ماذا تجد ؟ إذا حصل الإيمان استقرت النفس واستتار الفكر وأطمأن خاطر ، وعرف العبد أن له رباً

وأن ربه لن يضيعه مادام سالكاً الطريق السوي جاداً غير عابث ولا متعاس ولا كسول ولا مقصر ، والإيمان بالله يستلزم استلزماً حتمياً الإيمان بكل ما يصدر عنه لأنه سبحانه واسع عليم قادر حكيم فيجب الإيمان بالبعث وبعث الله التي لا تحصى وقد سمى بعضها ملائكة ، وأن الكتب السماوية من عند الله وأن الرسل صادقون أعطاهم الكتب لهداية البشر ولتنوير لهم دجنة الحياة الحالكة : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (الآية ١٧٦ - البقرة) . ثم يتابع رحلة الإيمان ، رحلة البر ، فيصل إلى الإيمان الثابت الراسن القوي بكل ما مر ، وإذا استقر في النفس هذا وعرف تماماً تنتقل منه إلى ما يمكن أن يصدر عن المؤمن ، فالمؤمن ليس غيبياً ولا غافلاً ولا جاهلاً ، إنما له عقل يستعمله وله فكر فهو يجيل فكره فيما حوله ، يرى حينئذ أن الأقدار متفاوتة ولا يمكن أبداً بحال أن تتساوى أو تتحد كما وكيفاً أو أن تستقر في درجة واحدة من السمو أو الانحطاط لا يمكن هذا ، يعنى لا يمكن بكل ما فى هذا التعبير من قوة والماضى والمستقبل والحاضر الملازم ، كما يشهد على صدق ذلك فهو حق لا ميل فيه ، والذي قضى رب العالمين الذى حكم بهذا التفاوت بين كل المخلوقات اتفقت جنساً ونوعاً أو اختلفت ، تعال إلى المقدرات بعيداً عن الإنسان -تغافل عن الناس لحظة طالت أو قصرت - وجل فى كل واد أو تستطيع ، وأحبر صادقاً عن النتيجة أو هون عليك وخذنى رفيقاً لك فى الجولان ، فتنوق الماء متفاوت المذاق هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومر بالشجر ، هذه ثمرة يانعة الثمار ، وتلك جاريتها ، شريكها فى التربة والسقيا ولكنها عاطل من كل ثمر والمثمرات جنى بعضها حلو شهى والآخر مر زعاف ، هذا نبت لا تفهم منه إلا أنه حمل .

وعبء على غيره ، وذلك ورد وينفج له أرج وعطر وشذى ، تلك نخلة سحق ، وهذه فسيلة ضعيفة متهافة ، وإذا دقت الفكر وجدت لكل فائدة . ولنمض إلى حيوان ولا أدلك على تفاوته سطحيات لا فلسفة فيها ولا عمق ، حتى ما كشف عنه العلم بفضل الله ، منه ذرة لا تكاد تدرك ، وإذا تحركت أردت العالم وأودت به ويحضارته المتعاقبة عبر القرون وإلى جانبها جبل شامخ وعلم رفيع لا يفعل فعلها وإن كان يفاء

إلى ظله ويقيل العابرون في حماه ، ماذا بعد ذلك حشرات ، وهوام ، دواب ، حرث ، نسل ، سماء ، أرض . فى كل تفاوت عجيب لا يدركه حصر ولا تصل إلى جمعه معرفة ولا يعلم كنهه كما هو إلا من أوجده من العدم وقال له : كن فكان ...

نعود إلى الإنسان فإذا هو الحاكم المسيطر وله الحق دون منازع . فإلله فضله على كثير ممن خلق وسخر كل شيء لعلمه وفهمه وبحثه ولدريته واتساع مدى إدراكه . لماذا ؟ ليصل إلى الله إلى المعرفة الحقة ، فهل يستطيع أن يجعل الكل مالكين أو يحيلهم جميعاً محرومين لا بد من الازدواج مادامت الحياة حياة ، ومادامت للسماء الفوقية وللأرض الفراش والبساط . هل استطاع عالم الاجتماع وماذا فعل ، وماذا رسم من خطى ، لآزال المصنع له ملكه وإن تغير السيد ، وله عامله وإن تبدل الاسم فإن كنت تعرف عكساً أو نقيضاً قفل لى بريك أين هو ؟ أو أخبرنى بعلمك أين يوجد ؟ ولكن دعنى دائماً أدلى بحجتى وأفند لك ما زعمت جهلاً أنه مساواة وقد أخطأت فلا مساواة .

إذن : أين العلاج لداء عياء ، ومادام هناك داء فليبحث له عن دواء ، وإليك الجواب بعد طول حوار :

تقول الآية الكريمة : يا محب المال ، أبق عليك مالك ، وأعلم أن إمساكه فى إنفاقه ، فنحن نريد لك الخير ونحب لك دائماً ما هو الأفضل نؤثر لك أن تدخر بعض المال لتنتفع به يوم لا ينفع مال مكنوز ، ادفع بعض لتنفى إلى ظل ذلك البعض يوماً ما فى يوم عبوس قمطرير ، صل رحمك ، ذوى قرباك ، رفه عن اليتامى عديمى الحول والطول ، ولا تنس العاجز عن العمل ساعده فهو جزء من مجتمعك ، وعضو فى أمتك ، ومد يدك إلى المنقطع الغريب المنبت عن ماله ووطنه ، صله بما يوصله إلى مستقره ، وما به يأمن طريقه لئلا يهلك فتحاسب على هلاكه حين لات مناص ، ومن سألك لا تنهره ولا تحرمه جودك فقليل خير من عدم ، وحاول تحرير من حولك حتى تصل إلى الحرية إليك ، فالسيد فى وسط العبيد عبد حقير ، والسيادة الحقة مع السادة الحقيقيين ، وخذ لذلك مثلاما شيئاً هيناً بسيطاً : هذا رجل يعرف كيف يخط اسمه ولا زيادة يعيش فى قرية غامرة بعيدة عن الحضارة ، تلفه موضع تجلة وإكبار بين قوم لا

يكادون يفقهون قولاً ، وتعال به إلى مستوى من العلم أرفع تلقه قد تضائل وانزوى ، وإذا وصل مدينة عالم أهلها بكل ما دق وانعكس وضعه وصار جاهلاً فى عداد الأعمار ، فلما طلعت عليه شمس المعرفة ذاب وتلاشى ، أما العالم الراسخ فهو الجوال فى كل ميدان ، المقارع لكل ند وقرن لا يهاب شمساً ولا يخشى هاجرة ، فقل لى ما قيمة من يدعى السيادة مع العبيد ؟ لا شئ ، وإنما القيمة والسعادة لمن يعيش سيداً مع سادة أحرار ، ولهذا دعت الآية الكريمة العظيمة إلى الحرية وبذل المال لفك الرقاب .

وتقدم ذكر المال على الصلاة بيانياً لنتائج الصلاة المقبولة فهذه نتائجها تتقدمها ، وعلى الزكاة المفروضة لتفيد أنها غيرها ، وعادت الآية تحت على الربط الوثيق بين العباد ، ولا يكون هذا إلا بالحرص على الوفاء بالعهود<sup>(١)</sup> . وتأتى بعد ذلك مرحلة الاختبار التى يمر بها كل إنسان ولا علاج يدرأ سوء النتائج إلا الصبر ومحاولة النجاح فيها ، فمن صبر فى البأساء<sup>(٢)</sup> والضراء<sup>(٣)</sup> وحين البأس<sup>(٤)</sup> فهو البر البار فاعل البر وهو الصادق المتقى لله حقاً .

رأيت مما سبق أن (البر) هو جماع الخير كله ، فانظر بعد هذا فى حديث رسول الله الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام حين يقول (البر سيد الخلق) وهل يصدر ما صرحت به الآية إلا عن حسن الخلق ، فالخلق الكريم فى عرف علمائه : (رياضة محمودة تصدر عنها الأفعال الحسنة فى رفق وبسر) وهذا هو الخلق الحسن وهذا هو البر المطلوب . كن مستقيماً ، محباً للغير ، عفيفاً ، مبتعداً عن السفاسف ، انس نفسك يا أخى فى سبيل غيرك ولاك الله إياه وسيألك عنه يوم القيامة ، لا تنتظر المكافأة فتهلك إن قلت ، وتبطر إن زادت ، إذ فعلت حققت الحديث الشريف : (البر حسن الخلق) .

(١) وفى هذا الحديث قد يطول وإن كان فى الأجل بقية فسأعود إليه بمون الله وحده .

(٢) الشدة والضيق .

(٣) فقد الأهل والولد .

(٤) فى ميدان القتال ولقاء الأقران فى النزال والطعان لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا

هى السفلى .

## (٢) والأثم ما حاك في النفس :

من الممكن أن يقال أن الأثم ضد البر أو هو نتيجة لترك البر ، وعلى أى حال فالإثم ذنب وبعد عن الصواب المرجى من الإنسان كإنسان ، وقد يتكرر الذنب حتى يرسخ في النفس ويصبح عادة ويتعارف عليه الناس ، ويواقعونه ، وهذا هو الشر كل الشر ، وهو العصيان وانتهاك حدود الله والتطاول على شرعه وإطراح العمل به ، وقد يصل الإثم بصاحبه إلى الكفر حيث يتخطى حدود إدراكه ويستهيىن بما أنزل الله على رسله وبعد الدعوة إلى أحكام الله عودة إلى الورا ، وتأخر عن ركبا لحضارة ، ولا يستحى أن يقول انظروا أمما تقدمت مادياً وليست ذات دين ... وإلى هؤلاء يساق الحديث : أى تقدم وأية حضارة ، وإى ازدهار لتلك الحضارة ، وأية مدنية واختراع .. ما هى النتيجة للإنسان كإنسان يجب أن يعيش حرأ له حق فى الهواء والماء والكلمة ، اعتقد وأستطيع الدفاع عن ما اعتقد - أن قائل هذا فج الرأى ضعيف الإدراك سطحي المعرفة لشيء باد للعيان ، ظاهر لكل إنسان - ولكن للأسف أين هذا الإنسان ولأوفر عليك مشقة البحث وعناء التنقيب وأخبرك ولا ينبئك مثل خبير . هل تعرف كيف يعيش عمال المناجم ؟ وهل تدرى كم يتقاضون ؟ هل أحصيت عدد العاطلين عن العمل ؟ هل تدرى كيف تعامل تلك الشعوب التى تعنيها ؟ أظن لا ... وأضع (الظن) هنا فى موضعه المنطقى حيث وضعه فى منزلة خاصة مع رفقائه : أشك وأعتقد وأتوهم ... إلخ<sup>(١)</sup> .

قف معى قليلاً أمام قوله ﷺ : « ما حاك فى النفس » .

هذه العبارة الشريفة تقدر الإنسان قدره وتضعه ، فى درجته من الإنسانية ، فى مكان من الوجود ، فى وظيفته التى يجب أن تكون له وأن يكون هو لها ، فهو عظيم بين المخلوقات مسيطرة فى حدود إمكانياته وليس بمتجر كما يجب أن يكون - يتمتع بلذائذ الحياة وطيباتها فى حدود ، ولا ينزل إلى سفاسفها ودينيتها ، فهو على أى إنسان تام التعرف ينطبق عليه القول الشارح الذى وضعه له المناطقة ولذلك كانت له تتألم وتشعر ، وتخاف وتخشى ، تقدر الأمور وتزن الوقائع ، لا تنزل إلى درجة

(١) ولهذا الإجمال تفصيل فى حين مقدر .

الجماد ولا أقول الحيوان فالحيوان الأعجم له كل الأحاسيس وإن اختلف المقصود منها والداعى إليها ، فالأعجم يحن ويئن ، ويغضب ويفرح ، ويحزن ، وانظر إلى قطنك التي تعاشك ، إلى كلبك الذي يتبعك ، متى يهز ذيله ومتى يكشر عن أنيابه ، ومتى تموء هي مواء المستعطف ، ومتى تبرز مخالبيها ؟

عواطف وشعور يبدو ويلوح ، أنت قد تفصح بالكلام وهي تعبر بالحركة كالأبكم منك سواء بسواء ، فالجملة الشريفة « ما حاك في النفس » تعبر عن النفس الحيرة التي لم تمتها المعاصي ولم ترتد جماداً لا يحس . وهل من الممكن أن ترتد النفس الواعية جماداً ، سؤال تورده طفولة تفكير ويوحى به عدم تبصر . الجواب جد يسير : تعال إلى البلد الذي فتتك بروقه الخلافة تجد الجواب ، تجد نفوساً انقلبت لديها الحقائق تحت تأثير مذاهب وفلسفات ما لها من سند عقل مفكر ولا إنسانية عفة كريمة ، صارت تلك النفوس من صما صلاباً لا تحس ، ولا تدرك .. هذه النفوس لا تشعر فليست كاملة سليمة الفطرة فإذا ، لا يحوك الإثم إلا في النفوس القريبة من الخير إن زلت فستعود أوابة نادمة .

### (٣) وكرهت أن يطلع عليه الناس :

قال علماؤنا الأسبقون رحمهم الله واسعة معنى هذا : (العمل الذي تستحي منه ولا تحب أن يراه الناس منك ، وذلك أن النفس لها شعور من أصل الفطرة بما تحمد عاقبته وما يذم الإقدام عليه) وضربوا لذلك مثلاً بالسرقة والفحشاء .

قال صاحبي : هذا القول ميزان ومقياس ، السوى ما وافقه ، والانحراف في الانحراف عنه ، فالنفس الذي يحوك فيه الإثم والتي تكره أن يطلع عليها الناس متلبسة برذيلة هي النفس المتصفة بسلامة الفطرة مع قوة يقين باحترام المجتمع الذي تعيش فيه تلك خلة محمودة لا يخلو منها زمان ولا مكان ، لأن المعايير الإنسانية الأصيلة لا تختلف ، فأصول الرذائل معروفة ومتفق عليها أو الإجماع قريب من الاتفاق ، أما الجهل أو تعصب والرسول ﷺ يقصد النفوس التي تحمل أصول الخير ولم يطغ عليها عامل الشر فنعم الحديث ونعم ما جاء به ، ولا أجد ختاماً لهذا القول أفضل من

حديث مشابه في الموضوع فكلام سيد الخلق سيد الكلام عن وابصة ابن معبد رضى  
الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر ؟ قلت : نعم ، قال :  
استفت قلبك . البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في  
النفس وتردد في الصدر » . رواه الإمام أحمد والدرامى واسناده جيد .

نسأل الله جلّت قدرته أن يوفقنا لعمل البر وأن يمن علينا بحسن الخلق وأن  
يدخلنا برحمته فى عباده المخلصين الصالحين .

## بين القول والعمل

روى مسلم فى صحيحه عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال :  
 (سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى  
 النار فتدلق<sup>(١)</sup> أفتاب بطنه<sup>(٢)</sup> ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرخى ،  
 فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، مالك . ألم تكن تأمر  
 بالمعروف<sup>(٣)</sup> وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى . فقد كنت أمر  
 بالمعروف ولا آتية<sup>(٤)</sup> وأنهى عن المنكر وآتية<sup>(٥)</sup> » .

الدار الآخرة أمر لا ريب فيه ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ  
 ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾<sup>(٦)</sup> . والدنيا تحمل فى حوادثها دلائل فنائها ،  
 وبراھين زوالها . وقد أجمع العقلاء منذ القدم على أنه لا بد من حياة تتلو هذه الحياة .  
 فيها يجد المرء جزءاً ما قدم من خير ، وما اكتسب من أثم .. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ  
 خَيْرًا يَرَهُ<sup>(٧)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(٨)</sup> . وما أنكر ذلك إلا من كانت أفكاره فجأة ،  
 ومعلوماته بدائية ، ما رقت فى سلم المعرفة الحققة درجة واحدة . والقرآن الكريم يهزأ  
 من العقول المظلمة ويحكى لنا إنكارهم للحقيقة الناصعة ، فيقول الله سبحانه على  
 لسانهم : ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ<sup>(٩)</sup> إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَكُنَّا وَمَا نَحْسُنُ  
 بِمُبْعُوثِينَ﴾<sup>(١٠)</sup> .

(١) اندلق الشيء - خرج من مكانه ، والسبيل - اندفع ، والسيف - انسل بلا سل أو شق جفنه فخرج منه .. والمراد هنا أن أعماءه تخرج بسرعة .

(٢) الأفتاب : الأعماء وأحدهما قتب (بكسر القاف) ويطلق عليها على ما استدار من البطن .

(٣) المعروف : كل ما أمر الشارع باتباعه ورغب فيه ، والمنكر : كل ما نهى الشارع عنه وحذر منه .

(٤) أى لا أفعله .

(٥) أى أفعله .

(٦) الآية ٧ من سورة التغابن .

(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٨) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة المؤمنون .

والله سبحانه وتعالى هو الخبير بخلقه ، العالم بالجزئيات والتفصيلات ، وإذا وصف العلة فقد أوفى على القصد ، وإذا دل على الدواء فهو العليم الحكيم . جعل ذلك الرب البصير ، الحياة التي نحيهاها على ظهر البسيطة مجازاً ومسلكاً إلى الدار الباقية ، كما جعلها مزرعة ، ووكل إلى كل صنف من الناس نوعاً من المزروعات يقومون عليه ، ويعملون جاهدين على تنميته ، والمحافظة عليه وأخبر أن لكل عامل أجراً يقل وبيجل حسب العمل وكفاءة العامل ، واختار قومًا يتولون مراقبة التنفيذ لأوامره ، ومعهم موازين دقيقة يعرفون لها المجيد ذا الهمة الوثابة ، من المهمل المتكاسل المتواني ، وأمرهم بتوجيه الزراع على اختلافهم ، كما أمرهم بمراقبتهم .

هؤلاء الهداة هم الرسل والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، واتباع الرسل والأنبياء ، فالأولون يؤدون مهمة التأسيس ، مهمة البناء القادة ، واتباعهم المتلاحقون يتولون حراسة الفكرة ، ويتعهدونها حتى تنمو وتزدهر ، وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، فلو أن وارثي مجد الإسلام حافظوا على ما ورثوا ، وحفظوا وصايا قائدهم الأول ﷺ ، ونشروا راية الهداية خفاقة عالية على ربوع الكون وفي جميع أصقاعه لسما وعزوا ، وأراحوا العالم من حروبه المتلاحقة ، وبغضائه المستمر ، ولأناروا دياجيريه ، وأضاءوا حنادسه .

وكانى بالرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه كان يعرف ما سيصير إليه أمر المسلمين بعد أن يفتح الله عليهم الدنيا ، ويعد أن تفرغ الأرض كنوزها ، من إهمال وتقصير فى أمر الدعوة ، وإخماد الشعلة المضيئة فى أيديهم كأنه ﷺ كان يعرف ذلك ، فحذر عاقبته وأنذر خلفاءه على خلق الله بالعذاب الشديد والعقاب الأليم إن هم أهملوا أو توانوا ، وأوصى بمطابقة العمل للقول ، وموافقة فعل الناصح لنصحه ، ووضع أسس ذلك فى سيرته بين أصحابه المعاصرين له ، فقد كان يقول لهم دائماً : « اعملوا كما ترونى أعمل » . وأخذ ذلك عنه صحابته ، فكانوا يحاسبون أمراءهم وإذا رأوا منهم حيدة فى عملهم عن قولهم ولو ظاهراً ، حتى أن رجلاً فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : لا نسمع لك .. وقد وقف يخطبهم ، فقال عمر : لماذا لا تسمع ؟ فأجاب الرجل : لأنك ميزت نفسك عنا ولبست قميصين ، وقد أعطيت كل

واحد منا قميصاً واحداً مما أفاء الله عليك من الخراج فقال عمر رضوان الله عليه :  
قم يا عبد الله بن عمر ، فقام فسأله : لمن هذا القميص الذي أردتدي ؟ فأجابه عبد الله :  
هو لى يا أمير المؤمنين ، وقد سمحت لك بارتدائه لخروق أصابت قميصك . فقال عمر  
لصاحبه : أسمعت مقالة عبد الله ؟ قال : نعم .. الآن قل نسمع لك .

وفى احتكام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، واليهودى إلى القاضى شريح ،  
مثل أعلى لنزاهة الحاكم وقوة إيمانه بقوانين الدولة ، وشدة يقينه بمراقبة أحكم  
الحاكمين . فهو لا يخشى إلا الله ، ويخشى أن يقال له إذا جار : أين أنت يا شريح  
من قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ  
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾<sup>(١)</sup> .

مضى هؤلاء وخلف من بعدهم حلف انفصل سلوكهم عن عملهم ، وقولهم عن  
فعلهم فهم كالمريض بعلّة خاصة يصف دواها لمريض آخر بها ، ولا يداوى نفسه منها ،  
فغيره سينجو ، وهو سيهلك لا محالة ، هذا إن صدق الآخر قوله ، أما لو كذبه بشاهد من  
عمله فقد قضى على نفسه ، وعلى غيره ، فهو جان جنائيتين ، ومرتكب إثمين ، ولا عجب  
أن يجيء يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه ويطرح فى النار ، وتفعل به الأفاعيل ، ولا  
عجب أن يتساءل أهل النار ويسألونه عن سوء منقلبه وقبح مصيره ، وهون الداعى إلى  
الخير فى الدنيا والحث على الفضيلة فى الدار العاجلة ، وإذا عرف أهل النار علّة  
قدومه إليهم ووفوده عليهم ، ومشاركته لهم جحيمهم - وهو إهماله العمل بما علم -  
حينئذ يزول عجبهم ، وينقطع تساؤلهم - وينقضى استنثارهم لمآله وسوء منقلبه .

هذا . ونظرة فيما نحن فيه الآن من إحن ومحن ، وبلاء وعذاب ، وتقهر وتدهور ،  
مع كثرة المرشدين إلى طريق الإصلاح ، ووفرة الداعين إلى الرشاد - ترينا صدق ما  
كان يخافه الرسول على أمته من ترك العمل والاكتفاء بالقول ..

فما نراه ونشاهده من تأخر فى أحوال المسلمين خاصة والشرق عامة ، ناشئ من  
أنهم منوا بقوم يقولون ما لا يفعلون ، يرشدون إلى النافع ويتجنبونه ، ويهدون إلى  
الصالح ويتركونه كثر علمهم .

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .

وهذا - لاشك - يربى الأبناء أبناء الأمة الإسلامية على روح الاستهتار بما يسمعون ، ويجعلهم كلما رأوا ناصحاً أو سمعوا وعداً ولم يجدوا تنفيذاً ، قالوا : تلك شنشنة نعرفها من أخزم .. ورددوا قول القائل :

وغير ذى تقى يأمر الناس بالتقى      طيب يداوى والطبيب مريض  
وقالوا مع أبى العتاهية :

وصفت التقى كأنك ذو تقى      وريح الخطايا من ثباتك تستطع  
وقد قلنا أن السابقين كانوا يحافظون على أن تكون أفعالهم طبق أقوالهم ، ويرون فى مخالفة ذلك الفساد الظاهر ، والخطر الداهم على كيان الأمة ، حلقياً واجتماعياً وعمرائياً .  
فأما خلقياً فبانتشار الكذب بين الناس ، وتعودهم على النفاق ومخالفة ما يفعلون لما يقولون ، وهذا يؤدى بالمجتمع العام ، حيث لا يثق شخص بآخر ، بل ويستريب فى كل حديثه ، ولا يصدق مقالته أبداً ، وبذلك تتعطل مصالح العباد ، ويعم الفساد .  
من أجل ذلك شدد رسول الله ﷺ النكير غاية التشديد على الذين تخالف أفعالهم أقوالهم ، وأوعدهم بعذاب الله لهم فى الدار الآخرة فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » . وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة أسرى بى مرت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ » .

فاللهم اجعلنا ممن إذا قالوا فعلوا ، وإذا عملوا عملوا ، وإذا سمعوا القول أتبعوا أحسنه ، وألق اللهم الهداية فى قلوب ولاة أمة الإسلامية ، وحب العمل لما يرفع عن المسلمين أصرهم ، ويزيل إحنتهم ويلاءهم ، ويوائم بين مختلف طبقاتهم وهياتهم ، فقد قلت وقولك الحق : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (١) .

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

## استقبال الوفود

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ان عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال : من القوم ؟ أو من الوفد ؟ قالوا : من ربيعة . قال : مرحباً بالقوم أو بالوفد ؟ غير خزاياً ولا ندامى ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى الشهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة ، وسالوه عن الأشربة ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال : أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس ، ونهاهم عن أربع : الحنتم والدباء والنقير والمزفت وربما قال المقير . وقال : « احفظوهن وأخبروا بهن من كان من ورائكم » .

رواه البخارى ومسلم وغيرهما

١- فى شهر ربيع الأول ، ولد سيد الخلق سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وكان من أمره الشريف فى طفولته وشرخ شبابه وكهولته ثم فى شيخوخته ما حفلت به ووعته كتب السيرة المطهرة ، وكتب التاريخ العام وما تناوله بالبحث والدرس علماء الدنيا منذ أن ظهر على مسرح الحياة نبياً ورسولاً إلى يومنا هذا ، وكان منهم المخلصون الباحثون عن الحقيقة رغبة فى اقتناع ، وكان من بينهم المغرضون الذين انطوا على الحقد والضغينة لكل ما هو عربى إسلامى يحاولون - غباوة وجهلاً - إنكار شمس الضحى فى يوم صحو ، أو إخفاء بدر السلام فى ليلة صائفة .. وليس هذا مجال بحثى فى هذا الدرس ، ولا أعدل عنه لأنه غير ذى بال وإنما اتجه فى هذا الموضوع إلى الواقعية البحتة والتفاعل بالظروف التى أعيشها الآن بعيداً عن الأرض التى نشأ فيها سيدى رسول الله ، فقد كدت أصل إلى حقيقة واقعة هى فشل غزو الشعوب حريباً ...

.. والعمل الجدى يبعد عن ميدان الحروب ليلتقى بعلويات فكرية سامية ويحمل

الأجيال - ولا سيما جيل المسلمين المعاصر . أحمالاً ثقلاً لا يستطيع الفكاك منها ولا الفرار من نباتها حاكم او محكوم .. وإن كانت فى حاجة لعقول واعية فاقهه ذات إمام كامل بالعقيدة الصافية الصادرة رأساً من منبعها الطاهر من توجيه سيدى رسول الله ﷺ التوجيه المباشر الذى لم تلونه أقلام ولم تنحرف به أفكاراً ولم تسيطر عليه أنانية آنية مع حصافة وكياسة وتؤدة وصبر وقوة إرادته وعزم وحكمة حكيمة وجلد تام وتحمل المتاعب الطريق ووعثائها .. تبعد عن الإسفاف والابتذال .. تقدر للكلمة قيمتها وتتبصر ما تأتى وما تذر .. لا تستعجل الجنى ، وإنما تلقى البذور فى الأرض الصالحة وتتعهدها بالرى والسقى فى حذر ويقظة وتنتهج دائماً الطريق الذى سار فيه سيدى رسول الله إن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾<sup>(١)</sup> ... تتتابع وفود الغرب والشرق إلى أوطاننا الإسلامية ولا يمكن أن نقطع لأن أوديتنا مغربة بالاستطلاع .. استطلاع واجتلاء الحديث .. وما مضى طوته الأيام وأصبح ذكريات .. والمنشور هو الحاضر .. والمظهر الحضارى فى بلادنا لا يقل عنه فى أى بلد آخر بأسباب التطور المعاصرة .. واللباب شىء آخر ، خواء أو قريباً منه .. فراغ يطلب إعماراً على نسق يروك فى أى بقعة من المعمورة ما دمت تجد المال وتستطيع تمويل المشروع .. ولكن هيهات أن يستطيع المال وحده تحويل فكر أو إيضاح عقلية ... وإنما مع مرور الأيام ذلك يكون .. وتلك سنة الله ولن تجد لسنة تحويلاً .. ومن سار على الدرب وصل .

استمعت منذ أيام إلى حديث عائد من بقعة من بقاعنا<sup>(٢)</sup> بعد أن ألتقى بالعديد هنا من الناشئة ومن هم فى دور المراهقة العلمية .. وجلس هذا الزائر الكريم يعقب على زيارته من وجهة نظر العالم الاجتماعى المؤرخ مبدئياً أنه ألتقى بقصور ودور ولم يفز من رحلته إلا بلقاء فريد مع شخصية عاقلة معقولة ، أننى على ذكائها ووعيها النادر فى تلك المنطقة وسعة إطلاعها على مجريات العالم المعاصر وإلمامها بواقع الحياة العامة إلماماً بعيد الغور ، وهى شخصية قيادية فى وطنها ، وحقيقة واقعة لا خيال ولا

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) كنت يومئذ فى رحلة عملية فى أوروبا .

احلام ، يردد فيلسوف اختصاصه هذا في كل مجالسه مع تلامذته وخاصة خالصه .. وهو لا ينسى الآخرين في ذلك البلد إنما يضعهم في أول المسيرة الواعية يقول : أنهم بدأوا يضعون أقدامهم على أول الدرج ولعلمهم -إن ثابروا- واصلون يوماً ما . وإني أخالف الزائر المفضل في الأرقام فقد لمست عن كذب ورأيت تلك الشخصية مكررة في المجتمع بصورة تذهل العالم لو أنه ألتقى بمن بهم ألتقيت .. وقد ذكرت له هذا فاندحش وقلت : إن المسألة مسألة واقع بالنسبة لقولى وليست مجرد دعاية فالأسماء معروفة والمسميات على قيد الحياة ولكننا نطلب المزيد مع التركيز والاختصاص .. ثم أولاً .. الإخلاص للحقيقة من حيث هي .

(٢) زمن الغزو بالسلاح ، أعتقد أنه قد ولي الأدبار .. والمسألة قيد فكر وتدبر ، وقد فطنت لذلك دول انسابت إلى أوطان ما كانت تحلم بالوصول إليها ، اقتحمتها عن رضا أصحابها بل في غيبوبة عقول أربابها .. بل فى ساعة عاطفية ولحظة ثورية عصبية .. والمسلمون نائمون .. مع أن ما رسمه رسول الله ﷺ هو ما ترسمه الصديق الألد .. فرسول الله عليه أفضل وأزكى السلام يلتقى بالوفود يعلمهم ويملاً فراغ عقولهم ويطلب إليهم وعى ما يقول وتبليغه إلى من وراءهم فرب مبلغ أوعى من سامع .. وفى هذا الحديث الشريف بيدو الخلق العظيم -الذى شاد به القرآن الكريم- فى بدء اللقاء حين يتندهم الحبيب المصطفى .. من القوم ؟ مرحباً بالقوم .. غير حزائياً ولا ندمى .. فتفتح قلوبهم على هذا الأرج العطر ربح النبوة الطاهرة .. وينفضون إلى الحبيب جملة حالهم راغبين فى الفوز بالتوجيه الكريم الذى يبيده لهم والذى يرتفع بهم عن مستوى السوائم إلى مصاف الإنسانية الحقة التى اختارها ربها لعمارة الكون فى عدل .. وتبصر .. ولنجلس إلى رسول الله ﷺ لحظات ونسعد فيها بالتعرف على الوفد الذى سعد بلقائه ، ناهلين من نبع النبوة الشريفة كأساً صافية لا غول فيها ولا تأثيم لنا حوالك أيامناً وتهدينا إلى حاضر ومستقبل قيادى على ضوء هداها وسيراً فى أثرها ..

### وفد عبد القيس :

الوفد الجماعة قلت أو كثرت تختار من القبيلة لتقابل عظيمًا أو تطالب بحق

مفصحة عن رأى من تمثلهم ناطقة بلسان حالهم<sup>(١)</sup> وعبد القيس هو أبو قبيلة ينتهى نسبها إلى ربيعة بن نزار - ويذكر مقيد وحوادث التاريخ فى سبب وفودهم على سيدى رسول الله ﷺ أن تاجرًا منهم كان يرتاد أسواق المدينة المنورة التقى بالمصطفى فاسلم وحمل رسالة مكتوبة منه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام<sup>(٢)</sup> فلما تلاها على قبيلته استجاب شيوخها وشرح الله صدورهم للإسلام وأجمعوا امرهم على السير إلى المدينة المنورة ، فلما دنوا منها قال رسول الله ﷺ لصحابته : « أتاكم وفد عبد القيس خير أهل المشرق فيهم الأشج ، غير ناكثين ، ولا مبدلين ، ولا مرتابين » ، ولما وصلوا إلى مجلس الرسول الكريم تقدم الأشج وكان قصيرًا دميماً . فسلم على رسول الله ، وقال : (يا رسول الله إنما يحتاج الرجل إلى أصغريه قلبه ولسانه) . وكانه يعتذر عن قماءته ودمايته ، فأجابه سيد الخلق : « إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة .. » فرد الأشج قائلاً : (الحمد لله الذى جلبنى على خلتين يحبهما الله ورسوله) .

(قالوا : من ربيعة) .. ولم يقولوا من عبد القيس لأن عبد القيس من أولاد ربيعة يعنون أنهم حى من ربيعة<sup>(٣)</sup> .. (مرحبًا بالقوم) أى صادفتهم رحبًا<sup>(٤)</sup> أى سعة وهو لفظ تستعمله العرب تأنيسًا للقادم الغريب أى لا تستوحش (غير خزيًا ولا ندمى) قال شراح الحديث من العلماء السابقين رحمهم الله : « .. معناه .. إنكم لم تتأخروا عن الدخول فى الإسلام ولم تقعوا أسرى حرب ، فلم يصيبكم ما تستحون منه أو تذلون بسببه أو تندمون على وقوعه » .. وكانوا لا يستطيعون الوصول إلى المدينة المنورة إلا فى الأشهر الحرم تفادياً لقتال القبائل الواقعة على طريقهم ولا سيما كفار مضر ،

(١) فى المصباح المنير : وقد علم القوم من باب (تعب) فهو واقد والجمع وفد ووفاد ، مثل صحب وصحاب .

(٢) أملاها الرسول الكريم على من كتبها من صحابته رضى الله عنهم جميعًا ، ولم يثبت تاريخيًا اسم الكاتب .

(٣) الحى : اسم لمنزل القبيلة (لغة) لأن بعضهم يحيا ببعض كناية عن التعاون المتبادل .

(٤) فى المختار (الرحب) بضم الراء المهمله : السعة ، ومنه فلان رحب الصدر .. (ويفتح الراء) الواسع .. وقولهم مرحبًا وأهلًا : أى أتيت سعة وصادفت أهلًا (ذوى قرابة) فلا تبتس .

ومعلوم ان العرب كانت توقف القتال فى تلك الأشهر (رجب الفرد ، وذى القعدة ، وذى الحجة ، ومحرم) .. (فمرنا بأمر فصل) بسكون الصاد المهملة أى قاطع واضح مبيّنًا بيّانًا كاملاً لا لبس فيه ولا غموض للأمور الواجبة علينا حيال الإسلام حتى لا تقع فى مخالفة تجرنا إلى عقاب (نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة) .. فى هذا المقطع من الحديث الشريف شيان مهمان :

أحدهما : أن السفارة قديمة معروفة وأن مبعوث القوم يجب أن يكون ممثلاً صادقاً باحثاً بكل قوة عما يفيد قومه دون توان أو خجل أو تواكل مؤدياً لنيابته عنهم مقدار لها أميناً شريفاً جديراً بالثقة التى وضعت فيه .. كما تعطى أن هؤلاء القوم من ربيعة كانوا حريصين على الإسلام أشد الحرص مؤمنين به أقوى الإيمان واثقين بما عند الله آمليين فيه .

وثانيهما : ثمرة الإيمان التى وضحت فى التصديق الكامل بما أخبرته به رسول الله ﷺ ، فقد آمنوا بما غاب عنهم وبما لم يقع تحت حواسهم .. آمنوا بالجنة والنار والدار الآخرة .. وتلك علة العلل فى كفر الكافرين المعاصرين فى نهاية القرن العشرين الميلادى .. حمل الأولين على الإيمان ثقتهم التى لا حدود لها بالمرسل الكريم .. وحمل الآخريين على الكفر شكهم فى كل شىء حتى فى أنفسهم وتصديقهم دائماً بما يقع تحت حواسهم ولا زيادة ، وتلك غيبة فكر وضياع عقل .. وأردد دائماً للمنكرين قول الله تبارك وتعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup> الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ<sup>(١)</sup> أمران عجيبان بعيدان عن تناول المعمل والمصنع .. لا جواب .. عند الكافرين إلا الهروب من ميدان المعركة العقلية بألفاظ جوفاء لا معنى ولا مدلول لها .. خرافة يسمونها فلسفة ولله فى عقول عباده شؤون .

كما يؤخذ من هذا المقطع فى الحديث الشريف كما قال سادتنا السابقون من العلماء العاملين أجزل الله مثوبتهم فى الجنة : (فيه دليل على أن السائل يبدأ بالأهم

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الملك .

ثم المهم .. وعلى أن الأعمال الصالح موصلة إلى الجنة إذا قبلت ، وأن قبولها يقع برحمة الله تعالى ولطفه بعباده) .. (وسألوه عن الأشربة) ظاهر القول يعطى سؤالهم عن حلها أو حرمتها شرعاً . وأجاب سيدى رسول الله ﷺ .. أمراً إياهم بالإيمان بالله وحده ثم فسره لهم بعد توقعهم عن الإجابة عن معناه مفوضين الأمر لله ولرسوله .. قال الحبيب المصطفى : الإيمان بالله وحده ، وشهادة أن لا إله إلا الله .. وهذا يعنى التوجه الكامل إلى الله وحده بالعبادة فى حدود ما شرع ، ثم الإيمان برسالة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وبدون هذا لا يتم إيمان .. وللصلاة قدر معروف وموضح فى كتاب رب العالمين وهدى سيد المرسلين .. ثم تخرج الوصايا حائفة على ترابط المجتمع وبث روح التعاون فيه بالبذل من المال ، بذل حق الله تبارك وتعالى فى أموال الموسرين .. وإن ما يغنم فى الحرب يوزع حسب ما ورد فى التنزيل الكريم فى سورة الأنفال ولا رأى مع النص .. ثم الصيام صيام شهر رمضان تهذيباً للنفوس وتمريئاً على التجاوب مع الشرع رعاية لحق الله .. ولئن كان بذل المال فريضة حتمية فى كل زمان ، ولئن كان الصوم جهاداً بدنياً واجتماعياً .. فهذا البذل وذلك الجهد الزم فى أيامنا هذه فقد فتحت أبواب الجنة للراغبين وما أبواب الجنة إلا الجهاد .. وجهاد المناضلين عن الوطن السليب .. فعلى كل مسلم ومسلمة بذل العون لهم بالنفس والمال ، ولا عذر لمقصر وفى ذلك فليتنافس المتنافسون المؤمنون بالله ، وبحق الأوطان ، وبالكرامة الإنسانية بالعمل القوى المنتج نصراً وفوراً .

(ونهاهم عليه الصلاة والسلام ...) أى نهى الوفد عن أشياء يضر فعلها ولا ينفع ، ويضع ولا يرفع ويؤخر ولا يقدم ، وفى الحلال ما يغنى عنها ويزيد .. نهاهم عن الأشربة التى تذهب العقل وتهدم القوة البدنية والروحية .. وتفشى الأسرار .. وتولج فى الجدال والنفار .. وتولد الضغائن .. إلى آخر ما هناك من شرور صحية واجتماعية يعرفها السادة الأطباء والاجتماعيون وطالما نشروا حديثهما وأفشوا أمرها .. والنهى الوارد فى حديث رسول الله ﷺ عن : الحنتم والدباء والنقيير والمزفت .. يقال له فى بلاغة العرب هو من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه فالمذكورات فى الحديث

الشريف هي الأواني وليست هي أنواع الشراب<sup>(١)</sup> وخص هذه الأنواع بالذكر مع وجود غيرها لأن ما ينبذ فيها يسرع إليه التغير والاسكار .

(٣) وأخيراً يجب على المسلمين أن يهيئوا من بينهم من يختارون من الشباب الفاقه لدينه واقع بلاده لدراسة لغات الغرب دراسة كاملة ، وغشيان تلك المجتمعات وتفهم ما يجرى فيها عن كذب .. ثم يؤدون رسالة الله فى أناة وحلم .. ولقد عانى الناس كثيراً فى هذه الأوطان من المذاهب والآراء حتى عافوها وبدأوا يبحثون عن غيرها .. وما غيرها إلا دعوة الحق سبحانه وثمة شىء آخر ذلك هو رعاية الوفود التى تصل إلى ديارنا باحثة عن جديد فى أوطاننا .. يهتما أن تعرف أخرق الشرق ودين الشرق ووحى السماء فى صورة نقيه واضحة .ز حتى يعودوا إلى أوطانهم بأجمل ما عرفوا من التعاليم الإلهية السامية .. والناس لا يحترمون الكلام إلا إذا كان له واقع عملى ، ومطبق فى المجتمعات التى تتحدث به .. فالقدوة العلمية هى كل شىء وعسى ان يعطل مواطنونا فى الديار الإسلامية الصورة الواضحة النقيه لتعاليم الإسلام وأخلاقه وأهدافه .. والتعاون الحق لا يكون إلا بالاتفاق فى الفكرة والهدف .. ولا ينقصنا الموجهون وإنما ينقصنا الذين يفعلون ما يقولون .. وقد ضرب رسول الله ﷺ الأمثال لكل مجال .. فها هو ذا يستدعى الوفود ويستقبلها فيرشدها ويوجهها ويحملها الدعوة إلى أوطانهم وأبناء عشيرتها ورب مبلغ (بفتح اللام المشددة) أوعى من سامع .. ولقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ..

---

(١) الختم : قال بعض صحابة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام .. هى جرار يؤتى بها من مضر .. أى الفخار الأخضر ، والدباء : هو القرع .. وذكر النووى فى شرح صحيح الإمام مسلم : اليابس منه .. والمراد أو أن تتخذ منه ن والتقىير : فى المصباح المنير -خشب تنقر وينبذ فيها .. وفى مختار الصحاح : أصل خشبة (أى جذع الشجرة) ينقر وينبذ فيه . والمزفت : المطلى بالزفت .

## الاختبار الإلهي

عن أسامة بن زيد<sup>(١)</sup> رضى الله عنهما قال : أرسلت ابنة<sup>(٢)</sup> النبي ﷺ إليه ، أن أبنا لي قد قبض<sup>(٣)</sup> فأرسل يقرئ السلام ويقول : إن الله له ما أخذ وله ما أعطى ، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب<sup>(٤)</sup> فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ، فقام ومعه سعد بن عبادة ، ومعاذ ابن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورجال<sup>(٥)</sup> فرفع إلي<sup>(٦)</sup> رسول الله ﷺ الصبى ونفسه تتقعق<sup>(٧)</sup> قال<sup>(٨)</sup> ، حسبت أنه قال ، كأنهما شن<sup>(٩)</sup> ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله : ما هذا؟<sup>(١٠)</sup> ، قال : هذه الرحمة<sup>(١١)</sup> جعلها الله في قلوب عباده ، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء<sup>(١٢)</sup> .  
(رواه البخارى)<sup>(١٣)</sup>

- (١) هو الحب ابن الحب (هكذا كان يدعو رسول الله ﷺ) أى المحبوب ابن المحبوب للنبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .
- (٢) اختلف الرواة فى تعيين أسمها رضى الله عنهن جميعاً .
- (٣) قد قبض : أى فى حالة مفارقة روحه للجسد وتسمى (حالة النزاع) ولها علامات ودلائل يدركها بعض الناس ممن سيروها ، وإن كانت تلك العلامات غير قطعية دائماً ، ولم يكن الصبى قد فارق الحياة فعلاً بدليل أنه جاد بنفسه بين يدي المصطفى ﷺ .
- (٤) ولتحتسب : أى تطلب ثواب صبرها من الله تعالى على مفارقة ولدها ، وهذا يجعل فى ميزان عملها الصالح يوم القيامة :
- (٥) رجال : لم يسميهم الراوى ، اكتفاء بمن ذكروا متناً للتطويل ، أو لم يعرف أسماءهم جميعاً فكتفى بمن عرف .
- (٦) فرفع إليه : وفى رواية أنه وضع فى حجره الشريف .
- (٧) تتقعق : تتحرك وتضطرب ، وهى حشجة الموت .
- (٨) قال : أى الراوى عن زيد ، حسبت أنه قال أى أسامة .
- (٩) كأنها شن : الشن يطلق عند العرب على القرية الخلقة (القديمة) اليابسة ، يحركها الريح أو محرك فتحدث صوتاً معروفاً ومن أمثالهم المعروفة (ما هذه القعقة بالشنان ، وما هذه الوعوعة باللسان) وتتخذ القرب من جلود بعض الحيوانات .
- (١٠) ما هذا : يشير إلى ما رآه من الدمع يتترقق فى عيني رسول الله ﷺ وقد فاضت بالدمع عيناه الشريفتان .
- (١١) هذه الرحمة : أى أن ما تراه أثر من آثار الرحمة وهى الرقة والقلب الحانى العطوف لا المعترض على قضاء الله وقدره .
- (١٢) الرحماء : وفى رواية أخرى الراحمون يرحمهم الله ، والراحمون من فيهم أصل الرحمة ، لأن المساواة والفظاظة والغلظة صفات لا يحيها الله تبارك وتعالى .
- (١٣) رواه البخارى فى باب (تعذيب الميت ببكاء أهله) .

(١) الحياة الدنيا ممر ، والدار الآخرة مقر ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ﴾<sup>(١)</sup> ،

والأيام تمضى بنا سراعاً إلى نهاية محتومة ، وكل راحل غير مقيم ، وسار إلى لحدّه طال به الزمن أو قصر ، وهذا من البدايات التي لا تحتاج إلى طول بحث واستقصاء وقد تكلم العلماء كثيراً عن الموت ، لن من الناس من أهميتهم الحياة الدنيا فاخذوا يعملون لها عمل الخالدين ، ويستمسكون بها كأنهم لن يفارقوها ، ومثل هؤلاء تصدر عنهم فعالة شائنة يريد لها وجه الإنسانية ، تراهم يتكالبون على المتاع الزائل ، ويدخلون إليه من كل باب ، ولا يضيرهم أخالفوا قوانين الأخلاق أو وافقوها ، كما لا يهتمون بإجابة داعي الله أو مجاهرته وبصادقون ، ويتفقون ويختلفون حسب هواهم ومقتضى منعتهم العاجلة ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، فلا مقال لنا معهم ولا حديث . وإنما هو الشرح والتوضيح (إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) .

(٢) مرت بالشرق عصور أسى فيها فهم دعوة الدين - والدين عند الله الإسلام -

إلى الإيمان بالآخرة ، فتواكلوا ، وتوانوا ، وتخاذلوا حتى وهنوا وضعفوا وتلاشوا أو كادوا واغتنم الفرصة السانحة غير هم فوثب عليهم فى غفلة منهم ، واستولى على مقدراتهم ، بأساليب وطرائق قدداً ، ولو انهم أدركوا الحقيقة - لا أقول المستترة - وإنما الواضحة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهى أن الإيمان بما عند الله يستوجب الاهتمام بالعمل الدائب فى الأيام القصيرة التى يقضيها المرء على ظهر البسيطة ، فيجب أن يفنى فى الله ، ومعنى الفناء فى الله أن يؤمن بقضائه وقدره خيره وشره حلوه ومره ويعمل جاهداً آناء الليل وأطراف النهار لخير الإنسانية فيبحث ويدقق ويكشف ويبدى ويعيد حتى يصل إلى بعض أسرار الكون الخافية ويجاهد وإن لاقى فى الجهاد عنتاً وألماً وشدّة ، فكل عمل يقوم به نقيراً أو قظميراً ، أو يضع لبنة فى بناء إنسانية فاضلة يحتسب له عند الله ولا يضيع سدى أبداً (إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً) .

والمؤمن بالآخرة حقاً وبلقاء ربه صدقاً لا ينى ولا يتكاسل ولا يتقاعس عن خير أبداً ، ويجعل حياته الدنيا كفاحاً متواصلأ وعملاً جاداً وسعيأ حثيثأ للوصول

(١) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

بالإنسانية إلى أسمى ما تصبو إليه من الماديات والمعنويات فأولئك الكاشفون لأسرار الكون لهم عند الله أجر عظيم ، ولا مثل عندى ولا أسوة اعظم من المثل العليا التى رسم طريقها لنا أولوا العزم من الرسل . فهم الصفوة والقُدوة للإنسانية التى يعز وجودها . سلخوا كل دروب العمل فى ضنى وألم وشدة ومشقة ولين حيناً وعنف أخرى . ليقودوا الناس قيادة حسنة صحيحة منظمة منتجة فعالة ، بتوجيه من العلى الكبير العزيز الحكيم ، يرجون ما عند الله واليوم الآخر ، ولا تنسى عقلاء البشرية والصفوة بعد الرسل ممن سلخوا طريقهم وانتهجوا نهجهم .

(٣) ويخطئ من يظن أن دعوة السماء دعوة اتكالية حين ترد عبارات متشابهة مشكلة لا يرقى إلى حلها العقل القاصر الحادث المخلوق ، ولا هى دعوة متناهية بزمان أو مكان ، وإنما هى دائماً مستمرة وحامل المشعل جاد السير ، وحادى العيس لا يتوقف بابله فى صحراء الوجود ، ولا يتوانى حتى يدركه الظمأ ، ويلاحقه فناء القوت ، وإنما يسير حثيثاً مهما لاقى من زاويع الصحراء ، وثورة رمالها وضياح معالم طريقة فيها ، والعامل يردد دائماً : مادمت فانيأ رحيلى فى أكمل صورة وأقوى مسيرة ، ولهذا عاب رسول الله ﷺ الذين يحاولون ترك الحياة لغيرهم جنباً وضعفاً ، ويبين ما أعد الله لهم من السعير والنكال يوم القيامة .

هذا عالم يقضى ليله باحثاً دارساً فاحصاً فى الوجود حوله حتى يخرج على الملاء بأسرار من عجائب الكون مما أكنه الله فيه ، هل يستوى هو ومن يؤثر الراحة والدعة ، ومن ينام ملء جفنيه غير مبال ولا عابى إلا بمعدة امتلات أو خوت ، وشهوة ظمئت أو ارتوت ، هل يستوى من يقضى على الآلام الحسية والمعنوية بالدلالة على أدوائها الناجمة وعلاجها الحاسم مع غر جاهل غفل لا يدرك ما يدور حوله ، مدعيًا أنه مادام فانيأ فلا حاجة إلى مقاساه البحث عن حلول المشاكل وطول العناء فى معالجتها .

الفاقه لدعوة السماء فقها حقيقياً يجب ولا ينسى ، لا يهن ولا يلين ، لا تزيده الشدة إلا صبراً وجلداً ، يصقله الابتلاء صقلاً عجيباً ، والرمح لا يستقيم إلا بالنار .

والزاعبية لا يقيم كعوبها      إلا الثقاف وجذوة تتوقد

فكلما ضاق الأمر اتساع ، وقديماً قيل (اشتدى أزمة تنفرجى) ، وكيف يميز الناس الخبيث من الطيب إلا بالكوارث والنوازل ، لا يطير لهولها لب الحليم ، وإنما يصمد الصنديد المؤمن الجاد المثابر ، تزيده الخطوب قوة على قوة ، والمشاهد فى العوامل الطبيعية والمظاهر الكونية البدائية أن الغبار يثور ويتطاير لأنه خفيف ضعيف لا يستطيع الصمود لكر الريح الرخاء بله الصرصر العاتية .

كريشة فى مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

بينما الجبال الرواسى لا تنال منها العواصف ولا القواصف .

(٤) لم أذهب بعيداً عن معنى الحديث الشريف ، فالحديث فى جملته يدعو إلى الصبر عند الشدة والتسليم لله ، وليس معنى التسليم الاستسلام ، وإنما الصمود والسعى إلى جولة جديدة جديد والباحث فى معمله أو مختبره كلما تعقدت لديه بعض المواد أضاف إليها جديدة أو خالف بينها حتى يصل منها إلى ما يريد ، وقد لا يصل فيجئ سائر على دربه فيصب ، وهكذا الرقى فى مدارج الإنسانية الكاملة ، وأحياناً تضعف المواد موضع الدرس فتلين طبيعتها أمام تصميم العالم المثابر ، فتبدى له من أسرارها ما لم يكن فى حسبانته ، وهذا ما كان مع كثير من العلماء المكتشفين ، بحثوا عن شىء يهدفون إليه رأساً ، فأنكشف القناع لهم عن ما هو أهم وأجدى على الإنسانية .

ولو أن من مات له ولد أو فارقه حبيب ، مات غمًا وفنى كمدًا لأضاع الموجود فى غير طائل وأهمل ما يستحق الاهتمام فى غير نتيجة ، ولو أن الأم قضت مع وليدها لهلك من بقى لها من ولد ، ولكن لو صبرت واحتسبت لأدرت أن من مضى مضى ولن يعود ، وأن من بقى بقى إلى أجل لن يطول مهما طال ، وكل بقضاء الله وتقديره .

(٥) نخلص من كل هذا إلى أن المصائب من أعظم دروس الحياة اختباراً للرجال ، فالقوى المؤمن لا يطيح عقله لنازلة ولا تهن قوته لحادثة لأن الحياة أخذ وإعطاء ، وكفاح ونضال (ولله ما أخذ وله ما أعطى) وتلك اختبارات يفوز فيها المتماسك الجلد الصبور . ويرسب الخور الضعيف الواهن ، وما من مشكلة إلا ولها حل ، ولا معضلة إلا ولها من يزيلها . ولو أن ربح الدنيا جرت رخاء دائماً . ما نما

زرع ولا أثمر شجر ولا تفوق إنسان ، ولتساوت الأقدار ، أقدار الرجال ولما عرف القاعد من المجاهد .

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

والتاريخ يحدث ولا أحب إلى من تاريخ رسول الله ﷺ ، يحدث تاريخه الشريف أنه كان كلما اشتد عليه أمر صمد ويحث في المأزق عن مخرج مستعيناً بربه متوكلاً عليه ، حتى أرسى قواعد الخير ووضع أسس حضارة أنارت الدنيا وأنتجت حضارات يقف أمامها العلماء العقلاء مشدوهين . يأخذهم العجب لرجل لم يدرس كما درسوا ولم يسلك مسالكهم التي سلكوا ، ولكن كان فذاً لا مثيل له ولا ضريب فى أبناء آدم جميعاً ولا عجب فقد علمه الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

(٦) بعد هذا : نجد فى الحديث الشريف أشياء وأشياء ، بنت رسول الله ﷺ تلوذ به عند الشدة ولا شدة عند الأم كفقد وليدها وفلذة كبدها ، ونرى رسول الله يسلم الأمر لله ويدعوها للصبر والاحتساب ، ولكنها لا ترضى إلا أن يحضر إليها أبوها رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ويرقسمها ويدخل عليها ومعه صفوة أصحابه رضى الله عنهم جميعاً فترفع إليه وليدها وهو يجود بنفسه فى لحظة قاسية عند الأم يتأهب فيها ولدها لمفارقة دار الفناء إلى دار البقاء وصوت نفسه تتقعقع كأنها تقول للحياة الدنيا وداعاً كريماً ، وتقول الآخرة مرحى مرحى ولقاء طيباً مباركاً ، وينظر رسول الله ﷺ إلى الأم وإلى الوليد فتفيض عيناه الشريفتان بالدمع ، دموع الرقة والرحمة والعطف والحنان ، وبشاهد ذلك صحابى جليل مؤمن لكنه مدرك لظاهر من القول وهو عن الخافى غافل ، يدرك نهى رسول الله الكريم عن البكاء إدراكاً فجاً بدائياً لا إدراك الواعى المستنير ، فيقول : بكى رسول الله وقد نهى عن البكاء ، ويجى الجواب ، ليس هذا بكاء من يشق الجيوب ويلطم الخدود ويدعو بدعوى الجاهلية ، وإنما هى الرحمة وتلك كلمة مدلولها خاف غاية الخفاء ، وإن كان بادياً واضحاً للنفوس الكريمة الطيبة الطاهرة الزكية المتصلة بالرحمن الرحيم سبحانه ، يخرج الجميع إلى حيث يهال التراب على أحب الناس إلى أحب الناس إلى الله تعالى ، ويخلص الباحث الواعى من هذا الدرس بنتائج طيبة تخم الإنسانية ،

وتتير لها دروب الحياة المعتمدة القاسية ، يخلص إلى أن الحياة الدنيا حافلة  
بالاختبارات الإلهية ، وأن عدة النجاح فيها الثبر وهو صبر ما جور عليه وإذا احتسب  
عند الله زادت آثاره الطيبة في الدنيا والآخرة ، ويدرك أن المصائب مهما اشتدت فلا  
تلين لها قناة المؤمن بالله ولا تهتز أمام بلوائها عوده ، وإنما يجابها بصدر رحب  
ورأس عالية وفكر ثاقب ، ويبحث في الخلاص منها والغلب عليها ، وبهذا ينشأ جيل  
مكافح مناضل لا تزيد الرزايا إلا قوة ، ولا تمنحه البلياء إلا أيداً وعنقاً في  
مواجهتها ، والعود لا يظهر طيبه إلا بالنار المحرقة ، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا  
يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾<sup>(١)</sup> صدق الله العظيم .

---

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

## دع اليأس

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

« ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية . » .

متفق عليه

(١) دبت الشيخوخة فى أوصاله ، وخط الشيب فوديه ، وألجأه طول السير إلى عصا عجرا ، يحاول أن يصل إلى نهاية المطاف كى يستريح من وعشاء السفر ، وينفض عن كاهله ما لاقى من متناقضات ، وقد ضعف بصره ، وذبلت أطرافه ، واحتاج سمعه إلى ترجمان . ويمشى وئيداً ينوء بحمله ، ويعبى من كرياتة ، فكم شاهد من اضطرابات ولاقى من ثورات ، وعانى من فتن فى كل مكان ، ملت إليه أسائله عن الحق المضاع ، والقطعان الضالة والذئاب الجائعة ، فلم نحر جواباً ، وراح فى سبات عميق ، وتفكير ولا تألنى فالتركة مثقلة ، ولا أدرى لما ألم بى من دواء سوى الهروب الأبدى ، وللحوق بعالم محجوب ، لعلى أحظى هناك بما فقدته هنا من هدوء النفس وراحة الجسد ، ولكن هيهات هيهات .. ففى الغرب فتن وقلقل ، وفى الشرق عدوان ووحشية ، وقد يكون فى اختفاء العجوز المتهالك خير لبقعة ما من الأرض ، فها هو ذا يرحل معى إلى غير عولاة ليحتل مكانه فى نسمات خلفى الجديد ، خلف جديد .. وبدأ الصوت يبتعد ويتلاشى شيئاً فشيئاً مع ضجيج المدينة ثم يتبدد فى أعقاب ليلة فاصلة بين عامين ، وطلع مع شقشقة العصافير شاب أملح وسيم ، يحاول أن يبتسم ولا يستطيع ، فقد فتح عينيه على براكين ثائرة ، وأشلاء متناثرة . وبشرية ممزقة وإنسانية ضالة ، ووحوش كلبة ، تغريها رائحة الشواء المنبعثة من الضحايا ، ضحايا الغدر والجشع المادى ، والختل والخيانة ، وتلوح على شفثيه حيناً ابتسامة باهتة تولد ميتة ، مبعثاً المترائى على بعد بين ثنايا غيوم متلبدة ، وحنايا ضلوع مهمشة ، وهو يلوح بيديه مودعاً سلفه الوداع الأخير ، ثم يتابع سيره على نفس الطريق الذى عبره سابقون منذ ملايين السنين ...

وهنا تركت المكان ولجأت إلى نفسي ، وبحشت في دخيلتها في ألم ممض ،  
وعناء لا يفارق ، عن بصيص من الأمل من النور ومن الرجاء ، وتوالت قوافل الأفكار  
مع سيول من ذكريات هي مزاج من حلو ومر ، من رجاء ويأس ، وألمح في واحد منها  
فتوة وقوة وحماساً وشدة مراس فيطغى على ما سواه ، ويبدو حقيقة قوية ثابتة ، ذلك هو  
العزم الفتى ، واللب المدرك ، وفي يمينه سلاح وأى سلاح .. أنه ما لا يقله قرين ، ولا  
يدانيه في مضائه ضريب ، ذلك : هو اللياذ بالإيمان وإطراح اليأس ، في شدة ويأس ،  
ومواجهة الكوارث بأيد وقوة ، وجلد وصبر ، في كل ميادين الحياة ، والصمود حتى  
النصر ، والنصر محقق للجادين المخلصين المصيرين على الوصول إلى حقوقهم مهما  
كلف الطريق من ثمن غال عزيز ، فما أعز من الوطن ، وما بعد ضياع الكرامة صبر  
حتى تسترد ، ويتجسد الفكر حقيقة واقعة حين تقصر بابى سيدة نصف يعتمد على  
ساعدها خيال إنسان يتقمص حياة غارية ، والمرأة تعول ، والخيال الإنساني يثن ، ثم  
يرتطم بأرض الغرفة العارية من غطاء ، ويستوى جالساً تبرق جندورتيه وتتحرك شفاته .  
وتترجم رفيقه مسيرته خلجات جحمتية كلاماً أليماً : ضاع الكن وفقد المأوى ،  
واغتيل الولد ، وهلك الحرث ، ولا سميع ولا راحم ، ثم تنهش وجهها منشبة أظفارها  
فيما بقى له من عظام ناتئة فتدميه ، وتشف جيبيها لبيين عن حنايا متهالكة ترسم خطوطاً  
متوازية معترضة أبلاها البلاء ، عشرون عاماً أو تزيد في ضياع تطلب عوناً ، وترجوا  
رفداً ، صورة لا أنساها ، ولوحة استنسخت منها ما ثبته على جدران قلبي بريشة فنان  
حتى لا تندعن عيني أبداً ، وكيف ... وهل يمكن أن يتطرق إليها إهمال أو يعتريها  
فناء ... وكاد يستحوذ على الياس لولا أن انبثق الظلام عن نور وضىء يتلوه : ﴿وَالَّذِينَ  
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾<sup>(١)</sup> ويردد .. ردد على سمع جليساك ((ليس منا من لطم  
الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية ..) وحرث متسائلاً .. ما الرابط بين ما  
نحن فيه وبين ما أسمع ، وسرعان ما تلقيت الجواب حديثاً عذباً نقياً واضحاً لا إبهام  
ولا التواء فأنصت معي إلى ما كان ...

(٢) من هو الجدير بالبقاء ، بالخلود ، بالحياة الكريمة ؟ .. أهو ذلك المعول

(١) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

الباكي ، النادب النائح ، المولود الصارخ ؟ .. أم الجاد حين الجلد ، الصابر لدى البأس ، الباحث عن مخرج في الشدة ، الساعى ليتخلص من ربة الهوان مالك الطريق ليصل إلى بر السلامة ، محطم القيود ليتحرر من نير الهوان ؟ .. وواضح أن الثاني هو الأعرز مكاناً والأقوى جنداً .. إذن : ليس من الإسلام فى شىء ، ولا من جماعة المسلمين ، ولا حقيقةً بحياة ناعمة من دعا بدعوى الجاهلية الدالة على الضعف والخور ، الغفل البعيد عن نور الإسلام ، ذلك الذى يواجه الخطوب بلطم الخدود ويعالج نوازل الأيام بشق الجيوب . كلا .. فذلك هو الفناء والموت ، وهو ما يسر العدو ويسر له السبيل إلى إبادة خصمه واعتلاء ظهره وسلبه قوته واستيلائه على دياره .

فالمسلم حقاً المؤمن صدقاً والحقيق بالانتساب إلى أمة (سيدنا محمد ﷺ) هو من اعتصم بالله أولاً واستعان به ، ثم اخذ فى الأسباب التى يواجه بها عدوه ثانياً ، ومضى ليقابله بمثل فعله وأشد ، ليسد عليه الطريق ، حتى لا يصبح سيده ، يملى عليه إرادته ويتحكم فى مصائره .

وفوق هذا يضرب الله لنا الأمثال بما خلق ، وبما يدركه سمعنا ويقع عليه بصرنا ، ويجرى من حولنا ، فما الرياح الهوج ولا الزوايع العاصفة ، ولا الأمواج المتلاطمة ولا فتن النيق المتعالية ، ولا حرارة الشمس المحرقة ، ولا ضياء القمر المبدد للظلام الدامس ... إلا .. ثورة على الأضداد .. وتلك سنة الله فيما أبدع فكل هدوء تعقبه عاصفة ونهاية كل ليل فجر ، والضعيف لا مقام له تحت السماء ، وكلما استغلق الأمر كلما جد الباحث منقباً عن حيلة لمخلص (وكلما ضاق الأمر اتسع) :

اخلق بذى اللب أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وهنا : أدركت - ولعل القارئ أدرك معى - أن هذا الحديث الشريف يحمل دعوة صريحة ، جادة ، قوية ، صارمة إلى العمل المثمر نصراً وفلاحاً وقوة وبطولة ورجولة ، وما مصدر لطم الخدود وشق الجيوب إلا الجهل والجاهلية المزمنة والخواء العقلى من المعرفة والفراغ الذهنى من الرصانة والحصافة والبعد عن الفطنة والذكاقة وما هو - إن شئت له وصفاً - إلا حيلة عاجز وعمل تافه ، حقير ، وما مصدره إلا انحطاط فى

الإدراك وضعف في الحيلة ، وإلا ... فقليل لى بريك ماذا يجدى البكاء ، وهل ردت  
النائحات مفقوداً أو أعاد شق الجيوب مطروداً أو بنت دعوى الجاهلية وطناً للأجى  
منبؤ ... لا لشيء من هذا ينتجه ذاك ... وما نتاجه فى الواقع إلا تفاقم العلة واتساع  
الخرق على الراقع وتعقد البسائط واستدامة الكارثة ومع كل هذا ضياع الأبد ولعنة  
الأجيال القادمة .

(٣) نحن الآن نبدأ عامًا هجريًا جديدًا ، فلنفكر فيما مضى به الزمان ، لنطوى  
الصفحة القائمة بعد درس ما فيها وإدراك أسباب وجودها ، حتى نبتعد عن ما عوق ،  
ونهج ما لوث الماضى القريب ، ولنفتح صفحات جديدة على ضوء فهم ووعى  
وحكمة وإدراك لحقيقة وجودنا ومقومات أمتنا ، نبني على أسس ثابتة وطيدة سدًا  
منيعًا يحول بين عدونا وتحقيق ما يحاوله ...

ولما كان الفكر يسبق العمل ، ومن غلب فكريًا على أمة ما كان سلطانها عليها  
أقوى مما لو بادرها بالسلاح والجد ، وجب علينا أن نلمس بعض ما يثيره من حولنا  
مهاجمونا فى تراثنا ليحملونا على هجره ، ومتى تمكنوا من ذلك فقد تمكنوا من رقابنا ..  
ولات على مثال من أمثلة : اتخذنا مجلساً فى اقدس مكان علمى فى (مدينة النور)<sup>(١)</sup>  
وكان من بين الحاضرين شرقى فاهه مستنير ، مؤمن بربه ومعتقد برسالة رسله ، وهو  
مبعوث من مملكة عربية ليعود أستاذًا فى جامعتها - وهو جدير أن يكون ، همس فى  
أذنه جاره (البولندى) .. أن الجهل يستحوذ على عقول الكثيرين منكم ولعلكم  
تتخلصون منه فهما يثير العجب مثلاً أن يكتب فى صحيفة تصدر عندكم أن القول  
بكروية الأرض كفر فى وقت صعد فيه الإنسان إلى القمر ، ولقد أعجب الحاضرين  
وأدهشتهم رحابة صدر الشرقى فى وسعة أفقية ودقة إدراكه وحسن تأتبه للأمر فى  
(دبلوماسية) بارعة ووعى يبشر بالخير الكثير للنجيل الصاعد فى هذا البلد الشرقى

(١) المقصود بالنور هنا الإشعاع العلمى وحرية البحث مهما كان نوعه ولقد تفردت بهذا النوع مدينة  
(باريس) فعلمائها مطلقو الحرية يناقشوا كل فكرة ورأى مهما خالف رأى صاحب السلطة ، ولا  
سلطة عند علمائها أقوى من سلطة العلم وهذا ما حمل علمائها على الإنتاج فى مختلف عصور  
وجودها . وهذه حقيقة لا يمارى فيها أحد مهما بلغ جهله بما يدور فى العالم . وقد كان مجلسنا  
يومذاك فى (السربون) جامعة باريس .

العربى .. قال الشرقى بصوت يسمع الجميع .. ليست هذه هى الأولى ولكن كان لها أخوات عالجهما بحكمة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وما أنا كما ترونى إلا من نتاج غرسه الكريم .

ثم أشار الشاب الذكى إلى أحد الحضور (وهو إيطالى) وقال : لعلكم على ذكر مما حدث (لجاليليو) يوم اكتشف المنظار المكبر ، وما كان من أمر من قال بكروية الأرض عندكم فى عصور سلفت فقد كان جزاؤه الإعدام شنعاً وهو أخف من حكمنا على مثله بالكفر أليس كذلك ؟ ..

ولقد كان مثقفو الصفوة فى بلادكم أكى وأشد وأسوأ حالاً ، وإلا فلماذا أعدم (مارتن لوتر) ولو ذهبت أحصى لعجزت ، فهل يمكن أن أقول : إن الدين المسيحى كان من جانب المعاصرين آنذاك !

طبعاً : لا - وإنما هو التسلط الفكرى الجاهل وتحكم الطبقة التى هى إلى الجماد اقرب منها إلى الإنسان المفكر والمتأمل لمثل هذه الوقائع التافهة يجدها كثيراً فى عصور التأخر الفكرى ، ولقد مرت بنا نحن العرب تلك الظروف ، فلا لوم على بدوى يعيش بعيداً عن المدينة أن ينكر ما يجرى ما يجرى فيها ، وطالعوا قصة الفلاح الريفى الذى قدم المدينة لأول مرة ودخل إلى (السينما) وشاهد ما يعرض فيها فظن ان الدنيا تلاشت وأن ما يراه هو منظر من فصول الدار الآخرة ، وقد أورد هذا فى صورة نقد لاذع المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى المصرى فى كتابه النظرات .

ولنخلص من كل هذا ، إلى أن الإسلام لم يكن سبباً فى الانزواء والانطواء ، ولا يده فى التعويق والتأخر ، ولا فيما ترى من تفكيك وتفارق ، وإنما هو مجنى عليه دائماً وليس جانبياً ولو أن الإسلام احتل مكانه على المسرح العربى ولعب دوره فى الديار الإسلامية لتغير وجه التاريخ آخرأ كما غير الإسلام وجهه أولاً أو أنه يفصل بين روح وجسد ، ولكن ما نسمعه هو جهل بالإسلام وليس إسلاماً ، ولا يصح لعاقل أن يردده الآن فنحن فى حاجة إلى قوة بانية وكفانا الله شر الهدامين ..

وعلا صوت الحق ودوى ، ولم يعجب هذا أحد الحاقدين . فقال : وما رأيكم فى القضاء والقدر اللذين شلا الفكر الشرقى زمناً طويلاً ، وقام فى الجانب الآخر من يجيب : إن كنت يا هذا من قراءة التاريخ فلعلك تعرف رسول الإسلام وصحبه ، وأظنك لا تشك فى إيمانهم بالقدر والقضاء الإيمان الصحيح ، وأظنك لا تستطيع إنكار ما وصلهم إليه ذلك الإيمان مما لا يحتاج إلى شرح ولا قول إن كنت مطلعاً على تاريخ تلك الحقبة من الزمان ، وأخيراً اسمعوا : إنها علة وحيدة هى الجهل فقط فإذا زال الجهل وضع الحق ، وعرف أنه ليس بعد قيادة الإسلام للوصول إلى أفضل النتائج وقد نفطنا غبار جهلنا وإن كنا فى أول الطريق فنحن فى عزم سائرون ولن نتوقف مرة أخرى .

(٤) ويعد .. فالعام الجديد عام يمن بعون الله ، فالعرب قد استيقظوا ولن يعودوا إلى سبات ، وتجاؤوا عن مضاجعهم ليعيدوا مجدهم ، وهم ليسوا جاهلين مطلقاً لمدى قيمة وفعالية التوحد والتكتل والتساند فى سبيل قضية مشتركة وعمل تعود نتيجة على الجميع دون استثناء واحد منهم عظم أمره أو ضعف ، وليعلموا أن الكثرة أو التاكث لا قيمة لها إذا تواكلت ونامت عن حقها فما أكثر عديدهم الآن ، ليجدوا أنفسهم لعمل حاسم مثمر ، وهم فاعلون إن شاء الله تعالى فالى نصر قريب .  
﴿إِنَّهُ لَا يَنْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ..

بقى أن أشير إلى حدث جديد فى تاريخ دراسة الحديث الشريف فى طليعة العام الميلادى<sup>(٢)</sup> (وهو مقارب هذه المرة فى ولادته للعام الهجرى) بدأ أستاذ كبير فى جامعة باريس يلقى محاضرات فى الحديث فى إعزاز وإكبار لهذا التراث الإنسانى العظيم ، وبطريقة لم يسبق إليها فيما مر من عصور ، وتعرض لما حاوله البعض من نيل من قيمة هذا المصدر الكبير للتشريع وكان جوابه : إن القيم التى خلدت عصوراً وصحبتها أصالة أكيدة لهذا المصدر الكبير لا يمكن أن يقلل من شأنها قول حاقد جاهل فهى جذيرة الخلود وقد خلدت ، وطلاب تلك المحاضرات من جميع أنحاء

(١) الآية ٨٧ من سورة يوسف .

(٢) كان هذا فى بداية عام ١٩٦٩ م .

الدنيا المعمورة . وصاحب هذه المحاضرات علم غربي ولكنه إذا تحدث عن العرب شعرت منه بوفرة حماسية صادرة من قلبه المتفاعل مع القضايا العربية تفاعلاً لم يحملها من قبله ضريب فيما أظن ، وقد زار دولة الكويت وحاضر في جامعتها وخرج منها وهو واثق من احتلال هذه الدولة الصغيرة حجماً ، مكان الصدارة في الثقافة الإنسانية الأصيلة والمعاصرة الحديثة مع وعى قوى وإدراك يعيد مجد الأوائل ، فشكروا له وعلى بركة الله نتقدم .. وليحقق الله رجاء المخلصين في هذا البلد الأمين ، وفي أبنائه من الناشئة التي أرجو لها أن تذكر قيادة الإسلام دائماً في الأصالة الحقيقية لكل مجد عربي مضى أو سيأتي ، ومن اعتصم بالله هداه .. وعليه سبحانه فليتوكل المتوكلون ...

## مبدأ الإسلام فى القضاء والدفاع

قال رسول ﷺ :

« إنما أنا بشر ، وأنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فاحسب أنه صادق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليركها »

(رواه البخارى)

(١) من سنة الكون وطبيعة الوجود ان يكون بين الناس خلاف واختلاف (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) <sup>(١)</sup> فلكل استعدادة الفطرى ، وقد شاء الله سبحانه أن يتفاوت الناس فى العلم والمعرفة ، والرأى والعمل ، والطاعة والعصيان ، والقرب من الحق أو البعد عنه ، ولهذا تشعبت أمور الحياة وتنوعت ، وكل يحاول أن يبرهن على صحة اتجاهه وأن يثبت قوة ادعائه ، واستقامة سلوكه ، كما أن من الناس من لا يقيم وزناً لمصالح الغير ولا يهتم إلا بنفسه ولا تعنيه إلا مصلحته الخاصة ، يحاول الوصول إلى ما يراه صالحاً لنفسه غير عابى بالمقاييس الخلقية أو الروابط الاجتماعية ، أو التوجيهات الإلهية ، ولكل رأى أنصار وأعوان مهما كانت مكانته من الحق أو الباطل ، ومهما كان قربه أو بعده عن الصواب أو الخطأ ، ومن رحمه الله هداهم للصواب ، وجعلهم يتفقدون على تحكيم كتاب الله فى خلافاتهم ، ومن سنة الله فى خلقه أن يفصل عقلاؤهم فيما يختلفون فيه مسترشدين بأعمال الرسل عليهم الصلاة والسلام وسائرين على نسق معين يوصل الحقوق إلى أصحابها فى غير عنت أو مشقة ، ومن ثم كان القضاء ، والقاضى بشر ، والبشر يخطئ ويصيب وربما كان أحد المتقاضين ألحن بحجته ، وأكثرهم قدرة على إقامة البراهين ، مدلاً على صحة دعواه بغير حق فيقضى له بحق غيره تحت تأثير فصاحته وقوة بيانه .

(١) الآية ١١٨ من سورة هود .

(٢) ورسول الله ﷺ يوجه المسلمين إلى إتباع سبيل الله ، وإيثار الباقي على الفاني والتمسك دائماً بالمنهج المستقيم في كل شيء ، وقد حدث يوماً ما أن كان رسول الله ﷺ في حجرة إحدى زوجاته<sup>(١)</sup> رضى الله عنهن جميعاً فسمع جلبة وصياحاً بالباب ، وإذا يقوم يختصمون إليه ، فخرج إليهم ، وقبل أن يجلس منهم مجلس القضاء ، نصحهم ، وخوفهم عقاب الله ، وحذرهم من الكذب وادعاء أحدهم ما ليس له ، فقال لهم : « إنى بشر من البشر ، لا أعلم ما يجول في نفوسكم ولا ما تنطوى عليه سرائركم ، فعلم الغيب عند الله وحده وقد يكون أحدكم أقوى بياناً ، وأفصح لساناً ، وأكثر قدرة على الإدلاء بحجته وهو غير محق ، فأحكم له بما يبدو لى من ظاهر القول ومقتضى الحال ، بينما يكون الآخر عيباً وهو صاحب الحق ، لا يحسن الدفاع عن حقه ، متهيئاً لمجلس القضاء ، مضطرباً لا يستطيع الإفصاح عن ما يريد ، ولا يمكنه أن يبين عن حقه ، فأحكم عليه فليحذر كل من المتخاصمين عقاب الله ، ليخف سطوته فلا يحاول الوصول إلى أخذ حق غيره ببلاغته ، فهذا غش وخداع ، ظلم للنفس ، وإتباع الهوى يؤدي بصاحبه إلى غضب الله عليه وبعده عن رضا ربه ، فتسوء حاله في الدنيا والآخرة .

(٣) وكلما بعد الناس عن تعاليم الله ، وأنبئت صلتهم بهدايته ، رثت حبال مودتهم وعفنت نفوسهم وركنوا إلى المادى البحت ، فتجافوا ، وتقاطعوا ، وأهمته أنفسهم وسلكوا كل سبيل يوصلهم إلى شهواتهم فتكثر الخصومات ، ويشتد النزاع ، وتهدر الحقوق وتطمس معالم الصراط المستقيم ، وتصبح الغلبة للقوة فتنتوى القلوب على الأحقاد والضغائن بالتالى تفسد المجتمعات ، وتصبح الحياة جحيماً لا يطاق ، وعذاباً لا يحتمل . وألمأ ممضا ، وعناء دائماً ، وذلك حين يغنى كل على ليلاه ، ويحاول صيداً بشباك الزيف والضلال لا يستمع لأنات المحرومين ، ولا يلين قلبه للشكالي والمصابين .

والعاقل من آثر الحق ، وحاول التغلب على هوى نفسه . ونظر إلى الحياة نظرة واقعية على أنها تسيير إلى فناء محقق ، وأيقن بما عند الله ، وأدرك أن سعادة الغير

(١) قيل أنها أم سلمة .

سعادة له ، وأحب لعشراته ما يحب لنفسه ، وابتعد عن الجدل والخصومات التي تؤذى مجتمعاته ، وتعكر صفو الآخرين فتحرمهم نعمة الهدوء والراحة ، وتحملها حملاً قوياً على الفتن في العداوات والمنازعات .

(٤) ولما كان الكثير من أمور الحياة خافياً غير واضح ، فرب مقبل والخير من وراءه ، ورب مدبر والخير أمامه ، لم يترك الله البشر دون هداية ، فأرسل رسله مبشرين ومنذرين ، واختارهم من صفوة خلقه ، ليلبغوا عنه ، والرسل دائماً يحثون على التوكل على الله وإيثار الآجلة مع الأخذ في أسباب المقاصد دون تواكل أو وهن ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾<sup>(١)</sup> لأن الإيمان لا يكون يقيناً إلا إذا صدقه العمل ، فالتوكل على الله من أعظم علامات الإيمان وهو لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد ، والدعاء لا يستجاب إلا إذا كان مقروناً باتخاذ الأسباب وذلك بعمل ما يستطاع ، ودلت التجارب والوقائع الماثلة أمامنا على أن سوء حال المسلمين من ضعف وفقر تجعلهم موطئاً لافتتان الكفار بهم باعتقادهم انهم خيراً منهم . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾<sup>(٢)</sup> وما أعظم ما جر على المسلمين البلاء هو عدم انصياعهم لأوامر الله وحرصهم على أن يصلوا إلى متاع الدنيا من وجه غير المشروعة ولو كان حقاً للآخرين ، ويرفع المسلم خلافه مع أخيه إلى القضاء ويحلف أنه على حق وهو كاذب ، ويدلى بما لا صحة له ولا أصل له ليهضم حق أخيه وليحكم له وغير مقيم للأخرة من المبطل إلا بالأدلة الماثلة أمامه ، وقد يقضى بناء على بيان الخصوم وقوة بلاغتهم ولا ضير عليه في هذا ، وإنما الضير والوبال على من أخذ ما لغيره دون أن يكون له وجه حق في الأخذ .

(٥) الظلم دائماً يجر إلى الخراب وفساد المجتمعات ، ولولا لطف الله لهلك الناس بظلمهم يقول جل شأنه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾<sup>(٣)</sup> ومن أشد الظلم اغتيال حقوق الآخرين والإصرار على ذلك وقد أخرج البيهقي

(١) الآية ٨٤ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ٦١ من سورة النحل .

وغيره عن أبى هريرة أنه سمع رجلاً يقول : (إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال . لا والله بل أن الجبارى فى وكرها لتموت من ظلم ظالم) ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه : كاد يجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَهُ عَلَىٰ ظَهْرهَا مِنْ ذَابَّةٍ﴾<sup>(١)</sup> ، وأخرج احمد عن أبى هريرة أنه قال : (ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره) والبعد عن الهداية الربانية يجعل الإنسان أنانياً لا يتجه تفكيره إلى ذاته ولا يرى إلا وجوده هو ، وهذا من تزيين النفس الأمارة بالسوء ، عمل شياطين الإنس والجن ، ومن نسى الله أنساه الله نفسه كما قال جل شأنه : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَلْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وحينئذ يضل ابن آدم الضلال البعيد ، قال تعالى : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَيْنَا لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَيَهُمُّ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> وقد مضت سنة الله فى خلقه أنهم متشابهون فى كل الأعصر والأزمان . فقد أرسل سبحانه وتعالى إلى الأمم أنهم متشابهون فى كل الأعصر والأزمان ، فقد أرسل سبحانه وتعالى إلى الأمم التى سبقت رسالة سيدنا محمد ﷺ رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأمرهم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، ولكن قرناء السوء زينوا لهم ما هم عليه من كفر وفسوق ، فكذبوا رسلهم ، وما دعاهم إلى ذلك إلا شيطانهم ويشس الناصر والمعين الشيطان ، وكان خاتم الأنبياء والمرسلين زيادة فى توضيح الحق من الباطل ، ودعوة صريحة إلى البشرية أن تتحرر من عقاب الكفر وأن تسير فى ركاب الخير والحق ، وأن يعمل الناس بما أوحى إلى رسلهم من الله العزيز العليم ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٤)</sup> فرسالته عليه الصلاة والسلام إقامة للحجة على العباد وهى هدى للقلوب الضالة ورحمة لقوم يؤمنون ليصدقوا بما تضمنته من أوامر الله ونواهيه وكتاب الله هو الفيصل بين الناس فيما يتنازعون فيه وهو الهادى إلى سبيل الرشاد .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٩ من سورة الحشر .

(٣) الآية ٦٣ من سورة النحل .

(٤) الآية ٦٤ من سورة النحل .

(٦) وفي الحديث الشريف الذى تصدر هذا البحث يوجه رسول الله ﷺ المتخاصمين إلى الإيمان بالآخرة ، والثقة بما أعده الله فيها للطائعين من رحمة وللعاصين من عقاب ، فما يحمل الناس على اغتيال الحقوق ، وأكلها بالباطل والإدلاء بها إلى الحكام إلا بعدهم عن الإيمان بالآخرة ، والآخرة حق والبعث لا ريب فيه ، وإن أصر البعيد عن رحاب الله وهدايته على الإنكار ، وقد قال قوم فى عهده عليه السلام ومن قبله ومن بعده : أن الحياة الأخرى غير ممكنة ولا معقولة ، وقد رد الله عليهم ما قالوا وهو سبحانه العليم الخبير ، قال تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٣٨)</sup>﴾ وَيَبْعَثُ اللَّهُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ<sup>(٣٩)</sup>﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ<sup>(٤٠)</sup>﴾<sup>(١)</sup> واخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن أبى العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به والذى أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا ، فقال المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، وأقسم جهد جهدي يمينه لا يبعث الله من يموت ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٢)</sup>﴾ وأخرج هؤلاء عن أبى هريرة قال (قال الله سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ وقلت ﴿بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ وأما سبه أياي فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ تَالِثُ ثَلَاثَةٍ<sup>(٣)</sup>﴾ وقلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ<sup>(٤)</sup>﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ<sup>(٥)</sup> لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ<sup>(٦)</sup> وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ<sup>(٧)</sup>﴾ .

(٧) والإسلام جد لا هزل ، وعمل وإتقان للعمل ، وإنصياح لأوامره ونواهيه ، وما ترك القرآن شيئاً يهم البشرية وأمره تلزمهم معرفته إلا وضحه وشرحه وجاءت كتب

(١) الآيات من ٣٨ إلى ٤٠ من سورة النحل .

(٢) الآية ٣٨ من سورة النحل .

(٣) الآية ٧٣ من سورة المائدة .

(٤) سورة الإخلاص .

السنة مفصحة عما أجمل فيه ، فلا رأى مع النص وقد جدت مذاهب ونحل خلال مرور الإسلام فى مختلف الأعصر ، وكان منها النافع ومنها البعيد عن الصواب ، والعقلاء المؤمنون يحكمون الله ورسوله فيما شجر بينهم ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجاً من حكم الله وحكم رسوله الذى لا ينطق عن الهوى .

وكثيراً من الناس يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ويخرجون فى أحوالهم عن الصراط المستقيم الذى رسمه رسول الله بوحي من الله ، ونسأل الله السلامة كما نرجوه آمليين فى رحمته ، أن يهدينا سواء الصراط انه نعم المولى ونعم النصير .

## النصر مع الإيمان والصبر

عن أبي رقية تميم بن أوس رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال : لله

ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . رواه مسلم

(١) يعيش أبناء العالم الإسلامى فى هذه الآونة من الزمان أياماً عصيبة ، لما يرون ويلمسون من ضعف معنوى وتخلف فى مضمار الحياة الروحية ، وانعكس ذلك على وجودهم لمادى ، تخلفاً أدى إلى تهاويهم أمام أعدائهم بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخهم الحافل بالعظائم ، والملئ بالمكرمات فى كل ميدان ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وأعتقد أن هذه الحالة الواقعة سحابة صيف لا تلبث أن تقشع إذا عولجت أسبابها على ضوء أصول الإسلام ، وإذا أدركوا السر الكامن وراءها وهو انحصار العمل بما أوحى إلى سيد الخلق عن سلوكهم ، وتجاوزهم الحد المألوف فى ذلك إلى درجة أنك لا تستطيع التمييز بين سلوكهم وسلوك من لا يعرف الإسلام ولا يفقه عنه شيئاً ، والذى يدفع الطمأنينة إلى القلوب . ويشع النور فى النفوس هو أن باب الله مفتوح للعائدين إليه وأنه لا يوصد أبداً ، فلعل هذه الهزة العنيفة توقظهم ، وتدفع بهم إلى الأمام ، ورب ضارة نافعة ، وما بعد الليل البهيم إلا نور الفجر الوضىء .

(٢) لدى تأمل أحوالنا وأحوال من سبقونا من المجاهدين الأولين ، نجد البون شاسعاً والاختلاف واضح بين سلفنا الصالح الذى فهم الرسالة المحمدية ووعاها ، وحملها وأداها باخلاص فسعدت أجيال عاوا فيها وبلاد شبوا على أرضها ، وبين الخلف العاجز الذى فرط فى دينه فضعفت قوته ووهنت عزيمته وانقرط عقده فهان على الله والناس .

والأيام هى الأيام فى مرورها والفلك هو الفلك فى سيره ، ولكن الأولين آمنوا ودخل الإيمان قلوبهم فعمرها وجرى دمها فى عروقهم وظهرت آثاره فى أخلاقهم وهيمن على معاملاتهم ، فصاروا مثلاً علياً فى جميع نواحي الحياة الخيرة ، عدلوا ،

وتراحوا ، وضربوا فى سبيل الله يحملون نور التوحيد يبددون به ظلمات الشرك يعبدو الواحد الأحد وينبذون عبادة الأصنام حجارة كانت أو أموالاً أو أولاداً ، ويبثون العقيدة النقية السمحة أمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، لا يتفاضل الناس عندهم بلون أو جنس أو مال وإنما مقياسهم التقوى والعمل لصالح الإنسانية أينما وجدت وحيثما حلت فى المدن والقرى فى الوهاد والنجاد فى الصحارى وفى الغابات ، فى الأدغال وعلى ضفاف الأنهار وشواطئ البحار فى كل مكان معمور يعلمون أن آدمياً يسكنه ويعيش فيه ، وما عدتهم وعتادهم إلا كتاب الله وهدى نبيه ﷺ ، والخلق الفاضل والعمل المتواصل ، كل ذلك بعد أن طبقوا ما يقولون على ما يفعلون ، فلم يأمرؤا بشيء لا شاهد له من فعالهم ، فهم المثل الأعلى فى أسمى الصور الإسلامية الحققة ، فهل آن لورثتهم أن يسيروا على الدرب الذى سلكه آباؤهم ، فالأجيال الصاعدة فى حاجة ماسة إلى من يوجهها ويرشدها إلى ما ينفعها من مرامى الإسلام ومقاصده ، إلى من يسلك بها سبيل العزة والقوة ، إلى من يحميها من سموم الغرب والشرق التى تقدم إليهم فى صور نضائح ودراسات وهى فى الحقيقة سم نافع إن لم يقتل خلف وراءه داء عياء يعى نطس الأطباء ، ويغالب حكمة الحكماء .

(٣) وإنى اليوم فى هذه الآونة من حياة المسلمين أهيب بكل قادر على تفهم القرآن وإفهامه لغيره أن يطرح التواكل ويعمل فى حقل الدعوة الكريمة ، كما أمل فى الله العلى الكبير أن يوجه دعاة الكتاب والسنة فى عصرنا إلى أن يجعلوا التبليغ الصحيح هدفهم ، وهداية الناس غايتهم وأن يتلمسوا الأجر من الله وحده ، وإن لم يفعلوا ، فسيفلت منهم الزمام إلى الأبد إن لم يكن قد أفلت فعلاً ، وسيجتون ثمرة تقصيرهم لعنات من الأجيال الحاضرة والقادمة والأمل فى الله قوى فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولنعلم جميعاً أن الأنبياء لم يورثوا مالاً ، ولم يتركوا ضياعاً ، وإنما ورثونا تركة روحية إصلاحية هادفة تثقل الكواهل ولا يؤديها حق الداء إلا أولو العزم ، فلنستعين بالصبر والصلاة ولنتوكل على الله ليؤيدنا بنصره ويمدنا بعونه ، ولتسلك ما سلكه سلفنا الصالح من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فى غير عنف ولا تهاون ، ولتكن نضائنا إلى العامة والخاصة وسأورد طرفاً من أقوال

السابقين وتوصياتهم الكريمة عسانا نستضي بنورها ونسج على منوالها والله وحده هو الهادى إلى أقوم طريق ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ...﴾<sup>(١)</sup>.

(٤) جمع سيدنا على كرم الله وجهه بنيه يوماً وقال لهم : (يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل مع الصديق والعدو ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء ، يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ، ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عاقبة ، يا بنى من أبصر عيب نفسه شغله عن عيب غيره ، ومن رضى بما قسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع هو فيه ، ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عوراتہ ، ومن استغنى بعقله ذل ، ومن تكبر على الناس أذله الله ، ومن خالط الأندال حقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن يصحب قريب السوء لا يسلم ، ومن يصحب صالحاً يغنم ، ومن دخل مداخل السوء يتهم ، ومن لا يملك نفسه يندم ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار .. يا بنى . الأدب خير ميراث ، وحسن الخلق خير قرين ، يا بنى . العاقبة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله تعالى والواحد فى ترك مجالسة السفهاء ، يا بنى . لا شرف أعلى من الإسلام ، ولا كرم أفضل من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا شفيح أنجع من التوبة ، ولا لباس أجمل من العاقبة ، والحرص مفتاح التعب ومطية النصب ، التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم ، بس الزاد للمعاد العدوان على العباد ، فطوبى لمن أخلص لله عمله ، وحبه وبغضه ، وأخذہ وتركه وكلامه وفعله .

(٥) وهذا عالم سفلى هو الحسن البصرى يخاطب ابن آدم ، وكلنا من آدم وآدم من تراب ، يقول الحسن رضى الله عنه : (يا بن آدم بع دنياك بأخرتك تريحهما معاً ، ولا تبع أخرتك بدنياك فتخسرهما معاً ، يا ابن آدم . إذا رأيت الناس فى خير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى شر فلا تغبطهم عليه ، الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون ؟ هيهات ،

(١) الآية ٩ من سورة النحل .

هيهات ، ذهبت الدنيا بيلائها ، وبقيت الأعمال قلائد أصحابها ، أما أنه لا نبى بعد نبيكم . ولا كتاب بعد كتابكم .. يا ابن آدم . طأ الأرض بقدميك فإنها عما قليل قبرك ، وأعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، يا ابن آدم . اذكر قول الله عز وجل : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتَاهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾<sup>(١)</sup> اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً<sup>(٢)</sup> عدل والله من جعلك حسيب نفسك .

وقدم هشام بن عبد الملك مكة حاجاً أيام خلافته فقال : ايتونى برجل من الصحابة ، فقيل له : قد تقانوا ، فقال : فمن التابعين ، فأتى بطاووس اليماني ، فلما دخل عليه خلع نعشه بحاشية بساطه ، ولم يسلم عليه بأمره المؤمنين ، بل قال : السلام عليك ، ولم يكنه ، وجلس بازائه ، وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام وقال : يا طاووس ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : وما صنعت ؟ فازداد عليه غضباً . قال : خلعت نعليك بحاشية بساطى ولم تسلم على بأمره المؤمنين ولم تكنى وجلست بازائى . فأجابه : أما خلع نعلى فأنى أخلعهما كل يوم خمس مرات بين يدي رب العزة فلا يغضب على ذلك ، ولم أسلم عليك بأمره المؤمنين لأن كل الناس ليسوا راضين بأمرتك فكرهت أن أكذب ، وإن كنت لم أكنك ، فإن الله سبحانه سمي أولياءه فقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى ، وكنى أعداءه فقال : ﴿كُتِبَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَكُتِبَ﴾<sup>(٣)</sup> ، وجلست بازائك لأنى سمعت علياً رضى الله عنه يقول : إذا أردت ان تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال هشام : عظنى يا طاووس ، فقال : إن فى جهنم حيات كالنلال وعقارب كالبغال تلدغ من لا يعدل فى رعيته ثم قام عنه وانصرف .

(٦) هذا غيظ من فيض مما نصح به أولياء الله عباد الله ، والعالم الإسلامى فى لحظته الحاضرة فى حاجة ملحة إلا الاستماع إلى مزيد من توجيهات القرآن الكريم والانصياع لها ، والعمل بما جاء بها فى أى وقت مضى ، ولما كان الحديث هنا حديث الإسلام ولا شىء غير الإسلام كان لابد من التعرّيج على الشروط الأساسية التى اشترطها رب السموات والأرض العزيز الحكيم ليصل الناس إلى النصر فى كل

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ١ من سورة المسد .

شئ ، تلك الشروط هي : الإيمان بالله والتوكل على الله الأمثلة الواقعية المادية تصديقاً لذلك ، فظرة سريعة ولا أقول فاحصة على التاريخ الإسلامى والغزوات التى اشترك فيها القائد الأول رسول الله سيدنا محمد ﷺ وأصحابه من بعده والتابعون لهم بإحسان ، تظهر لنا بما لا يقبل الجدل ولا المناقشة أنهم لم ينصروا أبداً وأقول أبداً وأوكدها - بالعدد والعدد وماهى ذى بدر وما أدراك ما بدر تكفى مثلاً ، وما هو ذا القرآن يقول فى نفس الموضوع : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>(١)</sup> ، والمعنى جلى ، قال لهم المنافقون أو المشبطون أو المتقاعسون أو المتهاككون على الحياة الدنيا : لا تذهبوا إلى القتال فكيف لكم بالعدد الوفير والجحافل المتراسة والأسلحة والذخائر ، (ولكل عصر أسلحته المناسبة) فما كان جوابهم إلا أن قالوا : نحن لا نبالى الكثرة ولا نهابها لسبب واحد بسيط هو أن ربنا حامينا وراعينا وهادينا وهو على كل شئ قدير ، فهو حسبنا وملاذنا كافياً والمدافع عنا ، وزادتهم كثرة عدوهم إيماناً بالله ، وكرروا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فجاءهم النصر والفوز والغلبة وتحذت بذلك الآية الكريمة التالية للآية السابقة : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْ اللَّهِ وَقَضَىٰ لَهُمْ سُوءَ﴾<sup>(٢)</sup> . واستمر فى طريقهم القويم ونهجهم المستقيم فى إيمانهم فى عمله المطابق لأقوالهم ﴿وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup> . وعقبت الآية الثالثة على هذا أيضاً لتزيدهم قوة وتماسكاً وترابطاً واحتقار للموت وإقداماً على القتال دائماً فقال عز من قائل : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup> . وكل هذا لأن المؤمن يثق بما عند الله وهو متأكد من عون الله لأنه يعلم علم اليقين ، علماً لا يداخله ريب ولا يعتربه شك أن النصر إذا لم يكن من الله فلا نصر : ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾<sup>(٥)</sup> .

(٧) والمسلم إيجابى دائماً خصوصاً فى الحروب شعاره قول القائل :

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) الآيات ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، من سورة آل عمران .

(٥) الآية ١٥ من سورة الحج .

ومن هاب أسباب المنايا ينلته      ولو رام أسباب السماء بسلم  
واستمع لآخر :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره      تنوعت الأسباب والموت واحد  
واصغ إلى ثالث :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً      على أى جنب كان فى الله مصرعى

هذه هى القوة الإيمانية بالله ، هذه هى الجندية الحققة لله (ولله جنود السموات والأرض) ، تلك هى التى أنجبت خالداً ونصرته بعون الله فى كل مواقع وأجرت على لسانه ساعة النزع الأخير وهو على فراش الموت قوله : (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ومل فى جسمى موضع شبر أو فتر إلا وفيه طعنة بسيف أو رمية برمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء) ولو ذهبنا لنضرب الأمثال لطال المقام وامتد الكلام وما بلغنا عشر معشار ما نريد ، وما يعلم الناس من أخبار المسلمين وأحوالهم فى حروبهم وانتصاراتهم كثير لا يحتاج إلى مزيد من القول وإنما المطلوب التأسى والإقتداء والعمل الجاد .

(٨) فى الحادث الجديد الفذ فى تاريخ الإسلام عامة والعرب خاصة يجب أن يترك ما مضى لما مضى وأن نذكره للعبرة فقط ، وأن لا نبدي فيه ولا نعيد خطأ ولا فلاناً أصاب وإنما نقول ، قدر الله وما شاء فعل ، ونشرع مسرعين فى العمل الجاد لإعادة البناء على أسس مستقيمة ونعد لمستقبل كريم على الله وعلى المسلمين عامة والعرب خاصة ، فالمعدن الكريم كريم ، ولا تزال الدنيا بخير ، والمطلوب الآن ديناً وإسلاماً وعقلاً هو تكاتف جميع الفتق وإعادة البناء قوياً عزيزاً شاملاً كاملاً فى ظل الأخوة والمحبة والسلام وكل ذلك بعد الإيمان بالله وبأن النصر من عند الله ، والثقة فى المسلمين جميعاً ، والله مع العاملين ولن يترهم أعمالهم .

(٩) المسلم فى دينه القوة على العدو والرحمة للقريب ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ  
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(١)</sup> . والعربى فى دمه الشمم والإباء فإذا اجتمعما أنتجا نجاحاً مع

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

امتزاجهما بالإيمان بالله والتوكل عليه ، وأعتقد اعتقاداً جازماً أن الأوضاع لا تستمر هكذا فهذا محال عقلاً وواقعاً وإنما سحابة صيف ، ولن يقيم على الذل حر أبى كريم أبداً .

ولن يقيم على خسف يراد به إلا الأذنان الحسى والوقد هذا على الخسف مربوط برمته وإذا يشج فلا يرثى له أحد

فهي معشر المسلمين إزدادوا إيماناً إلى إيمانكم وعودوا إلى الله وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فأنتم لم تكونوا حمراً مستنفرة تهاج لخسف ، ولا أوتاداً تدق لتشدخ ، وإنما أنتم بماضيكم العزيز وواقعكم القوى لن تؤثر في قوتكم الأحداث والحرب دائماً سجال كر وفر ، إقبال وإدبار ، والنصر مع الإيمان والصبر .

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)<sup>(١)</sup> . وصدق الله العظيم  
القائل : (وَالْعَصْرِ<sup>(١)</sup> إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ<sup>(٢)</sup> إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)<sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

(٢) سورة العصر .

## أنواع الجهاد

عن زيد بن خالد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ :

« من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا » .

رواه البخارى

(١) يعج العالم المعاصر بالفتن الدامية التى تراق فيها الدماء ، وتتهاوى الأجساد ، وتبتر الأعضاء ، وتتلاشى فيه كل جوانب الرحمة ، وتنسى كل عوامل الخير ، وتقطع أواصر القربى ، وتستبعد أوامر السماء التى فاقت العدا حائلة على التراحم ، فالإنسان الشرس الباغى الجاثم على الشر ، المنطوى على الحقد والغدر ، لا يلتفت إلى دواعى البر والخير أبداً ، ولا يرده إلا عدوان يفوق عدوانه ، وقوة تربو على قوته ، حتى يقضى على شره ، فلا سلام مع ذئاب ، ولا أمن مع حيوان مفترس ، ولا اطمئنان إلى زاحفة سامة مهما لانت ملامسها ، والتوت على نفسها وأخفت رأسها ، أو انحازت إلى جحرها ، والعالم الآن دام متألم ، فى كل قاراته المسكونة مذابح ، ومطامع تروج لها ، وشيطانية تؤجج ضرامها .

وإنا لنقصر الحديث على وطننا على ترابنا ، على أرضنا ، فمن اشتعلت النار فى داره أولى له أن يسعى إلى إخمادها قبل أن يعنى بدور الآخرين ، فهنا حياته ، ماله وولده ، وعشيرته الأقربون ، أعوانه وناصره ، ومخففوا آلامه ، هنا فى تراب العرب ، فى أرض الإسلام ، فى فلسطين ، بل فى كل بلد عربى قتلى وفى كل بيت ثكلى ، عيون مبتلة دائماً بدموعها ، وأكباد محترقة تتجاوب من كل طرف فما جرح ذلك البلد العربى المقدس ، إلا كلم ثرار فى كل بلد عربى ، وفى كل وطن فيه مسلمون ، والذى أنقذ الجزائر وحرر مصر وضحى فى الشام والعراق هو الدم الزكى ، هو الشباب هو المال ، هى القلوب التى لا تقيم على ضيم ، فأولى لهم الآن أن يتجهوا سراعاً إلى ميدان الفناء الجديد القديم معاً ، ولتعلن حرباً قومية دينية صارخة ، يتجاوب فيها

كل معمور من الأرض حيث يوجد مسلم او عربى ، ولواء العروبة والإسلام قد نشرهما صنوان لا يفترقان ، فما قاتل أصحاب رسول الله ﷺ إلا وهم عرب مسلمون ، وما شاركهم العجم إلا وهم بالله وبرسوله مؤمنون ، فالكل تحت رايته عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام كى لا يفترق ، وجمع لا واحد له ، والإسلام يصيح أنقذوا الأرض المقدسة وأنجزوا وعد الله بنصر المؤمنين الذين يجاهدون فى سبيله ولا يخشون فى الحق لومة لائم .

وها هو ذا صوت رسول الله ﷺ يهب بالدنيا ، بأمة المسلمين ، بالعرب ، هيا إلى أبواب الخير ، فلقد هبت ربحها من فلسطين الصريعة ، هناك مسراى ، وهناك معراجى ، لقد فاح عبير الشهداء فى كل جو عربى ، ومن كل بلد إسلامى ، فهل من مسارع ؟ والجواب نعم ولى فى كل صور الجواب وأنواعه ، فلقد أدرك رجال العرب وعقلاء المسلمين فى كل مكان أنهم مسئولون وأنهم مدعوون ليوم النصر ليشهدوه ، وها أنت ذا تسمع فى كل عاصمة عربية وديسكرة إسلامية نداء القادة والزعماء والرجال الأوفياء لرجولتهم لدينهم ، لعروبتهم ، لوجودهم كأناس جديرين بالوجود ، كقادة ، كمحام ، هاهو ذا صرير أقلام الكتاب يترجم مداده دُماً ، وتتحول شباته ظبى ، وتشتعل أوراقه صواعق ملتبهة ، وحمداً لله ، فقد بدأت تجد صداها فى أرجاء العالم الإسلامى وستتسع موجاتها وتكبر شيئاً فشيئاً حتى تطبق على العدو فى حزم وقوة باس ، ومهما لاقينا من الأعداء المنبثين فى كل مكان ، الموجودين فى كل آن ، فقوة الله غالبه ، وهى داعية عمل وجهاد ، والنصر دائماً مع الصبر والقوة مع الاتحاد .

(٢) هاهى ذى أعمال سيدى رسول الله ﷺ تتمثل فى صورة رائعة أمامى وأنا أحمل القلم لأسجل ، أرى سيد الخلق عليه أفضل الصلاة أزكى السلام طوداً شامخاً على الهامة ، مرفوع الرأس عارى الصدر ، يضع مئزره بأنفه ، ويثور الغبار أمام عينيه الشريفتين ، وقد تكالب الأحزاب عليه يطرقون باب المدينة المنورة ، جاءوا من كل مكان وتنادوا ليقتلوه إن استطاعوا ، وهاهو ذا صوته الشريف يدوى ولا يزال يتردد الآن فى كل مكان فيه مسلم ، يروى البراء بن عازب يقول : لقد رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب ، وقد وارى بياض بطنه وهو يصيح متمثلاً بقول الشاعر :

لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
فأنزلن السكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا  
إن الأولى هم قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وأى يوم للأحزاب أشد من يومنا هذا ، ففي كل دولة فى العالم المعاصر عدو لنا مقيم على عدوانه ، فيهم الصامت الذى يعمل خفة ، والمهاجر الذى يسلم خصومنا علانية ، وماذا بعد فلسطين ، بعد الأرض المقدسة ، مسرى حبيبتنا ومعراج سيدنا ومولانا رسول الله ، بعدها كل البلاد العربية المجاورة ، ولعل قومنا على ذكر من المثل السائر (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) .. يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به ، يا قومنا تضامنوا وتوحدوا ، ألا تعلمون من تاريخكم المشرف أن الذى أشار بحفر الخندق هو سلمان الفارسى ، وهامهم أولاء الأنصار من حول سيدى رسول الله يحملون التراب على متونهم وينشدون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً  
والحبيب المصطفى سيد البشر ، ورائد خيرى الدنيا والآخرة عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، يرد على هاتفهم مجيباً متمثلاً بقول القائل :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فبارك فى الأنصار والمهاجرة  
(٣) ويعلم الله وتشهد الدنيا غابرة ومعاصرة أن للناس أقدار متفاوتة فى كل ميدان وحقل ، فمنهم من يستطيع الجهاد نفسه ، ومنهم من يسلك طرائق أخرى إلى الجهاد ، والسبل كثيرة ، وأبواب العمل مفتحة أمام كل عامل ، وما غمط الإسلام حق أحد ، ولا احتقر عملاً مهما كان ضئيلاً للإنسان ، وإنما أعطى لكل أجراً لا ينقص من أجر الآخرين شيئاً ، وأنصتوا واقراءوا لزيد بن خالد يروى عن رسول الله ﷺ قوله :

**(أ) من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا :**

وتجهيز الغازى بإعداد العدة من آلات قتال ووسائل نقل ، وعمل سياسى ممدد ، ومناصرة حافزة ، فلم يترك الحديث الشريف مجالاً لمتراخ ، ولا حجة لمحتج ، ولا

تكأة لعاجز ، فالمجاهد الفتى الأيد القوى ، فى بدنه ، فى عقله ، فى صحته ، يسانه صاحب المال يماله إن عجز عن مرافقته إلى الميدان وصاحب العقل المدبر المقيم حيث هو ، هو فى مكان جهاد ، فالمرابطون فى الثغور أقوياء بالمواطنين اللابئين فى دورهم يحمون ظهورهم ويمدونهم بما يريدون ، مما يمكن لهم من عدوهم ، فمن استطاع الغزو بنفسه وماله فله درجة عالية ، لا يقدرها قدرها إلا رب العالمين ، ومن لم يستطيع بنفسه فالوسائل كثيرة ولم يعف الإسلام أحدًا من جهاد ، ولم يسو أبدًا بين القاعدين والمرابطين فى الميدان ، قال عو من قائل : «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْتَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا»<sup>(٩٥)</sup> دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة النساء .

### (ب) ومن خلف غازياً فى سبيل الله بخير فقد غزا :

غالبًا ما يكون لكل غاز أسرة يتركها وراءه فيها الأب والأم ، وأحيانًا الزوجة والطفل ، وقد لا يكون لهم عائل سواء ولا راع يكلوهم إلا إياه ، ولا حام يحفظهم غيره ، ولكى يغزو آمنًا عليهم إن استشهد ، أو فقد أو عاد سالمًا غانمًا ، فقد أعظم الله تبارك وتعالى أجرًا من يلى أمورهم من بعده ، ويقضى حاجتهم ويوصل إليهم كل ما يبتغون إلى أن يؤوب غائبهم ، إن قدرت له أوبة ، ويتولى أمرهم دائمًا إن لم يعد إليهم . وهذه مهمة شاقة ، وجد عسيرة إلا على من رزقه الله توفيقًا ويداؤًا وحبًا للخير وإيمانًا بما ادخره قيوم السموات والأرض له ولأمثاله من المؤمنين المخلصين ، وتلك مشاركة فى الجهاد وأى مشاركة ، وحينئذ يجزل الله له الأجر ويعطيه من الثواب ما يعطى الشهيد فى الميدان دون أن ينقص ذلك من أجر الشهيد شيئًا ، لأنه ناب نيابة كاملة عن الغازى فكفى أهله ما بهمهم من أمور معاشهم وبذلك هيا لعميدهم فرصة الجهاد والغزو فى سبيل الله .

وقد وردت فى هذا الصدد أحاديث كثيرة ، كلها حاثه عليه ، مظهرة عظم أجر العاملين المخلصين ، فما رواه ابن ماجة عن عمرو بن الخطاب رضى الله عنه مرفوعًا

(من جهز غازياً حتى يستقل ، كان له مثل أجره حتى يموت أو يرجع) وفي رواية الطبراني (من جهز غازياً في سبيل الله فله مثل أجره ، ومن خلف غازياً في أهله بخير وأنفق على أهله فله مثل أجره) وفي صحيح ابن حبان (من أظل غازياً أظله الله يوم القيامة) .

(٤) ولما كانت آلة القتال والانتقال السائد في عصر النبوة الشريفة هي الخيل ، حيث كانت وسيلة هامة ، أو هي الوسيلة الوحيدة للجهاد ، فقد امتدح رسول الله ﷺ الخيل المحبوسة في سبيل الله ، وجعل الله لمن يرهاها ويكرمها في سبيله أجراً عظيماً ، فما رواه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من احتسب فرساً في سبيل الله إيماناً وتصديقاً لوعده فإن شعبه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة » وروى أن خليلاً لتميم الداري رضى الله عنه زاره في بيته فوجده ينقى الشعير لفرسه ، ثم يعلفه عليه وحوله أهله ، فقال الصاحب : أمام كان من هؤلاء من يكفيك ؟ فأجابه تميم : بلى ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم ينقى لفرسه شعيراً ، ثم يعلفه عليه إلا كتب الله له بكل حبة حسنة » ...

وأقول الآن : قد اختلفت عدة الجهاد وآلاته فتحولت إلى طائرة في المرتبة الأولى ، ودبابات وذريات ، فمن أنشأ معملًا للإبحاث الذرية كي ينتج ما يدفع العدو ويرد كيده في نحره ، ويهيء قوة دفاعية ممتازة فله اجر عظيم عند الله تعالى ، وكذلك من ساهم في شراء طائرات ودبابات أو أى سرح للقتال والجهاد ، ففعله هذا في سبيل الله تعالى ، وهو في ميزانه يوم القيامة .

ومما يزيد الأمل ويقويه في مستقبل باسم زاهر مكللاً بالنصر والفوز للأمة العربية خاصة والإسلامية عامة ، هو انبثاق روح الفداء من جديد بين أبنائها ، والفداء لا يتوقف مطلقاً على المساهمة والمشاركة الفعلية في الميدان كما أسلفنا ، بل يشمل الإعداد للمجاهدين ، وتزويدهم بما ينجح مهمتهم على أكمل وجه ، فجامع المال فدائي ولا شك ، والمشارك في توفير عدة القتال كذلك ، وهذا تطبيق لأحاديث سيدنا وحبيبنا سيد الخلق محمد ﷺ ، فلا تقف شريعته إلى زمن أو حد معين ، ولا تقتصر على آلة خاصة أو نوع خاص بعينه كالخيل أو سواها . إنما هو توجيه عام للمسلمين وتلك الأمثال نضربها للناس لعلمهم بتفكرون .

(٥) وأخيراً .. يطرق الباب - وأنا أكتب شرح هذا الحديث الشريف- من التفت به مراراً في دروب المدينة وشعابها باديًا في مظهر المتحمس لقضاياها ، ولكن القلب كان دائماً في ريب من الذين يلبسون مسوح الرهبان ، وهم فتاكون قطاع آفاق ، ويدلف صاحبنا مناسباً في هدوء ويجلس ممسكاً بأولى صفحات ما كتبت ، ويقرأ ثم يصيح كأنه نسي من هو وما هي مهمته : أداعية حرب أنت ، أمشير قتال ، أمحرض على وحشية لا تقاوم ؟ وأجبت في هدوء المضيف المسلم الذى وصاه الإسلام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام بإكرام الضيف مهما لاقى منه قلت : مهلاً على رسلك ، إن عهدي بك هادئاً لطيفاً ، تحسن التأنى للأمور ، تختار عبارات حديثك مع الآخرين فى لطف وتأن وروية ، فما بالك تثور فى غير موضع ثورة ، ماذا دهاك ، أم تريد أن تظهر على حقيقتك عدواً فى ثياب صديق ، أو عدواً خالصاً ، أية دعوة حرب وقتال تلك التى تتحدث عنها ، اصبر معي قليلاً ، وإن كنت أعلم انك لن تستطيع معي صبراً ، أسمعني ، أليس قتل الأطفال عدواناً أليس إجلاء المواطنين عن دورهم حرباً ، أليست الإبادة الجماعية فتكاً ، ماذا تسمى الغازات المصبحة الممسية على الديار الآمنة العزلاء ؟ أسميها مداعبات بريئة ، ورحلات تنزه وتفكه ، وتمارين حرة لا تخضع لقيود ؟

وحاول صاحبي العودة إلى هدوئه وقال : أعذرني فأنا لا أحتمل رؤية الدم ولو مكتوباً اسمه على ورق ، وانطلقت ضحكات عالية من عجوز كان قد سبقه إلى بيتي وهو يصيح - أى دم يا هذا ، أيزعجك دم مسطور بحبر على ورق . ولا يؤذيك دم مراق تعاف الأرض أن تقابله ؟ لقد بدأ لذى عينين ، إنك عدو ملقاط لأسرار وأحاديث ، وما ظاهرك اللين إلا نوع من الحيلة الماكرة ، ولم يستطع الرجل البقاء طويلاً تحت وابل تقريعات العجوز يحدثني قائلاً : يا لله للمسلمين ، ي الله للعرب العزاء ، كم غرتهم مظاهر امثال هذا ، فدخلوا بينهم سماً فى سم ، وسلأ فى عظام ، وسرطاناً فى دم ، لأن المؤمن غر كريم ولكن مع من ؟ يجب أن يكون قد بدا النور لذى عينين -أكررها- فقد استيقظ فيما رأى أبناء العروية والإسلام ولم تعد تجوز عليهم تلك المخزيات ، وأنه ليجب ان تتركز دعوتنا على أخذ الحذر من كل غريب عن ديارنا مع استثناء القليل الأقل الذى أثبتت الأيام حسن صداقته وجميل وده بما لا يقبل ريباً أو شكاً . ولنمض مجاهدين فى سبيل الله ، كل حسب استطاعته والله الموفق والمستعان إنه عزيز حكيم .

## قلب وكلب

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « أن رجلاً رأى<sup>(١)</sup> كلباً يأكل الثرى<sup>(٢)</sup> من العطش فأخذ خفه فجعل يفرق<sup>(٣)</sup> له به حتى أرواه<sup>(٤)</sup> فشكر الله له<sup>(٥)</sup> فادخله الجنة<sup>(٦)</sup> .. »

رواه البخارى

(١) يموج عالمتا المعاصر ويضطرب بغارات تشن ، وحروب تستعر ، وأجسام تتهاوى تحت وقع القنا والقنابل ، وأرواح تصعد إلى بارئها شاكية ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، وتساءل الزمان فيجيبك : ما أنا إلا ليل ونهاراً ، وعاء يحتوى الباغم والصامت ، ويظل المحسن والمسيء ، ويدب فى أرجائه حامل السم ويأثع البلسم ، ولقد عييت بما عنه تسأل ، ولم أجد جواباً يشفى الغليل ، ويريح القلب العليل ، راقبت الكائنات فوجدت الجماد يتحرك ليغير موضعه فيكشف عن خبيء ، أو يرتفع لصد عاد ، والقيت العجماءات تتهارش ولكن بمقدار ما يملأ المعدة الخاوية ، ويسد

(١) رأى : فى سياق الحديث الشريف بمعنى أبصر .

(٢) الثرى فى مختار الصحاح (يفتح الثاء المثلثة والراء المهملة مقصوراً) هو التراب الندى ، وأما الثراء بالمد فهو كثرة المال ، وليس مراداً هنا ، وفى رواية أخرى للحديث الشريف : كلباً يلهث ، وورد فى المختار أيضاً : اللهثان يفتح الهاء العطش ، وسكونها العطشان ، والمرأة لهثة ، وبابه طرب ، واللهات بالضم حر العطش ، ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش أو التعب وكذا الرجل إذا أعبأ وبابه : قطع .

(٣) يفرق : يفتح الياء المثناة التحتية وكسر الراء فى المصباح المنير : غرقت الماء غرقاً من باب ضرب ، أخذت منه وهو فى موضعه .

(٤) أرواه : جعله ريان ، ضد عطشان .

(٥) فشكر الله له : قال المتقدمون رحمهم الله ورضى عنهم : معنى الشكر الثناء أو المجازاة .

(٦) ورد هذا الحديث الشريف بروايات أخرى : منها (بينما رجل يمشى فاشتد عليه الحر ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى نزل بى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه عليه حتى رقى من البئر فسقاه) ، وفى رواية : (فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله إن لنا فى البهائم لأجرأ ، فقال : إن فى كل كبد رطبة أجرأ) .

الرمق ، ويمسك الذماء ، فما دام المفترس ملئ البطن ، فلا يفكر الاعتداء<sup>(١)</sup> فقد يمر الغزال بالأسد فلا يلفت إليه حيناً ، والثعبان لا يعرض إلا إذا ديس ، والكلب لا ينيح إلا إذا أهيج ، والقط إذا أمن الإساءة صار أليفاً ، منظر تراه في الحرم الشريف ، يمسك الرجل بالحب في راحته فيسقط عليه الطائر يلتقطه ، ثم يعود إلى جوه الطليق بملء حريرته ، مرفرفاً بأجنحته شاكرًا حسن الصنيع .

دع هذا .. وتأمل الإنسان ذلك الحيوان الذى أسموه عاقلاً ، تجد العجب العجاب ، الذى حير الفلاسفة وأعياء العقابرة ، تجده أخضع ما بينه ، ووضعه قيد البحث والدرس ، وعجز فى الوقت نفسه عن أن يخضع شهوته<sup>(٢)</sup> فجمع الشئ ونقيضه ولكن فى غير تقابل<sup>(٣)</sup> وصب جام إحساساته الحيوانية البحتة على نفسه كالشاعر الهجاء الذى قبح وجهه حين أبصره فى مرآته ، وأزكى الإنسان نار الصراع فى غير موضع نزاع ، فتطايرت أشلاؤه تحت وطأة ممزقها ، وقسوة مفترسها ، وعج بها الكون ، واكتظ الفضاء حتى عافتها وحوش الفلاة ، ولوت عنها أعناقها عقبان الهواء ، فأزكمت الأنوف بما ثار من روائحها الكريهة التى عجبت بها الدنيا المعاصرة ، فما نجت من شرها قارة ، ولا تخلص من آثارها قطر ، فى آسيا قتال ، مثله فى أفريقيا أثارته دولتان يعجز عقلاؤهما - إن وجدوا - عن تعليل أثارتهما ، ادعتا إنهما كبيرتان ولكنه كبر مادة وكثرة عدد ، وتضاؤل تفكير ، وانعدام روح .

(٢) قال صاحبى : الصراع عبر التاريخ موجود ، لم يخل منه عصر ، ولم ينج من شره مصر ، ولكن صراع الأقدمين من الممكن تعليله ، أو تبريره فقد تستطيع أن تلتمس لهياجه عذراً ، فقد كانت آفاق الأرض منعزلة تماماً ، فالمرء فى قرية او مدينة لا يدري ما يدور فى القرى والمدن المجاورة ، فغزا مدفوعاً بحب الاستطلاع ، وأحياناً تحت وطأة الجوع ، وأما الآن فقد تلاشت المسافات ، وقضى على الفوارق الطبيعية ،

(١) ذلك الأعم الأغلب وله وضعت القواعد والشاذ لا حكم له .

(٢) المراد بالشهوة هنا / الرغبة الملحة التى تقوى حتى تتلاشى الإرادة ، وقد تضعف حتى تتلاشى هى وكلا الوصفين مذموم ، المماوح ، الاعتدال .

(٣) ولهذا لا يعد تناقضاً على مذهب أرسطو ، وإن عد واقعياً عين التناقض .

ومن الممكن تبادل الإنتاج دون عناء أو مشقة ، فالتاجر الآن فى أقصى المعمورة يستورد إنتاج مصنع فى الطرف الآخر منها بمفاوضات مباشرة لا تديرها حكومة ولا تحرسها طائرات قتال ، ولا تدفع بها غريزة استملاك ، وإنما رائدها المصلحة مصلحة الطرفين ، ونفع الجانبين ، يلتقى المشتري مع المنتج فى جو أخوة حانية يحدوهما النفع العام ، ويسوس لقاءهما خير المجتمع المنقولة إليه البضائع والمنقولة عنه ، والسائح الذى قدم ماله طائعا مختاراً راضياً لقاء مشاهد لم يعدها ، ومناظر يستجيلها ، يقابل فى كل مكان يحل فيه بالتبجيل والتيسير والإكبار ويقفل عائداً إلى مسقط رأسه بعد أن يكون صداقات ، ويكتسب ثقافات ومعارف ، ويفنم صحة وراحة ، فالشعوب الآن مندمجة فى بعضها حتى لا يستطيع أن تميز المقيم فيها من المسافر ولا الغرب من صاحب البلد ، ولقد جبت بلاداً من أرض الله واسعة فما رأيت غربة ولا شعرت بفرقة ، ففى كل مكان لقاء كريم مع رحابة صدر ، وفى كل موطن صديق قد تفوق صداقته أخوة اللحم والدم ، فعلام القتال يا عقلاء البشر ، ولماذا النزاع والصراع يا أرباب المبادئ وحراس الإنسانية ، وسدنة السلام كما تدعون ؟ وكما استقر فى صفحات مكتوبة مطوية ، وتلاشى واقعاً وتطبيقاً . هل من مجيب ؟!

(٣) قال صاحبي : لقد شطت ، ولحدود الحديث تجاوزت ، فما الربط بين كلام النبوة جعلته عنواناً وبين ما جرى به القلم ؟ وما درى صاحبي وهيئات أن يدري - أن صاحب الغيب الذى عنده مفاتيحه يأخذ بيد البشر إلى مسرح الحوادث لتلمسها لمساً وتحسن بها فى موضع قد يظن السامع أو المتلقى أنه بعيد وما هو بعيد ، فمن رحم حيواناً أعجم كان بالإنسان أرحم ، ومن عرف أن مغفرة الله منوطة بكل ذات كبد رطبة ، بدأ بنفسه ثم بمن يليه ، فابتعدت عن الفعل السئ فعاله ، واتجهت إلى النافع المفيد حرركاته وسكناته ، وذلك توجيه السماء على لسان خير الأنبياء ، لا يسلك الطريق المباشر وإنما يضرب الأمثال ليجذب الانتباه ، ويوقظ مكانم الإدراك ويوجه القلوب القاسية حتى تلين ، ويشحذ العزائم لفعل الخير ، فهذا حيوان ضال فى فلاة ، لا يضير الرجل موته ولا تنفعه حياته ، وسيان فى سياق جولانه الحياتى فنى الكلب أم عمر ، فلماذا يتحمل النزول إلى أغوار البئر والصعود منها ، ولماذا يمسك بفيه خفه ،

ويتلمس بيديه طريق النجاة ، ويتحاشى السقوط فى الأعماق ، ماذا يفيدته فعله هذا عاجلاً ، لا شىء فى رأى (ماكيافيلى) العصر وجزارى الإنسانية ، حماة المادة وأعداء الروح ، نسوا أو تناسوا حتى نسوا شيئاً كامئاً يحسونه ولا يرونه ، يستكن بين جوانحهم حقيقة لا تنكر ، ويهال عليه تراب المادة كى لا يظهر ، شعور ، إحساس ، ضمير ، تعبر به الإنسانية مفاوز الحياة ، وتجتاز على ضوئه طرقها المتشعبة ، ماضية إلى مصيرها المحتوم آمنة ، راضية ، نافعة ، منتفعة ، يسقى الكلب فيستريح القلب ، وأى قلب ، القلب ذو الإحساس الإنسانى الدفين الذى أنبته الله ولم تقتله المادة العفنة النتنة ، ثم ينطلق من مجال الإحسان مع الحيوان الأعجم إلى مجال أرحب ، وإلى فصيلته أقرب ، فيزيل الضر عن أخيه ، ويدرك -والحديث ذو شجون- إلى ذكر حادثة مرة بتاريخ شخص عزيز على الله ، تبدو فيها حيوية الضمير ، وانبعث الروح الكريمة المؤمنة بقيوم السموات والأرض إلى الخير ، جاءنى يوماً ذلك العزيز مهتاج النفس ، قلق البال ، لا يدرى كيف يدير القول ، فهدأت من ثأثرته ما شاء الله أن يمكنى من ذلك ، وبدأ يقص مثار ثورته الأليمة ، قال : أن فلانا وسمى شخصاً لا أعرفه (هيولى) وإنما ألا أخبره وظيفة وعملاً ، قد أساء إلى ، وبالبحث تكشف النقاب عن إساءات له متكررة بنفس الصورة مع كل طالب حق لديه ، مع أنه غريب عن الديار ، وفد إليها طالباً القوت الذى أعياه العثور عليه فى مسقط رأسه ، فجشعت نفسه حين اشتمت رائحة القطار ، فلم يكفه الحلال الذى ينساب بين يديه ، فراح يطلب المزيد فى المنوعات ديناً وعرفاً وقانوناً وأخلاقاً وإنسانية ، فأسلمته متلبساً بحريته إلى من أقاله من عمله ، وكان ذلك أخف العقاب ولكنى أشعر الآن بمرارة وأسى فقد أكون جانباً على من يعول ، ولا أدرى كيف الخلاص من عذاب الضمير فأنجذنى : وكان الجواب الذى كان ، والذى لا يوجد دواء أنجع منه لتلك النفوس الكريمة ، ورضى محدثى بالجواب وأجرى نفقة دائمة لا يزال يبعث بها من ماله الحلال إلى ذلك الذى فارق وظيفته وما فارقته متاعب النفس الآثمة ، وذكرنى هذا الصاحب بحديث رسول الله ﷺ الذى خلاصته : أن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت صخرة فهو يخشى أن تقع عليه ، ومن ران على قلبه العصيان يرى ذنوبه كذبابة مرت بأنفه فقال بها هكذا ،

وأشار الرسول بيده الشريفة إشارة من يدفع الذباب عن وجهه .

ومن تأمل الحروب الجارية ، والعدوات الأُممية السارية ، وجد أن الإنسان عند المتزعمين للعالم المعاصر ، لا يعدل كلباً ولا يساوى شربة ماء .

(٤) وقال صاحبي وقد هاله أمر الإنسانية المعاصرة عجباً لهذا المخلوق وأى عجب ، تسمو روحه حتى لا تقف أمامها حدود المادة ولا تعوقها قيودها ، وتضعف أحياناً حتى تتلاشى في ببداء الجهالة بالله والبعد عن رحابه حتى يتساوى الجميل الهائج والرجل الغاضب ، ويعوى الذئب فيأنس السارى ، ويرتفع صوت إنسان فيفر منه فرار السليم من الأجر ب . وقد قيل :

عودى لذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى      وصوت إنسان فكسدت أطيير  
وجعل صاحبي يدير القول ، وختم حديثه بمقاله المتصوف الضارب في أغوار التاريخ مثلاً ، والسارى عبر الأيام عملاً وواقعاً ، ذلك المتصوف الذى دعا لقاتله حين ظلمه ، قتلوه باسم الدين ، باسم الحرية ، باسم الإنسانية ، فمضى ضحية شهوة أخيه إلى الدماء ، يلتمس له العذر ، ويردد : تلك حكمة الله ولا اعتراض .

دع الاعتراض فما الأمر لك      ولا الحكم فى دوران الفلك  
فلا نسأل الله عن فعله      فمن خاض لجة بحر هلك

وانقض المجلس ، وأنا لا أدري متى ترحم الأكباد الرطبة ، ومتى يلجأ الناس إلى بارئهم ولكن صبراً : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا<sup>(٥)</sup> إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا<sup>(٦)</sup>) صدق الله العظيم .

(١) الأيتان ٥ ، ٦ من سورة الشرح .

## المرأة والهرة

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال :  
« دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل  
من خشاش الأرض » .

(رواه البخارى)

### تمهيد :

(١) لم يعرف بالضبط اسم تلك المرأة ، وفى رواية للإمام مسلم أنها حميرية ، وله أيضاً أنها من بنى إسرائيل ، ولعلها من الطائفة الحميرية تهودت ، فنسبت المرأة إلى قبيلتها تارة وإلى دينها تارة أخرى .

(٢) فى هرة : أى بسبب هرة ، والهرة أنثى السنور ، والهرة الذكر ويجمع على هرة كقرد وقردة وتجمع الهرة على هرر كقربة قرب ، وفى رواية أخرى للبخارى .. وعرضت على النار فرأيت فيها امرأة من بنى إسرائيل تعذب فى هرة لها <sup>(١)</sup> .

(٣) (خشاش الأرض) : هوامها وحشراتنا . ويروى بالحاء المهملة ويراد به نبات الأرض .

### الشرح :

(١) يعنف الإنسان أحياناً ، ويقسو قلبه حتى يتورد من إنسانيته ، ويصبح أشد ضراوة من الحيوان المتوحش ، ويبحث عن كل ما يرضى أنانيته ، ويشبع هواه ، ولا يضيره ألم غيره أو شكواه ، ولا يستجيب لدعائه وتوسلاته ، بل من الناس من يتمتع ويسر بمشاهدة غيره فى أتون العذاب ، وكم من (نيرون) مر بالأرض واجتاز الحياة كلها ، وكلما تقدم الزمان نمت معه طباع السوء فى الإنسان فصار يستخدم العلم والاكتشاف فى الوصول إلى أهدافه الخاصة مهما حطم فى سبيلها من رؤوس بنى أمه

(١) فتح البارى ، ص ١٦٦ ، ج ٧ ، طبعة الحلبي سنة ١٣٧٨ هـ .

وأبيه ، فدارت رحى الحروب متلاحقة متتابعة عبر التاريخ وأغار القوى على مامن الضعيف ، فتشتت أسر ، وهلك اطفال ، وبادت حضارات ، ولا زال صاحب الغنى سادراً في غيه ، صور تتكرر وتتجدد مع مر الليالي وكر الأيام ، فهل من مدكر .

(٢) جاءت الأديان بكل ملطف ومخفف ، وكان الإسلام خاتمة وقمة في الدعوة

إلى الخير ولكن هل استجاب الإنسان ؟

الجواب : لا ونعم ، لم يقبل هدى السماء من عنجهيته وحيوانيته ، فتعاطى وعقر ، وجرد آخر لسانه بكل كريمة وإقذاع ، فزادت العدوات واستعر أوراها ، وتغلب الحق حيناً بإيمان من أراد الله لهم السداد ، ووقفهم إلى ما ينفعهم في عاجلتهم وآجلاتهم ، ولاذ بحمى الله من لاذ ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فليس الخالق مخلوقاً ينصاع لترهات الحادئين ، ويتغير كالحرياء لسماع كلمة عابرة ، من ماجن لا يراعى للحرمان إلا ولا ذمة . فهو سبحانه نعم الملاذ والملجأ ، ونعم المعين على الشدائد ونعم مفرج الكرب ودافع البلاء ، إن اختبر العباد بشدة فهذا لفائدتهم ، ليصبروا فيؤجروا ، والزمان ماض والفلك دوار .

تعز فلا شيء على الأرض باقياً ولا زور مما قضى الله واقياً

(٣) .. ورسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يرشدنا ويعلمنا بأعماله ، وبأقواله ، وبالسلوك الواقعي ، بالتصوير المحس وتجسيم الأشياء في عبارات مشوقة إلى الخير ومنفردة من ضده ، ومن عاش معه بإخلاص وتبع توجيهاته الشريفة بعناية واهتمام سار معه ، ولا حق خطاه ، وانتهج طريقه ، وصارت الحياة الدنيا عنده لا تساوى جناح بعوضة ، فكل نفس يتردد بصرفه لله ، وكل لحظة تمر يقضيها في عمل ما يرضيه ، وليس مكلفاً بأن يجازى محسناً أو يعاقب مسيئاً فأمر ذلك كله إلى الله وحده .

وتأمل حديث الهرة والمرأة نجد حيواناً أعجم ضعيفاً بعث به طفل آدمى ولا يستطيع دفع وتأخذه امرأة قاسية بعيدة عن هدى لله ، تعيش في ظلام نفس الجاهلية يظلمها حقد أسود ويلاحقها طبع دنىء ، فلا تفىء أمر الله ، ويشير الحديث الشريف إلى ما كان يجب أن تفعله تلك المرأة في مثل موقفها ، حين تعثر بدابة لا حول لها ولا

طول ، فتغذيها وتطعمها وتقدم لها ما يقيم أودها ، وتشد من قواها ، مما أفاء الله عليها من خير وما منحها من عطاء ، أو تتركها تمضي في سبيلها باحثة عن رزقها منقبة عن قوتها ، في الفلاة ، في أرض الله الواسعة تتركها تغدو كما تغدو الطير خصاصاً وتعود بطائناً ، تموء وتلعب ، ففي مواثها ذكر الله ، وفي حركتها دلالة على قدرته ، وإن منعها برهاً فقد تجده في قلب آخر رحيم ، عند إنسان عف كريم ، وكان للقسوة جزاء ، وما أشد من عقاب يوم لا تمتلك فيه نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، فسوف تدخل النار ، لأنها كفرت بأنعم الله ، ولم ترحم مخلوقاً من مخلوقات الله ، وقع تحت يدها وصار في تناول قدرتها القاصرة العاجزة . وإذا كان هذا الحيوان أعجم لا يحير جواباً ولا يستطيع كلاماً ..

والضد بالضد : فلعلكم على ذكر من حديث القلب الرحيم قلب الرجل عابر الصحراء الذي أروى الكلب اللاهث الذي أكل الثرى من العطش<sup>(١)</sup> ، حين غفر الله له لقاء صنيعه الجميل وإسدائه المعروف إلى ذى كبد رطبة دون أن ينتظر عليه جزاء عاجلاً ولا شكوراً ، والمقارنة بين الحديشين تعطي أن الله تبارك وتعالى يجازى على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة عقاباً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٤) لا أرى باساً أن نتعرض لذكر آراء علمائنا الجلاء الذين تناولوا هذا الحديث بالشرح والتفسير حيث قالوا :

( أ ) قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بالنار حقيقة ، او بالحساب لأن من ناقش الحساب عذب ، ثم يحتمل أن تكون المرأة قد عذبت بكفرها ثم زيدت عذاباً بسبب هذا الفعل الشائن .

(١) ورد هذا الحديث في فصل سابق تحت عنوان (قلب و كلب) وأريد بالقلب : الرجل الرحيم الذي سقى حيواناً ضعيفاً وتكلف في سقيه جهداً ومشقة فجازاه الله بالمغفرة والرحمة ، واستحق أن ينوه عنه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف الذي خلد فعله ما بقي زمان .

(٢) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

(ب) وقال النووي رحمه الله تعالى : الذى يظهر إنها كانت مسلمة وإنما دخلت النار بهذه المعصية .

(ج) وقال آخرون - سواء كانت كافرة او مسلمة فإنها قد استحقت العذاب بالنار لسوء ما اقدمت عليه من تعذيب حيوان برىء كان فى استطاعتها أن تتركه لحربته ولقدره .

ونخلص من كل هذا إلى نظرة خارجية نلقها على العالم المعاصر والغابر والآنى : حيث نجد حروباً استعرت وتستعر فى كل جانب من جوانب الأرض أزكتها نفوس رأت فيما رأت أن الخير يجىء إليها عن هذا الطريق فهل فكر مشعلوا الحروب فى الأسر والبناء واليتامى والأرامل وكل ما ينجم عن هذه الحروب من شقاء وبلاء يزيد الإنسانية عذاباً وألماً ممضاً ؟ أفلا ينظرون فى أنفسهم وما مدى العذاب الذى يحيق بهم حين يحل بهم ما يصيبون به غيرهم ؟ ألا يرجعون إلى توجيهات السماء المنبثة فيما أوحى الله إلى عباده المصطفين الأخيار ؟ ألا يعلمون أن الرزق والأجل محددان ، وأن علينا أن نعمل ونجد فى توافق وتراحم وتصادف وتحاب وتواد ،، وليحصل كل يكون - كما توحى تعاليم السماء - عالم رحمة وسعادة وأمن ، يوصل من الطمأنينة ما يستطيع إلى القلوب الواجفة ، ويرقأ ما يستطيع من دموع الثكالى والحيارى ، هل ضاقت الأرض بأهلها ، هل جفت أنهارها وغارت بحارها ؟ أم امتنعت أرضها عن الإنتاج ومناجها عن الإدراك ؟

والجواب : لا .. إن الخير كثير ، وفضل الله على عباده وفير ، ولكن حب الغلبة والسيطرة ، وحب الدماء لدى بعض النفوس هو الذى يملأ جوها غازات خانقة وقنابل محرقة ، وطائرات تحمل الموت الزؤام ومدافع تتنفس بالدماء والإبادة والإفناء ، فيا لله للإنسانية المعذبة بايدي فجرة من أبنائها ، وكفرة من عتاة ظالمين لا يراعون للحق إلا ولا ذمة ولا يعرفون للحرمات قيمة ولا قدراً .

(هـ) وأعود مرة أخرى إلى المسلمين فأذكرهم بكتاب الله القائل : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾<sup>(١)</sup> وما ورد فيه من قصص الغابرين وعاقبة المجرمين

(١) الآية ١٧ من سورة القمر .

ونهاية الظالمين ، وسوء منقلب المعتدين ، كما أذكر بسنة رسول الله ﷺ دعوته الشريفة إلى رحمة الحيوان الأعجم والرفق بكل ذات كبد رطبة ، وإيضاحه ﷺ ما أعد جزاء للمتقين . وعقاباً للمعتدين على حدود الله ورسوله .

وأدعو الله أن يوجهنا إلى الاقتناع بما ورد على السنة رسله وأنبيائه وألائق نساق وراء الآراء الوافدة المبيدة التي تفكك الروابط وتهلك المجتمعات وتقطع الصلات وتزكي روح الحقد والبغضاء ، وصدق رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » فمن فقه وعلم واقتنع ، « وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى <sup>(١٢٤)</sup> قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا <sup>(١٢٥)</sup> قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى <sup>(١٢٦)</sup> وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى <sup>(١)</sup> .

---

(١) الآيات من ١٢٤ إلى ١٢٧ من سورة طه .

## أين الطيب؟

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ .. قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا أحد يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » .

رواه البخارى وغيره

### يبين يدى البحث :

أسعد الناس - أولاهم وأجدرهم ، أى الذى يستحق شفاعته رسول الله ﷺ ، لصدق إيمانه ، وحقيقته إخلاص العبادة لله وحده ، ويرى بعض العلماء أن الشفاعته قد تحصل للعصاة أن تابوا ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الآية ٧٠ من سورة الفرقان .

بشفاعتك - المراد بالشفاعة هنا ما سيحصل يوم القيامة ، وشفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من الأمور المقطوع بها لما ورد من الآيات والأحاديث دالا عليها مؤكداً لوقوعها ، وهى أنواع : منها الشفاعته لبعض العصاة فيخفف عنهم العذاب ، وفى ذلك تفاصيل أفاض فيها علماء التوحيد فليرجع إليها من أرا تفصيلاً وأقياً .

أول منك - أى أسبق منك ، بمعنى أنه لا يسبقك أحد فى هذا المجال ، وقد علل رسول الله ﷺ هذا ، بحرص أبى هريرة على الحديث ، وحبه لاستجلاء الغوامض ، وبحثه عن أوجه الخير للوصول إليها ، واغتنام فرصة وجوده مع سيد الخلق لتحصيل أكبر قدر ممكن من توجيهاته الشريفة ، وفى كلام رسول الله ﷺ لأبى هريرة توجيه لكل من يتصدى بتعليم الناس وإرشادهم أن يكون شديد الاهتمام بمن يعلم ويرشد ، فيعطى كلا على قدر فهمه واستعداده ، ويتفرس أحوالهم ويشجع المجتهد ليزداد إقبالاً على التعليم والتحصيل ، ويأخذ بيد الوانى ليلحق الركب ويمضى مع القافلة ، كما أنه لا

يصح للعالم أن يكتف علمه عن الناس ، ولا أن يمنعه عن طالبه مهما كانت حاله ، وقد يكون جواب العالم فرض عين عليه إذا تعين للفتيا ، وحينئذ يأثم إذا قصر .

خالصاً من قلبه - هو من وصل إلى المنزلة القصوى في الإخلاص لله ولرسوله ، وهو الجدير بشفاعة رسول الله ﷺ ، شفاعته لا يعقبها ضرر ، ويظهر إخلاصه في إذعانه وقبوله ، وقوله وعمله ، فنطق اللسان وحده لا يجدى وليس دليلاً مطلقاً على الإخلاص الكامل ، بل لابد ان يكون القول صادراً عن إيمان عميق وطمأنينة نفس ، ومؤيداً بالسير على وفق أوامر ونواهي رب العالمين ، نسأل الله - دائماً - التوفيق والسداد .

\* \* \*

(١) تختلف الأقاليم ، ويتنوع المناخ ، ويتبع ذلك تعدد النبات والحيوان ويتضام البشر ويتجمع في أماكن قد تكون دولة واحدة ، تباعدت أجزاءها ، فيعيش كل قبيل منعزلاً أو شبه منعزل عن الآخرين ، فيكتسب طبائع ، وينطق بلسان يخالف طبائع ولهجات القاطنين في بقعة بعيدة عنه ، وأمثلة ذلك في اللسان واللون والعادات أكثر من أن يدل عليها أو أن يطلب لها برهان ، وتجده واضحاً بين سكان الحواضر والبادي ، وبين أرياب الحرف والصناعات المختلفة ، كل فئة تنحاز إلى المثل والمشابه ، وقد يصل التعصب إلى شن حروب وتآريث نار وعداوات ، وكلما بدا الإنسان ازداد جفاؤة وغلظة ، فإذا نحضر لانت عريكته ، وربما تلاشت حميته لمنبته ، وقصة الشاعر البادي الذي تحضر معرفة في تاريخ داب اللغة العربية ، فمن اختباره انه وفد على خلفية زمانه فامتدحه قائلاً :

أنت كالكلب في حفاظك للود      وكالتيس في قراع الخطوب  
فهم بها أصحاب الخليفة ، فأشار إليهم ان دعوه ، لقد وصف كأفضل ما عرف  
وأجمل ما وقعت عليه عيناه من بيئته البدوية ، ولما مضى به الزمان ، وأقام ردحاً من  
الدهر في الحاضرة عاد يتغزل فيقول :

عيون المها بين الرصافة والجسر      جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري  
وهكذا يحصل التوافق والإنسجام مع الطارف حتى يختفى معه الحنين إلى التليد

ومرجع ذلك الاختلاف إلى تقدير العزيز العليم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

والعيش في عزلة تامة أو ناقصة ، كان معقولاً أو مقبولاً في عصور سلفت ، وأيام  
مضت ، وقرون تلاشت مع كرا الأصباح والإمساء ، تلك أمة قد خلت لم تعرف الطيران  
ولم تبصر الرادار ، ولم تتخاطب على موجات الأثير ، ما كان حلمًا وتخيلات ثم  
أصبح وقائع ملموسة ، ومدركات محسوسة تراها العين المجردة ، وتظن في الأذن  
المفردة ، تغلبت المادة على المادة ولم يصل البحث إلى ذلك المستكين الممتنع على  
الحواس ، ذلك الذي كشفت بعض أسرار عناصر وقهر بعضها وادخله المعمل ثم  
أخرجه منه ليعمل بقوة جديدة على اليوم ، وقديمة عليه أيضًا ، كانت خافية ثم  
وضحت ، ولم تكن معدومة ثم وجدت ، فهو باحث كاشف وليس خالقًا مبدعًا<sup>(٢)</sup> هذا  
الباحث سبق غيره في إزالة قناع بعض أنواع المادة وسيجيء من بعده (بالتأكيد) من  
سيجعل بحثه قاعدة وليس قمة .

(٢) فكر ، بم تفكر ؟ أنت تعلم فيم ولا ندرى بم ، بعقلك ما هو عقلك ؟ هل  
يستطيع الاحتفاظ بهذه القوة الخافية ، وهل تجزم باحتفاظك بها إن حاولت فشلت ،  
وإن جزمت أخطأت ، فمن العباقرة من مضى مجنوناً ، أو رد إلى الوراء فعاد كما بدا ،  
﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾<sup>(٣)</sup> . الآن ، وبعد الآن ،  
اصبحت المادة مهددة ، بذلك السلاح المعطى للإنسان من الوهاب العليم ، فلا  
تستطيع الاحتفاظ بأسرارها زماناً إن طال فهو متلاش يوماً ما ، ولكن هناك شيء قبع  
في مكان واستكن في أمان لا يمكن الوصول إليه إلا عن رضى وطيب خاطر من مالكة ،  
وقد يحاول القوي إرهاب الضعيف ليتعرف سره ، وما هو باعتراف ، وإنما استجابة  
للقوة ، فهنا يحاول المستضعف (بفتح العين المهملة) ان يرضى المستضعف (بكسر  
العين المهملة) فيقول له ما يريد كما يريد ، ليخلص من عذابه أو تعذيبه ، والحقيقة

(١) الآية ٢٢ من سورة الروم .

(٢) وكل هذا بالنسبة لعلم الإنسان فهو بعد جهل ، وأما الخلاق العليم فهو أعلم بما كان وما يكون وما  
هو كائن ، فلا زمان ولا مكان ولا أسرار ولا خوافي ولا ظواهر في حقه تعالى أبداً .

(٣) الآية ٧٠ من سورة النحل .

بعيدة عن الواقع ، وثمة شيء آخر من يملك القوة التي تجمع كل القوى المتفرقة لتتكامل وتنتج خيراً في يسر وأمن وطمأنينة ؟ ليس بعيداً ، وإنما هو قريب ، لكن المريض جاهل بالدواء ، والطبيب المتصدى للعلاج أجهل ، أو أكثر جهلاً ، والعالم الوحيد هو الفرد الصمد ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، جعل الأنفس تتألم وتمرض لتستطيع أن تعيش وتبقى زماناً مع علم وإدراك وفهم ، فلولا الألم ما بحث عن علاج ، ولولا الحاجة ما طلب النفع ، باعد المسافات ليحاول الإنسان قطعها والتغلب عليها ، وفعلاً بدأ (لا يمكن أن يقال أنتهى) ، أرسى الجبال إلى جوار الصحارى والبحار ليكشف عما يذلها وأحياناً ما يلاشيها ، ثم وضع عقدة لا تقبل حلول الإنسان ، ولا تنصاع لمطرقته مهما ثقلت ولا تدخل تحست ما أبيض له البحث عنه أو فيه ، تلك هى : الحياة والموت ، ازرع قلباً مكان آخر ، ضع كلية بديلاً عن أخرى ، أقطع عضواً أو صلّه بآخر ، وإلى متى .. إلى أمد محدود ، ثم يختفى الأصيل والدخيل ، وينمحي الأثر والمؤثر ، ويقوم على المسرح وجه جديد ليلعب دوراً جديداً ، وقد يتصور البعض أنه لو عاش العالم فلان لكان منه أضعاف ما كان ، وأظن لأنه لو عاش مهما أمتد عيشه ما تعدى ما أبدى كما أبدى ، فهذا حده وذاك دوره فى فصول المسرحية التى لا ينهيها إلا من بدأها سبحانه ، وهنا نتساءل المطالعون لمجرى حوادث العصر ، أليس الأجدى أن نحاول زرع السلام بديلاً عن القلوب الواهنة الضعيفة ، وأن نبقى على قلوب شابة فى قوة وتماسك ، فلا نحصدنا كل مطلع شمس أو مغيبها بالمتات بل الألوف ، يقولون - هذا حقل وذاك آخر ، ويعود التساؤل ولا ينتهى ، ومن يستطيع أن يحول آلات الدمار إلى آلات إعمار ؟ والجواب الذى لا جواب غيره وهو اتحاد الأهداف لدى الأطراف المعنية ، وهذا كلام جميل - ولكن كيف يتأتى مع اختلاف البيئات والثقافات وتعدد أشكال الاتجاهات الاتجاهات وألوانها ويمضى المجيب ، لا يتأتى هذا إلا بالإخلاص للذى خلق الموت والحياة ، وإلا بالحزم من القلب الذى لا نستطيع حده حتماً منطقياً بأنه - لا إله إلا الله - وبهذا تيسير الإنسانية على منهج محدود معلوم ، أمة واحدة ، لها طريق واحد وأمل واحد وسائس واحد وموجه واحد هو رب العالمين ، إذا اشتكى

(١) الآية ٢٠ من سورة الروم .

عضو من هذه الأمة تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، ولهذا نسعد بشفاعة رسول الله ﷺ في الدنيا فيخفف الله عنا العذاب النفسى والمادى اللذين نعانى منهما وتعانى منهما الإنسانية جمعاء ، ثم الشفاعة العظمى هناك ، فى الدار الآخرة ، فى اليوم الذى لا محيص عنه ولا مناص منه ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

(٣) تحدث القرآن الكريم عن يأجوج ومأجوج ، وذهب خيال الشراح فى صفتهم وأماكن وجودهم كل مذهب ، حتى تعدى الحقيقة إلى الخيال ، وذلك لخطرهم وشنيع فعالهم ، وقال البعض أنهم فى أماكن معلومة من الأرض أو مجهولة منها ، وأنهم سيفسدون ، ويهلكون الحرث والنسل ، وقد يكون ظهورهم إيذاناً بأحداث خطيرة تقع فى هذا العالم .

بالأسس القريب رأيت بعض من تنطبق عليهم الأوصاف الواردة فى كتب المتقدمين من أولى البصائر ، قوم من بنى آدم لا يعدون النوع ، ولا يتجاوزون أصوله بنائه يأكلون ويشربون كما يأكل سائر البشر ويشرب ، ويتحدثون بكل لغة ، ويجادلون بعنف ، ولا يقف جدالهم عند حدود المقال ، بل لا يتورعون عن إسالة الدماء وإزهاق الأرواح ، وهدم البنيان ، وتقويض المشيد ، إفساد العامر ، ليصلوا إلى أهداف لهم خاصة . ولا شك أنه سيكون على أيديهم خراب العالم ، ومن هنا عجيبت للقرآن ومن دقة التعبير ، والقرآن جديد وجديد ولن يكون لعصر خاص أبداً أوكد هذا بقوة إيمان ، وصدق برهان ، فقد وجد<sup>(٢)</sup> دائماً الدليل الذى لا يحتاج إلى تعقيب ، وزال عجبى لأنى موقن أنه تنزىل من حكيم حميد ، فعرفت أنه هنا يكمن السر وتقف الأفكار ، إقرأ بإمعان بعد بضع جولات فى الأرض ، بعد الطواف بأقطارها ، مع البحث المستفيض والدرس العميق ، اقرأ قوله سبحانه فى محكم الكتاب ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> صدق ورب الكعبة . من كل حدب ثم تأمل قوله سبحانه فى الآية التالية مباشرة : ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ

(١) الآية الكريمة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

٦٤ من سورة العنكبوت .

(٢) بالبناء للغائب لا للجهل بالفاعل وإنما لما تستطيع أنه تعرفه من علوم العربية الفصحى .

(٣) الآية ٩٦ من سورة الأنبياء .

شَاحِصَةً أَبْصَارَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ<sup>(١)</sup> . حين تمتلىء الأرض بهم -وستمتلىء حتماً- وتقوى شوكتهم ، فسيبدون لعمى القلوب التى هى فى الصدور ، والذين أعانوهم ، وثبتوا أفكارهم ، ومشوا فى ركابهم مخدعين سيبدولهم سوء ما فعلوا ، ويروا بأعينهم نهايتهم المؤسفة على يد أجوج ومأجوج وحينئذ سيقولون بلسان الحال أو المقال -إن استطاعوا نطقاً- يا ويلنا ، ولهم الويل والثبور فى كل مكان ، لقد كنا فى غفلة من هذا ، وارجع الإشارة ولا تتعدى منهج العربية الفصحى ، ولا تنس ختام الآية الكريمة - بل كنا ظالمين - فمنهم من نبا فظلم من حاول الإفصاح ، وألقى الكلمة الحرة الصادقة ، وتبنى الزيف والضلال فضل وهلك ، ولات حين مندم ، لأن قضاء الله لا يبذل ﴿مَا يُدْرِي الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾<sup>(٢)</sup> وإن اردت الخلاص والنجاة ، وسلوك الطريق المبعد عن الهاوية ، فثق أنه واحد لا يتعدد ، هو طريق الإخلاص قولاً وعملاً لله ، والنطق بـ (لا إله إلا الله) خالصاً من قلبك ، ولا تكن اتكالياً فسوف يلاحقك أجوج ومأجوج يحاولون استخراج ما قلبك وإبداله بشيء آخر من معارفهم إن استطاعوا .

(٤) وهنا أقف قليلاً مع عالم عربى فاقه فاحص شرع ينحو نحواً جديداً فى الفكر ، ويتلقى المعارضة برحابة صدر ، ويدأ منهجه يجد صداه فى الأوساط العلمية العالمية ، وهو مخلص ، وربما يصل .. ومن انذى أفصح المجال ليأجوج ومأجوج .. هو صاحب الحق الذى نام عنه ، واستكان وقبع ، وهذا لا ينحصر فى جيل واحد من العلماء الباحثين ، وإنما له بدء معين وإن كان علم ختامه عند علام الغيوب ، فهل يصحو النوم<sup>(٣)</sup> وهل سيسعد المرضى بطبيب ، وهل سيوجد من يقول خالصاً مخلصاً من قلبه : (لا إله إلا الله) حتى تنعكس على الأرض يلاماً وأمناً ، أرجو ، ولا أقول أتمنى<sup>(٤)</sup> والله الموفق والمستعان .

(١) الآية ٩٧ من السورة نفسها .

(٢) الآية ٢٩ من سورة ق .

(٣) بتشديد الواو المفتوحة المضمومة ما قبلها .

(٤) صدق ما رأيت ، وحق ما قصصت ، وهذا فى بلد بعيد عن الوطن ولكن قريب ، فلا بعد ولا قرب اليوم والمستول حصيف ، وذكى ، والعجيب المؤسف لنا خاصة أن القوم فى الأزمات يلجأون إلى الله إلى بيوت العبادة ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة أبعادنا عن ديننا القويم ويجدون فينا من يعينهم ، أليس هذا من العجب العجاب !!

## سؤال وجواب

عن عائشة رضی الله عنها : إن امرأة من الأنصار<sup>(١)</sup> قالت للنبي ﷺ :  
يا رسول الله كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذى فرصة<sup>(٢)</sup> ممسكة<sup>(٣)</sup>  
فتوضئى<sup>(٤)</sup> بها ثلاثاً ، ثم أن النبي ﷺ استحيا فأعرض بوجهه ، أو قال :  
توضئى بها فأخذتها فجذبها فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ . » .

رواه البخارى ومسلم وغيرهما

(١) قلت لصاحبي مالى اراك تبدو شاردا الفكر ، مبلبل الخاطر ، مضطرب النفس ،  
لا تشعر بما يدور حولك ولا تلقى بالا للعابرين أمامك . ماذا دهاك ، وأى خطب  
اعتراك ؟ هل هناك نازلة لم تسبق بمثيل ، أم أن بعد الوطن قد أضناك ، أم أن التى  
جئت تخطب ودها فى بلاد الفرنجة قد أشاحت وما طلعت ؟ . لا تدعنى ألقى أسئلة ولا  
ألقى جواباً ، فما هذا عهدى بك ، ولا هو من شنشنتك ، فكل صنو هنا أو هناك يخبر  
صراحتك ، وتدقق حديثك كالسيل انحدر من عل ، فقال : هلى رسلك ، لا تسترسل  
هكذا فى أسئلتك ، فما المصاب واحد ولكنه عديد ، ولا النازلة فريدة وإنما هى  
خطوب وأحداث ، وما يجرى على أرضنا إن هو إلا حصاد زرع سابق وثمره ما رويناها  
بجهلنا ، وعدم حيطتنا ، واشتغالنا بتوافه الأمور وسفاسفها عن النظرة والتأمل فى  
المستقبل الذى أصبح واقعنا الآن ، حاضر يززع الأصدقاء ، ويهلك الواقعين فيه ،  
وهكذا تغرق السفينة لأن الريان وأصحابه لم يأخذوا على يد مأفونهم الذى رام الراحة

(١) هى أسماء بنت يزيد بن السكن (بالسين المهملة المفتوحة ، والكاف المفتوحة أيضاً) ، وكانت  
تسمى خطيبة النساء أى واعظتهن .

(٢) فرصة : بكسر الفاء وبالصاد المهملة - فى مختار الصحاح : الفرصة - قطعة قطن أو خرقة تسمح بها  
المرأة الحيض ، فى المصباح المنير : الفرصة على وزن سدره - قطعة قطن أو خرقة تستعملها المرأة  
فى مسح دم الحيض ، ولابن سيده : تثلث الفاء .

(٣) ممسكة (بضم الميم الأولى وفتح الميم الثانية .. ثم سين مهملة مشددة مفتوحة) .

(٤) فتوضئى : المراد بالوضوء هنا معناه اللغوى ، أى تنظفى من الوضوء وهى الحسن (أى مطلية  
بالمسك وهو الطيب المعروف) .

من عناء السقيا من أعلاها فخرقتها ليندفع الماء من أسفلها ، فاستراح لحظة خاطفة<sup>(١)</sup> فهلك إلى الأبد فهلك إلى الأبد ، وهلك معه مراقوه العقلاء لأنهم بم يحاولوا الضرب على يده .

هل سمعت أحداث المشرق ، مشرقك ، وطنك ، اخوتك ، قومك ، هناك يستأسد الجبان الرعيد ، يتهاوى المقاتل الصنديد ، فهل خلت البقاع من آهليها ، أم أن دفر لها ثأر قديم عندنا تجتره الآن ، أم ماذا ؟ لا أدري كيف أدير القول ؟ ثم تأمل ، انظر ، ماذا يفعل الأعداء وماذا يكتب موجهو العصر من أبنائنا ورفصائنا ، وناولني صحيفة عربية ، وأشار إلى عنوان وكتاب ومقال طويل ويحث مستفيض ، ظننته لأول وهلة وقبل التأمل ، مقالاً في فنون القتال ، وتكوين الرجال ، وضم الصفوف ، ودراسة الواقع المحزن ، ووصف علاج ، ودلالة على دواء ، وإقالة عشرات وزحف إلى ميدان الجهاد ، في هذا الظرف العصيب الذي لا يدري أحد فيه أيصح بين أهل وولد أم تطلع عليه شمس الغد ، وهو في العراء منبوذ ، أو في جوف الأرض مدفون ، أو تخطفه الطير أشلاء ، لا يدري ، نعم لا يدري . وإذا المقال المدبح المنمق عن الجنس وما أدراك ما الجنس ، وأنا لا أفهم - وإن كنت فاهماً - معنى الجنس<sup>(٢)</sup> بهذا المعنى ، فرجعت إلى لغتي الفصحى أسألها ، ولغة أخرى قد تكون هي مصدر تلك المفاهيم ، فقال صاحبي : لا عليك من التحكك بالألفاظ ، وإنما اقرأ وأسمع (بفتح الهمزة وكسر الميم) ، وقرأت ولم أسمع (بضم الهمزة وكسر الميم أيضاً) لأن المجلس عام ونحن نقتعد ركناً قصبياً نتعاور القول ، قرأت كلاماً يريد كاتبه أن يدرس الجنس فى مدارس الشرق ، وأن يعلم فى البيوت ، وأن يعرف فى النوادي ، وأن يلم به الناشئة ، لأنه شىء يغير مجرى حياتهم ، ويؤثر فى مستقبل أمرهم ، وإن لم تتدارك حكومات الشرق هذا الأمر الخطير ، وتجلس (بضم التاء المثناة من فوق) الولد إلى جانب البنات فى كل المراحل الدراسية ، وتدعهما يتلاقيان على البلاجات وفى الشوارع والمقاهى والحفلات التى تجوب البلاد - إن لم تفعل حكومات الشرق هذا ، فقد ادلهم

(١) الفاء للترتيب والتعقيب لأن الفرق يعقب الخرق دون إبطاء .

(٢) الجنس المنطقي : هو الكل المقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة فى جواب ما هو .

الخطب وزاد فداحة واستشرى الشر ولا يمكن تداركه ، ولا نستطيع أن ننازل الأعداء ، ولا نتمكن من صدهم عن أرضنا أرض الآباء والأجداد ، ومسرح حياتنا ، ومرابع أولادنا ، ومنبت قوتنا . وضرب صاحبي كفاً بكف في ألم مرير ، وتقلص وجهه تشنجت عضلاته حتى خشيت عليه أن يهلك غمًا ، ويتلاشى أسفًا على ما يتجه إليه الموجهون ، وما يضيع فيه وقتهم ثم اتجه إلى بكليته ليقول تأمل الإسلام ورسول الإسلام ، وتوجيهات الإسلام ، تر أدبًا وألفة ، وتدرك حسن التأنى للإفهام والتفهم ، ثم دعنى أفصح لك عما أريد من واقع الحياة ، ولنختر بيئة من البيئات التى بنعتونها مترمنة : ولنسائلها هل يجهل ناشئتها علاقة الرجل والمرأة جهلاً مطبقاً ، هل لا يدرون وظيفة كل عضو فى الهيكل الذى يحملهم أو يحملونه ؟

والجواب : أن هذه الأمور أمور معروفة مدروسة تجرى مع الدم منذ جرى ، وتلاحق النفس على أول نفس للمرء فى الحياة ، فالأم -دائمًا- تعلم بنتها كيف تتطهر من الدم إذا أدركها البلوغ ، والإسلام يوضح فى دروسه الجبرية المفروضة تعلمها على كل فتى وفتاة إبان السابعة من العمر ، أى والعود غض رطيب ، ودليل ذلك قول الرسول الكريم : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع وأضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » . ومعلوم بداهة من الشريعة أن الصلاة لا تصح بدون وضوء شرعى ، والوضوء يستلزم غسل أعضاء وإزالة الأدران عن أعضاء ، وتلك الأعضاء يذكرها فقه الإسلام بأسمائها ولا يكتفيها ، ويعلم الناشئ الصغير وأخته ما هو القبل وما هو الدبر .. وفى حديث الباب سؤال امرأة وجواب رسول ، وتوضيح أم المؤمنين ، فواظمة النساء على عهد رسول الله تستفسر منه عليه الصلاة والسلام ، عن الطهارة من الحيض ، وكيف يغتسل منه ، وهو عليه الصلاة والسلام يجيبها فى أدب نبوى كريم ، وما استحيأه ﷺ إلا ليوجه نساء المسلمين أن يتعلمن ليعلمن ، وأم المؤمنين عائشة تعرف الأحكام بدقة وهى ك معلمة توضح أدق توضيح ولا تستحي من الحديث عن أعضاء خاصة مع نساء المؤمنين وهن يعلمن بناتهن ، وهكذا تمضى السلسلة الكريمة المتواصلة ، ومن له بنات يعلم تمام العلم كيف يصلن إلى الطهارة من النجاسات الناجمة عن الحيض ، وهى طريق أكثر سلامة ووضوحاً وأقل عثرات ،

وكذلك الولد واجب عليه شرعاً أن يعرف أحكام الغسل ومن قبلها أحكام الوضوء ، ويجز ذلك إلى الكلام الصريح الواضح عن الأعضاء التي يهيمه ان يعرف عنها ما يريد ، وبهذا لا نحتاج إلى دراسة أكثر من دراسة الفقه الإسلامى فى هذا الموضوع ، فلا يمكن للمعلم الواعى الفاهم الملم بحكمة التشريعات الإسلامية أن يصد الطالب عن سؤال أو يمتنع عن إجابته ، وقد زاولت التعليم فى مختلف مراحلها وصنوفه سنين وسنين ، وما صدت طالباً عن سؤال أبداً ، وما تركت مسألة دون توضيح كامل شامل ، وخبرت الشباب خبرة طويلة ، فى مختلف الأعمار والأعمار وأفضوا إلى بما يريدون وما تنطوى عليه نفوسهم فى صراحة ووضوح ، وكانت الشريعة دائماً هى مصدر الجواب المقنع الشافى الوافى .

(٢) الحق أن الإسلام دين ونظام لأمة تعمر الكون ، وتعمره بكل ما تحمله الكلمة من معان كريمة ، ولكن - وأسفاه - جهل المسلمين بإسلامهم جعله بعيداً عن مجرى حياتهم ، والإسلام يعنى بالناشئة من كل نواحيها يعلم بوجهه ويعطى الدروس فى أسلوب عف مفهم فاحص لا إلتواء فيه ، ولكنه ينأى عن مهاوى الردى ، ويباعد بين الوليد - ذكراً أو أنثى - وبين مساقط الزلل الأخلاقى ، وقد قال شراح الحديث من العلماء السابقين رحمهم الله : يستفاد من هذا الهدى النبوى الكريم أن العالم يجب أن يكتفى بالجواب عن الأمور المستورة ، وأن المرأة تسأل عن أمور دينها ، ومن الفضل دائماً تكرير الجواب لإفهام السائل .

وأقول : إن دراسة الفقه الإسلامى فى عباداته وغير العبادات ، فرض على كل مسلم ومسلمة وإذ بدونها لا يدرى شىء عن طرائق العبادات ولا الدخول فيها ، ولا ينفع التقليد فى العبادة ولا المحاكاة ، وتعلم العبادات يصل بالناشئة المسلمة إلى معرفة كل ما تهتم معرفته فى هذه الحياة خاصها وعامة جنسية وغير جنسية وتدقيق النظر فى حديث الرسول وحوار السيدة السائلة وجوابه لها ثم شرح أم المؤمنين يوضح تماماً أنه لا بد وأن تعرف المرأة كل شىء عن أخص ما يخصها تقول عائشة : إن امرأة سألت النبى ﷺ عن غسلها من الحيض فأمرها كيف تغتسل قال : خذى فرصة من مسك فتطهرى بها ، قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : سبحان الله تطهرى بها .. قالت

عائشة فجذبته فقالت لها : تتبعى بها أثر الدم .. وما بعد توجيه الرسول من توجيهه ..  
وقد تحدث الفقهاء عن أشياء قد يظنها من لا إطلاع له على الفقه الإسلامى أن  
البحث فيها وليد العصر الحاضر ، ولا يعلم أنها قد قتلت بحثاً فى عصور سلفت ، وما  
ذاك إلا لأن الإنسان هو الإنسان فى رغباته وميوله وشهواته فى كلياتها لم يتغير منه  
شئ منذ أن دب أبواه على وجه البسيطة .

(٣) وعودا إلى التعقل والبحث والاستقصاء ، ودراسة ما معنا ، وما بين أيدينا  
والاستنارة بآراء الغير فى بعض المشكلات التى لم تطرق وما أقلها . والواقع أننا فى  
حاجة إلى وعى نابع من مقدساتنا من أخلاقنا من عقائدنا من أرضنا من محيطنا ،  
وكثير من النبات المزهرة الجيد الثمر ، العبق الأريج ، يذبل ويذوى إذا غرس فى  
منبت لا يناسبه . وجو لا يليق به . والفضائل الإنسانية معروفة ومدروسة والطريق إليها  
واضحة وحاجتنا فى هذه الأيام إلى استعمال الحكمة والتعقل والبعد عن تمييع  
الأخلاق حاجة ملحة ولا شك ، ويعجبني كاتب معاصر ، يسطر مقالاته فى إحدى  
الصحف المستنيرة تماماً ويغذيها بخبرته الطويلة فى حقول ثقافية مختلفة ، وقد طرقت  
فى الشهر الماضى موضوع الواقع المرير الذى يعيشه الشرق العربى الآن ، وعالجه  
علاجاً حكيماً محكماً ، فلمثله يهدى القول وفى مطالعة كتاباته لا يضيع الزمن ، والله  
الموفق المستعان .

## (خوارق - فهل من مذكر؟!)

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم فى المهد<sup>(١)</sup> إلا ثلاثة : عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال إليه جريج ، كان يصلى ، جائته أمه فدعته ، فقال : أجيها أو أصلى<sup>(٢)</sup> ، فقالت : اللهم لا تمته حتى تربه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعته<sup>(٣)</sup> فتعرضت له امرأة فكلمته فأبى فأنت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً ، فقالت : من جريج فأتوه فكسروا صومعته ، وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ، ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ فقال : الراعى . قالوا : نبى لك صومعتك من ذهب ؟ قال : لا ، إلا من طين ، وكانت امرأة ترضع أبناً لها من بنى إسرائيل ، إذا مر بها راكب ذو شارة<sup>(٤)</sup> ، فقالت : اللهم أجعل ابنى مثله ، فترك ثديها ، واقبل على الراكب ، فقالت : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديها يممه ، قال أبو هريرة : كأنى انظر إلى النبي ﷺ يمص أصبعه ثم مرت بها أمه فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها . فقالت له : ولم ذلك ؟ قال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون : سرقت زنت ، ولم تفعل » .

رواه البخارى وغيره

قاعدة القول : فى شهر رمضان المبارك يحلو السمر ويطيب الحديث ، حيث تترف على العالم الإسلامى روح كريمة طيبة ، وتشيع فيع العبادة خالصة لله وحده ،

- (١) المهد : هو ما يهيا للطفل الرضيع الحديث الولادة من فراش خاص .
- (٢) أجيها أو أصلى : معناه أن نفسه حدثه دون تلفظ - استمر فى صلاتى وهى صلتى بربى أم أقطع صلاتى وأجيها ، وآثر بعد ذلك على إجابتها .
- (٣) الصومعة (بفتح الصاد المهملة وسكون الواو مع فتح الميم التى بعدها) : المرتفع المحدودب أعلاه .
- (٤) ذو شارة : صاحب جيش أو ذو بزة وهيئة حسنة يتعجب منها ويشار إليها استعظماً لأمرها ومظهره الخلاب الذى يستوى النفوس ، وترنو إليه العامة ، ويبجله الخاصة .

وتنسى المادة في صورتها الكالحة ، وتتحول الحياة لقاءات قلبية روحية يغذيها القرآن العظيم ، وتعطرها سيرة رسول الله صلى ، وتطفو الذكريات الحبيبة إلى قوم مؤمنين ، ولما كان كل ما صدر عن الصادق عليه الصلاة والسلام حق وصدق ولا يتطرق إليه شك : **(إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَخِي يُوحَى)** (١) ... لكل هذا أحببت أن أتحدث عن مجلس كريم من مجالس حبيب الله ﷺ التي كان يعقدها مع أصحابه وأصفيائه ، فيستمعون إليه في حب وخشوع ، ومن حولهم الدنيا تصيخ سمعاً وستظل تردد أصداء رسالته الشريفة ما بقى الزمان ، وما تعاقب الملوان ، في هذه الجلسة المباركة يروى أبو هريرة - وهو من الرواة المكثرين لشدة ملازمته لرسول الله عليه الصلاة والسلام- ويردد كلامه الشريف حاكياً عن من تكلموا في المهد صغاراً ولم يدبوا على الأرض ، مبرزاً خوارق العادات ، ولا عجب فتلك قدرة الله الفعال لما يريد في صورة لا يتناول إليها بشر ممن خلق ، شارحاً هدف القول ودواعيه ، فما كان نطق هؤلاء الرضع عبثاً ولا لغواً من الحديث ، وإنما لإبراز حق معمي ، وإيضاح فضل مضاع ، ودفاع عن كرامة تكاد تهدر ، وتبيناً لموقف دقيق خاف تلبس واختلط على أم الثالث ومعاصريها ، بل هو مشكلة لا تجد حلاً في كل عصر ومصر وجد فيه جبارون وعتاة ظالمون (٢) .

(١) (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة) : ورد في الآثار الشريفة - أن الذين تكلموا صغاراً كثيرون ، وصلت بهم في بعض الروايات إلى أحد عشر ، وأقر هذا العدد جلال الدين السيوطي رحمه الله ، وعلى هذا فالحصر الوارد هنا لإبراز من تحدث رضيعاً مقيداً بوجود في المهد ، وقد دار خلاف طويل حول العدد والكيفية لا أجد ما يدعو لإعادة القول فيها ، فليس هذا هو مجال العبرة والذكرى ، ولنقصر الإيضاح على من ورد ذكرهم في حديث اليوم .

والأول : هو سيدنا عيسى عليه السلام ، وقد ورد حديثه في المهد في موضوعين ،

(١) الآية ٤ من سورة النجم .

(٢) فالبشر يخدمهم المظهر ، ولا يبحثون عن ما وراءه غالباً ، فهذا عظيم لأنه ملك (لفتح الميم واللام والكاف) وذاك حقير لأنه (ملك) بضم الميم وكسر اللام . والناس من يلقي خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطف الهبل .

يهدي من روع أمه - في أولهما - حين استتدت إلى جذع النخلة ، واشتدت بها الآلام الحسية والنفسية ، فتمنت أنه لو كانت لقيت حتفها قبل وضع ليدها ، حياء من الناس ، وإبتعاد عن لائمهم ، فلم يعهد في الحياة وجود ابن بدون أب - هنا - أنطق الله عيسى في لحظة ولادته تطيباً لقلب أمه وتسكينه لتأثيرها ، لتدرك يقيناً معنى قول جبريل لها الذي حكاه القرآن الحكيم ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾<sup>(١)</sup> . ومنطوقه عليه السلام في هذا الموقف العصيب نص عليه الكتاب العزيز في قوله الله تبارك وتعالى : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا<sup>(٣)</sup> وَهَزَيْتِي بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا<sup>(٤)</sup> فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ... الآيات الكريمات من ٢٣ إلى ٢٦ من سورة مريم ...

والحالة الثانية : حين أتت به قومها تحمله فاستنكروا هذا منها وقالوا : ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾<sup>(٥)</sup> فلم تطق ما قالوا ولكنها لم تنطق ببنت شفة حيث أمرت (بالبناء للمجهول) بالصمت ، وأشارت إلى وليدها الذي كان يمتص ثديها حينذاك ، وزاد عجب القوم منها ، وصاحوا بها : يا هناه ما هذا الخبل ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾<sup>(٦)</sup> فأنطق الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى للمرة الثانية بما ورد فيما نزل على خير رسل الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ...﴾ الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ من سورة مريم . ذلكم عيسى بن مريم الذي ثبتت نبوته ورسالته ثبوتاً لا ريب فيه ، ونحن نؤمن أنه بشر من البشر عبد الله ورسوله ، وليس خارجاً عن هذه الدائرة بحال .

الثاني : جريج (بضم أوله وفتح ثانيه على وزن فاعيل مصغراً) .. وقد ورد في حديث أبي سلمة أنه من بنى إسرائيل ، وكان تاجراً ، عاف التجارة وعزم على التهرب

(١) الآية ٢٦ من سورة مريم .

(٢) الآية ٢٧ من سورة مريم .

(٣) الآية ٢٩ من سورة مريم .

واعتزال الناس والانقطاع إلى الله عز وجل ، فلا يلقي أحداً ولا يكلم إنساناً مهما كانت صلته به ، وكان وحيد أمه فجاءته يوماً إلى صومعته تناديه ليطمئن قلبها وتأنس إلى حديثه ، ولحظة وصولها إليه كان مستغرقاً في صلاته فلم يسمع صوتها ، أو سمع وآثر الاستمرار في مناجاة ربه مفضلاً إياها على إجابة أمه ، وقد ورد عن عمران بن حصين أنها جاءت ثلاث مرات وفي كل مرة ترجع أدراجها دون لقاء ، فغضبت لذلك أشد الغضب ، وطلبت إلى الله عز وجل ألا يميته حتى يريه وجه الزواني ، ولم تدع عليه بالوقوع في الفاحشة رفقاً به ، واستجاب الله دعائها فوفدت إلى صومعته امرأة فاجرة ذات منصب وجمال - وكما ورد في الآثار الشريف - ثم عرضت نفسها عليه فلم يلق إليها بالأى ، ولم يعرها اهتماماً ، وكأنه لم يسمع ولم تقل ، وبلغ من شدة فجورها وعهرها أن مكنت راعي غنم من نفسها فحملت منه ثم ادعت أن هذا الحمل من جريج ، وشاع ذلك في الناس ، ومن الناس من يهشون لإساءة الصالحين ، ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا<sup>(١)</sup> ، وتكأ كأمعاصرو جريج عليه ، وانهاه مواظنوه على صومعته هدماً وتخريباً دون تزو ولا بحث عن الحقيقة ، ونسوا أو تناسوا أن من عهرت تستسيغ كل شيء ، وليس الكذب ولا البهتان ذا بال عندها ، فما بعد الفجور الشائن شيء يستقبح لدى الفاجرين والفاجرات .. ولندع الآثار الشريفة تتحدث عما كان . روى أنها سئلت حين وضعت وليدها : من أبوه ؟ فأجابت : أبوه جريج .. فأقبلت الجماهير الصاخبة على صومعته بالفؤوس ، ونادوه فلم يجيبهم ، حتى سمع بحوائط صومعته تنهار ، فسأل ما الخبر ؟ ولم يجد جواباً ، وأنزلوه وجعلوا فى عنقه غلا وربطوه إلى الفاجرة وطافوا به مسالك مدينتهم ، وقد روى أبو سلمة أن كبيرهم قال له - الرواية عن رسول الله ﷺ - ويحك يا هذا ، كنا نراك خير الناس حتى أحبلت هذه ، اذهبوا به فاصلبوه ، فالتجأ جريج إلى الله عز وجل ، وأقبل على الغلام وناداه : من أبوك ؟ فأجاب : راعي الغنم ، والناس من حوله يسمعون .. فأعظموا أمر جريج وندموا على ما فرط منهم فى جنبه ، وقالوا : كما نص الحديث الشريف : « بنى لك صومعتك

(١) وقد أوعد الله متزعمى الزور والبهتان على عباده وأصفيائه بالعذاب المهين فى الدنيا والآخرة .. قال تعالى فى سورة النور : ( إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ) ، الآية رقم ١٩ .

من ذهب ، قال : لا ، إلا من طين » . وهكذا نجى الله عبداً من عباده الصالحين ، بخارقة لا يقدر عليها إلا باريء النسب سبحانه ربي لا إله غيره ولا معبود بحق سواه ، وما ذلك إلا لأن الرجل أخلص دينه لله ولم يكن مرايئياً ولا خداعاً .

والثالث . وليد ، خدعت أمه مظاهر الجاه الزائل ، وخلبت لبها آثار التعاضم الفاني فظنت كما قيل : ( كل الصيد في جوف الفرا ) وأن المجد والسمو تركزا في الفارس أو قائد جيش التوت نحوه الأعتاق وخضعت له الرقاب ، فتضرعت المرأة إلى الله أن يجعل إبنها في مثل هذا الوضع المعجب لها الفاتن لبصرها ، وهنا يصيح الرضيع من مهده ، مهلاً يا أماه فأنت لا تدرين أين الخير . يا رب لا تجعلني مثل هذا الجبار المتكبر ، وإدخلني برحمتك في عبادك المخلصين .

وإذا مشهد آخر من مشاهد الحياة العاتية القاسية يستراى لتلك المرأة فتألم وتخشى أن يلقي إبنها ما لقيت أمة مسكينة لا حول لها ولا طول ، تناولتها السنة السوء العفنة الرامية إياها بأشنع ما ترمى به حرة كريمة أبية ، تطعنها في عرضها وتهدم كرامتها ثم لا تتورع عن إهانتها والعبث بها وكأنها جماد لا يقام له وزن ، وليست لها نفس عزيزة على خالقها ، يهتز عرشه إعظماً لما يجري معها ، صاحت الأم الرؤوم : اللهم لا تجعل أبني مثل هذه ، وهنا أيضاً يعود الوليد إلى الاعتراض على أمة ، ويقول اللهم اجعلني مثلها ، وتحار الأم ، ولا تكاد تصدق سمعها يحمل إليه حوار وليدها ، وسرعة رده المعاكس عليها ، وهي لا ترجو له إلا الخير حيث كان ، وتساؤل ذلك الوليد . ماذا دهاك يا بني ؟ وما الذي حملك على النفور من الفارس المبجل ، وتطلب مكان أمة ضعيفة مهئية زاوية ذابلة يتبعها الصغار رمياً بالحجارة ، والكبار طعنًا بالألسن ؟ وبجيب الوليد : أصيغى سمعاً يا أمة الله .. فلا يغرنك مظهر من مظاهر الحياة الدنيا ، فهذا جبار عنيد لا يرعى للحق حرمة ، ولا يقيم للخلق الكريم وزناً ، فله عند الله عاقبة السوء ، ولا أحبها لى عاقبة ، وأما الأخرى التي تزدريها أو بالأحرى أشحت بوجهك عنها ، فتلك صاحبة المكانة عند رب العالمين ، لأنها تهان ولا تهين وتؤذى ولا ترد الإيذاء .. فالحظوة لها يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وتلك منزلة أحب أن أنالها يا أماه .

(٢) قلت لصاحبي : ألا ترى فى هذا الحديث الشريف حب الله لعباده المصطفين الأخيار ، وغيرته عليهم أن ينالهم أذى ، وأجاب : إنى لأعجب لمتكلم فى المهد وما يزيل عجبى إلا ثقى وإيمانى بقدرة البارئ المصور سبحانه ، ولعل فى هذا الحديث إيحاء إلى أن البشر مهما بلغوا من اكتشاف لأسرار الكون فهم عاجزون كل العجز عن الدنو من مجال الخوارق الإلهية ، ويذكرنى هذا بمحاولة قام بها بعضهم حين مزجوا ماء رجل وامرأة ، وجعلوا المزيج فى درجة حرارة الرحم لينظروا ماذا يصير ، أيموت الحيوان المنوى أم يتطور بشراً سوياً ، ولا غرابة حين كان الفشل حليف التجربة ، وما بالهم إذا أرادوا إيجاد حياة يعتمدون إلى حياة موجودة يولدون منها ، إن كانوا علماء حقاً فليوجدوا غير الموجود وصدق الله العظيم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ<sup>(١)</sup> أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ<sup>(١)</sup>﴾ والأعجب من كل ذلك ما يقوم به البعض من إنكار لوجود الله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا<sup>(٢)</sup>﴾ مهملين عقولهم ، ومحاولين صياغة هذا الهراء فى قالب فلسفى يلقى إلى الناس ، وفى هذه الأيام تقوم مساجلة على الأثير فى إحدى العواصم الأوروبية بين المصدقين والجاحدين . ويدعو البابا بولس السادس إلى مؤتمر<sup>(٣)</sup> ، يحضره المصدقون من اليهود والنصارى والمسلمين مع الجاحدين الذين لا يؤمنون بالله لنرى أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ، وإن آية واحدة مما يجرى فى الكون لتكفى برهاناً لإيمان وأساساً لتصديق ، وقوة ليقين الله ، ولكن ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ<sup>(٤)</sup>﴾ صدق الله العظيم .

(١) الآيات ٥٨ ، ٥٩ من سورة الواقعة .

(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٣) يدعو البابا بولس السادس إلى عقد المؤتمر فى (فيينا) عاصمة النمسا ، وقد اشارت الليموند Le Monde الفرنسية فى عددها ٦٨/١٠/٣ إلى هذه المساجلات تحت عنوان (حوار بين الكاثوليك الجاحدين) Le Dialogue enter Gatholi'ues et Ath'ees فى مقالها الإفتتاحى ، وأرجو الله جلت قدرته أن يوفق البلاد الإسلامية إلى الاشتراك فى هذا المؤتمر بخيرة علمائها الفاقهين جيداً للغات الإنجليزية والإيطالية والفرنسية وهم كثر والحمد لله وليكونوا من الملمين بمختلف الفلسفات الحديثة التى يعج بها العالم المعاصر فلن تكون المساجلات مبيتافيزيقية بحتة ، ولكنها عامة تتناول الاجتماع والاقتصاد بوجه خاص غالباً .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة يوسف .

## الصوم المشير

قال رسول الله ﷺ :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع

طعامه وشرابه »

(رواه البخارى)

(١) الصيام عبادة قديمة ، فرضها الله على الأمم التى سلفت وبادت ، كما فرضها على أمة سيدنا محمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

وعرفه الوثنيون وأخذوا أنفسهم به ، كقدماء المصريين واليونان والرومان ، إلا أنه لم يكن بالطريقة التى حددها الإسلام خاتم الأديان السماوية .

والصوم فى لغة العرب معناه الإمساك والكف عن الشىء مطلقاً ، وفى التنزيل الحكيم ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنُ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾<sup>(٢)</sup> فسمى الإمساك عن الكلام صوماً ، ويخصه الشارع الحكيم بالإمساك عن قضاء شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس إيماناً واحتساباً لوجه الله تعالى .

(٢) والصوم هو الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا يدخله الرياء ولا المباهاة ، ونظرة عجلى على سائر الأركان الأربعة الأخرى (كلمة التوحيد ، الصلاة ، الزكاة ، الحج) ترينا منافذ الرياء فيها مفتوحة على مصاربعها فمن الممكن أن يردد إنسان ما الشهادتين بلسانه رياء وخديعة دون أن يكون لذلك أثر مستقر فى قلبه ، ولهذا لم يدخل القرآن الناطقين بها بالسننهم فى عداد المؤمنين : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وإجابة سيدنا عمر

(١) الآية ١٨٣ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٦ من سورة مريم .

(٣) الآية ١٤ من سورة الحجرات .

رضى الله عنه لصاحبه الذى حدث عن آخر مادحاً لأنه شاهده يصلى ويطلب الصلاة - معروفة ومشهورة - حيث قال له : (أعزك رفع رأسه وخفضها فى المسجد) ، وكذلك أمر الزكاة ، فقد تخرج ليقال فلان ينفق ويزكى ، وليسير بحديثه الركبان وما الحج عن ذلك بيعيد .

(٣) أما الصائم فلا يعلم حاله على حقيقته إلا علام الغيوب ، فهو سبحانه المراقب له وحده والمطلع عليه وحده ، حيث أن فرص التخفى فيه عن الناس كثيرة . ولهذا ختمت الآية الكريمة التى فرض الله بها الصوم بقوله تبارك وتعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فهذا الختام يشير صراحة إلى أن الله سبحانه فرض على المسلمين هذا الركن من أركان الدين ليعدهم لتقواه بالابتعاد عن المباحات الميسورة امتثالاً لأمره ، واحتساباً للأجر عنده ، وبذلك تتكون وتقوى فيهم العزيمة وقوة الإرادة على ضبط النفس عند الملمات المثيرة .

(٤) فالإمساك - اختياراً - عن قضاء الشهوات الملحة التى تقتضيها طبيعة البشر ، ويستلزمها التكوين الخلقى للإنسان والتى لا استمرار لوجوده إلا بها ، لا شك يعود المرء على خشية ربه دائماً سراً ونهاراً ، ليلاً ونهاراً ، فمن يمنع الصائم من أكل شهى ، وشرب لذيذ مع إلحاح الجوع والظمأ ، ومن يذافعه عن موقعة حليلته حين لا يطلع عليه أحد شهراً كاملاً غير خوفه من سلطان ربه<sup>(١)</sup> وإقراره بطاعة خالقه ووقوفه عند حدوده ، امتثالاً لأوامر وإجتناباً لنواهيه ، رغبة فيما أعد له من أجر ، وما ينتظره من مثوبة عنده أكبر . وتلك خلال من اعتادها أخذ نفسه بها حتى صارت له خلقاً أبعده عن سفاسف الأمور وذنابل السلوك ، فلا يكذب ويمين ، ولا يخادع ، ولا يقترف منكراً ولا يجترح سيئة ، ولو ألم باليسير سارع إلى التوبة ، ويادر بالندم ، فأبصر وأتاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٥) وللصوم فوق فوائده الصعبة التى ندع الحديث عنها للطبيب المختص فهو بها أدرى وعلى تشخيصها أقدر - ولا يبتئك مثل خبير - ومع تربية النفس تربية روحية ،

(١) المراد فى وقت الصيام وهو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس .

(٢) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .

له جانب آخر مادي حيث يبعد عن الوقوع فيما يغضب الله حين يضعف القوة الشهوانية - كما حدث بذلك من لا ينطق عن الهوى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فقال : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء )<sup>(١)</sup> .

ومن ثماره كذلك تربية الشعور بالتجاوب الإنساني في السراء والضراء ، فمن أصابه ضر ثم عوفى أزال ضر غيره إن استطاع ، ومن جاع أو ظمى علم أن في الناس من يجوع ومن يظماء ، ومن مرض رأى الصحة نعمة لا تदानها نعمة ، فبذل جهده حين يقوى في إغاثة المحتاجين وسد عوز السائلين ، وبذل خيره وعم معروفه من عرف ومن لم يعرف إبتغاء مرضاه الله ، وإجابة لداعى الحق والخير .

ومن استطاع فهر نفسه التي بين جنبيه ، وأمكنه التغلب على نوازعها المضادة أمكنه أن يوجه قواه إلى كل نافع مفيد للإنسانية ، وسار في ركب الذين حملوا الأمانة ، فحملوها ، وكلفوا بالدعوة فبلغوها ورأوا عثرات غيرهم فأقالوها ، وصاروا قدوة في التضحية في جميع مجالات المحبة والسلام ، ورفع راية العدل وإقرار السلام دين الله الذي ارتضاه لعباده ﴿الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾<sup>(٢)</sup> .

(٦) ومن استطاع الصوم كما يرضى الله برىء من النفاق والشقاق وقول الزور وكان في المجموعة الإنسانية لبنة طيبة كريمة تسد الفراغ ، وترتق الخرق ، وتدفع ركب الحياة إلى أمن تنشده الدنيا ، وكان داعية سلام نادى سلام نادى به الفلاسفة والعقلاء ، واستقرار ينتج أزهاراً عبقة يغمر أرجحها الوجود فتبيد الحروب الباردة والساخنة وتوجه الناس إلى بارئهم ، وتلتقى بهم في رحاب خالقهم ومدبر أمورهم ، وتنفي الغل والحقد والكيد والحسد ، وتلك عوامل بوار لو بادت لنما الوفاء والحب وغمر الكون جو المدينة الفاضلة التي أنشأها الفلاسفة في مخيلاتهم بعد أن عجزوا عن تحقيقها في واقعهم ، وقصارى القول : لا طريق يهدى إلى الخير المحض الخالص

(١) الوجاء لغة .. رض النشئين وهو كالخصاء مضعف للشهوة الجنسية .

(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .

إلا طريق الإسلام ولا وسيلة تقضى على آلام البشرية وتمحوها إلا الوسائل وللعبادات الإسلامية جوانب فوق ما يحس البشر وما يرون ، وما بينهم وبين الوصول إلى كنهها إلا الاستقامة على الدين وإخلاص النية لله رب العالمين .

(٧) وأخيراً إذا كان فضل الصوم بهذه المثابة من القوة ، وتلك منزلته من العبادات القروضة فما جزاء الصائم ، وما مكافأته التي أعد الله له ؟ ونترك حديث الجزاء والثواب لمن يستطيع الحديث فيه ، للرؤوف الرحيم الموحى إليه من الحى القيوم ونستمع لصاحبى جليل يحدثنا عنه ﷺ كما حدثهم واصفاً ثواب الصائم ومبيئاً بعضه ؛ يجب أن يكون عليه حالة من الكمال الأخلاقى ، يقول عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجرى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى ، للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلافه فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، والصيام جنة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم »<sup>(١)</sup> .

وما بعد بيان رسول الله بيان ، فذلكم هو الصوم المطلوب وماكم جزاؤه عند الله ، فلا تعلم نفس ما أخفى للصائمين من قررة اعين جزاء بما قدموا فى الأيام الخالية ، وما راقبوا أنفسهم عند خلوتهم لأنفسهم بعيداً عن أعين الناس ، وما امتثلوا من تعاليم حبيب الله ورسوله الرؤوف الرحيم .

(٨) وفى الختام أحب أن يقف الصائمون على بعض ما ورد عن الرسول الكريم من الكلم الطيب فى شهر رمضان وصيامه فالفطر النقية الطاهرة الصافية تتلاقى فى هذا الوادى الخصيب الذى يخرج نباته بإذن ربه ، ويتعهده أقرب خلق الله إلى الله وأعرفهم به وأعطف البشر على البشر ، دون حاجة إلى شرح أو بيان .

( أ ) فى حديث متفق عليه قال رسول الله ﷺ : إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء ، وفى رواية فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين .

(١) متفق عليه .

(ب) وقال عليه السلام : « في الجنة ثمانية أبواب ، منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون »<sup>(١)</sup> .

(ج) وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »<sup>(٢)</sup> .

ومما ورد عنه ﷺ في بعض أحكام الصيام :

( أ ) قوله : « تسحروا فإن في السحور بركة »<sup>(٣)</sup> .

(ب) وقوله : « فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر » رواه مسلم

(ج) وقوله : « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » متفق عليه .

وحثا على بذل المعروف في رمضان قال ﷺ :

« من فطر صائماً أو جهز غازياً فله مثل أجره » رواه أحد وآخرون من أصحاب السنة .

وورد أن جبريل كان يلتقى برسول الله ﷺ خلال شهر رمضان فيدارسه القرآن . وكان عليه السلام جواداً وفي رمضان كان أجود بالخير من الريح المرسلة .

هذا غيض من فيض توجيهات رسول الله للصائمين ومن تعاليمه الحكيمة لأمته ، فاللهم وفقنا للعمل بما يرضيك في خلوتنا وجلوتنا في مصبحنا وممسائنا في قيامنا وقعودنا في صيامنا وإفطارنا ، وفي كل أحوالنا واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأجعل شهر الصيام في كل عام شهر خير ويمن وبركة وسلام يشمل الدنيا جميعاً ويعمها برحمة منك ورضوان إنك سميع مجيب .

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

## الحج إلى بيت الله الحرام

روى الإمام مسلم فى صحيحه ، عن عبد الرحمن بن صخر رضى  
الله عنه قال :

خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس ، قد فرض الله عليكم  
الحج فحجوا ، فقال الرجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى  
قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ،  
ثم قال : ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم  
واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا  
نهيتكم عن شىء فدعوه » .

### الحج فى التاريخ :

الحج من الشئون الدينية التى عرفت لدى جميع الأمم منذ فجر التاريخ الإنسانى ،  
فما من أمة خلت إلا ولها مكان معين تحج إليه .

فقد كان لقدماء المصريين والبابليين هياكل مقدسة يحجون إليها ، وللصينيين  
أماكن مقدسة يقصدونها للحج ، وللهنود كذلك ، واليونانيون القدماء كان لهم فى  
بلادهم أماكن يمضون فيها أوقاتاً للعبادة والنسك وقد أمر قوم سيدنا موسى وسيدنا  
عيسى عليهما الصلاة والسلام أن يحجوا إلى أورشليم .

ويختلف الحج فى الإسلام عنه فى جميع الأديان السابقة فقد كان أتباعها -ولا  
تزال بقيتهم- يحجون بقصد التبرك بقبور القديسين وما تركوه من الآثار والمباني ،  
وكان أفضل الحج عندهم ما تحمل الإنسان فى سبيله المشاق وخاض المهالك ، كان  
الكهنة والرهبان يفتنون لهم فى تعيين ضروب المراهقات البدنية ، فمنهم من يتقل  
كاهله بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يمشى على قدميه المسافات الشاسعة ، ومنهم  
من يسير داخل كيس يتعثر فيه كل خطوة وكان بعض الصينيين يطوفون حول معابدهم  
زحفاً على بطونهم .

ولكن الإسلام كره ذلك ، وشرط أن لا يحج إلا من كان قادراً على الحج ، ونهى أن يحمل الإنسان نفسه ما يرهقها . روى أن النبي ﷺ رأى هرما يمشى بين ولديه فسأله عن شأنه فقيل له : أنه نذر أن يحج ماشياً فكره ذلك وقال : إن الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، وأمر أن يحمل على بعير .

وكان هذا منه ﷺ عملاً بقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾<sup>(١)</sup> وقوله سبحانه : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله عز وجل : ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾<sup>(٣)</sup> .

### الحج في الإسلام :

الحج فرض عين على كل مسلم ومسلمة ثبتت فرضيته في القرآن والسنة وإجماع الأمة على فعله منذ أن سرع على عهد رسول الله صلى في السنة الخامسة وقبل السادسة من الهجرة إلى يومنا هذا ، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما الدليل من القرآن الكريم : فقول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٤)</sup> فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تعالى : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾<sup>(٦)</sup> لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ<sup>(٧)</sup> ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٨٧ من سورة الحج .

(٣) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٤) الايتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة العمران .

(٥) الآيات من ٢٧ إلى ٢٩ من سورة الحج .

وأما الدليل من السنة : فقد روى مسلم والنسائي وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .. وروى الترمذى وأحمد عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » وذلك لقول الله تعالى فى محكم كتابه : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup> وجاء فى حديث الإسلام على خمس قول رسول الله ﷺ : « .. وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » . وأما الإجماع فتواتره لا يحتاج إلى دليل .

فالحج فى الإسلام ثابت ومن أنكره كان كافراً ، وهو فى الشريعة : القصد إلى بيت الله الحرام لأداء ركن من أركان الدين . وبيت الله الحرام هو الكعبة المشرفة<sup>(٢)</sup> فقد من الله على عباده فعين لهم مكاناً وسماه بيته وأضافه إلى نفسه تنزل رحمته ويتجلى فيه رضاه ، وفيه جمع لقلوب الناس فى التوجه إلى جهة واحدة توحيداً للقصد ، وإفراداً للغاية ، وإرشاداً لهم إلى أن المراد هو التوجه إلى الله لا إلى ذات المكان ، ويدل على ذلك أى على أن المقصود هو الانقياد لله وحده ، أن الإيحاء إلى إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام باتخاذ البيت كان مقيداً بنفى الشرك قال تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾<sup>(٣)</sup> وكان أول ما طلب إليه هو تطهيره ليكون معبداً يعبد الله فيه عبادة صحيحة ، قال عز وجل : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾<sup>(٤)</sup> . ومعنى قوله عز شأنه : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ

(١) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٢) قال تعالى : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ الآية ٩٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الحج .

(٤) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) (١) أى معبدًا تعبدون فيه ريكم رب البيت . وجعل سبحانه الصد عن زيارة البيت كقرآ كالصد عن سبيل الله أى دينه ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢) وكان أول شىء فعله ﷺ حين دخل مكة فاتحًا هو إزالته الأصنام والتماثيل من فوق سطح الكعبة وخارجها وكان عددها ثلاثمائة وستون صنمًا ، كما حكى كتب التاريخ ، وقد اهتم بالكعبة وكسوتها عظماء العرب ورؤساء القبائل من قبل ميلاد الرسول ﷺ ، ومن بعده فقد كساها (تبع) ملك حمير قبل الهجرة ، بما يقارب من مئتين وعشرين عامًا ، كساها بالبرود المقصبة وعمل لها بابًا ومفتاحًا ، وفى زمن قصى من أجداد سيد الخلق كانت القبائل تكسوها وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وغيره سنة ، وكستها والدة العباس بن عبد المطلب وكساها أشرف الخلق ﷺ ، بروداً يمانية وكذلك فعل خلفاؤه من بعده واستمر الأمر كذلك إلى أن استقر أمر كسوتها عن طريق مصر ، وقد مرت بالكعبة المشرفة أحداث كثيرة قبل الإسلام ، فقد أعادت جرهم بناءها بعد إبراهيم ، ولما آل أمرها إلى قصى ابن كلاب هدمها وبنائها فأحكم بناءها وجعل سقفها من جذوع النخيل ، وقد حاول الإعتداء عليها أبرهة الحبشى ولكن الله تبارك وتعالى رد كيده إلى نحره وحكى ذلك القرآن الكريم فى سورة خاصة هى سورة الفيل ، وقبل مبعث رسول الله ﷺ هدمها السيل فبنتها قريش ، ولما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا فى أى القبائل تختص بشرف رفعه إلى محله وكاد الأمر يفضى إلى قتال لولا أن حسم النزاع مجىء الأمين سيدنا محمد بن عبد الله إليهم فحكموه فيما شجر بينهم ، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر وأمر القبائل فأخذت كل قبيلة بطرف من الرداء ورفعوه فلما وصلوا إلى مكانه حملة بيده الشريفة إلى مقره وأنهى النزاع . ولما قصرت قريش النفقة تركوها على ما هى عليه الآن ، وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة رضى الله عنها : « لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألصقتها بالأرض وجعلت لها بايين ، بابًا شرقياً وبابًا غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر » .

(١) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الحج .

هذه لمحة أو فذلكم يسيرة عن الكعبة جر إليها الحديث عن الحج وكان لابد  
منها ليلم المسلمون بشيء من تاريخ البيت الذي يؤمنونه كل عام استجابة لأمر الله  
تعالى ، ونسأل الله القادر أن يوفقنا لأداء أركان الإسلام كاملة غير منقوصة ، والله  
يهب المسلمين نصره وعونه ، إن ربي سميع الدعاء .

## العيد وذكرياته

عن أنس رضي الله عنه قال : قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال : « ما هذان اليومان ؟ ، قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما . يوم الأضحى ، ويوم الفطر » .

(رواه أبو داود)

(١) في غرة شوال ، في يوم عيد الفطر المبارك ، من كل عام هجري ، يلتقى المسلمون وقد ودعوا شهراً حافلاً بالإخلاص لله وحده ، عامراً بالجد في العبادة ، والزلفى إلى فاطر السموات والأرض ، صاموا راجين رضوانه ، آملين في مغفرته ، طامعين في الوصول إلى خير ما أعد لهم من الثواب والجزاء ، لم يشركوا معه في صومهم أحداً ، فلم يراءوا ولم يداجوا ولم يراقبوا غيره سبحانه وتعالى ، فلا غرو أن جعلوا لهذا التوفيق العظيم عيداً يحملونه بالبر بفقرائهم والعطف على المحرومين منهم ، والعمل على تفريج كربة المكروبين ، وسد حاجة المعوزين ، يطعمون فيه الطعام لوجه الله تعالى متأسين بآل بيت رسول الله ﷺ الذين قال فيهم : ﴿ وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ ﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١) . ويكون جزاؤهم القبول والرضوان من العلى الكبير ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا تَذْلِيلًا (٢)﴾ .

(٢) وحق لهم أن يستقبلوا الشهر الجديد بعيد يفرحون فيه بمغفرة من الله وفضل ، ورحمة وإسعاد وجنة عرضها السموات والأرض ينادون فيها ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

(١) الآية من ٨ إلى ١٠ من سورة الإنسان .

(٢) الآية من ١١ إلى ١٤ من سورة الإنسان .

أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ»<sup>(١)</sup> لأنكم أخلصتم عبادتكم لله ، فادخر لكم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « كل عمل ابن آدم لي إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزى به » فطوبى لمن صام رمضان إيماناً واحتساباً وطوبى لمن قام ليله إيماناً واحتساباً ، وطوبى ثم طوبى لمن راقب ربه في كل عمل يعمله ، فإن كنا لا نرى الله جهرة فإن الله يرانا ، ولا يغفل عنا ، ولا يؤوده حفظنا ، وهو يعلم سرنا ونجوانا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٣) والعيد مبعث خواطر شتى ، ومثار ذكريات عديدة ، ومسرح جولات فكرية متشعبة ، وسبحات عقلية مجردة متنوعة ، فالعيد في نشأته يذكرنا برسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين ، والمكلف بإرساء قواعد شريعة إلهية خادة مادامت السموات والأرض ، وقد بسطت رواقها يوماً على الكون فعمته الرحمة ، وساده التعاون في مجالات الخير ودفع الشر ، وشمله السلام الذي لا يميز بين جنس ولا لون ولا عنصر ، وتبددت حنادس الظلام والكفر ، وزالت من الوجود حوالك الشبهات ، وصف حياة الناس مما يكدر ، وغامت سماؤهم إلا لتمطر وابلًا تهتز له أرضهم وترسو وتنبت من كل زوج بهيج .

(٤) ورسول الله ﷺ بعث هادياً ومعلماً ، ومصلاً ومرشداً ، بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة يدعو إلى الله آناء الليل وأطراف النهار ، ولا ينسى ولا يضعف ولا يتقاعس ولا يتواكل ، ولا يتألم مطلقاً لإساءة لحقت بشخصه مهما تعظم الإساءة ، فكم أهين وكم كسب وشتم وكم وصف من الجاهلين بما لا يليق ، فقالوا : شاعر ، وقالوا : مجنون ، وقالوا : إنما هي أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، وهم يعلمون علم اليقين أنه لم يختلف إلى مدرسة ولم يجلس إلى معلم ، والقرآن الكريم يردد على ألسنهم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُئُ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> . فما القرآن إلا وحي يوحى ، تنزلاً ممن خلق الأرض السموات العلى ،

(١) الآية ٢٤ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ٣٨ من سورة إبراهيم .

(٣) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

كل هذا ورسول الله صامد صابر ، يأتيه الملك فى أشد حالاته شدة وضيقاً ، ويستأذنه ان يطبق الجبال على الكفار فيقضى عليهم ، فيأبى ويردد كلماته الخالدة : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » وصدق رسول الله ، فالناس أعداء ما جهلوا ويوم يعلمون فيستهدون .

(٥) وما جنت الدنيا وما شلت نعماتها ، وعمها الذعر والخوف ، وسادها الجور والظلم ، واخفى من بين أهلها الأمن والطمأنينة ، والرحمة والتعاون على البر والتقوى ، إلا يوم غفلوا عن تعاليم السماء وأعرضوا عن شريعة ربهم وحادوا عن السبيل الواضح الذى خطه ورسمه سيد الخلق ﷺ .

(٦) وذكروا العيد بدعوته عليه الصلاة والسلام الموجهة إلى البشر كافة رجالاً ونساء أن تواصلوا بالخير والحق والصبر واعملوا صالحاً ، واقبلوا على العمل النافع المفيد للبشرية جمعاء ، وأمامكم ينابيع الحكمة مسطورة فى الكتاب والسنة فعبوا من رحيقها الصافى ونميرها العذب الشهى السائغ .

تأملى يا أختاه كيف حضك الرسول الكريم على التفقه فى الدين وارتياذ رياضه ، وقطف جناه ، وكيف دعاك إلى المشاركة فى المحافل والمجتمعات الطيبة الطاهرة ، يروى البخارى ومسلم وغيرهما عن أم عطية رضى الله عنها قالت : أمرنا أن نخرج الخيض يوم العيدين ، وذوات الخدور ، فيشهدون جماعة المسلمين ودعوتهم ، وتعتزل الحيض عن مصلاهن ، قالت امرأة : يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب ؟ قال « لتلبسها صاحبها من جلبابها »<sup>(١)</sup> ثم فكرى فى حشه ﷺ على إحسان تربية البنات والعناية بأمرهن وإعدادهن لما يسعدهم فى العاجلة والآجلة ، يروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (جائتنى امرأة معها ابنتان تسألنى فلم تجد عندى غير تمره واحدة فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيهما ، ثم قامت فخرجت فدخل رسول الله ﷺ فحدثته فقال : من يلى هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار) .

(٧) وكان من هديه ﷺ يوم العيد أن يرخص فى المرح البريء الذى لا ينتقص

(١) أمرنا (بالبناء للمجهول) والحديث متفق عليه .

المروءة ، ولا يخل بالخلق الكريم ، فعن عائشة رضی الله عنها قالت : إن أبا بكر دخل عليها وعندما جاربتان تدفقان وتضريان وفي رواية تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعث<sup>(١)</sup> ، والنبي ﷺ متغش بثوبه ، فانتهرهما أبا بكر ، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال : « دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد » . وفي رواية يا أبا بكر أن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا<sup>(٢)</sup> ، عن أنس رضی الله عنه قال : قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال : « ما هذان اليومان ؟ ، قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما . يوم الأضحى ، ويوم الفطر » . رواه أبو داود .

(٨) وذكرونا العيد بأئمة المسلمين العادلين وقادتهم الفاتحين وعلمائهم العاملين ، والمثوبة العظيمة التي أعدها الله للمقسط في رعيته الساهر على مصلحته أمته ، فقد روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضی الله عنهما في حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ : « يوم من أيام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام في الأرض أربى من هطر أربعين صباحاً » .

وقوله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » .

(٩) وهاهو ذا رسول الله ﷺ يفرس في نفوس الجميع الرجولة الحقة ، ويضع أسس الشخصية الفذة الى تسود وتحكم ، محملاً كل عامل مسئولية عمله ، رجلاً كان أو امرأة ، تابعاً أو متبوعاً والدأ أو ولدأ ، فمما رواه البخاري عن عبد الرحمن بن عمر رضی الله عنهما أنه قال : « كلکم راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيتها ، الخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، قال ابن عمر واحسب النبي ﷺ قال : والولد راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلکم راع ومسئول عن رعيته » . فالرعاة جميعاً

(١) يوم (بعث) بضم الباء ، يوم معروف كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية .. و(بعث) اسم حصن كان للأوس .

(٢) متفق عليه .

مستولون كل فى اختصاصه عما استرعى أمام من لا سضل ولا ينسى فليظنر كل امرىء  
أين يضع نفسه .

(١٠) تلك خواطر تجول وتتوارد على النفس أيام العيد ، ويمر أمام المتأمل  
ركب الحياة فى نظام دقيق ثم يتلاشى رويداً رويداً ، ثم يعود ليظهر مرة أخرى وفى  
شكل آخر حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، والعامل من تدبر واعتبر ، وحاول سلوك  
الطريق الأقوم والسبيل الأهدى (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

(١١) وأنا لنضرع إلى العلى الكبير أن يحقق لأمة نبيه وحبيبه محمد أفضل  
وأزكى السلام ما أراد لها من العزة والكرامة ، وأن يوفق كل عامل فى عمله أن يخلصه  
لوجهه الكريم ، وأن يجعل هذه المواسم الإسلامية الكريمة أيام قبول لمن يتوب  
ورحمة وهداية لمن عصى ، اللهم أهدهم ووفقهم وأعزهم وأسعدهم حتى يجتمعوا فى  
رحابك ويعملوا صالحاً ويتواصلوا بالحق ويتواصلوا بالرحمة ، ويترابطوا  
ويعتصموا بحبلك المتين ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى  
والعمل المنتج المثمر ، والتجافى عن الراحة فى سبيل إسعاد المجموع ، مقتدين  
بنبيك سالكين طريقه مؤيدين بنصرك وعونك وقوتك حتى يثوبوا إليك وأنت عنهم راض  
وبلتقوا فى كنفك إخواناً على سرر متقابلين .

## العلم والعلماء

قال رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »<sup>(١)</sup> .

رواه ابن ماجة في سنته والبيهقي في شعب الإيمان

(١) العلم النافع هو أفضل مطالب العقلاء ، وأجل ما يقصد فى هذه الحياة ، وإذا هو غاية الغايات لحاملى مشاعل النور الذين يضيئون بجهدهم مسالك الدنيا ، ويظهرون دروبهما مما يعوق السير فيها إلى الأهداف الكريمة ، والغايات النبيلة التى تستخدم الإنسانية ، وتمضى بها قدماً إلى السمو والكمال .

وطلب العلم فى الإسلام ليس نافلة ولا أمر كمالياً ، بل هو فرض وضرورة ، ضرورة الغذاء والشراب والهواء ، ولهذا نرى الرسول الكريم يصرح بذلك تصريحاً لا مجال فيه للتأويل فيقول صلوات الله عليه : طلب العلم فريضة على كل مسلم .

(٢) وللعلم رجال أفتوا أعمارهم فى طلبه ، واقتحموا المصاعب فى سبيله ، ودافعوا كل العوائق سعياً وراء تحصيله ، جابوا كل فج ، وخاضوا كل لج . أولئك نخبة من البشر أيقنوا أن للعمر حداً لا يعدوه ، وللجل نهاية يقف عندها فاغتموا كل فرصة ، واستغلوا كل لحظة منذ أن عقلوا ، ولم يشنهم عن مقاصدهم الحميدة معوق مهما عظم ... بذلوا النفس والنفيس حتى أربوا على المقاصد ، وضربوا أروع المثل للجهاد العلمى الخالص من علائق المنافع الشخصية التافهة ، فذوت أجسادهم وذبلت ، فى الوقت الذى قويت فيه عقولهم واستقامت ، فعظمت آثارهم وخلدت .

وإذا كانت النفوس كباراً      تبعت فى مرادها الأجسام

(٣) وقد فضل رسول الله ﷺ العالم على العابد ، فعن أبى أمامة الباهلى ، قال : ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال : « فضل العالم على

(١) وزاد شراح الحديث (ومسلمة) وهى داخلة فى الخطاب دون حاجة إلى نص كما هو الشأن كثيراً فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة .. وزاد ابن ماجة على هذا النص (... وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجورم واللؤلؤ والذهب) .

العابد كفضلى على ادناكم» ثم قال ﷺ : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » وفى حديث رواه الإمام أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه والدارمى ، يقول رسول الله ﷺ : « .. إن العلماء ورتة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه اخذ بحظ وافر » ومن حديث رواه الإمام مسلم فى صحيحه : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكروهم الله فىمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

(٤) وقد وعى التاريخ أسماء كريمة لفحول العلماء ذوى الهمم القعساء فى الدرر والتحصيل ، ومن هؤلاء الذين أرغموه على أن يفتح لهم أوسع أبوابه ليلجوا خالدين ما دامت السموات والأرض ، تتناقل الأعصر أخبارهم وتتدارس الرجال آثارهم . أئمة الفقه والتشريع فى الإسلام<sup>(١)</sup> الذين دونت ثمار عقولهم فى مجلدات ومجلدات ، وعاش على فئات مواثهم العلمية ألوف وألوف ممن جاءوا فى الأعصر التالية لعصورهم .

وفى مجال الحديث الشريف الحافظ ابن أبى حاتم ، فقد قدم القاهرة ليتلقى عن شيوخها ما عز عليه تحصيله فى مسقط رأسه فمكث فيها عشرة أشهر كاملة لم يجد خلالها وقتاً يهيبه فيه لنفسه طعاماً خاصاً ، وكان يطوف نهاره على وعاء ما حضر من أجله ، ويسيطر ليله ما حصل من علومهم ، وقد رجل أبو أيوب الأنصارى من المدينة المنورة إلى عقبه بن نافع فى مصر ليروى عنه حديثاً واحداً ، ولما قدم إلى مصر ترجل عن راحلته ولم يفك رحلها فسمع الحديث وقل راجعاً إلى المدينة ، وكان سعيد بن المسيب يسير الأيام والليالى الطوال فى طلب الحديث ، وكذلك كان يفعل الإمام البخارى .

(١) الآية ١٦ من سورة النور .

(٥) وروى عن الشيخ الرئيس أبى على بن سينا فى تاريخه الذى أمره بنفسه أنه لم ينم عن مذاكرة العلم ليلة كاملة منذ عقل ، ولم يملأ نهاره بسوى تدوين ما درس ، وكان يقول : (لازمت العلم ، وكنت كلما اتحير فى مسألة أتردد على الجامع وأصلى ، وأبتهل إلى مبدع الكون حتى يفتح لى المنغلق ويتيسر المتعسر ، وأرجع بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة ، وإذا أخذنى النوم أحلم بالمسائل بعينها حتى إن كثير منها اتضحت لى وجوهه فى المنام ، ولم أزل كذلك حتى استحكمت لى جميع العلوم ووقفت عليها بحسب الإمكان البشرى) ...

وأما العالم ابن رشد فلم يترك النظر والقراءة منذ شب عن الطريق إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله !!

(٦) ولم يقتصر طلاب العلم على البحث عنه فى مواطن نشأتهم بل استقلوا ظهور المطايا وضربوا آباط الإبل إلى مظان وجود شيوخه الإعلام وما عم العلم ولا انتشر فى ربوع العالم الإسلامى فى عهده الزاهرة إلا برجال كبرت همهم فى طلبه فى بلاده ، ولاقوا العناء فى رحلاتهم القاسية الشاقة المضنية فى دروب غير ممهدة وعلى ظهور دواب بطيئة السير ، ومن هؤلاء الأفاضل أولى القوة والأيد أسد بن الفرات وأبو الوليد الباجى وأبو بكر بن العربى وابن خلدون وياقوت الحموى وغيرهم كثيرون .

(٧) - وطالما سعد هؤلاء وأثلجت صدورهم واطمأنت قلوبهم حين تغلبوا على معضلة علمية ، وكلما ارتقوا درجة فى سلم المعرفة الإنسانية ، ومنهم القائل :

سهرى لتتقيح العلوم الذلى من وصل غانية وطيب عناق  
وأين وصل الغوانى وطيب العناق الذى تتخلف عنه الحشرات والآلام وتتجرع  
النفس بعده غصص الفراق وتباريح الفصام وعظم الوزر ، من ذكر حسن لا يبلى وخلود  
ما تعاقب الجديدان لعالم اكتشف حقيقة كونية أو أزاح النقاب عن خبيثة علمية  
استعصت على غيره فاهتدى بها الحائرون وسار على ضوئها المدلجون واطمأن فى  
حماها الحيارى والتائهون ؟

(٨) واقتضت حكمة مبدع السموات والأرض وخالق الليل والنهار اختلاف

الميول وتباين الاتجاهات في طلب العلوم ، وتفاوت الاستعداد لها ، ومن هنا نشأت الفنون المختلفة والصناعات الكثيرة وتعددت أنواعها لينتظم أمرا لحياة ، وتتوافر وسائل السعادة فيها .

ومن أروع الأمثلة التي رواها التاريخ لسادة من العلماء نسلوا من أبوين ، وشبوا في بيئة واحدة ، ودرجوا في جو واحد ، ومع هذا اختلف ميولهم إلى أنواع العلوم ، فسبق كل منهم في العلم الذي صادف هوى في نفسه ، ووجه إليه همته ، وألقى فيه دلوه .. أبناء الأثير الثلاثة : نصرؤ الدين الذي برع في الأدب وتحرير الرسائل وهو صاحب كتاب (المثل السائر) . في الوقت الذي جلى فيه أخوه محمد مجد الدين في الحديث وعلومه ولف كتاب (النهاية في غريب الحديث) وكتاب (جامع الأصول في أحاديث الرسول) .

وأما ثالثهم فهو الإمام الذي لا يشق له غبار في الدراسات التاريخية وتفصيل أحوال الأمم .. مؤلف كتاب (الكامل في التاريخ) ذلكم العلم الشامخ هو على عز الدين .. وسبحان من خالف الميول لينظم أمر الكون ... وفي عصرنا نجد من الأسرة الواحدة المتخصص في الطب والبارع في الهندسة ، والمتعمق في العلوم البحتة وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

(٩) ومن الصفات التي لازمت العلماء والعاملين ، ويجب أن يتسم بها كل باحث عن الحقيقة هي خلة الأمانة واحترام السابقين مهما كانت درجاتهم العلمية ، وقد أحسن كثيراً ابن مالك النحوي المشهور بألفيته التي سار بها الركبان ، حين أثنى في مقدمتها على سلفه في نفس العلم فقال في ابن معطى :

وهو بسبق حائز تفصيلاً مستوجب ثنائى الجميلاً  
والله يقضى بهيات وافرة لى وله في درجات الآخرة

ولو ذهبنا نستقصيهم واحداً واحداً ، ونسجل دلائل أمانتهم وشديد حرصهم على تنقية العلوم من الشوائب الدخيلة لطال المقما ، والأمثلة في الماضى والحاضر كثيرة لمن يطلبها .

## وأخيراً :

فإننا نأمل أن ينسج أبناؤنا على منوال السابقين فيقبلوا على الارتشاف من مناضل العلوم الصحيحة بهم وثابة ، وعزائم قوية ، ورغبة صادقة ومثابرة لا تنقطع وقرائح نقادة ، نفاذة إلى اللباب الخالص فقد قيل ... (العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك وإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه البعض على خطر) . فاطرقوا -معاشر الأبناء- أبواب العلوم بقوة وعزم يبلى الملوان وهو صار صقييل ، واحرصوا على تحصيله حرص البخيل على درهمه ، حرصاً لا يشفى الغليل معه إلا أن تغترفوا من العلوم وتعبوا من أنهارها بكأس رماق ، فغوصوا على دررها ولآلئها ، ولا تدعوا وعورة المسلك تحول بينكم وبين اهدافكم وبلوغ غايتكم ، ولا تتهيبوا طول الطريق وبعد الشقة فلولا الصعاب والعقاب ما برز الرجال ولا لمعت بالتاريخ أسماء ، فالحرص الحرص على ما ينفع أمتنا ، بل الأمم جميعاً ، فما كان ولن يكون العلم ملكاً لقوم دون آخرين ، ولا وفقاً على جماعة دون جماعة ، وبالمجد والصبر والكفاح تخصب بلادنا وتنتج عبقریات ممتازة ، كما هي منذ عصور الإسلام الأولى منابت الخالدين ، ومطالع القادة في كل ميدان .

وما سمت الإنسانية ، ولا تقدمت الدنيا ، ولا قطعت الحضارة أشواطها البعيدة في سبيل المعرفة الحقبة إلا بالعلم وجهود العلماء ، وما أكثر ما حث القرآن الكريم ورسول الله الهادي الأمين على التأمل والبحث حتى تنتشر الهداية في الدنيا ، وبأخذ الناس طريقهم إلى الله عن معرفة و يقين مصدرهما البرهان والاستدلال ، فاعلموا والله معكم ولن يتركم أعمالكم ومن سار على الدرب وصل ... والله سبحانه هو الهادي إلى سواء السبيل .

# الإسلام يحارب الدجل والخرافات ويرسم نظام الحجر الصحي والطب الوقائي

عن عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :  
« لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر ، وفر من المجذوم ،  
كما تفر من الأسد » .

(رواه البخارى)

## تمهيد :

الإيمان بالله تعالى يستلزم الثقة بحكمته فى أفعاله وقدرته التى لا تحد ، مع امتثال أوامره ، والتوكل المطلق عليه وحده ، والسير على نهج رسله عليهم السلام ، مصاحباً الأخذ فى الأسباب ، والاهتداء بسنته فى خلقه ، وإعداد القوة المادية والمعنوية ، ثم اللجوء إليه طلباً للنجاة ، وأملاً فى خير ما عنده ، فهو سبحانه مولانا وناصرنا وموفقنا ، فتعم المولى ونعم النصير ، فلا تحزن عند شدة ، ولا تبطر عن نعمة ، ونجزم انه وحده هو الذى يكشف الغمة إذا حلت ، ويدرا البلاء إذا نزل ، علمنا فى محكم كتابه ما يربطنا به عباداً مؤمنين مقتفين أثر رسوله الكريم ، نتلو ليلنا ونهارنا ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup> فلا يحل بنا اليأس لدى البأس أبداً ، ولا ننكص على أعقابنا فراراً من قضائه وقدره ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعلى ضوء هذه التعاليم وفى رحابها الطاهرة وفى سناها الربانى العلى نحاول جهد طاقة البشر فهم ما ورد فى الحديث الشريف : « لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر ، وفر من المجذوم ، كما تفر من الأسد » .

(١) الآية ٥١ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٧ من سورة الأنعام .

(١) لا عدوى<sup>(١)</sup> أى لا سراية للمرض من المبتلى به إلى غيره من الأصحاء ، وقد كانت العرب تعتقد أن لبعض الأمراض قدرة على أن تتعدى المريض بطبعها لخاصية موجودة فيها ، أى أنها مؤثرة بذاتها ، فوجههم رسول الله ﷺ إلى أن الفاعل المختار لكل شيء هو الله ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فليس لمرض أن يعدى الآخرين إلا بإرادة الله ومشيئته فالأمر مفوض إليه ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>(٢)</sup> وكما أن كشف الضر عن العليل بإرادة الله ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الصُّرُورَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup> فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ<sup>(٤)</sup> ومن دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾<sup>(٥)</sup> ومن كلم رسول الله يدعو لمريض « إذهب البأس ربنا لناس ، اللهم لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً » .

(٢) والطيبة<sup>(٥)</sup> : من التطير وهو التشاؤم من الفأل السىء<sup>(٦)</sup> ومنشأة الطيرة أن العرب كانت تزجر الطير فى المهمات من أمورها ، فإذا أرادت قبيلة شن غارة على أخرى ، أو رغبت فى انتجاع مواطن الكلا وقصد عيون الماء ، أو الخروج من مضاربها فى مهم أيا كان نوعه زجرت الطير وأهاجته فإن طار على اليمين تفاءلوا خيراً ، ومضوا لطبتهم ، وإن يمم اليسار تشاءموا وعدلوا عما قصدوا ، وقد فطن بعض عقلائهم قبل الإسلام إلى تهافته وسقوطه فأنكروا التطير وتمدحوا بتركه ، وفى ذلك يقول قائلهم :

وما عاجلات الطير تدنى الفتى      نجاحاً ولا عن ريشهن قصور

وقال آخر هازئاً بضاربات الحصى وزاجرات الطير :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى      ولا زاجرات الطير ما الله صانع

(١) عدوى : بفتح العين المهملة وسكون الدال وآخرها ألف مقصورة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة فاطر .

(٣) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٨٠ من سورة الشعراء .

(٥) طيرة مصدره تطير ، ويناطره : خيره مصدر تخير .

(٦) فى القرآن الكريم : ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِعَنِّ مَعَكَ﴾ الآية ٤٧ من سورة النمل ، وفى الحديث الشريف :

(أنه كان يحب الفأل ويكره الطير) .

وجاء الإسلام داعياً إلى بحث الأمور وتقليلها على وجهها والاعتماد على الله والمضى إلى العمل بعد الروية والتدبر ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup> ونفى نقياً قطعياً ما اعتادوه من الرجم بالغيب والتطير وما يمت إلى ذلك بصلة من الكهانة والعرافة وضرب الحصى وخط الرمل ، وفي حديث مرفوع عن أنس : « لا طيرة والطيرة على من تطير »<sup>(٢)</sup> ، وعن عبد الرحمن بن صخر مرفوعاً : « إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا »<sup>(٣)</sup> وعن أبي الدرداء : « لن ينال الدرجات العلى من تكهن أو استقيم أو رجع من سفر تطيراً »<sup>(٤)</sup> ، وعن ابن عمر موقوفاً : « من عرض له من هذه الطيرة شيء فيقل : اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك »<sup>(٥)</sup> .

(٣) ولا هامة<sup>(٦)</sup> : ومن مدلاولتها ذوات السموم ، ودواب الأرض التى تههم بايذاء الناس ، ومن المروى عن العرب قبل الإسلام أنهم كانوا يعتقدون أنه إذا قتل الرجل ولم يبادر أولياؤه بالتأثر له خرجت من رأسه هامة ، ويزعمون أنها دودة تدور حول قبره ظمى إلى دم القاتل ، تصيح اسقونى ، اسقونى ، وتستمر فى دورانها لا تنقطع ولا تنفك عن صياحها حتى يدرك الثأر فتشرب من دمه وتسكن ثم يتلاشى صوتها وتختفى إلى الأبد . قال شاعرهم متوعداً :

يا عمروان لا تدع شتمى ومنقصى      أضربك حتى تقول الهامة أسقونى  
وعدل بعض الباحثين عن هذا التخريج إلى أن الهامة طائر من طيور الليل كأنه  
يعنى (البومة) قال ابن الأعرابى : كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على دار أحدهم  
يتوهمها ناعية إليه نفسه ، أو ماله ، أو أحد من أعرائه .

(١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٢) رواه ابن حبان .

(٣) أخرجه ابن عدى .

(٤) أخرجه الطبرانى .

(٥) أخرجه البيهقى .

(٦) الهامة بتشديد الميم وتخفف ، وفى المختار : الهامة واحدة الهوام ، ولا يقع الاسم إلا على المخوف من الأحناش .

والحديث الشريف ينفي وجود الهامة أو التشاؤم بها في أى صورة تخيلت فهي إما من نسيج الخيال إطلاقاً كالمتهومة فى شأن القتيل ، وإما أنها موجودة فعلاً (كالبومة) ولكن لا شؤم فيها .

(٤) ولا صفر<sup>(١)</sup> : مما يراد بهذا اللفظ (صفر) عند العرب الشهر المعروف من السنة الهجرية ، وحية تسكن جوف الإنسان تنهش أمعاءه إذا جاع فيسعى للحصول على الطعام .

فعلى الثانى : ينفى الحديث وجودها مثبتاً أنها خرافة ، وإن عض الجوع إحساس خاص يشعر به الإنسان لدى فراغ معدته من مأكّل ومشرب ، وعلى الأول : يشير رسول الله ﷺ إلى نفي النسيء ، وهو تأخير أو تقديم بعض الأشهر الحرم عن مواضعها التى حددتها شريعة سيدنا إبراهيم أو تقديم بعض الأشهر الحرم عن مواضعها التى حددتها شريعة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد جاء بالقرآن الكريم ما يؤكد ذلك ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُجِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد ورث العرب من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تحريم القتال فى أربعة أشهر من السنة تأميناً لطريق الحج حتى تأتى قوافله من كل فج عميق وهى آمنة مطمئنة تحقّقاً لدعوة أبى الأنبياء : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ولما مضى بالعرب الزمان وطال عليهم الأمد غيروا وبدلوا المناسك وفى تحريم الأشهر ، ولا سيما المحرم ، لأن ترك القتال وإيقاف الغارات ثلاثة أشهر متوالية مما يجافى طبيعة العرب وحبهم للنزال والكر والفر ، وكانت الأشهر الحرم مانعة لهم من قضاء مآربهم من أعدائهم ، فأحدثوا قبل الإسلام

(١) صفر الشهر الذى يأتى بعد المحرم ، قال ابن دريد : الصفران شهران فى السنة ، سمي أحدهما فى الإسلام المحرم ، والصفر بفتح الصاد المشددة والفاء المسهلة فيما تزعم العرب حية فى البطن تعض الإنسان إذا جاع ، واللذع الذى يجده من الجوع هو أثر عضها ، وفى الحديث : (لا صفر ولا هامة) أ.هـ . لسان العرب .

(٢) الآية ٣٧ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم

بمدة تحليل القتال في محرم ، وأخروه إلى صفر ، وقد تحدث عن منشأ النسء محمد بن اسحاق في السيرة<sup>(١)</sup> فقال : ( كان أول من نسا الشهور عند العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل ) (القلنس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدى من ولد كنانة) ، ثم قام على ذلك من بعده ابنه عباد إلى أن وصلت إلى أبي ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً فحرم : رجياً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاماً ويجعل مكانه صفر عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله .

وذكر صاحب الروض الأنف (إن جنادة بن عوف من النسأة ، قال : وعليه قام الإسلام ، وقد وجدت خيراً يدل على إسلامه ، فقد حضر الحج في زمن عمر فرأى الناس يزدحمون على الحج فنأدى أيها الناس إنى أجرته منكم ، فخفقه عمر بالدرة ، وقال ويحك إن الله قد أبطل امر الجاهلية)<sup>(٢)</sup> .

وهذا الحديث مؤيد بآية التوبة يفيد أن العرب غيروا ما شرعه لهم إبراهيم عليه السلام إتباعاً للهوى وعدولاً عن أوامر الله تعالى ، ففسأوا في الأشهر الحرم كما مر بك آنفاً ، وقد سمي القرآن هذا العمل زيادة في الكفر (إنما النسء زيادة في الكفر) لأن حق التشريع في هذا لله وحده العليم بما يفيد الناس وما يضرهم ، فترك أوامره إلى غيرها شرك في ربوبيته سبحانه ، والعجيب من أمر القائمين بهذا النسء أن يزعموا متابعة إبراهيم عليه السلام وعدم الخروج على ما شرعه لهم مما أوصاه الله به حيث جعلوا الأشهر الحرام أربعة كما هي في العدد ولم ينظروا إلى أنهم بدلوا المحرم بصفر تارة والعكس تارة أخرى ، فهم لم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة ولهذا يقول القرآن الكريم ﴿..كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ، ودائماً نرى الخارجين على حدود الله في كل عصر ومصر جراء على الله يخيل إليهم

(١) ص ٤٢ من سيرة ابن هشام ، على هامش الروض الأنف ، طبع مصر ١٩١٤ .

(٢) ص ٤٢ من سيرة ابن هشام ، على هامش الروض الأنف ، طبع مصر ١٩١٤ .

(٣) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام .

أنهم يأتون بالأنسب والأفضل وحاشا أن يكون وصدق الله العظيم ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

(٥) نفى هذا الحديث الشريف وجود أربعة أشياء وأبان أنه لا أصل لها وفي أحاديث أخرى نفى أيضاً وجود الغول والنوء<sup>(٢)</sup> .

أمام الغيلان فقد زعمت العرب أنها من الشياطين وتسكن الفلوات تتراعى للبشر وتتلون لهم لتضلهم عن جادتهم ، فيهلكوا في التيه ، وهي مستحيلة الوجود .

وأما النوء فقد ورد في كتاب اللغة إن النوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر رقيه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاث عشر يوماً ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل إلى الطالع منها لأنه في سلطانه . وفي الحديث : ثلاث من أمر الجاهلية : الطعن في الأنساب ، والنياحة ، والأنواء .

(٦) وفر من المجذوم كما تفر من الأسد : أمر بالهروب السريع ، والابتعاد عن مدانة المصاب به ، والجذام داء يصيب الأطراف غالباً فتحمر منه تتقطع وتتساقط ، يعدى من يقترب منه ، وفي سنن أبي داود مرفوعاً : (إن من العرق التلف) ، قال ابن قتيبة : (العرق مدانة الوباء والمرض)<sup>(٣)</sup> .

وجمعاً بين أول الحديث وأخره وتقريباً لذلك إلى الإفهام ، نجد الذين عالجوا هذا الموضوع من العلماء الأعلام أجابوا بأجوبة كثيرة منها :

( أ ) نفى الحديث العدوى مطلقاً ، وإنما أمر بالفرار من المجذوم (أى الابتعاد عنه) لمعنى يتعلق بالمريض نفسه ، وهو إبعاد الأصحاء عنه لئلا يتأثر بما هو فيه فيضعف إيمانه فيضل .

(ب) حمل لا عدوى على قوى الإيمان صحيح التوكل بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه التطير الذى يحل النفوس البعيدة عن ربها ، وأمر الفرار لمن إتصف بعكس ذلك .

(١) الآية ٤٣ من سورة الأنعام .

(٢) النوء بتشديد النون وسكون الواو ، وجمعه أنواع ونوءان كعبدان .

(٣) ص ٤ من الطب النبوي لابن قيم الجوزية .

(ج) إثبات العدوى من الجذام ، وإضرابه من الأمراض المعدية وقصر الأمر بالفرار عليها خاصة .

(د) أن المقصود بنفى العدوى بيان أن المرض لا يعدى بطبعه بخلاف لما كانت تعتقده العرب من أن الأمراض تعدى بطبعها ولا يضيفون ذلك إلى إرادة الله مشيئته ، فأبطل الرسول ﷺ هذا الاعتقاد بقوله وفعله ، فقد أكل مع مجذوم وقال : (ثقة بالله وتوكلا عليه) ليبين أن الله تعالى هو الذى يمرض وهو الذى يعافى ، ونهاهم عن الدنو منه ليعلموا أن هذا من الأسباب التى أجرى الله العادة بأنها تقضى إلى مسيبتها بل الله هو الذى إن شاء سلبها قوة التأثير فلا تؤثر شيئاً وإن شاء أبقاها فأثرت والله أعلم .

... ونتابع السير فى رحاب السنة الشريفة وهى تتحدث عن الأوبئة التى تعرض للبشر وكيف يجابونها فنجد حديث الطاعون الذى عده الأطباء المعاصرون إعجاز فى الحجر الصحى والطب الوقائى وسأورده بتفاصيله وأترك نواحيه الطبية لذوى الاختصاص من نطس الحكماء وأطرقه من نواح أخرى تتعلق بموقف أمير المؤمنين عمر حيال ما عرض له فى رحلته إلى الشام .

عن عمر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه انه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله ﷺ فى الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل وعلى من كان قبلكم فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه »<sup>(١)</sup> .

فقد نهى عن ولوج الأماكن الموبوءة بالطاعون بعداً عن أسباب قد تؤدى إلى الهلاك ، ونهى فى الوقت نفسه عن الخروج من الأرض المنتشر بها الطاعون فعلاً ليظهر عليه وتفويض الأمر إليه وحصره للمرض فى مكانه .

(١) رواه الشيخان .

## والخلاصة :

أن الأخذ في الأسباب لا ينفي التوكل مطلقاً ، فنواصينا بيد من خلقنا ، فنحت إذا اقتربنا من الخطر وأصبنا بقبضاء الله وقدره ، وإن ابتعدنا ونجوننا فبتدبير الله وتوفيقه ، وكل من عند الله سبحانه لا يسأل عما يفعل وهو يسألون ويؤيد هذا المعنى تصرف سيدنا عمر رضى الله عنه وتعليه لذلك التصرف بعد مشاورات طويلة مع أصحابه يوم خرج إلى الشام وعلم أن بها وباء ، ونسوق نص الحديث لنرى الوقاية في الإيمان والثقة بالله والتوكل عليه مع الأخذ فيما اعتيد من الأسباب ، وكيف اجتمع ذلك في فعل سيدنا عمر رضى الله عنه وفي توجيه ذلك الصحابي العبقري الملمهم .

ورد في الصحاح أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أبو عبيدة عامر بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا ، فقال لابن عباس رضى الله عنهما ، ادع المهاجرين الأولين . قال : فدعوتهم ، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه ، وقال آخرون : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ، فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال عمر : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لى الأنصار ، فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لى من هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم له ، فلم يختلف عليه منه رجلان ، قالوا نرى أن ترجع بالناس ، ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فأذن عمر فى الناس : إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : يا أميراً لمؤمنين .. أفرارا من قدرة الله ؟ .. قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى ، أرأيت لو كان عندك إبل فهبطت وادياً له عدوتان ، أحدهما خصبة والأخرى جدبة ، أأست إن رعيتها الخصبة ، رعيتها بقدر الله ، وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحم بن عوف ، وكان متغيباً فى بعض حاجاته - فقال : إن عندى فى هذا علماً .. سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإن سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

حين نتأمل هذه المحاوره بين عمر وصحبه ، ونظر إليها من زاوية أخرى غير الزاوية الطيبة كما أسلفت زاوية القيادة الحكيمة الناصحة للأمة الواعية التي ترسم خطوط حكومة رشيدة نلتقى بالمثل الطيب الكريم لما يجب أن يكون عليه الرعاة الحقيقيون الجديرون بتسليم غارب الفخار الإنساني ، فعمر رضى الله عنه يؤمن بالله ورسوله لديه نص فيما هو متعرض له ، فيجتمع بالناس ، كل فريق على حدة ليصل إلى القول الفصل الذى تطمئن إليه نفسه ويرتاح معه ضميره المؤمن ، ويتركه منهجاً لمن بعده على درب التاريخ الطويل ، يستوى رأى المهاجرين مع رأى الأنصار فى المشورة فريق يرى الرجوع وفريق يقر المضى فى الطريق ، فيعمد عمر رضى الله عنه إلى مشيخة قريش من مهاجرة الفتح لعلمهم يرون ما يرجح إحدى الوجهتين فيكون القول ما قالوا وهو الرجوع ، ثم يجيء الصحابى الكبير عبد الرحمن بن عوف ، الذى لم يحضر تلك المحاورات فيروى عن رسول الله ﷺ ما يؤيد ما استقر عليه رأى عمر ومشيخة قريش .

ألم يرسم عمر منهجاً لاستخلاص الأحكام فيما لا نص فيه أو على الأصح قبل أن يعلن بالنص ؟ أليس فى تصرفه ما يحفز علماء الإسلام المعاصرين على التشاور فيما بينهم ، فى الأمور المعقدة التى احتواها زمانهم وأوجدتها صلات المسلمين بغيرهم من الأمم التى لا تدين بدينهم ؟ أليس من الواجب أن يوالوا اللقاءات والاتصالات حتى يصلوا إلى الحلول الحاسمة فى التيقن المالى والإدارى والتشريع العام ، جذا لو تجردوا عن علائقهم المادية أيأ كانت وأخلصوا نيتهم أعمالهم لله رب العالمين ، وطلعوا على الناس بما يهديهم سواء السبيل ، ويقضى على البلبلة الفكرية والذبذبة المالية والاضطراب فى المعاملات وحملوا إلى الدنيا تعاليم سيدنا محمد ﷺ مع الحلول السليمة على ضوء الشريعة فى المشكلات القائمة فى شتى صورها وأشكالها ، وهم حين يستقر رأيهم على أمر فى موضوع ما ، فيسعد ذلك إجماعاً لا يخالف ، وحكماً لا ينقض إلا بمثله ، ومعلوم دون دجل ولا موارد ولا جدل إن الإسلام لا يهدف إلا إلى خير البشر وسعادتهم وما يؤمن لهم العيش الرغيد والمجتمع المطمئن الآمن ، ويدعوهم إلى حظهم من الدنيا ، والحسنى وزيادة فى الدار الآخرة - والله وحده هو الهادى إلى سواء السبيل .

## الشيخ والمدينة

(١) لو تتبعنا أخطأنا في هذا العصر ، في تلك الحقبة التي نعيشها في الفترة القصيرة التي مرت بنا - ومهما طالت الفترات فهي قليلة في عمر الزمان - أقول لو تتبعنا ما وقعنا فيه من مخالفات على بساط الواقع البحث ، لألفيناها تربو على الحصر ، وتتجاوز العد ، وإن هذه النتائج لهي جنى مقدمات لم نحضر زمانها ولا أجدادنا ، وإنما تضرب في غور الزمان إلى مدى بعيد<sup>(١)</sup> ، فالأمة العربية لساناً ونسباً وموقعاً ، قد حملت أمانة لم تطق حملها السموات والأرض ، ولا الجبال ، ومضت بها هيئة تسوس الدنيا وتحكم أواصرها ، ونمت في ظلها حضارات ، وبرزت في العلوم أسماء وأسماء ، وخلدت على ضوء المعرفة الحققة نتائج عقول وعقول ، وكانت ذات أثر فعّال في تطوير الفكر الإنساني ونموه ، وإنقاله من مرحلة إلى أخرى أرفع شأنًا وأعز مكانًا ، وشواهد ذلك لا تحصى ، ولا تحتاج إلى شاهد من أهلها ، فقد بنيت على أساسها معارف جديدة ، وكانت مرحلة لا بد منها لكي تصل المعرفة إلى ما وصلت وما ستصل إليه من تقدم وإزدهار ورفق وإضطراد نمو ... ذلك كان<sup>(٢)</sup> .

(٢) ... ومع هذا بدأ المسيطرون على الأمور يلعبون على غير المسرح الحقيقي ، وناديهم لم يوصد ، ولم يمتنعوا عنه ولم يذادوا عن حوضه ، مكان فسيح ، وناد مريح ، وعطاء وافر ، وبحر فيضه زاخر ، وقف الأبناء في زماننا والأجداد في زمانهم على السلم لا تزلوا ولا صعدوا ، تركوا الماضي وراءهم ظهرياً ، فلم يصيغوا له سمعاً ، ولم يلقوا إليه بالأى ، وغفلوا عن الآتى ، عن الغد الذى يلاحقهم فلم يعوا بمفاجأته عدة ، وصاروا ناراً يأكل بعضها بعضاً ثم يحور الجميع رماداً . هذا .. فى اللحظات التى عاصرهم فيها وعاش قبلهم وجاء من بعدهم ، من حمل حقد الدنيا مجتمعاً عملاً

---

(١) والعيب فينا أننا نكرها هي هي محورة بما يتناسب مع زمان وقوعها ، وضمير يشمل حملة الشريعة جميعاً وكل مسلم من حملتها ومسئول عنها ، وأن تنصل هنا فسوف لا يجد حجة تنفعه يوم يلقي مالك يوم الدين ...  
(٢) ونأمل أن يعود .

وقولاً وبناء وجداً ومذكرات ، مال يرصد ، وجمعيات تجمع شتات الرؤوس الخربة<sup>(١)</sup> لتتخذ درجاً وسلماً يرقى<sup>(٢)</sup> عليه إلى الهدف الأصيل ، قالت تلك الطغمة الجادة فى السعى إلى أهدافها ، والتي لبست حيناً جلد الحمل على هيكل ذئاب ، لنا ميراث اغتيل ، وحق اغتصب ، ولئن وورى جانبيه التراب ، فسنتقم من ورثته مهما بعد المدى بينه وبينهم ، فهذا مكاننا ولا بد لنا من الوصول إلى غايتنا . والطرف الآخر فى غفلته ساه ، وفى هواه لاه ، يرضى بمذاق حلو فى لحظة عابرة تعقبه مرارة الأبد ، فانفتحت بطون ، وورمت أوداج ، وانعكست فعال ، فقريب إليه يساء ، وغريب إليه يحسن ، وكان من النتائج ما وقع فى الواقع الذى -لسوء طالعنا- عاصرناه ، ومع ضعفنا حملنا آثاره ، ولكن .. سننفض الغبار ، ونحلوا الصداً ﴿فَإِن مَّعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ يُسْرًا<sup>(٥)</sup>﴾ <sup>(٣)</sup> .

(٣) تأمل معى ما مضى -وتابعه فى الحاضر- تجد عداوة فى غير موضعها مع أهل وولد . فهذا يفتك بأخيه لأنه يتوقع أن يقف فى طريق ولايته ، وذاك يجرد جيشاً لقتال صنوه لأنه يستعجل السلطة والافتدار ، وثالث يرسل عيونته وراء أبناء أبيه ، وينوشهم بسلاحه واحداً واحداً لخصومات متخيلة ، ووراء هذه الحوادث كلها - فى مجرى التاريخ القديم والمعاصر - عيون صغيرة ، وأجسام قميمة ، ونفوس منطوية ، على شر يراد بالجميع لا يستثنى ، وإنما يصدىم الكبير بالصغير حتى يفتتتا جميعاً ، ثم يقفز على صدورهم ليجز رقابهم حينذاك يخلو له الجو لبييض ويصفر ، فى كل مكان أمير المؤمنين ومنبر ، وتوالى الزمان صوراً مكررة وفصولاً معادة ، وإن اختلف الجواد ومكان الحلبة فهل من مدكر .

يعنى المفكر بتاريخنا والذين والذين ملأوا الأرض فراغه ظللالا لا حقيقة . وإن خطأ واحداً قد جر إلى أخطاء ، وإن بابا فتح لعدو مستتر فى زى صديق قد جنى على الأمة كلها جنائية لا يمحوها كر ليل ولا مر نهار ، وإنما يعفى آثارها إيمان بالله ، ثم

(١) ممن استضعفهم فى الأمة التى اغتالوها واستباحوا حرماهم .

(٢) بالبناء المجهول .

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الشرح .

بالحق المضاع ، وعزم وصدق وحزم ، ووفاء وإقدام ، وإنه لا يبأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وما نحن بكافرين أبداً .

(٤) برز في الزمان رجال لم يسمع لهم وضاء كتاب ثم أول وكثر تأويله وتاجر به حملته<sup>(١)</sup> وما هم بحملته فقد أهملو حدوداً وردت فيه ، وهم يدعون السير على ضوء وحيه وهدهاء ، وصدقت به السنة فأثبتت من أماكنها ، وأمتدت به أبد فلم تعد إلى مواضعها ، وماجت به رؤوس فانفصلت عن أجسادها .. وهناك .. هناك بعيداً عن الوادى .. نشأت جماعة ونبتت فكرة صارت عندهم عقيدة<sup>(٢)</sup> ، وحملها من غره سرايبها ، وقدمها للعالمين قوانين ونظماً تدعى الدفاع عن المظلومين وهى ظالمتهم ، ورد الحقوق إلى أصحابها وهى تجتاح محارمها ، كلام معسول ولكنه فى التطبيق الفعلى مفقود الأثر ، همهم إمتلاك الدول ولدأبهم -بغير سلاح مسنون- امتلكوها .

وهنا نقف قليلاً نتذاكر ما بين أيدينا ، هل فيه الكفاية والغنية أم أن زمانه مضى مع الزمان الذى مضى ، وطالعت وفكرت وراجعت مفكرين على مستوى رفيع وتأملنا ، فلم نجد فى مقال القوم جديداً فقد فى قدمنا ، ولا باباً لخير فتح كان موصداً ، ولا كنزاً عثروا عليه كان خافياً . إنما ألقيناها العكس ، والعكس الحقيقى بل التناقض فى أوضح صورته ، وأدناها لمن أراد فهماً وعقلاً ولو قليلاً ، فالإنسانية فى أدق مدلولاتها لا وجود لها عندهم وإنما الكمل آلة - قالوا - لنمحو الطبقات ، ونظامهم ثبتها ، وقالوا : لا مال لأحد ، وجعلوا ما يطلب بالمال فى القمة المسيطرة ، وصاحو اليساس الناس بغير سلاح ، وإعملوه فى رقاب الأحرار ، وإن صاح صائحهم ألباً قضوا عليه كمدأ ، وإن عافت الأرض الدم أجبروها على قبوله ، فحفروها على رغمها ، ومهما صرخت تحت معاولهم فلا يسمع لها .

والآن لنستغفر لذنوبنا ولذنوب أجدادنا ، ولنعد إلى بارتنا ولنيسط كتابنا ولنصح ..

هاؤم اقرؤوا كتابيه ، تريدون نظاماً .. هو رب النظام وعدو الفوضى ، تطلبون قوة

(١) هم المسلمون جميعاً .

(٢) ولدت فى دولة أوروبية ونمت فى أخرى وتزايد نسلها وكثر دعائها حتى كان يعم العالم القديم جميعاً !!

فى إتحداد .. هو أول دأع إلبها ، ترفعون عن الفقفر أصر فقره .. ما الحب الطررق التى رسمها لوصول كل ذى حق إلبى حقه .. تنادون بنظافة اليد وطهارة القلب .. ما أشد حرصه على تنفيذ ما به تنادون .. تعالجون المرضى وتنشئون المشافى . تشيدون المدارس وتهدمون الجهل .. تعمرون .. تبنون .. هى دعوته إلبى التعمفر والبنااء .. تتعاطفون وتترأحمون هذا نهجه وذلكم مسلكه .

والآن لنستغفر لذنوننا وذنوب أجدادنا .. وستعفن بالله العلى القدفر ، لنعمل بعد أن طال وكثر قولنا ولننظم شملنا ، ونسهر على تنفيذ ما نررد كما سهر عدونا ، ونصبر ونصابر وإن طال المدى ، فالموقف لا يحتمل التسوف ، وكفى النائمن نوماً ، وكفى المخالففن مخالفات ، ولنمض معاً ولا ننظر إلبى مثبط أو معوق عن الوصول ، إلبى حقنا إلبى كرامتنا ، إلبى تحقيق إنسانيتنا كأناس لهم ما لغيرهم من البشر من العفش الحر فى أرضهم ، فى وطنهم ، فوق ترابه وتحت سمائه ، فقد امتلأ الكأس حتى فاض ، وأصبحنا لا نستطفر أن نرفع الطرف أمام التوارفخ ، الذى لا ندرى ماذا سىكتب عنا غداً ، فى هذه الفترة من الزمن ، سىصفنا بالجبين والندالة وىسمنا بالتقصفر والخور ، إن نحن تواتنا ولم نمض سراعاً إلبى هدفنا إلبى تحرفر وطننا من أرجاس المعتدى الأثفم ، وإعادة مشرذبنا إلبى ديارهم التى بنوا ، وأرضهم التى أوفوا مواتها وطعموا ثمارها ، وتكونت لحوهم وعظامهم من غلاتها .

أهفب بكل قادر على التفكفر أن يفكر جدباً ، وىكل قادر على العمل أن يعمل فوراً دون توان ، وأؤمل أن ىصفر سمعاً أولئك المثبطون فىكفوا شرهم عنا ، ولنتبصر كلنا صفأ واحداً وقلباً واحداً إلبى انجهد فى أشرف مفدان وأعز مكان على الله وعلى الناس فنخلصه من العدو الحقود .

والآن : نستغفر لذنوننا ولأجدادنا .. ونغسل عارنا بدمائنا ، فىلكتب الكاتبون ولىبذل الواجدون ، ولسر إلبى مفدان الشرف القادرون حتى نكون جدفرفن بوراة خفر الأنبفاء وأكرم الآباء .. أوفتنا ألبس من آباتنا القائل : لنا الصدر دون العالمفن أو القبر ، حولهم إلبى عمل كما فعل ونفذ ، ألبس منهم المنادى : أهد شاهت الوجوه ، وانتصر الحق وانتصر فعلاً ، ألبس شبابنا ؟ .. ألبس كهولنا .. ألبس تراؤنا .. ألبس سلاحنا ؟

هيا نمضى على بركة الله حتى لا نلقى الإهانة فى كل مكان ، والاحتقار مع مضى الزمان ، والعدو الكاشح جاد ومثابر ، وقد ملك ناصية الأمر فى أماكن كثيرة من العالم المعاصر ، واستأسد حين استنوق الجمل ، وتجمع مع تفرق قوانا ، وهو فى كل أحواله ثعبان ماكر وحية رقطاع .

(٥) أصغيت إلى (ديار) قال : مر بي منذ بضعة أيام أستاذ فى جامعة باريس ودعانى لمرافقته إلى دولة غير الدولة التى أفضى فيها حاضرى ، فلنمض بعيداً عن صخب الجماهير الثائرة -هنا- فى عنف وتنظيم ، مطالبة بحقوق ومدافعة عن مطالب ، ثورة شلت كل مرفق عام فى المدن والريف ، ولا يعلم إلا الله متى تنتهى<sup>(١)</sup> . وبدأ المسئولون يعالجون فى رفق وحزم ولكن الداء عيأ ، رغم ما يلوح فى الجو من أن الطبيب نطاسى ماهر ، لبيت لأرى معالم الحياة فى دولة مجاورة قد أجد فيها جديداً ، وفى هذه القارة<sup>(٢)</sup> كل يوم جديد من الأفكار ، وجديد من العمل والإنتاج ، وصحبته حتى إذا وصلنا إلى الحدود واجتزناها فى رفق ويسر كما يجتاز أى عابر (بوابة الجهراء إلى الشويخ)<sup>(٣)</sup> وهذا حدث يثير انتباه الشرقى لما يرى بين بلاد شقيقة من تعقيد الإجراءات فى مثل هذه الحالات ، وأدرك الأستاذ ما يدور فى راس مرافقه ، فقال : لا تعجب لهذا الوضع فى بلادنا ، فلكل دولة فى هذه القارة حدود ، ولكن بمقدار ما يعرف المزارع فى الريف أن لأرضه حدوداً لا يصح لغيره أن يفلحها إلا بأذنه ، أما أن يزوره أو يتحدث معه عبر الحدود فذلك لا يستدعى كبير اهتمام ؟ .. ووصلنا المسير إلى أطراف مدينة .. لم يطلعنى على معاهد العلم فيها ، ولا دور اللهو أو المعالم القديمة ، وإنما دلف بى إلى مبنى فسيح لا أعدو الحقيقة إذا قلت أنه مدينة مستقلة ، شيدت فى طرفها النائى غرفة فسيحة مؤثثة على نسق قديم ، وذوق جميل ، وفى الصدر منها جلس شيخ مهيب تحيط به آلات اتصال تربط مصانعة بالعالمين القديم والجديد ، رحب بنا الشيخ وهش للقائنا ، ورغم أنه تجاوز الثمانين فسمعه لا

(١) يشير إلى ثورة طلاب جامعات فرنسا سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ الدراسية .

(٢) قارة أوروبا .

(٣) هى ضاحية من ضواحي الكويت .

يزال سمعه لم يحوجه إلى ترجمان ، وعيناه الحادثان عيناه يوم كان شارخًا ، وكل مظهر يدل على حيوية وقوة ، إلا أن لون شعره قد حال إلى ضد ما كان عليه فى صباحه وقع فى هدوء وتنسيق فوق جبهة عريضة كأنه حارس يقظ يرد العادى ويدافع المهاجم ، وقدمنى الأستاذ إليه على أنى صديق موال من الهند<sup>(١)</sup> ومظهر (ديار) يؤسد الوصف وإن كان عربياً ، وجرى الحديث بينهما يعالج الأحداث الحاضرة ، أنا أنصت وأشارك قليلاً ولكن بمقدار ما يوجد للقول مجال ، وإذا الشيخ يتنفس الصعداء ويدور فى كرسيه (اللولى) فى فتوة ابن العشرين ربيعاً كأنه يزيح عن صدره آلام سنين وسنين ، ويتنصب واقفاً كأنما نشط من عقال ثم يعود إلى مجلسه فى هدوء متكلف ، ويواصل الحديث : ألا تدرى يا ..... إنى استرحمت وقرت عيناي ولو قضيت الآن ما أسفت لشيء ، فها أنذا أرى التابوت<sup>(٢)</sup> يعود إلى موضعه وبهذا تحقق ما رجوته وما كان يثيره أبى وما توأصى به أجدادنا كابرأ عن كابرأ ، وهاهم أولاء حراسه المودعون به يحرسونه فى قوة وأيد ، ولقد وضعت كل ذرة فى مصانعى هذه ، ومثلها فى دول أخرى تحت أمر الرجل الذى شرف أصلاً ينتمى إليها حين فتح مدينة ، وحقق أحلاماً وغلب أمة تمثلها عدة دول ، كل دولة منها تفوقه عديداً ، وهاهو ذا قد مارس حقاً مشروعاً فى توراتنا<sup>(٣)</sup> ويقول (ديار) هنا : شعرت بنار تنور فى مفاصلى غلا منها دمي ، وهممت بالرجل لولا بقية من تفكير حارس ، وأدرك ذلك صاحبي ، فضغط على قدمي ، واتجه إلى الشيخ يطلب مسكناً لداء يشور بالهندي كلما سار طويلاً<sup>(٤)</sup> ، وشكرت معتذراً فما دوائى إلا شربة من دمه وتعجل صاحبي مستأذناً ، ولما ابتعدنا صاح بي : هكذا رأى العين صورة من الواقع العملى الذى يعيشه المطالبون - إن صدقوا ، وما هم بصادقين ، بحق متوهم قد مرت به آلاف السنين ، ولو رام كل شعب ما يرمون ما استقرت بأمة أرض ، فأكاد أجزم أنك لا تجد أمة نبت أجدادها إلا بعدون فى الوطن الذى تشغله الآن ، بل إن ملوكاً فى قارتنا هذه لا يمت نسبهم إلى الشعوب

(١) هكذا بالنص ولا تزيد .

(٢) إقرأوا سورة البقرة .

(٣) هكذا تعبير (التوراة) .

(٤) هكذا حلا للأستاذ أن يقول .

التي يحكمونها بصلة دم أبداً وفي العالم الجديد أشباه وأشباه .. وهنا - كما يقول (ديبار) - مرت أمامي قوافل تاريخنا محملة بالمآسى ومتى ؟ فى المواقع الفاصلة دائماً ، ولم أستطع لهذا تعليل منطقي معقول .. ورن فى أذنى صوت الأستاذ : لن يعج بها الدنيا المعاصرة ، وكل يزين (طبقه) ليقدمه لآكله شهياً فى مظهره ، وقد يكمن السم فى خطورتها إلى مدرجات الجامعات واعتنقها أساتذة وطلاب ، ولا أدرى لدائكم علاجاً أفضل من الالتفاف حول كتاب العرب الفريد فى صفائه الأول دون شرح أو تعقيداً<sup>(١)</sup> ، وقلت : أتعنى القرآن ؟ فأجاب : وهل فى الدنيا أكمل منه ، فإن سمعتم وعملتكم وإلا كانت النتائج التى ترون ، وما ترون هو البداية لنهاية لا يعلمها إلا صاحب الغيب ، وقال (ديبار) وعدت إلى نفسى فلم أجد إلا الاستغفار لذنوبنا ولأجدادنا وتقصيرنا معاً ، والعزم على مواصلة الكفاح فى الحقل الذى يرد كرامتنا ، ويضم صفوفنا ، ويجمع قلوبنا ، ومواطنو هذه المنطقة من العرب مدعوون لتغيير عام ، ومعهم مسلمو الدنيا فى كل بقعة من بقاع المعمورة لإتقاذ المسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ ومعراجه ، ومهد المسيح إثباتاً لوجودهم وتحقيقاً لرجولتهم وإنسانيتهم ، والله المستعان .

(١) ... حماس السيد (ديبار) يقرب إلى القارئ صورة (البالون) الواهى الجدران الذى ينتفخ بقليل من الهواء ثم ينفجر عند أقل صدمة ، ويذكر بأصوات طالما صرخت ثم ذهبت أدراج الرياح ، والطبل الأجوف هو أكثر قوة من غليان دم (ديبار) والمرحلة الآتية تحتاج إلى عمل ومثابرة ، وإتقان للعمل وإحكام للمثابرة ، ومثل هذا الموقف بدفع أمثال الشيخ - مالياً وسناً وقوة- إلى محاكاته على أضع الإيمان حتى نمضى ونتنج ونصل وحتى لا يصدق علينا (أسمع جمعجة ولا أرى حنأ) وأكرر : هذه مواقف عملية يا (ديبار) فاستغفروا ربكم ثم أمضوا حيث تؤمرون ...

## أشرطة الساعة

عن أنس رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال :

« أن أشرطة الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

(رواه البخارى ومسلم)

نحن المسلمين آمننا بالله وصدقنا رسله وقر في قلوبنا أن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من فى القبور ، ولكن الناس أهمتهم دنياهم فحكفوا عليها يحاولون الوصول إلى أسرار ما فى كونها ، وغفلوا عن الآخرة مع أنها أكثر أهمية بالنسبة لهم ، لأن ما هم فيه محكوم عليه بالفناء إن عاجلاً أو آجلاً طال الزمان أو قصر ، والكل راحلون إلى حيث يشاء الله عظم أمر الراحل أو هان ، وانحصر حيث القوم فى المحسات حتى استغرق القول والعمل ، وإذا حانت من عاقلهم التفاهة إلى ما هو آت سرعان ما يلوى عنقه إلى بهرج يجذبه وزخارف تلهب حواسه ، فلا بد من تذكير ، والذكرى تنفع المؤمنين ، بيوم تحدث عنه القرآن الكريم ، وجلا أمره سيد المرسلين ، وورد ذكره فى كتب السماء جميعاً ، يوم ينفخ الصور فتسوى الأرض ، وتندك الجبال ، وتطوى السماء كطى السجل للكتاب ، وتنسف الراسيات ، وتترك البسيطة قائماً صفتاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، ولكن متى يكون ذلك ومتى يصدر الأمر الألهى بالتنفيذ ؟ تساؤل ليس غريباً على البشرية ، وليس حديثاً فيناً ، فما أكثر ما ورد بالذكر الحكيم ، وما أكثر ما أجاب عنه رب العالمين .

قال تعالى فى سورة الأعراف الآية (١٨٧) : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» . وفى سورة الأحزاب الآية (٦٣) يقول الله تعالى : «يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ، وفي سورة النازعات الآيات ( ٤٢ ) ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ) يقول العلي الكبير سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا <sup>(٤٢)</sup> فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا <sup>(٤٣)</sup> إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا <sup>(٤٤)</sup> إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا <sup>(٤٥)</sup> كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا غَشِيَةً أَوْ ضَحَاهَا .

وقد ورد في حديث جبريل عليه السلام وقد جلس إلى رسول الله ﷺ يعلم الناس أمور دينهم ، ما نصه : « .. ثم قال - أي جبريل - يا محمد متى الساعة ؟ وجاء الجواب : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .. وهكذا لا نجد جواباً يحدد اليوم والوقت المعين لنهاية العالم فأمر ذلك مما استأثر الله بعمله وحجبه لأمر يعلمه سبحانه عن عباده ، واختص تبارك اسمه بتوقيته ، والحكمة في ذلك مكنونة في غيبه قال عز وجل في سورة السجدة ( فصلت ) الآية ٤٧ : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أذْكَأ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ، وفي سورة لقمان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

وهنا قرن الله علم الساعة التي تحدد نهاية هذا الكون بأمر تحدث فيه تبعاً أي تتوالى أمام أنظارنا ولا نعلم من أمرها قبل حصولها شيئاً لنؤمن بأن الساعة أيضاً ستحدث وتتحقق ولكن متى ؟ .. وقد ترك الله تبارك وتعالى الشواهد في الحوادث المغيبة تشير إلى قرب الحصول أو بعده ولكن لا تحدد شيئاً ، ولا يمكن للمخلوق العاجز أمامها أن يحدد شيئاً مهما أوتى من العلم فما أوتى منه إلا قليلاً .. تتجمع السحب وتقول حان وقت المطر وقد ينفش السحاب وتتبدد الغيوم ولا يتساقط المطر ، وتحمل الأنثى ونسب أكف الضراعة تقول : لعله من نوع يحبه الآباء وترجوه الأمهات ، ويقول صاحب الغيب صبراً فعمما قليل يزول الحجاب ويزحف الجنين إلى الفضاء بعيداً عن كنهه وستعلمون ، لكن الآن ، لا . ويقدر البشر أنه سيفعل وسيفعل ليحصل على طعام الغد ، وقرينة الساعة القادمة ، ولكنها تفلت أقرب ما تكون إليه ، أما كيف أفلتت فلا أدري ﴿ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ . قال الجاحظ : ( رب مقبل والخير ورائه . رب مدبر والخير أمامه ) . فمر الغد تلوح

ملاحمه ولكنها لا تصدق دائماً ، ويتطور المخلوق سائراً فى دروب الحياة يقطع  
 فيا فيها ويسلك مفاوزها وتعتوره سنة الله وتلاحقه آثار الأيام فيه ، فيعوج كهلاً  
 وشيخاً ويرد إلى أرذل العمر مقيماً فى بقعة ما من الكون ، وتراه وقد تقوس ظهره ،  
 وأخذت منه السنون كل مأخذ يبتغى مسكناً فى غير مسقط رأسه ، ويريم أهلاً فى غير  
 واديه ، وتلاحقه منيته فى مكان لم يكن طرقه من قبل ولا جاس خلاله فيما مضى له من  
 عمر على المعمورة .

وهكذا أمر الساعة مجرى حديثنا وموضع استقصائنا ومراد بحثنا لا نجد فيها أى  
 فى ميعادها نصاً حاسماً ، ومع هذا فلها علامات ودلائل تحدث عنها الصادق  
 وأوضحها بما لا يقبل الجدل بعد أن تحقق كثير مما قال ، ولمسنا بحواسنا صدق ما  
 أخبر عنه ، وعشنا فى جيل تجلت فيه بعض الأمور التى أشار إليها سيد الخلق الذى  
 لا ينطق عن الهوى فما هى تلك العلامات ؟ هذا ما تجيب عليه أحاديث رسول الله ﷺ  
 التى رواها البخارى ومسلم واتفق على بعضها جميع رواة السنة الذين حققوها متناً  
 وسنداً ووضوحاً ونفوا عنها ما يوهنها فما لقى علم من العلوم الإسلامية عناية  
 واهتماماً كما لقى حديث رسول الله ﷺ ، فقد دققه وحققه وحفظه علماء أجلاء عبر  
 أجيال متطاولة منهم من قضى نحبه غفر الله لهم ، ومنهم - وهم قلة الآن فى أطراف  
 الأرض أطال الله بقاءهم - من ينتظر وسيجيء يوم لا يوجد منهم أحد كما حدث  
 الصادق المصدوق ، ومما يعزى انه ستبقى آثارهم خالدة فى كتبهم ، وأخشى ما  
 أخشاه أن تصير متاحف وآثار ينظر إليها ولا يدري ما فيها ، ويكون ذلك من علامات  
 الساعة كما يشير إليه ما ورد فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :  
 قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض  
 العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا  
 بغير علم فضلوا وأضلوا » .

وقد قسم العلماء العارفون علامات الساعة إلى قسمين : علامات صغرى وهى  
 للإرهاص لدنو أجل الدنيا واقتراب فنائها . وعلامات كبرى وهذه ستحدث بين يدي  
 الساعة مباشرة ، وقد وردت أحاديث صحيحة تبين العلامات الصغرى منها ما رواه

البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « أن من أشرط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » ، وقال ﷺ : « يتقارب الزمان ويقبض العلم وتظهر الفتن ويلقى الشح ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل » .. والمراد بتقارب الزمان نزع البركة منه ومن كل شىء وإن اليوم يصير الإنتفاع به بقدر الإنتفاع بساعة واحدة ، وقد ورد فى حديث الترمذى مما رواه مرفوعاً عن أنس رضى الله عنه ما يدل على أن تقارب الزمان قبيل الساعة أمر حسى ، ونص الحديث : « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كالיום واليوم كالساعة وتكون الساعة كاختراق السعفة » ، وتبعاً لذلك ينقص العمل ، ويرجع العلماء كل هذا إلى سوء المطعم ، فالناس لا يتحرزون فى أقواتهم بل يتناولونها من الحلال ومن الحرام ، ومما فيه شبهة ولا يبالي أحدهم من أى سبيل حصل إليها ، والواقع أن البركة فى الزمان وفى الرزق وفى النبت إنما تكون عن طريق قوة الإيمان وإتباع الأوامر وإجتنباب النواهى ، وبشهد لذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، وأما المراد بالعلم الذى سيقبض فهو علم الشريعة الإسلامية حلالها وحرامها ، حدودها وقواعدها ، وقد بدأ هذا فعلاً فإننا نلاحظ فى مختلف بلاد المسلمين تناقص عدد العلماء الفاقهين للإسلام حق الفقه الذين أفنوا زهرة شبابهم فى البحث والتحصيل ، والذين يستطيعون أن يوجدوا فى الانقراض بشكل يستلفت النظر ، والأدهى من ذلك والأمر أن المسلمين اتجهوا إلى العلوم المادية البحتة والنظرية البعيدة عن الشريعة ولم يفردوا لعلوم الشريعة مكاناً خاصاً ولم يفسحوا لها مجالاً تتركز به فى أذهان الناشئة ، اللهم إلا أضواء خافتة تتراءى هنا وهناك ، وهذا بدء تحقق كلام الرسول ، وسيجيء اليوم الذى يسأل فيه المسلم عن أبسط أمور دينه فيجيب خبط عشواء بعيداً عن المراد لله ولرسوله ، ونسأل الله ألا ندرك تلك الأيام السود ، وقانا الله وإياكم شرها وشر ما

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

يدهم العالم فيها من فتن ومحن وإحزن والمراد بالهرج : القتل كما فسر رسول الله ﷺ ، وإن كانت للهرج معان أخرى تربو على التسعة منها : شدة القتل ، وكثرة القتل ، والاختلاط ، والفتنة فى آخر الزمان ، وكثرة النكاح ، وكثرة الكذب ، وكثرة النوم ، وما يرى فى النوم غير منبسط ، وعدم الإتقان للشئ .

ومن الأحاديث الشريفة ما يدل على أن الساعة تأتى بغتة ومفاجئة للعالم على غير إنتظار ، كما ورد ذلك بالكتاب العزيز ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾<sup>(١)</sup> وروى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل ، وحتى يكسر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا إرب لى فيه ، وحتى يتناول الناس فى البنيان وحتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول : يا ليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها<sup>(٢)</sup> فإذا طلعت ورآها الناس أمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبيهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه (أى يصلحه بالطين) ، فلا يسقى فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » . ودلت بعض الأحاديث على أن حرباً شعواء سيستعر أوراها بين المسلمين واليهود وسيكون النصر فيها حليف المسلمين ، فقد روى مسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى خلف الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه شجر اليهود » . ومن الأحاديث ما يدل على انتشار المخترعات التى

(١) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٢) وهذه ستكون من العلامات الكبرى بل هى آخرها ظهوراً .

تنطق بكل شيء حتى يخيل للإنسان أن كل شيء يحيط به يتحدث إليه فقد روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الأنس وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذها بما أحدث أهله من بعده » . ومن الأحاديث ما يشير إلى أن الدنيا تنتهى على شرار الناس بعد أن يقبض الله خيارهم . فقد روى مسلم أن النبى ﷺ قال : « سيعت الله ربحاً من اليمين أئين من التحرير فلا تدع أحداً فى قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته » . وروى الشيخان ومسلم : « لا تقوم الساعة إلا على أشرار الناس » . وروى مسلم والترمذى عن أنس رضى الله عنه عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض . الله ، الله » ، ويدل بعض الأحاديث على أن الدين سيتقلص من أطراف الأرض وسيستقر بالحجاز . روى الترمذى قول رسول الله ﷺ : « إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحبة إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأوربة<sup>(١)</sup> من الجبل . إن الدين بدأ غربياً ورجع غربياً فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسده الناس من بعدى من سنتى » . ومن الأحاديث ما يدل على عظم أجر المتمسكين بدينهم فى هذه الأوقات التى أشير إليها آنفاً .

هذا غيض من فيض وقليل من كثير مما ورد عن سيد الخلق فى أحوال آخر الزمان وقد أدركنا بعضه ونعوذ بالله أن ندرك ما بقى منه .

وأما العلامات المباشرة لقيام الساعة فنوردها فى إيجاز كما وردت عن المحققين من علماء الملة وهى على الترتيب :

- (١) ظهور المسيح الدجال .
- (٢) نزول سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وقتله للدجال .
- (٣) ظهور يأجوج ومأجوج وفى التنزيل الكريم من سورة الأنبياء الآية (٩٦) :  
ظهور يأجوج ومأجوج وفى التنزيل الكريم من سورة الأنبياء الآية (٩٦) : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

(١) الأوربة هى الأنتى من المعز الجبلى .

(٤) ظهور الدابة ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (الآية ٨٢ من سورة النمل) أما أوصافهم وتفاصيل الحديث عنها فعلم ذلك عند علام الغيوب .

(٥) طلوع الشمس من مغربها ، وقال بعض العلماء أنها المرادة بقول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الآية ١٥٨ من سورة الأنعام) والله أعلم بمراده .

وهذه الأشراف تكلم العلماء فيها طويلاً ولكن نرى الوقوف عندها كما وردت ، فهي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، ونسأله سبحانه السلامة من شرورها الدنيا وأن يهيئ للمسلمين من أمرهم راشداً .

## الخاتمة

أحمد الله على آلائه ، وأصلى وأسلم على خير أبنائه ، إذ بفضلته  
جلت قدرته ، ويعونه تسامت عظمته ، استطعت إكمال الجزء الأول من  
هذا البحث المتعلق بسنة سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ ، وقد اشتمل  
على ستة وأربعين موضوعاً سداها ولحمتها الكتاب والسنة ، تعالج  
قضايا اجتماعية ، وتصف الدواء الناجع لأمراض إن احتشت نما الخير ،  
وانزوى الضير ، وسعد البشر ، وسادت المحبة ، ونشأت الأخوة الصادقة  
فى الله ، وتعاون الجميع على البر والتقوى ، والأمل فى الله سبحانه  
عظيم ، أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، مبتغى به ما عنده ،  
مرجوا بنموه ورضوانه ، وأن يدخره فى صالحات كل من اطلع عليه وبلغه  
لمن وراءه قرب مبلغ أوعى من سامع إن ربي سميع مجيب .

## المراجع

### (أ) القرآن الكريم وتفسيره :

- (١) تفسير الطبري
- (٢) تفسير البحر المحيط
- (٣) تفسير الزمخشري
- (٤) تفسير الألوسي
- (٥) تفسير القرطبي
- (٦) تفسير المراغي

### (ب) كتب السنة الشريفة :

- (١) فتح الباري
- (٢) إرشاد الساري للقسطلاني
- (٣) مسلم بشرح النووي
- (٤) موطأ الإمام مالك
- (٥) مسند الإمام أحمد
- (٦) سند ابن ماجه
- (٧) سند أبي داود
- (٨) سند الترمذي
- (٩) الطبراني الأوسط والكبير
- (١٠) العيني

(ج) علوم السنة :

- (١) الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث لابن كثير
- (٢) هدى السارى مقدمة فتح البارى
- (٣) قواعد فى علوم البحث - ظفر الله أحمد العثمانى التهانوى
- (٤) السنة قبل الديون محمد عجاج الخطيب

(د) علوم اللغة :

- (١) لسان العرب لابن منظور المصرى
- (٢) القاموس المحيط وشرحه
- (٣) مختار الصحاح
- (٤) المصباح المنير
- (٥) كتاب سيويه
- (٦) شروح الفقه ابن مالك الأندلسى

## فهرس الموضوعات (الجزء الأول)

الصفحة	الموضوع
٥	١- مقدمة .....
٩	٢- السنة والبدعة .....
٩	الفصل الأول .....
١٦	الفصل الثاني .....
٢٢	٣- بدء الوحي .....
٢٤	الفصل الأول .....
٢٧	الفصل الثاني .....
٣٠	٤- محمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين .....
٣٠	الفصل الأول .....
٣٨	الفصل الثاني .....
٤٦	الفصل الثالث .....
٥٤	الفصل الرابع .....
٦٠	٥- الرحلتان القدسيتان .....
٦٦	٦- إمام الأنبياء .....
٧٢	٧- هدى رسول الله ﷺ في تبليغ الدعوة والدفاع عنها .....
٨٠	٨- رسالة رسل الله رحمة وحجة .....
٨٥	٩- صمام أمن الحياة وسبيل النجاة في الآخرة .....
٨٥	الفصل الأول .....
٩٠	الفصل الثاني .....
٩٤	١٠- نداء الإسلام .....
١٠٠	١١- الملائكة تشهد الصلاة .....
١٠٧	١٢- الإفتداء برسول الله ﷺ .....
١١٢	١٣- من توجيهات الرسول ﷺ .....

الصفحة	الموضوع
١٢١	١٤- تنفيس الكرب وجزاؤه .....
١٣٠	١٥- الظلم العظيم .....
١٣٧	١٦- الدعوة إلى الإيمان .....
١٤٢	١٧- من وصايا النبوة .....
١٥١	١٨- الفقه في الدين المصدر الوحيد لمن أراد للدنيا سلاماً .....
١٥٨	١٩- الحياة المثالية الفاضلة تحققها أركان الإسلام .....
١٦٥	٢٠- حقوق وواجبات بين الأبناء والأبناء .....
١٧١	٢١- روابط المجتمع كما يرسمها الإسلام .....
١٧٧	٢٢- حسن الجوار .....
١٨٤	٢٣- الوثام .....
١٨٩	٢٤- المجتمع النظيف .....
١٩٦	٢٥- منهج الحياة المثالي .....
٢٠٢	٢٦- حوار .....
٢٠٧	٢٧- بالحب لله صلاح الدنيا والدين .....
٢١٢	٢٨- لوموا أنفسكم .....
٢١٧	٢٩- حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا .....
٢٢٥	٣٠- البر حسن الخلق .....
٢٣٢	٣١- بين القول والعمل .....
٢٣٦	٣٢- استقبال الوفود .....
٢٤٢	٣٣- الاختيار الإلهي .....
٢٤٩	٣٤- دع اليأس .....
٢٥٦	٣٥- مبدأ الإسلام في القضاء واللفاع .....
٢٦٢	٣٦- النصر مع الإيمان والصبر .....
٢٦٩	٣٧- أنواع الجهاد .....
٢٧٥	٣٨- قلب وكتب .....
٢٨٠	٣٩- المرأة والهرة .....

الصفحة	الموضوع
٢٨٥	٤٠- أين الطبيب .....
٢٩١	٤١- سؤال وجواب .....
٢٩٦	٤٢- خوارق- فهل من منكر!؟ .....
٣٠٢	٤٣- الصوم المثير .....
٣٠٧	٤٤- الحج إلى بيت الله الحرام .....
٣١٢	٤٥- العيد وذكرياته .....
٣١٧	٤٦- العلم والعلماء .....
٣٢٢	٤٧- الإسلام يحارب الدجل والخرافات ويرسم نظام الحجر الصحي والطب الوقائي .....
٣٣١	٤٨- الشيخ والمدينة .....
٣٣٨	٤٩- أشرطة الساعة .....
٣٤٥	٥٠- الخاتمة .....
٣٤٦	٥١- المراجع .....
٣٤٨	فهرس الموضوعات .....